د. فهد العرابي الحارثي

هؤلاء..

وأنا

ⓒ فهد العرابي الحارثي، 1433هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحارثي فهد العرابي
هؤلاء و أنا./ فهد العرابي الحارثي،- الرياض 1433هـ
(530) ص 24 x 17سم
ردمك: 978-603-00-9634-3
1- المقابلات العربية أ. العنوان
ديوي 081 1433/2996
رقم الإيداع: 1433/2996
ردمك: 978-603-00-9634-3

حقوق النشر محفوظة للمؤلف
alorabi111@gmail.com

الطبعة الأولى
مارس 2012م

تصميم وإخراج
مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام
ص.ب 88111 الرياض 11662 المملكة العربية السعودية
هاتف: 4624229 فاكس: 4610324
www.asbar.com

وبه نستعين

المحتويات

المقدمة 13

أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز:

ألهمك الله الصبر الذي يشاؤه 17

أحمد خالد البدلي:

البروفيسور.. والقناع! 23

أحمد عبدالمعطي حجازي:

حبوب السلفا 29

أربال:

ضعوا أقدامكم في حذاء واحدة 39

إميل أجار:

السوقية .. وصلف السرد 45

بابلو بيكاسو:

الرسم.. مخلوق كالمخلوقات! 53

بابلو نيرودا:
والحصان الأخضر 59

بادر ماينهوف:
لو ولد عربياً 75

بالوما بيكاسو:
تستحم في الدماء 85

بدر بن عبدالمحسن:
الجرأة الفاتنة.. ودمها الحار 93

تركي الدخيل:
باغتنا كلما شئت 109

ثابت بن سلطان:
ثابــت أولاً.. ثابــت أخيراً! 113

جون بول بولمندو:
الخوف يجتاح المدينة 121

جون بول سارتر:
من الغثيان إلى العمي 129

جون دو بوفيه:
التمرين الفلسفي العسير 139

جيسكار ديستان:
النساء.. يا سيدي الرئيس! 145

حمد الجاسر وحسن قزاز:
"ليكن هناك نور" 151

حمد الحجي:
من الذي قتل المجنون؟! 171

خالد الفيصل:
أمير الكلام! 179

خلف الحربي ومشعل السديري وآخرون:
الساخرون .. الحاسدون المحسودون 187

خوان كارلوس:
فيفا أسبانيا 195

الأميرة ديانا:
مهرجان العويل 203

رفيق الحريري:
تجربة البناء .. والموت 209

الماركيزساد:
اكتب اسمك .. حرية! 215

ساعد بن سعد:
التمرد .. على القطيع 227

سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز:
مواهب أمير 231

سلفادور دالي:
اللوحة السحرية 241

سلمان بن عبدالعزيز:
رجل دولة.. و"عمنا" الذي ظل معنا وحولنا 247

صدام حسين:
يوم أن بكى الجميع 257

عبدالعزيز التويجري:
عاشق البطل 273

عبدالعزيز بن باز:
إلى الجنة .. يا أبا عبدالله 279

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل:
ذاتَ وطنْ.. في ذلك البحر الرملي الهائج! 283

عبدالعزيز مشري:
مات واقفاً 303

عبدالفتاح ناظر:
انطفأ فجأة 307

عبدالله السعد:
التشبث بالحلم 311

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود:
هكذا قدم نفسه لشعبه وللعالم 315

عبدالمجيد الزهراني:
عفوية لا تقبل الاحتمالات 335

عبدالمجيد بن عبدالعزيز:
سمو حب الأمير 343

عبدالهادي السعدي:
بهجة الأسئلة 347

عبدالوهاب العيسى:
صديقي .. كما أحببته! وكما أحبه غيري! 355

عزيز ضياء:
"اللورد" الذي أحببناه! 375

فرانسواز ساغان:
عيون من الحرير 381

فهد بن عبدالعزيز آل سعود:
محور البناء.. والإعلام 391

فهد بن سلمان بن عبدالعزيز:
هكذا – يا سيدي – عرفت فهداً 399

فيصل بن فهد بن عبدالعزيز:
هيبة الحضور.. هيبة الحوار 403

كازانوفا
لا ينسى حذاءه إذا رحل 409

لوركا:
"ليس لنا إلا أن نتبعه" 415

مؤيد الجنابي:
ماكينة الموت.. الهائلة 419

مارسيل بانيول
الذي قرأ الناس وقرأوه 423

ماري إلينا.. وآخرون:
الثوب ليس ثوبكم 431

محمد ابن جبير:
يحترم "الاختلاف" ويدعم فرص "الحوار" 435

محمد الحمد الشبيلي:
دمنا المشتهى! 443

محمد الحميدي:
هكذا عرفناه! 451

محمد الفهد العيسى وإبراهيم العواجي:
الشاعر الجسر!.. والشاعر المستقر 457

محمد عبده يماني:
نسيت الافتتاحية.. ياريِّس 469

محمد عفيفي مطر وآخرون:
أيها المثقفون.. هل تريدون الجنَّة؟! 475

محمد عمر توفيق:
نظيف اليد 481

منصور الكيخيا:
فكرة الموت.. أم فكرة الحياة؟ 485

ناصر السلوم:
العاشق التعب! 489

نزار قباني:
"الجبل" الذي لن يصير "سهلا" 495

نوريجا..
لا.. ليس ابن عمي! 505

فهرست الأعلام 517

فهرست الأماكن 527

المقدمة

هذا ذنبي وحدي

أسماء كثيرة تعبر الذاكرة، بعضها يقيم فيها، وبعضها يغيب ثم يعود، وبعضها يمضي ثم لا يعود أبداً!.. وكلها تترك عند المرء شيئاً منها، قطعاً من عقلها، وبعضاً من وجدانها، ومن سلوكها وتصرفاتها.. تترك موقفاً، أو فكرة، أو مجرد لحظة لا نعرف كيف نصفها أحياناً.

وقد جاءت فكرة هذا الكتاب محاولة لإعادة "الاتصال" بتلك الأسماء! نكتبها مرة، وتكتبنا هي مرات. نجدد حوارنا معها، نحاول أن نستفزها؛ لأننا نريد أن تستفزنا هي بدورها.. لنفكر.. ولنكتب.. ولنكشف هواجسنا للناس!

شيء من النجوى، وشيء من الذكرى، وشيء من الإلهام، وفي كل الأحيان هي إحالات إلى أفكار، أو مشاعر، أو رؤى؛ نطمح إلى إيصالها للناس، فيها أشياء منا، وفيها أشياء من تلك الأسماء. ومما يزيد في صقل الأفكار تداولها، وأخذها وردها، وصهرها وعجنها، وإنتاجها وإعادة إنتاجها. والكاتب ذاته ببساطة وتلقائية، هو

مجموعـة تجـارب، ومجموعـة تجليـات، لا يـصنعها، أو يبنيهـا، أو يهدمها ويعيد بناءها وحده، بل هي دائماً نتاج طبيعي لما يصادف، ولما يكتشف، ولما يتعلم من الناس، سواء من الاتصال بهم شخصياً، أم عبر ما يتركون من أثر، أو عبر ما يقدمون من أعمال ومنجزات.

كتبت موضوعات هذا الكتاب في أوقات متفاوتة، لم أستغرق كل الأسماء التي تعبر الذاكرة، فالذاكرة مازالت محتشدة بأسماء أخرى، ربما يحين وقت فأكتبها وتكتبني. أكتبها لأنها تستفزني، وتكتبني لأنها تستدرجني لأن أبوح ببعض ما أحس أنه قابل للبوح، وبدونها ربما عجزت عن قول ما أريد قوله، أو ربما فكرت في طريقة أخرى للقول، ولكنها قد لا تكون الطريقة الأكثر نجاعة في التعبير والتفكير.

الأسماء التي تعبر ذاكرتي أنتجتني، والاتصال بها كان أحد مصادر الإلهام في تفكيري أو تصرفاتي، سلباً أو إيجاباً، أدرك ذلك أحياناً بصفاء تام، وأحياناً قد لا أدركه، ولكنني في كل الأحوال، أشعر بامتنان كبير بأن حياتي امتلأت بمن حولي، وبمن صادفت، وبمن التقيت، وبمن قرأت أو سمعت!

تعلمت من هؤلاء، ومن غيرهم، كيف أفكر، وكيف أشعر، وكيف أكتب وأتكلم، وكيف أحزن وأفرح، وكيف أحب، وكيف أتصور المستقبل.

نحن معرضون للتعلم ممن نتفق معهم في الأفكار وفي المزاج، كما نتعلم في الوقت ذاته من الذين نختلف معهم. وهنا في هذا الكتاب أناس أتفق معهم في أشياء، وأختلف في أشياء. وفيه أيضاً

أناس لا ألتقي معهم في أي شيء البتة.. لكني تعلمت من الجميع.

في الكتاب أناس دخلوا قلبي ولم يخرجوا منه، وفيهم آخرون لم أسمح لهم حتى بمجرد الوقوف أمام باب القلب. ودعوكم من الذاكرة، فالذاكرة مخزن عشوائي، مجنون، وغير منظم، الله وحده عليم بما يتكدس فيه. الذاكرة هي الحياة، هي حقل فسيح، فيه الورود، وفيه الأشواك، فيه الليل، وفيه النهار الساطع، وما علينا إلا أن نحتاط أثناء مشينا أو لعبنا، أو نومنا في ذلك الحقل!

قدمت لكم في هذا الكتاب وروداً وأشواكاً، وليالي ونهارات، ومازالت أعتقد بأنني قدمت لكم شيئاً مني! مني شخصياً!

سأكرر التجربة!.. ولكن لا أعرف متى!

الموضوعات التي ضمها الكتاب ليست سير "غيرية"، أو ذاتية، هي مجرد تناول أو معالجة لجانب لفتني، أو استدعاني، أو حرضني على التفكير، ومن ثم الكتابة، وأحياناً يكون نصيب الشخص الذي يرد اسمه فيما أكتب ضئيلاً، وإنما التركيز على ما لفتني أو حرضني.

لم أكتب موضوعات الكتاب بطريقة واحدة، بل كتبتها بعدة طرق، مرة تكون مقاربة، ومرة مناشدة أو مناجاة، ومرة خاطرة، ومرة ملاحظة، ولا أدري ماذا أسمي كل هذا؟ هي أنا كما أفكر، وكما أشعر، وكما أرى الأشياء!

احترت في فهرست الموضوعات!.. فأنا لم أعتد على شيء مما أفعل الآن!.. فقررت أن أرتب المحتويات حسب الحروف الأبجدية للأسماء!.. فالتقديم والتأخير لا يعني أي شيء أكثر من

الاحتكام إلى حروف الأسماء ذاتها بكل بساطة، ومن دون أي تحليل آخر.

فهذا الكتاب ليس تاريخ، وليس صالون، وليس بروتوكول، هو تعاطي مع أسماء مجردة، تسبح في الذاكرة بلا رتوش، وبلا سيوف أو أكاليل!

رحلة ممتعة!.. لمن أراد أن يصاحبنا!.. أما إن جاءت الرحلة على خلاف ذلك، فهذا ذنبي وحدي.

المؤلف

أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز:
ألهمك الله الصبر الذي يشاؤه

سيدي الأمير سلمان

في خلال عام واحد كتبت لك رسالة حب، كان موضوعها ابنك الغالي فهد، رحمه الله. ولم يدر بخلدي -يا سيدي- قط أنني سأتناول قلمي مرة أخرى، في أقل من السنة، لأكتب لك عن غال آخر، هو نجلكم أحمد. لا إله إلا الله.. له ما أعطى.. وله ما أخذ، وهذا هو قلبك العامر بالإيمان، يؤكد من جديد أنه قادر -إن شاء الله- على تحمُّل هذه الطامات الكبرى التي تهد الجبال.

نعم، نحن يا سيدي تربطنا بك وبأولادك وشائج لا يستطيع وصفها إلا من اختبرها وذاق طعمها، وهي وشائج لحمتها الاحترام الشديد، وسداها الحب الخالص. وما ذلك الاحترام، وما هذا الحب إلا ما خلقتموه أنتم فينا، وما أنشأتمونا أنتم عليه؛ لأنكم كنتم دائماً القريبين من الجميع، فهناك دائماً أحد من آل سلمان، إن لم يكن سلمان الكبير نفسه.

سيدي، إنني أصدقك القول عندما أُنوه هنا بأن الله -سبحانه-

قد أوفاك حقك – له الحمد والمنة – في واحدة من نعمه التي وصفها بأنها، زينة الحياة الدنيا، وهي البنون... فقد نشأ في ظلالك، وتحت جناحك، كوكبة من الأبناء البررة الذين أحببتهم أنت، وأحبهم الناس كلهم؛ لأن الله - سبحانه- وفقك لتحسن تربيتهم. فما جاؤوا في مكان -يا سيدي- إلا كانوا نجومه، ولا طرقوا ميداناً إلا كانوا فوارسه، ولا أوكلت إليهم مسؤولية إلا أدوها خير أداء، ولا أعطيت لهم أمانة إلا كانوا من أخلص الناس للوفاء لها، ولا وقعت عليهم عين إلا اغتبطت بهم، ولا مدت إليهم يد إلا عادت ندية مخضلة، ولا هفا إليهم فؤاد إلا أعشب وأورق بالخير والبركة والطمأنينة.

إن مصيبتك في أي واحد منهم – يا سيدي – هي مصيبتنا جميعاً.. وأنت إن كنت تفقد الابن، فإننا –ورب الكعبة– نفقد الأخ والصديق والحبيب. وإذا سقطت من عينك دمعة واحدة، فإن مآقينا تتقرح من الدموع والبكاء، وإذا كان قلبك قد اثخنته الجراح، فإن قلوبنا تتشظى من الحزن. فلا تظن أبداً أنك الحزين وحدك.. إننا معك – يا أبا فهد – لمحزونون... بل إن حزننا – نحن- هو الحزن المركب بعينه؛ لأننا نحزن لمن نفقدهم من أبنائك، ثم نحزن مرة أخرى؛ لأننا نشفق عليك من هذه الصواعق، ونشفق على قلبك.. هذا القلب الكليم الذي تتوالى عليه كل هذه الطعنات المثخنة، التي تريد – معاذ الله – أن تطفئ في داخله كل شمعة للفرح والسعادة. نحن نحب أبناءك؛ لأنهم إخوتنا وأصدقاؤنا، ونحن نحب قلبك... لأنه القلب الكبير الذي استوعبهم واستوعبنا، واستوعب كل من عرفك أو اقترب منك. نحن نحب أبناءك؛ لأنهم منا ونحن منهم، ونحن نحب قلبك؛ لأنه عامر دائماً بالخير، ولأنه مثقل دائماً بهموم

وطنـك ومواطنيـك، ولأنـه مـشغول أبـداً بالقـضايـا الكبيـرة لـدينك وأهلـك وأمتـك... هـل قلـت: أمتـك؟ إننـي أعنـــي: أمتـك كلهـا، مـن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

أمـا فقيـدك، فقيـدنا أحمـد*، فمـاذا سـأقول فيـه؟ لقـد قـال فيـه محبوه كل ما تمنيت أنني أنا قائله!... استعداداته الفطرية النابهة... إنجازاته المشهودة في كل الجولات التي خاضها في حياته القصيرة الحافلة بكل ما هو جميل! لقد كان من حسن حظي أن ربطتني به علاقة صداقة، وعلاقة عمل. فأما علاقة الصداقة، فقد كانت ثرية بكـل مـا هـو سَمْح.. وكـل مـا هـو ودود.. وكـل مـا هـو دليـل علـى التواضع والثقة والإيثار، وأحتـاج للكتابـة فـي هـذا الجانـب إلـى يـوم طويل لا تغرب شمسه أبداً. وأما علاقة العمل، فسأورد منها شاهداً واحـداً فقـط، آخـذه دائمـاً دليلاً سـاطعاً علـى أخـلاق "الفـارس" فـي تفكيـر أحمـد بـن سـلمان وسـلوكه، وسأختـصره علـى النحـو التـالي: عنـدما فكـر ابـن أخيـك، الأميـر خالـد الفيـصل فـي إصـدار صـحيفة "الوطن"، وشرفني بأن أوكـل إليّ الاضطلاع بهـذه المهمـة، استقبلنا الوسـط الـصحفي كلـه بـبعض الوجـل، وبعـض الريبـة، وبعـض الحـذر، واعتبرنا ذلك أمراً طبيعياً بحكم نواميس المنافسة وتـداعياتها، وهـذه أمور ستكون مع الأيام في طريقها إلى الحـل!. أمـا أحمـد بـن سـلمان – عنـدما سـمع بالنبـأ – هـاتف خالـد الفيـصل، ثـم هـاتفني بعـد ذلـك، وعـدً المـشروع مـشروعه هـو، ومـشروع الـشركة الـسعودية للأبحـاث التـي كـان يتربـع -رحمـه اللـه- فـوق هامتهـا، وقـال بـالحرف الواحـد:

* الأمير أحمد بن سلمان بن عبدالعزيز.

إمكانات الشركة كلها تحت تصرفكم، واعتبروني واحداً منكم، وإذا حققتم لي هذه الغاية، فجعلتموني واحداً منكم؛ فإن أول شيء سأقترحه، هو إعادة التفكير في اسم الصحيفة؛ لأنه متكرر في بلدان عربية أخرى، (وهذه كانت قصة أخرى مع أحمد سلمان لا يتسع المجال لذكرها الآن)، ثم بعث إلينا سموه الزميل الأستاذ محمد معروف الشيباني وبعض منسوبي الشركة ليشرحوا لنا بعض تجارب النشر، وبعض مشكلاته، ولكي يؤكدوا استعداد أحمد لمساعدتنا. وكلما قابلني المرحوم فيما بعد، كان يسأل عن المشروع، ويستفسر عن أدق تفاصيله، وعندما صدرت "الوطن"، كانت مطبوعات الشركة السعودية للأبحاث من خير من استقبلها من الرصيفات في الداخل والخارج إطراءً وإشادة، ثم عاد أحمد ليبعث الشيباني إلينا من جديد يلقي كلمة الصحافة العربية في حفل تدشين صدور العدد الأول.

أحمد بن سلمان يهمه بالدرجة الأولى، أن مشروع "الوطن" سيكون إنجازاً من إنجازات بلاده، وهو من الرجال الذين يسعدهم أن يزداد رصيد بلادهم من الإنجازات. وأحمد بن سلمان أيضاً كان يهمه في "الوطن"، أنها ستكون منبراً إعلامياً جديداً يضم إلى المنابر الطيبة -إن شاء الله- التي يعتليها صوت بلاده... وكان أحمد من الرجال الذين يغتبطون ويفخرون بإضافة مثل هذه الصروح التي تطل من فوقها بلادهم العظيمة. وأمام أخلاق الفارس في وجدان أحمد بن سلمان، ضاع وتلاشى كل ما شد غيره إلى الأرض من دعاوى "المنافسة" المفتعلة، تلك الدعاوى التي سمعناها من غيره... وربما تفهمناها، وإن كانت لم تقنعنا كل القناعة. لقد

علمنا أحمد بن سلمان بذلك الموقف الذي استمر إلى أن مات، علمنا كيف تكون الثقة بالنفس... وكيف تكون الثقة بالإنجاز. فأحمد يؤمن بأن القمة التي تتربع فوقها إمبراطوريته الإعلامية، تتسع لأكثر من واحد إلى جواره، ويسعده أن يقتعد رصفاؤه سدة المجد التي يقتعدها، ولهذا لم نقرأ - في أي يوم- في أية واحدة من مطبوعاته الواسعة الانتشار أي زهو، أو أي تشوف، أو أي انتقاص لوسيلة إعلامية أخرى. إنه ينافس بشرف، ويسعى إلى المركز الأول بنبل شديد، فلا يثير الغبار أو الأتربة في وجوه منافسيه، لكنه يسعى إلى مقدمة الصفوف، بل إنه قد يلتفت، وهو ينطلق كالإشعاع، ليأخذ معه من يمد إليه يده.

رحم الله أحمد، فلم تكن علاقته بالخيل وفعاليات الفروسية علاقة عبث أو علاقة صدفة.. إنه يحب أن يسبق الجميع؛ لأنه طموح، ولكنه لا يشمت ولا يتشفى بأي ممن يتقدم عليهم، بل إنه يصافحهم، ويعانقهم، ويتمنى لهم حظوظاً سعيدة في جولات أخرى، ويحدث هذا، ليس في سباقات خيوله فقط؛ بل في كل السباقات الأخرى التي يخوضها في خضم حياته الحافلة بالانتصارات.

لقد صنع لبلاده منابر شاهقة للكلمة النظيفة، والرأي العاقل المنصف، بل سخَّر تلك المنابر لقضايا العرب، ولكل ما يواجههم من تحديات، فكانت مطبوعات الشركة السعودية للأبحاث ميداناً تصول فيه الأقلام والعقول العربية وتجول من مختلف أقطار العرب، ولقد تعلم فيها الكثيرون من هؤلاء الأداء المهني، الأداء الراقي بكل المقاييس. ولا جرم أن نقول: إن كل من جرَّب الطريق التي جربها أحمد تراجع، ونقول: تراجع كيلا نقول: خسر، ويكفي أن "الشرق

الأوسط" وحدها، في عهده، تطبع في ثلاثة عشر مركزاً طباعياً في أنحاء العالم، ويكفي الشركة السعودية أنها تصدر اليوم ست عشرة مطبوعة – فيما أعرف –وكل ناشر يتمنى أن يكون هو ناشرها.

لقد حرص أحمد على الصوت السعودي، فأوصله إلى غاياته، وحرص على الصوت العربي أيضاً، فتفانى في أن يبلغه أهدافه!

لقد ذهب أحمد... ولكنه لم يتركنا يا أبا فهد... فهو معنا في كل كلمة نقولها، وفي كل حرف نكتبه، وفي كل خيال جميل يصادفنا أو نصادفه!.

أسبغ الله عليه رحمته، وألهمك وآلك الصبر الذي يشاؤه... فهو كريم.

أحمد خالد البدلي:

البروفيسور.. والقناع!

لم أزامله في الداخلي في المعهد العلمي السعودي، ولم أرافقه في القاهرة، أو بلاد فارس، أو بريطانيا العظمى.

البروفيسور أحمد خالد البدلي التقيته في الرياض، في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، دكتوراً مليئاً، كامل الأبهة. كنت يومها "معيداً" صغيراً في كلية التربية في الجامعة نفسها، وما لكبير أن يلتفت إلى صغير، فقد كان البدلي ينظر إلي من فوق كتفه، بل من فوق خشمه.

علاقتي بالأدب وبالثقافة، هي التي أفسحت لي في عينيه الضيقتين مكاناً لم يكن رحباً كما ينبغي، ولم يكن وثيراً كما يجب، لكنه في الأحوال كلها كان يتيح لي أن أراقب ما كان ملفتاً حقاً في شخصيته.

زملاؤه يتحدثون عن جوانب العلم في حياته، أما أنا فسأتحدث عن بعض "الفلسفة" في مواقفه وتصرفاته.

البدلي يضحك قليلا.. ويسخر دائماً.

كل الذين عرفوه أو احتكوا به يسمعون منه ما لم يسمعوه من غيره، يضحكون نعم، لكنهم قليلاً ما يعيشون أو يدركون المرارات السحيقة التي يريد أن يبلّغها إليهم هذا الفيلسوف المرّ.

يسخر من نفسه، ومن التاريخ، ومن السياسة، ومن الأنثروبولوجيا، ومن الأرض كلها، وممن على الأرض كلهم، وقليلاً ما نهتدي إلى حكمة البدلي، أو إلى العقل الكامن أو المستكين في سخرياته.

هو متواضع إلى درجة الثقة المتناهية في النفس! ومتعالٍ إلى درجة أنه لا يأبه لأحد عندما يريد أن يفرغ ما في صدره، أو "يفضفض" كما نقول في لغتنا اليومية.

ولأن الناس يعرفون ذلك عنه، فإنهم يقبلون منه ما لا يقبلونه أبداً من غيره.

ولأن الناس يدركون كم هو متواضع!.. وكم هو متعالٍ! في الوقت نفسه، فإنهم يمنحونه دون تردد، الحق في أن يخوض ويخوض في "عقدهم" الكبيرة والصغيرة التي لا يقبلون لأحد آخر غير هذا الفيلسوف أن يقاربها، أو يلامسها، أو يلوك لسانه بها!

كلهم يستمعون، وكلهم ينصتون، ولكن قليلاً قليلاً جداً ما يتعظون!.. أو يتعلمون... أو يدركون حكمة البدلي، أو يتعرفون على العقل المستتر في سخريته.

إن دوراً بارزاً – واحداً على الأقل – ظل البدلي يحاول أن يلعبه بين أصدقائه ومعارفه، ذلك الدور هو تحريضهم على أن يخلعوا عن وجوههم "الأقنعة"، ويحثهم على أن يعرضوا أجسادهم للشمس وأدمغتهم للهواء الطلق.

فيبدأ البدلي بنفسه، يرمي قناعه، أو أقنعته من أقرب النوافذ إليه، فيدهش، ثم يحس عميقاً – بعد قليل – بمرارة الفشل، إذ يلاحظ أن كلاً منا، من المحيطين به ما ينفك يتشبث حتى الفناء بقناعه أو هي أقنعته.

أوه يا سيدي الفيلسوف، إنك تنسى أننا أجبن وأهون من أن نجلس مع الناس، أو نتحدث إليهم، أو نصادقهم، أو نصاهرهم، أو نمشي في جنائزهم بلا أقنعة.

أوه.. يا سيدي الفيلسوف.. إنك تنسى أننا لا نستطيع أن ننظر إلى وجوهنا في المرآة ونحن نخلع عنها الأقنعة! وأننا لا نقوى أبداً على أن نخلو إلى أنفسنا، أو إلى زوجاتنا، أو إلى عشيقاتنا، ونحن نخلع عن وجوهنا كل الأقنعة!

إن الأقنعة هي التي تتحدث بالنيابة عنا، وهي التي تصاهر وتصادق وتحب بالنيابة عنا، هي الحاضرة دوماً، ونحن الغائبون أبداً.

ولكن البدلي لا ييأس، ولا ينفض يديه منا، فهو يواصل فلسفته، فيسخر من نفسه، ومنا، ومن الأرض، ومن جميع من هم فوق الأرض. إنني أعرفه حق المعرفة، ولولا خوفه من أن يزعجكم لخلع أمامكم الآن كل الأقنعة، ولقال لكم بلهجته المكية الصارخة التي لا تبقي ولا تذر: "يا الله، أنتوا كمان اخلعوا يا..... أختكم!" إنني لا أستبعد أبداً أن يفعلها.

هذه هي فلسفة البدلي، الخروج إلى الناس بلا أقنعة. وتنفس الهواء الطلق، أو غير الطلق بلا أقنعة. والحب إلى الذؤابات بلا أقنعة.

كثير من أقوال البدلي لا نستطيع أن نكتبها، ولا نستطيع أن نقولها من فوق منبر، ولا عبر مكبرات الصوت.

قد نقولها همساً!.. ونحن نتلفّت!

قد نقولها بالإشارة.. ونحن نتحسس أصابعنا ونتلمس شفاهنا!

ولكن لا بأس من أن أروي لكم هنا بعض الكثير مما أعرف.. طبعاً الذي سأرويه هنا سيكون من الوزن الخفيف جداً، الحليم جداً.. الرقيق جداً.. الحنيّن جداً الذي يحتمله المنبر، والذي لن تضيق به مكبرات الصوت.

ولن أعلق بشيء على ما سأرويه، لأنني أخاف أن أقول لكم كل ما أفهمه، فأنا شخصياً مثلكم، متشبث بقناعي، والله حسبي وحسبكم.

عُيِّن أحمد خالد البدلي عميداً لمعهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، التابع لجامعة الملك سعود، خلفاً للدكتور محمود إسماعيل الصيني. فجاء إلى زملائه في كلية الآداب في اليوم التالي يقول باللهجة المكية إياها: "يا عيال، أول ما لاحظته في المعهد أن الصيني ملأه بالطلاب الصينيين.. والله يا..... أختكم لأملّي لكم هوّه تكارنه!"*

ذهبت شلة الدكاترة الأولين: الحازمي، والأنصاري، والضبيب، والشعفي، والشاذلي، والشامخ، وطبعاً البدلي، لمقابلة معالي المرحوم الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ، وزير المعارف، ووزير التعليم

* البدلي يذكر دائماً أن أصله البعيد "تكروني" من أفريقيا.

العالي فيما بعد؛ يشكون له الأوضاع المالية لأساتذة الجامعة في ظل تدفق الأموال على الناس أجمعين. فما وجد الشيخ حسن -رحمه الله- إلا أن يقول لهم بأنهم هم "الثروة" الحقيقية للبلاد، ولا يجب أن يلقوا بالاً لوسخ الدنيا. وعندما غادروا مجلس الوزير، وباتوا في الشارع، سُئل البدلي عن رأيه في اللقاء. فقال: "الحقيقة أنني اقتنعت بأنني "ثروة"، ولكن الحمد لله أنهم ألغوا الدكة** اللي في مكة".

من شلة الدكاترة الأولين الأستاذ الدكتور أحمد الضبيب والدكتور البدلي، وهما زميلان حميمان، وكان للبدلي رأي واضح في الشعر النبطي الذي يتحمس له الضبيب، وتروج له الصحف وغير الصحف. فيقول دائماً: هذا شعر خاص بالبدو وبأهل نجد، "وأنتم لغتكم يا أحمد ما تنفهم (الضبيب من نجد). شوف أنا تعلمت اللغة الفارسية، وأقرأها، وأكتبها، وأتحدثها بطلاقة، وعملت دكتوراه في الأدب الفارسي، وذلك في خمس سنين، لكنني أسكن الرياض من خمس وعشرين سنة، وحتى الآن لا أستطيع أن أفهم لغتكم يا ..... أختكم!".

ثم يضيف: أنا أرى أن نتقدم أنت وأنا إلى الجامعة باقتراح نطالب فيه بإنشاء معهد على غرار معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ونسميه: معهد تعليم اللهجة البدوية لغير الناطقين بها. فهكذا يمكن يفتح الله على سكان المملكة الآخرين بفهم الشعر النبطي اللي امتحنتونا فيه الله يمتحنكم!

** الدكة: هي المكان الذي كان يباع فيه الرقيق.

وما دمنا في سيرة البدو، فالدكتور البدلي لم يسلم منه، حتى أصدق أصدقائه من البدو؛ وهو الدكتور منصور الحازمي. فمن تشنيعاته عليه التي لم يستطع الحازمي أن يتخلص منها إلى الأبد، أنهم لما ذهبوا إلى القاهرة طلاباً في الجامعة، اشترى الحازمي "روب دوشمبر"، ومن شدة إعجابه به كان يلبسه حتى في الجامعة.

ويقول البدلي عن الحازمي أيضاً: إن اسطوانة الغاز لما فرغت من الغاز في الشقة، وجاء البواب لأخذها، رفض الحازمي، وعندما أصرّ البواب شال الحازمي عليه السكين، وهو يقول له: تخسى لحيتك والله ما تاخذها!.. هذي حقتنا، كيف تاخذها!!

للتاريخ، الحازمي يزعم ويغلظ الإيمان بأن هذا لم يحدث.

العيار الثقيل من أقوال البدلي لا تحتمله المنابر، ولا مكبرات الصوت!.. يتداوله فقط أصدقاؤه، الذين فشل في أن يعلمهم شيئاً من حكمته!.. وأنا بلا فخر واحد من هؤلاء.

إن أصدقاءه مازالوا يتشبثون بأقنعتهم، وهو لم ييأس قط!

أحمد عبدالمعطي حجازي:

حبوب السلفا

كنا ثلاثة: الشاعر العربي المعروف أحمد عبدالمعطي حجازي، وصحفي تونسي، وأنا.

كنا نغتصب بجشع كالح، ثلاثة مقاعد غير وثيرة في مقهى غير هادئ أبداً، يشغل حوالي ثلاث مئة متر مربع في هذا الحي القديم المارق، الذي يسمونه بالحي اللاتيني بباريس.

كنا ثلاث علامات زاهدة في خضم تلك الرؤوس المكشوفة الحمراء المبثوثة في كل أرجاء المقهى: مصري يتشقق صوته المرتفع بيارق غبراء لافحة، وملطخة بنماء النيل، الذي ظلت جراحة تنزف، وتونسي كانت رائحة تونس الوادعة تنبعث بوحشية من بين شعر رأسه الكثيف المجعد الأسود، وأخيراً "بدوي" من الجزيرة كانت أهدابه مثقلة بالحداء والحنين، وبتراب الصحراء الأشهب. ولقد كان قلبه لا يتوقف أبداً عن تلاوة الأناشيد المطعونة في الهوى اليتيم، وفي المصير.

كنا نتحدث - كالعادة - عن الشعر، والسياسة، والحب، وكنا

كثيراً ما نختلف استتلاء حتمياً لاختلاف جبلاتنا وأمزجتنا وأهوائنا، وتبعاً لتفاوت مواردنا ومفاهيمنا في الحياة والثقافة.

ذلك اليوم -بالذات- تكلمنا كثيراً عن الشاعر، تكلمنا عن "مدينة بلا قلب" وعن، "لم يبق إلا الاعتراف"، تكلمنا عن اللغة التي يخاطب بها الشعراء الناس.

كنا نتفق على أن الشعب - أي شعب - يجد في قلب لغته لغات كثيرة، منها لغة الشعر، وهي لا تعني فقط الصور المجردة، بل منظومة من الألفاظ (قاموس الشاعر) التي لا تقاس قيمتها بمعانيها المباشرة، أو بسلاستها، أو بمرونتها، أو بطواعيتها لمقاييس الشعر، أو موسيقاه، بقدر ما تقاس بدرجة استطاعة اللفظة احتواء روح الشاعر وعقله وقلبه. فـ "أيضاً" مثلاً كانوا يقولون عنها أنها: "كلمة" غير شاعرة، لكنها بالعكس قد تكون -على الرغم منهم- شاعرة كأي كلمة أخرى، وذلك حينما تستطيع أن تحوي شيئاً من "ذات" الشاعر، أو أن تكمل مهمة كلمة أخرى، أو تعبير آخر.

و "ذات" الشاعر هذه هي بطبيعة الحال مجموعة مكوناته النفسية والفكرية، هي مجموعة اهتماماته الإنسانية بما فيها من إيحاءات الموروث، وليس إملاءاته، وبما فيها من مؤشرات وقيم الموروث، التطلع للمستقبل أي التصورات والاحتمالات القابلة للنهوض، ولهذا فإن لغة الشعر تختلف من شاعر لآخر بطبيعة تباين تلك المكونات.

فالاختلاف الواضح الذي كان يطرأ بشكل جذري على لغة شعراء "الفكرة" الإسلامية، كحسان، وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة- مثلاً- كان مرده الكتاب الجديد، أعني القرآن الكريم، ولكن

ليس لأن هذا القرآن جاء بلغة أخرى غير اللغة التي كان يتداولها العرب في حياتهم ومعاشهم، وليس لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم- كان يتكلم بلهجة غير اللهجة القرشية، وهي أثقف لهجات العرب؛ بل العكس هو الصحيح، فلا القرآن الكريم، ولا الرسول - صلى الله عليه وسلم- كانا يخاطبان الناس بلغة لا يعرفونها، أو لم يستعملها الشعراء في شعرهم، أو الخطباء في خطبهم، ولكن الذي حدث، هو أن المفردات ذاتها العربية أصبحت بعد توالي نزول القرآن، منفتحة على مفاهيم جديدة، وثقافة جديدة، وتحول جديد، فاتخذت بذلك مدلولات جديدة، أو أنها أضافت إلى مهمتها الأصلية في التعبير مهمات أخرى جديدة. كان ذلك بمثابة الامتثال للتحدي الفكري الجديد، أو الانقياد له، بعد أن صار الإسلام ثورة كبرى، على مستوى الاعتقاد، وعلى مستوى الفكر نفسه، وبعد أن صار شغلاً للناس، وشاغلاً حقيقياً للنخبة، فمثلاً "أسلم يسلم إسلاما"، كلمة عربية موجودة قبل الدعوة أو قبل الوحي، فلقد زادت مسؤوليات هذه "الكلمة" بعد الدعوة أو بعد الوحي، وقد أضافت إلى حمولتها الدلالية مفهوماً جذرياً جديداً.

لهذا فالتطور الملحوظ على لغة الشعر عند شعراء الدعوة، أو اختلافهم في ذلك عن أقرانهم من شعراء "المعارضة"، أولئك الذين كانوا يلاحونهم من مكة، ومن غير مكة؛ مرده أيضاً إلى أن شعراء المعارضة، لم يكونوا بعد قد بدؤوا في إدراك الثقافة الجديدة والقناعة بها.

شعراء النبوة الذين كانوا في صحبة الوحي، ينزل في أحيائهم، ويتلى ويتردد في مجالسهم؛ أخذ تحولهم الفكري طريقه الطبيعية،

فمن "استيعاب" الدعوة، إلى "القناعة" بها، ثم شرع مخزونهم الفكري والنفسي في التحول، لينسجم مع الثقافة الجديدة التي حطت في رحابهم، ولهذا جاءت لغتهم محملة بروح وبوعي جديدين.

ولأن شعراء المعارضة، في بداية الملاحاة، لم يكن عندهم الاستعداد النفسي لمحاولة فهم الدعوة أو استيعابها؛ كان لا يضرهم في شيء أن يصمهم كعب وابن رواحة بالكفر، والوثنية، والشرك، فهذه الألفاظ لم تكن تعني شيئاً ذا بال في ثقافتهم، وهي بالإضافة إلى غموضها الشديد، بالنسبة إليهم، فهي لم تنقل إلى فكرهم ووجدانهم الأثر المتوخى فيما لو كانوا من "المؤمنين"، أو من المدركين للأبعاد الحقيقية لما تتضمنه، أو لما تشي به من المعاني والتحديات. هذا بينما كانت تنزل قصائد حسان عليهم كالصواعق؛ لأن مادتها الأساسية تنتمي إلى الفضاء الثقافي والأنثروبولوجي العام، الذي يسبح فيه المشركون، أو المعارضون، فهناك التعريض بالنسب والحسب، وذكر الأيام والوقائع، وهي أشياء كانت تهز، بل تزلزل البناء الاجتماعي الذي يستلين فيه معنى وجودهم. وهذه الحال اختلفت عند شعراء المعارضة أنفسهم، بعد أن انخرطوا في الفكرة الجديدة بعد حين، وبعد أن أصبحت الدعوة في ذواتهم معتقداً وتشكيلاً نفسياً وفكرياً، فلم يعد من المريح استرجاع أو استحضار شعر كعب وابن رواحة، الذي يعيرهم بالكفر وهم الآن مؤمنون، ويصمهم بالشرك وهم اليوم موحدون، وينسبهم إلى الوثنية، وقد أصبحوا مبتعدين تماماً عن الأوثان. ولم يعد يضيرهم في شيء شعر حسان، فقد تلاشت القبيلة، وجاء في مكانها مفهوم

جديد هو مفهوم الأمة؛ ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم- ومن بعده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- ينهيان عن رواية ما قيل بين الفريقين قبل حول اتحاد القريتين: مكة المكرمة، والمدينة المنورة.

كان أحمد حجازي يردد وأنا ألهج بهذا الحديث:

ولهذا يجب ألا يقال أن هناك قصائد "كلاسيكية" لبدر شاكر السياب؛ لأنه فقط التزم في بنائها بالمقاييس الخليلية، وهذه المقاييس تشبه "اللغة" إلى حدٍ ما من حيث توظيفها لاستيعاب ثقافة جديدة، الحداثة.

- قلت: وهذا يقودنا إلى تفسير جديد للموروث.

قال: أجل، في البلاد العربية يقف التراث كهرم كبير جداً، عسير الصعود، عسير الدمج؛ لأننا لم نقدمه للأجيال الراهنة كما ينبغي، لم نقدمه على أن الفكر الحديث هو صلة واستمرار له، أولاً لقصورنا عن أداء هذه المهمة الصعبة، بطريقة ناجحة، وثانياً لوجود الهوة السحيقة التي فصلت التراث عن أزمنتنا الحديثة، أعني عصور الانحطاط، ولهذا كان فكرنا غير متصل، والتراث، أين التراث؟ لقد زرت مكتبات كثيرة في المغرب العربي وغير المغرب العربي، فوجدتها تغص بمخطوطات لم يلتفت إليها أحد بعد، إن كنت تقصد هذا النوع من التراث.

- قلت: التراث عنصر مهم لتفسير الحياة، ولفهم الأحداث الغابرة، وهو الطريق الأمثل لاستقراء الهوية الثقافية، وتحديد

أبعادها. فعلى الرغم من القيم السياسية والمجتمعية التي حاولت الرسالة أن تؤكدها في تجلياتها المختلفة، وعلى الرغم من سلوك الخلفاء الراشدين في موضوع الخلافة؛ فقد أضحى الأمر الأكثر تحكماً في اتخاذ موقف معارض أو آخر معاضد بعد ذلك؛ هو "العصبية القبلية". فالدولة الأموية نشأت لأنه أريد للحكم أن ينتقل إلى البيت الأموي أو يعود إليه، هذا البيت الذي كان يناهض النبي - صلى الله عليه وسلم- قبل فتح مكة المكرمة، وقبل إسلام أبي سفيان، من أجل "السيادة". فالطموح إلى الحكم قديم في البيت الأموي، وبمساندة العصبية انتقل إليهم، اقرأ الشعر الذي كان يقال بين يدي يزيد بن معاوية وغيره من الخلفاء الأمويين. ثم خذ وجهاً آخر لهذه "العصبية" من قراءاتك لبعض أشعار الأنصار في المدينة، بعد أن أخذ الأمويون يتعصبون للمهاجرين ولقريش ولمكة؛ ستجد أن شعر الأنصار حتى من كان منهم يوالي الأمويين، كان كله أو أكثره يمتلئ بالتأفف من هذه العصبية، ويزخر بالاحتجاج كلما حاول الأمويون التأكيد على انحيازهم لقريش، وستجد أنهم كثيراً ما كانوا يتحسرون على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم.

وكل مظاهر الأحزاب في العصر الأموي، إنما كان وقودها العصبية، وقد انسحب ذلك على الشعر، وكان خطاباً محتشداً بالعصبيات، فالأمويون لم يحولوا "الخلافة" إلى "ملك" فحسب، بل هم أصَّلوا تراثاً ضخماً للعصبية، وجعلوا من الانتماءات الضيقة ملجأ للاحتماء من المخاطر، وطريقاً إلى السيادة والتسيد، ثم انخرطت السنين والقرون بعدهم إلى هذه "الهاوية" التي مازلنا

نصادف بعض أعراضها إلى اليوم.

هذا مجرد مثال لانحراف التراث في تقديم تفسيرات معينة لقيم ونواميس قد تستمر. هذا قد يقودنا إلى تساؤل جديد هو: إلى أي حد يتوجب احترام التراث؟ تحديداً صناعة البشر؟

- قال حجازي: ولهذا فأنا من الذين يطوعون بعض المقاييس الشعرية، لم أذهب في ذلك إلى حد الفوضى، ولكني لا أجد مانعاً حتى في استحداث مقاييس جديدة، تبتعد كل البُعد عن المقاييس القديمة، بحور جديدة مثلاً، أو لا بحور إطلاقاً.

قال الصحفي التونسي: ولكن ما يقوله أحمد حجازي الآن يمكن أن يكون مدعاة للفوضى، هل أنت فوضوي؟

أجاب: بالعكس لست فوضوياً، ولكنني مع ارتياد المجهول؛ لأن هذا النوع من المغامرة سيكون له نتيجة: إما الاستقرار على قيم جديدة، وإما تأكيد القيم الأولى، ودعم صمودها واستمرارها. فقط هذا كله يتطلب وقتاً، ويتطلب صبراً أيضاً، ونحن ليس لدينا وقت، وغير قادرين على الصبر.

ثم أضاف حجازي: أريد أن أشير إلى شيء مهم، وهو أن "القصيدة" خصوصاً تتكون من ثلاثة عناصر، الأول: الشاعر، والثاني: الجمهور الذي يخاطبه، أو الوسط الذي خرجت منه القصيدة تنحشر بأشياء هذه الثقافة، وعندما تكتمل عملاً فنياً وفكرياً تعود لتشكل جزءاً ومصيراً في هذه الثقافة، أما العنصر الثالث في القصيدة فهو الموضوع أو القضية التي قد تكون اهتماماً

ذاتياً، أو قومياً، أو حضارياً.

- قلت: ولكن المثقف العربي اليوم يعد "مفصولاً".. أو قدم في الشرق، وأخرى في الغرب. هويته ضائعة، لم يجد استقلاله بعد، يجري تجاربه في مختبرات الآخرين دائماً، وينطلق أحياناً من قواعد ثقافية غريبة عليه، فلا يستطيع أن يوصل صوته إلى الفئة المتشبعة بتلك القواعد، أو التي تصدر تلك القواعد، ولا يستطيع كذلك أن يوصل صوته إلى أهله وجمهوره؛ لأن هذا الجمهور لا يحاكي تلك التجارب الثقافية. المثقف العربي بهذا أضاع اهتمامات وسطه، ولم يستطع أن يجيد في جريه الحثيث وراء اهتمامات الأوساط الأخرى. المثقف مازال يتحدث برطانة لا يفهمها الناس، الذي نجا من هذا المصير، هو المثقف الإسلاموي الإسلامي، فهذا نستثنيه، فقد أجاد دائماً لعبة التواصل مع الناس والاقتراب منهم. المثقف الآخر كان يبحث لنا عن طريق "الخلاص"، فوجد نفسه يتلمس الخلاص لنفسه. والمثقفون نوعان: مثقف يتلون بلون مرحلته، فيبقى جزءاً منها، ومثقف يلون مرحلته بلونه -هو- فالمرحلة تنتسب إليه قبل أن ينتسب إليها، فيخلق جيلاً أو أجيالاً تابعة، ولن أذهب بعيداً: دونك سارتر والوجودية مادمنا نتكلم من باريس، هناك مثقف ذهب "سائحاً" في كل مكان، ولكنه لم يصبح جالية، وهناك مثقف كان "متخطياً"، إذ شكل بنفسه إمبراطورية يمنح فيها –هو- للناس هويات.

- المثقف العربي – يا أستاذ – بالتأكيد ليس من النوع الثاني، وأنت توافقني على ذلك كما أعتقد، وهو أيضاً ليس من النوع الأول؛

لأنك لا تستطيع أن تعطيني مثقفاً عربياً واحداً اليوم، شاعراً كان أو كاتباً أو غير ذلك، له كل سمات المرحلة التي نعيش.

المثقفون عندنا يتحدثون عن أشياء لا يعرفها الناس، ولا تشكل جزءاً من اهتماماتهم، أو أنهم يتحدثون إلينا أو عنا –أحياناً- بسذاجة بالغة وبسطحية، فلا يبلغون فعلاً مستوى مشاكلنا القائمة. المثقف العربي في مستوى "الحيرة" بين الخطوط الكثيرة التي تنفرج أمامه، وكلها تبشره أو تنذره بالخطر. ليس "حائراً" وإنما هو ضائع، والأمل يضعف في أنه سيتوصل –عاجلاً- إلى قناعات ثقافية متينة. المثقف العربي ما زال في مرحلة "النقل"، ولم يصل بعد المستوى، "التقعيد".

عندما يشتد بنا الضيق يروي لنا للتسلية أو للمواساة، مغامرات طرزان في الغابات الآهلة بالحيوانات المفترسة، وقصة تقديم القرابين في أعراس الجن.

وعندما نمرض، يصرف لنا أدوية ليس لها وجود أصلاً، فهي ما تزال مثاليات في خيالات رحبة، أو أنها قد تكون موجودة، ولكنها لا تتفق مع طبيعة الطقس في بلادنا، أو مع مقدار تحمل أجسادنا لحساسيات تلك الأدوية؛ لأنها لم تعمل لتصرف في مناطقنا الحارة، إلا إذا استطاع هو أن يوفق في إضافة بعض المواد الكيميائية إليها، أو، بالعكس إزاحة بعض المواد منها، لتصبح ملائمة لمناخنا، وفي كلا الحالتين "يحتمل" فساد الدواء وعدم صلاحيته لعلاج الداء.

والمثقف العربي يشبه أحياناً ممرضاً في مستوصف قروي، ليس بإمكانه أن يصرف لمرضاه غير حبوب "السلفا"، للمصابين بالزكام حبوب السلفا، وللمصابين بالكوليرا حبوب "سلفا"، وللمصابين بالسل حبوب "سلفا" أيضاً.

أحمد عبدالمعطي حجازي، والصحفي التونسي، وأنا؛ ارتفعت أصواتنا في المقهى، حتى التفت نحونا كل الزبائن، قفلنا باب الحوار بابتسامات خافتة نثرناها في وجوههم، وكأننا نقول لهم:

السماح، هذا هو حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا مزاجه.

أربـــال:

ضعوا أقدامكم في حذاء واحدة

"مـن واجـب لجنـة المراقبـة تنبيـه الجمهـور إلـى أن أفكـار هـذا الفيلم معبر عنها بمناظر إباحية ورذيلة وشنيعة جسدياً وعقلياً".

كانـت هـذه العبـارة مركـوزة تحـت عنـوان الفـيلم، علـى واجهـة إحدى صالات دور السينما الباريسية. لم أكن قد رأيت الفيلم بعد.. ولم تكن هذه العبارة هي الدافع الذي يحدوني لرؤيته.. فلقد قصدت هذه الدار؛ لأنني سمعت وقرأت عن (أربال).. كاتب الفيلم ومخرجه، وكذلك عما يسمى بـ(السينما الشعرية)، التي يتصدر الصف الأول فـي سـاحتها هـذا الكاتـب الـشاعر (أربـال).. أردت أن أعـرف مـن أربـال؟! ومـا هـذا النـوع الـسينمائي الـذي أريـد أن أقـول عنـه بأنـه جديد؟!

ولكن لماذا فيلم (سأنطلق كحصان مجنون) بالذات!!

أولاً: لأنه كان يومها هو آخر أفلام اربال.. وثانياً: لأنه كان أيضاً يومها آخر أفلام (الصرعة).

تحدثوا عنه- عندما خرج- كثيراً على مستوى الصحافة، وعلى مستوى المشاهدين.. وعلى مستوى المراقبين.. وهؤلاء الأخيرون قالوا كلمتهم التي تتصدر مقدمة هذه السطور، ثم أمروا أن تستند إلى مؤخرة عنوان الفيلم على كل واجهات دور السينما التي يعرض فيها.. أما الصحافة والجمهور، فلم يجد لديهم الترحيب الإجماعي، كما لم يجد النفور الإجماعي أيضاً.

خرجت بعد رؤية الفيلم وفي يدي عبارة تقول: "يا مجانين العالم!.. ضعوا أقدامكم في حذاء واحدة"، ولا تتوقفوا عن الضحك!!.. كنت أمحو هذه العبارة، ولكني تذكرت بأن أربال مفكر وشاعر قبل أن يكون مخرجاً وكاتب سيناريو. هل اجتمع له في هذا الفيلم العطاء الفكري.. والتعبير بالصورة السينمائية!؟ أجل!.. مع أنني اختلف مع أساسيات هذا الفيلم، ومع الصور التعبيرية الإيحائية التي استخدمها للتعبير عن أفكاره.

فنياً.. كان شاعراً في إخراجه للفيلم.. ولكنه لا معقول غالباً.. وإباحي أحياناً.. ورمزي في كل الأحيان.. أنت أمام ملحمة فنية رمزية، عليك أن تفك ألغازها لكي تُقوِّم الفيلم وتتخذ موقفاً منه.. أربال لا يقول لك: الشمس تطلع من الشرق، ولكنه يقول: الشمس تطلع من المغرب.. وعليك أن تفهم هذا التحوير في نواميس الطبيعة.. ماذا كان يريد أن يقول من ورائه؟!.. وهو يقول لك -مثلاً- باريس عاصمة أفريقية، وعليك أن تفهم لماذا جعلها أفريقية.. عندما تشاهد فيلمه، تستطيع أن تؤكد أنه (معقول)، وأنه واقعي جداً: "أنا أصنع سينما واقعية حتى الحلم؛ لأن الحلم يشكل جزءاً من الواقع". ويقول: "أنا مبدع؛ لأنني واقعي".

دعونا نقول بأنه واقعي.. ولكن أي واقعية هذه؟!

أولاً: مقنعة بالرمز والإيحاء.. فلكي تعبر إليها، يجب أن تجتاز متاهات محتمة من الرمز. ولكي تدرك كنهها، يجب أن تعبر إليها من الصورة النشاز إلى الصورة الصحيحة.. ومن المفهوم المعكوس إلى المفهوم المستقيم.. ومن اللامعقول إلى المعقول.. فهي واقعية لا تدرك إلا بعناء.

ثانياً: أنها واقعية مسرفة.. استخدم للتعبير عنها مناظر رذيلة، ومزعجة، وفظيعة، ومقرفة، ومتدنية أخلاقياً وعرفياً وإنسانياً.. كل هذا؛ لأنه "واقعي"، ولأنه يجب أن يعبر عن واقعية الإنسان بحرية.. كل هذا لأنه واقعي! ويجب أن يعرض للناس كل ما يجب أن يبقى مستتراً في حياة الإنسان!!.. يفسر هذا فيقول: ما الإنسان؟! إنه يشبه "جبلاً جليدياً" لا نرى منه إلا جزءاً بسيطاً، والباقي يبقى مدفوناً!!.. هناك حياته السرية.. خيالاته.. أخلاقه.. اللاشعور فيه.. ولكي أكون واقعياً، يجب أن أبدي للناس كل هذا الجبل الجليدي.. بعبارة أخرى: "أن أظهر للإنسان حقائقه، حتى التي يريد أن تبقى مستترة!!

لهذا قبل أن تدخل لترى فيلم (سأنطلق كحصان مجنون)، يجب أن تكون على استعداد – مثلاً – لقبول رؤية منظر إنسان يضمد جريحه (ببراز) مخلوط ببول، يخلطهما أمامك!!.. ويضمد الجريح بهما أمامك، ولهذا يجب أن نتساءل: هل هي "الأسكاتالوجية" الفنية أو الأدبية تظهر إلى جانب اللامعقول في فيلم أربال؟!

والأسكاتالوجية منحى فني أدبي كان منتشراً في أوروبا.. وهو في الأدب يعني :"الكتابة البرازية!!"، إن شئتم أن نترجمه هكذا.. وله محور وسطي، هو: "البراز"، أو الغائط والبول ومشتقاتهما ومتفرعاتهما، وكل ما من شأنه أن يثير في النفس الغثيان والقرف والاشمئزاز من بقايا الإنسان وخوارج جسده. تقليعة كانت لازمة في هذا العالم المفجوع في عقله!!

وقبل أن تدخل لرؤية هذا الفيلم أيضاً، يجب أن تكون على استعداد لرؤية أبشع مناظر الوحشية والعنف والرعب.. لن يكون من أسهلها قبولاً على العين المشاهدة، رؤية إنسان يأكل إنساناً آخر من الرأس إلى القدم.. ولا يبقي حتى على عظامه.. لو قلت لأربال: إن هذه وحشية ولا معقول، لقال لك فوراً: بل هي الحب والسلام، بل هي الواقعية بعينها؛ لأنه يجب أن تبحث لماذا أكل هذا الإنسان صديقه؟! أكله لأنه "يحبه"، ويريد أن يستأثر بجسده.. بل يريد أن يتحد معه جسداً واحداً. وهذا ما حدث بالفعل في نهاية الفيلم، إذ أخذ الرجل "الآكل" ملامح الرجل "المأكول" نفسها، وطوله وعرضه.

عندما تشدد الخناق على أربال في واقعيته المتطرفة، التي تتخذ طريقاً لا معقولاً وحشيًا وسكاتالوجيا للوصول إلى إدراك المشاهد.. ربما يقول لك: لقد كنت أنتظر كل هذا منكم.. لأن بيكاسو كان صادقاً عندما قال: "عندي الانطباع أن الناس لديهم خوف شديد من الواقع، فإذا وجدوا منه نسبة ضئيلة جداً أزالوها

باشمئزاز وقرف". إنه يريد أن يغزو مجتمع المادة في واقعيته، يريد أن يقول للناس هنا: هذه هي حقيقتكم القذرة، والتي تدفنونها حتى عن أنظاركم أنتم، فعلام كل هذه الكبرياء التي تمد رأسها من بؤرة الانخداع؟! علام هذا الرهان المسعور بينكم، والذي لن ينتهي أبداً؟! لماذا تدسون أنوفكم في الرمال، وتعتقدون أن "سيقانكم" لا تهب عليها الرياح؟! هل تبحثون عن السعادة؟! السعادة هجرت "المدينة" منذ زمن بعيد!.. السعادة هي البساطة.. والبساطة هي الصحراء والبدوي والجمل!.. وهنا يعبر عن هذه "الواقعية" بأدوات لا معقولة وسكاتالوجيه أيضاً، كما هو الشأن في كل مناظر الفيلم تقريباً.. فمن الناحية اللامعقولة - مثلاً - هذا البدوي في صحرائه، وبين إبله وعنزه الوحيدة؛ يضرب إحدى يديه بالأخرى، فينقلب النهار ليلاً، والليل نهاراً..!! ومن الناحية الاسكاتالوجيه، هذا البدوي البسيط يخلط "غائطه!" ببوله، ليكون دواءً ناجعاً لجرح صديقه، رجل المدينة الذي ضاق بها وضاقت به، فرحل إلى الصحراء.

أخيراً.. فالسينما الشعرية.. نوع سينمائي لا يجد اهتماماً بالغاً من الجمهور العام، فهو يزحف بوهن بين أكداس أفلام التجارة والبحث عن المال، ولهذا فقد أصبحوا يقولون هنا: السينما الفرنسية لا تسير إلا إلى الأسوأ.

فيلم "سأنطلق كحصان مجنون"، أحد أفلام حركة السينما الشعرية، ولكن له (رائحة) كريهة تبعث على القرف، حين نقرأ فقط

مناظره، التي تتوالى على الشاشة في صالة مظلمة تمتلئ بزفير المشاهدين.

إميل أجار:

السوقية .. وصلف السرد

"إميل أجار" اسم اغتصب الواجهة الأدبية في فرنسا.. ثم اختفى دون أن يستطيع أحد من المكلفين بحراسة الواجهة أن يحدد هويته. جاءها ملثماً يخطب الود أو يغتصبه، فغادرها ملثماً أيضاً..لا أحد يعرفه.

يومها لم يكن أحد يعرف كاتباً بهذا الاسم.. عندما أصدر روايته الأولى: "Gros-calin" أو "العناق"، ثم أصدر فيما بعد روايته الثانية "La vie devant soi"

وقد رحَّب به بعض النقاد، ولكنه لم يثر فضولاً أكثر لمعرفته أو للبحث عنه. أما بعد أن فاز بأكبر جائزة أدبية في فرنسا (غونكور) في العام 1975م بروايته الثانية:- "Lauie devant soi"، أي.. "الحياة أمام الذات"، فقد تغيرت الحال، كان لا بد أن يعرف الجميع من إميل أجار؟

مجرد نيل هذه الجائزة يثير في نفوس كل الناس – صحفيين، وأدباء، وقراء - الفضول لمعرفة "المتوج" الجديد، ولكن

أن يرفض هذا المتوج الجديد "التاج"، ويقذف به إلى الأرض، كما فعل إميل أجار، فهذا عامل آخر يزيد في إشعال جذوة الفضول لمعرفة هذا الجريء.. أو "الوقح" الذي مد رجله في حضرة المجد، وفي وجه الشهرة.

ذهبوا يبحثون عنه في كل مكان!.. لا أحد يعرف كائناً حياً بهذا الاسم. قيل بأن "إميل أجار" مجرد اسم مستعار لأحد الكتاب الكبار الذين يستحقون – فعلاً - نيل الجائزة.

لجنة التحكيم التي تمنح الجائزة، هي الأخرى لا تعرف من إميل أجار، وعندما أعلنت في الصحف، وعبر محطات الإذاعة والتلفزيون بأنه نال الجائزة، كانت تنتظر أن يجيء إليها شخص بهذا الاسم لاستلام الجائزة!.. ولكنه لم يأتِ.. فكانت الحيرة الشديدة.. وقد ازدادت هذه الحيرة تعقيداً عندما تلقى السيد "بازان" رئيس لجنة التحكيم، وأحد كبار كتاب الرواية في فرنسا تبليغاً تليفونياً برفض "إميل أجار" للجائزة!!

كاد يتأكد في أذهان كل الناس أنه اسم مستعار، فعلاً، لأحد الروائيين الكبار. قالوا: أنه الكاتب الفرنسي "موريس بون"، وقالوا: إنها الكاتبة "أيفون يابي"، وقالوا: إنه الكاتب "رومان جاري".. وهذا الأخير له "سابقة" من هذا النوع.. إذ إنه سبق أن تستر تحت اسم مستعار، هو "شاتان بوغا"، عندما أصدر روايته "رؤوس ستيفاني".. ولتضليل القراء والنقاد كتب على الرواية بأنها مترجمة من الأدب الأمريكي، وزيادة في التضليل كتب بأن مترجمتها كاتبة روائية اسمها "فرانسواز لوفا"، وكتب على غلاف الكتاب نبذة عن

حياة هذه المترجمة المزعومة، التي لم تولد قط .. وادعى كذلك بأنها سبق أن أصدرت رواية من تأليفها!!

أخيراً ..لم تدم هذه التكهنات مدة طويلة.. إذ ما لبث أن ظهر كاتب رواية "الحياة أمام الذات".. صحيح أن "إميل أجار" اسم مستعار.. ولكنه ليس لكاتب كبير، ولا لروائي معروف، وإنما لأديب شاب مغمور مجهول يومها.. بدأ دخوله إلى الساحة الأدبية برواية باسمه المستعار نفسه، تحت عنوان "Gros-calin" أو "العناق".

أميل أجار اسمه الحقيقي: "بول بافلوفيتش".

ولم يكن يعني هذا الاسم أي شيء لكل أدباء فرنسا ومثقفيها.

وعملية تستره المحكمة هذه.. ومن ثم رفضه للجائزة، فسرها بعضهم على أنها مجرد حملة دعائية للكاتب وللرواية.. من شأنها أن تزيد من مبيعات الكتاب، وأن تسمهم إسهاماً كبيراً في شهرة الكاتب.

الكاتب الروائي "بازان" رئيس لجنة التحكيم، عندما بُلِّغ برفض "أجار" للجائزة، قال: "جائزة الغونكور مثل الولادة أو الموت لا تنتظر قبولاً، كما أنه لا يردها أو يلغيها رفض.. فهي تأتي للإنسان وتلتصق به على الرغم منه، ونحن منحنا الجائزة لرواية جيدة.. ولم نمنحها لاسم معين".

وقال أيضاً: "إن لم يكن إميل أجار يريد بما فعل زيادة الحملة الدعائية له ولروايته، فليرفض إذاً أرباح مبيعات الرواية في السوق؛ لأن زيادة هذه المبيعات إنما جاءت بفضل منحنا له الجائزة، فكأن هذه الأرباح جزء من الجائزة"!

وفي الوسط الأدبي الفرنسي جوائز علمية وأدبية كبرى كثيرة.. وأهم هذه الجوائز: رونودو.. وفيمينا.. ومديسي.. وإميل أجار نال أكبرها.. وهي الغونكور.

وإذا كان لابد من الحديث عن رواية (الحياة أمام الذات)، فإن أسلوبها هو أسلوب تلافي اتساع البعد بين واقع (الحدث) وأبطاله، وبين لغة التبادل في (الحكاية)، إدراكاً لأهمية ما يمكن أن ينشئه هذا الأسلوب من انسجام بين الرواية كموضوع وكحياة ضميرية أو ضمنية، وبين القارئ بوصفه مريداً للمتعة، أو من حيث كونه طالبا لإشباع (تصور) معين يقوم بالحاجة أو بالضرورة.. فلغة الرواية يجب أن تأتي مستوحاة من الواقع، ومن مستوى أبطال الحدث، أعني مستواهم الاجتماعي والسياسي والثقافي.. إلخ. وإميل أجار استطاع أن يوفق إلى حدٍ بعيد في الإفادة من هذا (النفس) الروائي الصعب.. هذا النفس الذي قد يبدو مطواعاً؛ لأن أداته اللغوية قد تكون من الأدوات الميسورة، ولكنه في واقع الأمر عسير، مضن، بسبب الشفافية المتناهية التي يتطلبها، وبسبب اشتراطه درجة حادة من الذكاء المهني، ومن الاحترافية لتحقيق تصعيده وفقاً لتطور الحدث وروح (القص) أو السرد.

الأدوات اللغوية ميسورة، ومن هنا تأتي خطورة هذا الأسلوب، فهي تكمن في كون قاموسه اللغوي قاموساً ميسوراً ومتيسراً، ولكنه يحتاج إلى درجة عالية من الحذق والموهبة؛ مما يسمو بالكاتب عن التهاوي، أو بلوغ درجة الابتذال والاسفاف، فكل الأطفال يتكلمون لغة ميسرة.. والقاص الفاشل قد يسف ويبتذل، ولكن عندما يتحدث بلسان هؤلاء الأطفال روائي حاذق موهوب.. فإنه يستعمل مفرداتهم

نفسها، ولكنه قادر على أن يدخلهم إلى قلوب كل قرائه.. فكما للحكاية الشفاهية تقنياتها في الرواية والقص، وهي تختلف من راوٍ إلى آخر، وذلك بقدر تمكُّن الراوي من قاموسه اللغوي، وصوته، وملامحه، وإشارات جسده؛ فإن للسرد والقصة المكتوبة تقنيات تختلف هي الأخرى من كاتب إلى آخر، بقدر ما يتوافر عليه الكاتب من تحكم في قاموسه اللغوي، ومن قدرات في البناء الدرامي المعتمد أساساً على اللغة، والفواصل، والبياضات، والهمزات، والسكنات، وعلامات الترقيم التي تعكس نبرات القص والسرد، وانحباساته ودهشاته.

وما يقال عن لغة الأطفال يمكن أن يقال عن لغات الفئات الاجتماعية المختلفة.. ومنها السوقية مثلاً.

يظهر حذق إميل أجار بجلاء في روايته هذه.

إن طبيعة (الحدث) في رواية (الحياة أمام الذات)، هي التي حددت القاموس الذي سيلجأ إليه الكاتب، وبالتالي الأدوات أو التقنيات السردية التي سيأخذ بها: طفل أبوه مجنون.. تحت العلاج في إحدى المصحات العقلية، وأمه فقدها قبل أن يعرفها.. ربته امرأة فقيرة تعيسة في وسط فقير تعيس.. هذا الطفل- في هذه الرواية - هو الذي يروي قصته، فالصعوبة هنا مركبة: لغة غير مكتملة النمو (الطفل)، بالإضافة إلى السوقية في (الوسط الذي يعيش فيه)؛ مما دفع بالكاتب نفسه إلى القول بأن "شخصية الطفل - بطل الرواية - شخصية غير راهنة، وإلا فإنه سيكون طفلاً كريهاً قذراً".

سيندهش القارئ عندما يفاجئه هذا الطفل بسؤال استغرابي كهذا:

- هل يمكن أن نحيا بدون حب؟ (المقصود البعد الجنسي).

فيتردد الرجل العجوز في الإجابة.. ولكنه ينزل أخيراً عند إلحاح الطفل، فيجيب وهو يحني رأسه نحو الأرض:

- أجل!!

فيبكي الطفل.. ويبكي.. لأنه لا يقدر على استيعاب هذه الحقيقة المرة.

طفل إميل أجار في روايته هذه، طفل استثنائي بلا شك.. ولكن الكاتب ينبهنا أحياناً إلى حقيقة أكيدة، للتخفيف من تكثف دهشتنا نحو هذا الطفل الذي نحسبه دائماً استثنائياً، فيقول: "الأطفال عموماً فظيعون جداً.. فهم – بعفوية- ينكأون الجراح، ويتكلمون أحياناً بطريقة جدّ مباشرة، وببراءة، وذلك في أشياء يحاول الراشدون دائماً أن يخفوها، وأن يخادعوا أنفسهم تجاهها.. نحن الكبار نقوم بتربية هؤلاء الصغار، ولكن.. وتربيتهم تعني بالنسبة إلينا منعهم من وضع أصابعهم باستمرار على مواطن الألم".

ويقول: "الأطفال يبدون لي دائماً، وكأن عندهم سر معين ليس كسرٍّ"،إليس في بلاد المعجزات"، ولكنه سر أكثر أهمية!".

ويجمع الكاتب في روايته (العرب واليهود)، فالطفل بطل الرواية عربي اسمه "محمد"، ومربيته يهودية واسمها (روزا).. وهي تربي معه أطفالاً آخرين يهوداً وعرباً في مكان واحد.. وقد أمعن المؤلف في إيراد كثير من العواطف الودودة بين محمد الذي كان يعد روزا اليهودية أمه.. وبين روزا التي كانت تعد محمداً ابنها!!

والكاتب إن أخذنا بظاهر السرد، ولم نحاول استقصاء خلفيات معينة؛ فهو يحارب العنصرية. إما إن أخذنا بقبول مبدأ مخادعة العقل الباطن، فإن أشياء كثيرة في الرواية تخفي وراءها نزعة عنصرية مهمة.

ولكن المؤلف نفسه حاول أن يدرأ احتمال هذا البعد سلباً أو إيجاباً فقال:

"عملية خلط العرب باليهود والسود، لم تكن استيحاء من أية قضية سياسية أو عنصرية.. أنا أرفض أن أتكلم عن العنصرية لأنها واقع!! فلماذا نخلق الضرورة لتحطيم الأبواب المفتوحة سلفا؟".

إذًا الأوروبيون عموماً، يتمتعون بنصيب وافر من العنصرية، وخاصة ضد السود، وفيهم من يكره العرب، وفيهم من يكره اليهود.. وفيهم من يكره العرب واليهود في آن واحد. وكلمة "يكره" هذه تأخذ معنى العنصرية، ولكنها بالنسبة للعرب واليهود تستمد ماءها من عقدة أخرى، هي "الاحتقار".. وهذا الاحتقار إنما هو على مستوى مرارة الكراهية أو أشد.. فالأوروبيون يكرهون اليهود؛ لأنهم يحتقرونهم. والأوروبيون يكرهون العرب؛ لأنهم يحتقرونهم أيضاً.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نصل إلى إمكانية احتمال وجود بعد اجتماعي لعملية جمع العرب واليهود والسود في رواية إميل أجار.. فاختيار هذه الطبقة الفقيرة لم يكن من بين الفرنسيين أو الأوروبيين أنفسهم، وفيهم طبعاً طبقات فقيرة، وإنما جاء الاختيار من طبقة العمال من جاليات دول العالم الثالث المهاجرة في أوروبا.

والبُعد الاجتماعي الذي نعنيه يختفي، ويظهر أحياناً وراء

صلف الفئة الميسورة على الفئة الفقيرة، والمؤلف إنما اختار مهاجري دول العالم الثالث إمعاناً في دغدغة هذا الصلف، وتأكيداً على الرغبة في إثارته، فهو يعلم مسبقاً أن الفقير الأوروبي يفوق الفقير الآخر حياة ومعاشاً، فعزوفه عن هؤلاء، واختياره لتعساء البلدان المتخلفة غير الصناعية، إنما جاء لإثارة الحد الأقصى في ذلك الصلف.

والكاتب بهذا إنما يعود إلى استعارة بعض سمات الأدب القصصي الأوروبي في القرن الماضي، الذي كان يحرص في أكثر الأحيان على بناء بعض الصور المثيرة للسخرية والضحك في الفئات الاجتماعية الدنيا لغرض رئيس واحد، وهو أن يحوز على إعجاب الصلف المترف، الصلف البورجوازي العفن، كما يحلو للبعض أن يسميه.

بابلو بيكاسو:

الرسم.. مخلوق كالمخلوقات!

يقال: إن بيكاسو أراد أن يتناول وجبة غدائه يوماً ما في أحد المطاعم المتواضعة، وقد تم له ذلك، فلما عرف الجرسون أو النادل أن الماثل أمامه، أو أمام طاولة الأكل؛ هو بيكاسو العظيم، طلب إليه أن يرسم له فوق فاتورة الحساب "تفاحة"، فلم يكن أمام رائد التكعيبية في العصر الحديث، إلا أن يستجيب لرغبة المعجب الفقير، ولكنه بعد أن أتم الرسم بالقلم نفسه الذي وقَّع به ورقة بطاقة الائتمان التي دفع بها الحساب، طلب إليه الجرسون طلباً آخر، وهو أن "يوقِّع" الرسم، فما كان من بيكاسو إلا أن ضحك، مبدياً عدم موافقته على هذا الطلب الأخير.

فالتفاحة التي قد لا تتجاوز قيمتها الملاليم بدون توقيع، هي عندما تحمل توقيع بيكاسو، سيرتفع سعرها إلى الملايين!.. والتفاحة بدون توقيع الرسام الكبير، هي مجرد خربشات يمكن أن يزعم أي أحد بأنه هو الذي رسمها، إذ إنها في الظرف الذي رسمت فيه لا يمكن أن تحمل شيئاً كثيراً من أحاسيس الفنان، أو شجونه، أو أفكاره، أو رؤاه. ولن استبعد أنها لو نُسبت إلى آخرين، دون

معرفة علاقة بيكاسو بها، فإن الجميع سيتبرؤون منها، وربما قالوا بأن الجرسون الخبيث، هو الذي أنجزها، ثم الصقها ببيكاسو.

والشاهد هو، أن جنون أسواق اللوحات الفنية يصعب فهمه أحياناً.. فهو يواجه طفرات لا يكاد يصدقها عقل، وقد يدخل إلى هذه السوق مستثمرون لا يعنيهم الرسم، بقدر ما تعنيهم الصفقات الهائلة التي تدر عليهم الملايين. فجنون أسواق اللوحات، وجنون الاستثمارات الكبرى فيه، قد يذكرنا، مع الفارق طبعاً، بجنون أسواق العقار في بلادنا في السبعينيات، عندما كان يتحول الألف خلال الأربع والعشرين ساعة إلى مليون، والمليون إلى مئات الملايين. ومما قرأنا من أخبار الثروات الهائلة التي يدرها فن الرسم، أن بريطانيا اسمه فيكتور جانز وزوجته سالي، أضافا إلى رصيدهما في البنوك مئة وعشرين مليون جنيه إسترليني، (أي حوالي سبع مئة مليون ريال سعودي)، وذلك خلال تسعين دقيقة فقط ، هو عمر المزاد الذي شهدته قاعة كريستي بنيويورك، إذ تم بيع أعمال فنية اشتراها السيد فيكتور بمبلغ وقدره 1.25 مليون جنيه إسترليني فقط، وقد كان من بين هذه الأعمال لوحة لبابلو بيكاسو نفسه، وقد وصل سعرها وحدها إلى حوالي 180 مليون ريال سعودي، بينما لم يتعد سعرها القديم، أو الأصلي 24 ألف ريال فقط .

هذه الأثمان الباهظة يحصل عليها بيكاسو!.. ولكن يحصل عليها آخرون غيره، مثل سلفادور دالي، وفانغوغ وغيرهما. لا أحد طبق الآفاق في فضاء التشكيل كرائد التكعيبية بيكاسو، ومخترع السوريالية وأبوها سلفادور دالي، الذي عندما أصدر السوريواليون بيانهم بطرده من حركتهم رد قائلاً: أنتم لا تستطيعون أن تفعلوا

ذلك، فالسوريالية هي "أنا".

وقد بيعت بعض لوحات سيزار بمبالغ خيالية، تجاوزت 140 ميلون دولار، ونظن أن هذا الرقم، هو الأكبر في القرنين العشرين والحادي والعشرين.

لعل الجرسون صاحب التفاحة لم يكن يطمع في نصف ما حصل عليه فيكتور السالف الذكر، ولا في ربعه، ولا في واحد في المئة منه، (ودعك من القيمة التي بلغتها لوحة سيزار)، ولو فعل بيكاسو ما كان قد أحجم عن فعله من توقيع التفاحة، لكان قد تغير تماماً مستقبل الجرسون، ولربما أصبح هو "المعلم" في المطعم نفسه، أو ربما المالك، بعد أن يشتريه، وبعد أن يستبدل ربطة العنق المتدلية "البابيون" الأسود المبسوط الجناحين تحت ذقنه الكريمة.

تطبع من اللوحات الأصلية بوسترات وبطاقات صغيرة، وتباع بأبخس الأثمان، أما الملايين العريضة، فهي للوحة الأصلية. وتفسير ذلك عند الرسامين، هو أن اللوحة الأصلية لا يمكن أن تولد سوى مرة واحدة فقط ، والرسام نفسه لا يستطيع أن يرسم اللوحة نفسها مرتين، أي أن يعيد رسمها للمرة الثانية، فهو لا يمكنه أن ينجح في تقليد عمله الأول، إذ لا بد أن تحدث هناك فروقات، مهما كانت ضئيلة. وربما كان الرسم، هو الشكل الإبداعي الوحيد الذي يتم خلقه مرة واحدة فقط ، وكل أعمال تشبهه، مهما كان الشبه قريباً ولصيقاً؛ فهي مخلوقات أخرى تختلف في أحاسيسها، ومشاعرها، وانفعالها، فمهما تطابق التوائم لا يمكن إلا أن يكون هناك فروق، ودائماً اللوحة الأولى، هي النخب الأول في تجربة الفنان، وإذا ضاعت منه لأي سبب، يفقد كل أمل في استعادتها. وأعرف تجربة لفنان

سعودي اسمه خالد الأمير عندما أوشك أن ينهي أحد أعماله، خرج إلى السوق لقضاء بعض حاجاته، فلما عاد إلى مرسمه، وجد أن أخاه الصغير قد عبث بالعمل ومزقه!.. لم يكن أمام الأمير إلاّ أن يرسم لوحة أخرى، هي تجربته النفسية والشعورية مع اللوحة الضحية، فخرجت اللوحة مبهرة (طبعاً لوحة أخرى أنا أملكها وهي منزلي)، لكن خالدا عانى معاناة شديدة من هذه التجربة؛ مما اضطره إلى متابعة جلسات للعلاج النفسي في القاهرة، فهذا ما ذكره لي المرحوم عبدالحليم رضوي، وأنا أنتدبه للتفاوض مع خالد الأمير من أجل شراء اللوحة، وقد أتم العملية بنجاح خلال عدة شهور.

ولهذا كله ظهر في عالم الرسم الخبراء الذين يستطيعون تمييز الأصل من التقليد، وكثير من محاولات التقليد اكتشفت، وتحول حلم الملايين إلى بعض قليل جداً من الملاليم.

والرسامون لهذا يقولون بأن اللوحة كالإنسان، فهو يولد مرة واحدة فقط، وقد يوجد له شبيه، ولكن مهما بلغت حدة الشبه بين الإنسان الأول والإنسان الثاني؛ فإنه سيكون هناك ما يميز أحدهما عن الآخر، سواء في اللون، أو في دقة الملامح، أو في المشاعر والأحاسيس، أو طريقة التفكير.

تلكم ثقافة أخرى.. لها شروطها.. ولها مناخاتها الخاصة بها.. وهي التي تشحن أسواق اللوحات بكل ذلك الجنون.

أنا من متذوقي الرسم، وأزور معارضه، واقتني منه ما أستطيع، وفق إمكاناتي المعقولة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه يصعب عليّ أن أتصور، أو أتخيل الأرقام المذهلة التي يتم دفعها لاقتناء بعض اللوحات، حتى لو كان صاحبها، هو بيكاسو الشهير أو غيره. وعلى

كل حال، لم يكن الرسم، هو الموضوع الوحيد في مجال الاستثمار الذي لم أستطيع أن أقوي إيماني به، وبهذه الأرقام المهولة. فالأحجار الكريمة، ولاسيما الألماس بأنواعه وألوانه، أجده -من وجهة نظري- شيئاً يشبه الضحك على الذقون، والعيب ليس فيه، ولا في الناس الذين يشترونه، بل العيب فيّ أنا، فأنا غير قادر على الاقتناع بوجاهة الأموال التي تنفق لاقتنائه، ولو كان عندي من الثروة الكثير لاستثمرتها في أي شيء، إلاّ فيما يسمى بالأحجار الكريمة! ولاسيما الفائقة الأثمان!.. لا أشعر بأي اطمئنان حيال ذلك!.. وكلامي هذا قد لا يعجب الكثيرين، وخصوصاً النساء، ولا أجد، ولن أجد، ما أقوله لهن! فما العمل؟

نظن أن الفنانين عندنا سيطول انتظارهم، حتى يستطيعوا أن يعيشوا (مجرد أن يعيشوا) من مداخيل فنهم، وهذا ليس ذنبهم، وهو ليس ذنباً، ولكنه ذنب الاختلاف في "الثقافة"، ومكونات التخيل، والذائقة. فالرسم والتشكيل عموماً، ليس "عربياً" البتة، وما عرفه العرب من هذا الفن، هو بعض آثارٍ لأمم أخرى، كان التشكيل فيها زاخراً بالمعاني والإيحاء، وكل تجارب العرب والسعوديين في هذا المجال تجارب فقيرة وبائسة تاريخياً، وربما اقتصرت أحياناً على بعض الزخارف التي لا تحمل –في نظري- أي روح، فضلاً عن أنها برتابتها وانضباطها تبعث على الملل، وتضايق العين السليمة بتكرار النظر إليها؛ لهذا فعندما ولد بيننا تشكيليون لجأوا إلى فضاء هذا الفن، فاستعاروا أدواته وتقنياته من الخارج، ومن ثم لم يستطع أن ينمو نمواً طبيعياً على أيديهم، فهو يصل إلى مرحلة معينة من النمو ثم يتوقف، ولا يزيد، مثله مثل بعض النباتات التي تزرع في

تربة غير تربتها، وتحت شمس ليست شمسها، فإذا أثمرت لا صاحب الحقل يأكل، ولا السوق يُقبل على المنتج بما يليق به من حماس!.. وهذا على خلاف فنون إبداعية أخرى نجحت، وهي ليست "عربية" مثل الرواية.

ولكل ما تقدم، يصح أن يُقال بأن اللوحة "مخلوق" لا يتم إنتاجه سوى لمرة واحدة، حتى لو كان المبدع هو نفسه المبدع، فاللوحة يشترك في خلقها الفنان والظرف العابر.. الظرف الذي إذا عبر فلن يعود مرة أخرى!

ويقـــال: إن هـــذا هـــو ســـرّ الأثمـــان الكبيـــرة التـــي تبلغهـــا "المخلوقات" الأصلية!

بابلو نيرودا:

والحصان الأخضر

كان عصفوراً ملوناً يهمه أن ترضخ له كل فراشات الحقل.

كان يعيش دائماً في أروقة مليئة بالأشباح المحجلة،مفعمة بالشياطين المخضبة بالنار.

كان لا يعيش في جسده.. أو أن هذا الجسد كان (مسكوناً) بالأرواح النافرة غير روحه.

حياته صنعت من (حيوات) الآخرين.

لقد كانت حياة شاعر.

قال يوماً: لا غرابة في أن يعتقد (العقلاء) أن ثمن تحولهم إلى شعراء ثمن باهظ فادح، وهو أن يفقدوا عقولهم، فيصبحوا مجانين، ولا غرابة أيضاً في أن يرفض الشعراء التكلفة التي لا بد أن يتكبدوها من أجل أن تصبحوا عقلاء، وهي التضحية بشاعريتهم وإلهامهم.

بابلو نيرودا شاعر انطلق من إحدى غابات أمريكا الجنوبية يغني في العالم كله.

ولد في إحدى القرى التشيلية.. وعمر هذا القرن لم يتجاوز الرابعة.. فماتت أمه بالسل بعد شهر من ولادته.. وانتهى المطاف بوالده إلى عامل معتبر في إحدى السكك الحديدية.

أصدر أول دواوينه الشعرية "الشفق" عام 1923.. أي وعمره -يومها- تسعة عشر عاماً فقط .. فبقيت قصائده الممزقة في هذا الديوان، إلى جانب موت أمه وفقر أبيه؛ هي كل ثروته في عمر، الثروة والثورة والزهو.. عمر الشباب.

كان لا بد أن "يأكل"، وكان لا بد أن يعيش، فدفعه بعض أصدقائه إلى العمل الدبلوماسي، فاشتغل قنصلاً في سفارات بلاده المنتشرة في أنحاء كثيرة من الأرض، ومن هنا تهيأ له أن يشاهد كثيراً، كما كان قد تهيأ له أن يقرأ كثيراً.. فاشتد عود التجربة فيه.. وخاصة إذا علمنا أن نيرودا كان شاعراً يرفض تماماً ارستقراطية الشعر.. أو بعده عن الشارع والرصيف، والحدائق الخلفية، وأعمدة النور المهجورة.

كان في كل بلد يذهب إليه يشعر أن آلام أهل ذلك البلد هي آلامه.. وأن أوجاعهم هي أوجاعه.. فهو لم يتنكب يوماً عن رسالته، وهي أن يدس أنفه في مشاكل الناس (أثناء إقامته في الشرق الأقصى كتب ديوانه: Residence sur la terre أو: إقامة على الأرض)

كان يرى أن الشاعر هو مندوب الناس عند الناس.. وكان يرى أن الشعر رسالة، بل مهمة ابتزازية وإنذارية.. كان يري الشعر فصلاً من فصول السلام.. ولكن على الرغم من هذا كان لا يقوى على جحود وجود بعض من يعرقل مهمة الشاعر، ودوره ورسالته.

قال مرة: نعذب الشعراء ونمتحنهم.. ولكنهم يخرجون من كل هذه العذابات والامتحانات أحياء.. وإن كانوا شاحبين ومقتولين بالتعب والجوع والضنك.

بابلو نيرودا كان شغوفاً بالتألم والنضال.. الحب والغناء.. الانتصار والهزيمة.. عرف طعم الخبز.. وعرف طعم الدم.. وأي شيء آخر أكثر من هذا يمكن أن يتمناه شاعر.

نفي أكثر من مرة.. وسجن أكثر من مرة.. وجاع وعطش، وعانى البرد والمرض مرات كثيرات.

تشيلي.. وكل ما اعترضها من مشاكل ومصائب، لم تكن هي وحدها شغله وهمه..بل كانت تشغله أيضاً محن "الإنسان" في أي مكان.. ومن هنا اكتسب نيرودا سمعته العالمية التي جابت كل أقطار الأرض.. ومن هنا أيضاً جاء تتويجه بجائزة نوبل العالمية في ستكهولم، يوم أن كان سفيراً لبلاده في باريس.

فقط كانت مصيبة نيرودا أنه كان قد تعرض لداء بعض المفكرين والفنانين، وهو التحول القسري إلى مناضل حزبي سياسي عامل.. فبدل أن يظل مناضلاً إنسانيا عاماً، ومتعاملاً مع كل الناس، ومحامياً لهم ضد كل "من" أو "ما" يهدد حرياتهم وخبزهم.. بدل أن يستقر في قاعات المحاكم، وأحواش التنفيذ، ليصد الرصاص الطائش المدخر للصدور والحناجر.. بدل أن يظل بابلو نيرودا كل ذلك؛ تحول إلى داعية لاتجاه واحد اعتقد صلاحيته، فاختاره لنفسه ،ولكل من أراد أن يتبعه،حتى أنه انطلاقاً من هذا الفضاء الجديد، دفع إلى الجحيم كل الاتجاهات الأخرى.. وحاربها.. وناضل من أجل

خنقها ووأدها.. بل لقد كان في مناسبات متعددة هو المسؤول عن هذا الخنق، وهذا الوأد.. إذ تحول من حزبي عادي إلى مسؤول كبير في حزبه، ثم مرشح لرئاسة الجمهورية.. مع أنه يعلم أنه لا يمكن لشاعر أن يجمع بين الشعر ومتطلبات التوجيه السياسي والإدارة وضروراته.. فقط ليوبولد سنجور نجح في ذلك لأسبابه!.. ثم لما أحس بالخطر على الشعر، غادر السلطة، وذهب إلى "البونتيون" مع الخالدين المبدعين في باريس، كما ذهب إلى أصيلة في المغرب يستلهمها، وإلى الحسن الثاني (صديقه)، يرشح محمد بن عيسى لوزارة الثقافة في الرباط.

ذلك التحول في حياة نيرودا، جاء تالياً لأحداث الحرب الأهلية في أسبانيا.. أي منذ سنة 1936 وما بعدها.. كان نيرودا في تلك الحرب شاعراً متيماً بأسبانيا كلها، يتفتق قلبه مع كل رصاصة تنطلق في سمائها لتستقر في قلب أي طفل.. أو أي امرأة.. أو أي أسباني يبحث عن الطريق الصواب.. وهناك كتب ديوانه: I'Espagne au Coeur أو: (أسبانيا في القلب).. فأحبه الناس؛ لأنه كان شاعراً فقط.. ويقال: إن نيرودا لم يستطع أن يتخلص من نزعته الأيدلوجية، حتى وهو يكتب ديوانه المذكور عن أسبانيا، بالإضافة إلى ديوانه الآخر "النشيد العام".

أما بعد أن عاد إلى بلاده (تشيلي) في نهاية هذه الحرب، فقد كان يبني أمام مسؤوليته المحضة كشاعر وفنان، جداراً سميكاً من الـ"التزام" السياسي الموجه توجيهاً دقيقاً.. لقد كان ذلك الجدار يرتفع في وجه نيرودا الشاعر، وهو يعلم أن الفضاء الجديد قد أغرق، وما يزال يغرق كثيراً من المفكرين والفنانين.

أكثر تشرداته.. وأكثر حوادث نفيه وسجنه بعد هذا "التحول" لم تكن موجهة للشاعر فيه، بقدر ما كانت موجهة له للسياسي والحزبي، حتى أن أكثر أجهزة الإعلام في أنحاء الدنيا أخذت تعده من رجال هذا القرن البارزين في العمل السياسي.. ويعترف هو بأنه كثيراً ما فوجئ بصوره في بعض الصحف مدرجة أو منشورة مع صور جهابذة السياسة في هذه الدنيا، بعد أن كانت موجودة دائماً مع صور مراقبي العصر، أو حكمائه، من مفكرين وشعراء وفنانين.. كان يزعم دائماً بأنه ليس على هذه الدرجة من الخطورة السياسية، وإن كان ذلك صحيحاً فهذا يعني أن صحف الشيوعيين كانت تحشره في جماعتها؛ لأنها كانت تدرك تماماً المنزلة التي يحتلها في نفوس الناس في كل مكان.. وكانت تدرك أيضاً أن نسبته إليها بوصفه أحد رجالها يعني لهؤلاء الناس أشياء كثيرة!

(تسييس) نيرودا.. أو هذا التحول في موقفه، وبالتالي في شعره، يسميه هو قوة ونضوجاً.. ويدعوه أيضاً "حرقاً" جديداً لمعدن ثمين اكتشفه مؤخراً.. فالساعات المرة لشعره توقفت.. والذاتية الكئيبة التي ظهرت في ديوانه:Vingt poemes d amour أي: (عشرون قصيدة حب).. كانت تلامس نهايتها.. لقد ظل منذ ذاك شاعراً كبيراً، ولكن يحتضر.. حتى مات عام 1973م.

في خلال كل سيرته السياسية، وما لحقه فيها من أزمات وضنك وكرب، كان يلجأ إلى سمعته ومنزلته الأدبية، فقد كانت له "المخلص" والمنقذ كلما طوق حبل المشنقة عنقه.. فعندما يطاردونه.. أو ينفونه.. أو يسجنونه.. لسلوك ساسي.. أيديولوجي معين.. يصيح في الناس -كل الناس- بأنه شاعر قبل كل شيء..

وتعذيب الشعراء، أو النيل منهم عمل "موبوء".. وعندما يفتحون له أبواب المحافل والكوكتيل، يتحول إلى أحد الساسة الكبار في تشيلي على الأقل، كلما اشتدت عليه الأزمة. ليس هناك من منقذ سوى الفنانين والمفكرين والناس الذين أحبوا فيه الشاعر.. يهبون لنجدته، أو للتظاهر من أجله، فنسيانه كفنان كان مهمة عسيرة.

مرة كانوا يطاردونه في بلاده ليسجنوه ويعذبوه، فهرب إلى الأرجنتين، وهناك ذهب للقاء صديقه الروائي "ميغويل أنجل ستورياس".. فطلب إليه أن يعيره جواز سفره؛ ليتمكن من الدخول به إلى أوروبا.. وعندما تم له ذلك، ودخل باريس لم يكن بانتظاره سوى أصدقائه الذين كانوا يمثلون إحدى واجهات الرأي العريضة في أوروبا كلها، بل العالم. كان في انتظاره بيكاسو، وأراغون.. وبول الوار.. نصحوه بأن ينزل فندق جورج الخامس، وهو من أكبر هوتيلات باريس، فسيكون هناك مع مرتادي باريس من أهل السلطان، وذوي المال، والجاه.. والبوليس لا يمكن أن يدخل إلى هذا الفندق للتفتيش عن إقامة نزلائه، والتأكد من صحة أوراقهم الثبوتية وجوازاتهم.. يومها ألقى بيكاسو أول خطاب في حياته.. وكان عن شعر نيرودا وعذاباته، ثم أراد بعدها بيكاسو أن يختبر سمعة نيرودا وحظوته عند المسؤولين الفرنسيين، فتوسط في منحه جوازا رسمياً أو إقامة في فرنسا.. الشاعر الفرنسي "أراغون" كان هو الآخر إلى جانب بيكاسو، يتسكع على أبواب مكاتب البوليس؛ ليكون وجود نيرودا شرعياً ونظامياً في العاصمة الفرنسية.. يومها أيضاً نظم أصدقاؤه من المفكرين والفنانين الموجودين في باريس كونجرس للسلام.. وكان الناس يعتقدون أن نيرودا قد قتل.. ولكن هذا

الاعتقاد تبدد فيهم عندما فوجئوا بنيرودا نفسه يصعد المنصة ليقرأ من دفتر كان معه آخر قصائده.

تقدم إليه أحد الصحفيين بعد أن فرغ من الإلقاء، وقال له:

- إن الحكومة التشيلية تؤكد أنك ما زلت في سينتياغو، وأن مسألة القبض عليك ما هي إلاّ مسألة ساعات أو حتى دقائق.

تذكر نيرودا في تلك اللحظة إحدى فرص الجدل التي كانت تنتاب بعض جلساته مع أصدقائه من كتاب وشعراء، التي كان موضوعها: وليام شكسبير هل هو نفسه الذي ألف أعماله الأدبية، أم أنه كان هناك شخص آخر يختفي وراء شخصية شكسبير الوهمية؟!.. مارك توين تدخَّل يومها لإنهاء هذا الجدل، وقال: الحقيقة أن شكسبير لم يكن هو نفسه مؤلف مسرحياته وكتبه، وإنما كان هناك رجل إنجليزي آخر، ولد في اليوم نفسه الذي ولد فيه وليام، وفي الساعة نفسها.. ومات في التاريخ نفسه، وكان بالصدفة يحمل نفس اسم وليام شكسبير، شكسبير! تذكر نيرودا هذه الحادثة، فالتفت إلى الصحفي يجيبه مائلاً:

- قل لهم بأن الشخص الموجود في باريس ليس بابلو نيرودا.. ولكنه مواطن آخر من تشيلي يكتب قصائد مثل قصائده.. ويدعى أيضاً بابلو نيرودا!

تحول نيرودا السياسي ثم الشعري، لا يعود فقط إلى الأحداث الاسبانية عام 1936 من حيث كونها قضية قومية أو سياسية أو فكرية، بل أنه يعود أيضاً إلى أن هذه الأحداث قد ابتدأت بسلبه - قتلاً- أعز أصدقائه إلى نفسه، وأقربهم إلى قلبه.. الشاعر الأسباني

المعروف غارسيا لوركا، الذي التقاه نيرودا أول مرة في بوينس إيرس عام 1933.. وقد كان -آنذاك- قنصلاً لبلاده هناك. وقد جاء -يومها- لوركا لإقامة مسرحيته الشهيرة: Noces de sang أو "أعراس الدم"، ثم فيما بعد عاشا معاً في مدريد، حيث أنشأ نيرودا مجلته الشعرية: Le cheval vert أو (الحصان الأخضر).. فكان لوركا ماءها وحياتها.

ليلة مقتله كان نيرودا على موعد معه للذهاب إلى إحدى حلقات "السيرك"، ولكن لوركا لم يأتِ في الوقت المحدد.. "لقد كان يأخذ طريقه إلى الموت".

وبالنسبة للشاعر التشيلي هكذا بدأت الحرب الأهلية في أسبانيا.. بدأت بـ"اختفاء شاعر".

يقول عنه نيرودا: "لم أرَ في حياتي إنساناً يجمع في شخصيته اللطافة والفضل والعبقرية بالمستوى نفسه الذي كان يجمعها لوركا.. لقد كان يختصر في شخصيته أعمار أسبانيا كلها.. لقد كان نتاجاً أندلسياً عربياً يضيء المسرح الأسباني ويعطره كأحواض الياسمين.. كان يأسرني بقدرته وسلطته.. وكان يهمني أن أطلع على كل ما كتب.. وكان أحياناً يطلب إليّ أن أقرأ له آخر إنتاجي الشعري، ثم يطلب أن أتوقف عن القراءة؛ لأنني أؤثر فيه كما يقول!".

موت لوركا كان طعنة بليغة في قلب نيرودا.. وهذه الطعنة ساهمت في تحوله الجذري.. كان لوركا شاعراً وصديقاً، قيمة كبيرة في نفس نيرودا، تركت آثارها على سلوكه الفكري و"تصرفه" الفني.

ولقد ظلت مرثيته التي سماها: Ode á Lorca أو "قصيدة إلى لوركا.. "، ظلت المغنى الشجي لكل الأفئدة المجروحة على فقيد الإبداع الأسباني.

بالمناسبة.. بعد موت لوركا ألقى نيرودا عنه محاضرة عامة، فقام أحد الحضور يسأله: لماذا قلت في مرثيتك "قصيدة إلى لوركا"؟ إنه بفضله أصبحت المستشفيات تدهن باللون الأخضر؟!

أجاب: توجيهك مثل هذا السؤال إلى شاعر يشبه تماماً سؤالك امرأة عن عمرها!.. فالشعر ليس أحد علوم توازن القوى، حتى يمكن أن تحصل مني على إجابة دقيقة محددة.. الشعر تيار سحري ينزلق، أحياناً أو دائماً، لا إراديا من بين أصابع منشئه نفسه.. مادته الأولى مصنوعة من عناصر حقيقية مدركة.. وفي الوقت نفسه من عناصر أخرى غير حقيقية وغير مدركة.. من أشياء موجودة فعلاً.. ومن أشياء لا وجود لها على الإطلاق!".

بعد موت لوركا، كان نيرودا على موعد في باريس مع أحد رؤوس حركة "الدادية".. إنه رفيقه "أندريه بروتون".. وشاعر "عيون الزا" صديقه السوريالي المخيف: "لويس أراغون".. وكان على موعد أيضاً مع صديقه الآخر "بول الوار".. وهذان يومها كانا هما كل الواجهة الأدبية الفرنسية أو يكادان.. كان نيرودا معهما كالظل.. أو كالوشم.. طيلة إقامته في باريس، أي قبل أن يعود إلى ساندييغو.

كان مع "الوار" يتمكن دائماً من انتهاز الفرصة للعثور على معاناته الشعرية، أو أنه كان بمعنى آخر يعيش اللذة الشعرية ذاتها..

واللذة الشعرية هي "ضياع الوقت!".

يقول نيرودا: "لو أُكره الشعراء على الإجابة بصراحة وبوضوح على الاستجوابات التي توجه لهم؛ لاضطروا للكشف عن سرهم العجيب، وهو ضياع الوقت.. لا شيء أجمل عند الشاعر من ضياع الوقت.. وكل له طريقته في تذوق هذه الخاصية القديمة قدم العالم".

ويقول أيضاً: "مع بول الوار كنت أفقد مفهوم الليل والنهار، ولم أعلم قط أن كانت أحاديثنا التي نقتل بها الساعات الطويلة تتخذ شيئاً من الأهمية أم لا!".

أما عن أراغون فيقول: "كان مكينة إليكترونية من الذكاء، والفطنة، والمعرفة، والسلاقة، والحدة، والبداهة البلاغية.. كنت دائماً أترك منزل الوار والابتسامة لا تغادر شفتي دون أن أعرف لماذا؟! ولكن مع أراغون الحال تختلف!.. فإنني أقضي معه ساعات طويلة.. ولكني أتركه بعدها منهكاً متعباً.. هذا الرجل الشيطان كان كثيراً ما يكرهني على التفكير!".

ويقول عنه أيضاً: "الذي يدهشني في أراغون قدرته غير المعقولة على العمل المستمر المتصل، يملي كل رسائله ويصححها بنفسه.. ويتذكر كل تفاصيلها، ولو بعد حين. يمكث في مكتبه ساعات طويلة مفعمة بالعمل والجهد، ثم يعود إلى منزله ليكتب مؤلفاته الضخمة جداً.. وليصحح ترجماته من الروسية والإنجليزية.. وكان شعره هو أجمل ما كتب في اللغة الفرنسية".

الشعور الندي.. والعاطفة الودود.. اللذان كان يحفل بهما

قلب نيرودا الشاعر.. ونيرودا الإنسان.. كانا واسعين بحيث إنه كان يجد فيهما دائماً الاحتياطي الثر لإغناء كل ما يتوق إلى نيل الحظوة في فؤاده وروحه.

بلاده الأم "تشيلي" كانت هي حبه الكبير.. ومن أجلها نذر كل شيء في حياته.. ربما فشل في اختيار الطريقة والأسلوب اللذين عبر بهما -عملياً- عن هذا الحب.. ولكن صدق العاطفة، وإخلاص النية، كانا متوفرين.. وهما وحدهما اللذان يشفعان له في هذا الفشل.. فهل يكفي لقتل عاشق ما، أنه أخذ "شال" حبيبته ليقبله، وليشم رائحتها فيه، ولكنه دون أن يتلفت، بدل أن يلقيه على الكنبة، ألقاه على المدفأة أو في الموقد.

تشيلي بقيت دائماً لنيرودا هي المغنى.. وهي الحب الذي يسفك على قدميه كل شيء، بما في ذلك كبرياؤه لو أحوج الأمر.. وهو الذي صاح والدموع تكوي وجنتيه عندما أكرهوه على الرحيل عنها يوماً:

"يا وطني سأرحل.. ولكني سآخذك معي.. ".

وهو الذي كان يقول عندما منحوه جائزة نوبل: هذه الجائزة التي هي مطمع كل رؤوس الفكر والفن الخالص في العالم، لا تهمني بقدر ما يهمني أنني أصبحت شاعر الشعب التشيلي كله.

هذه العاطفة الوطنية عند نيرودا انطلقت تتسع كالدوائر المائية، حتى شغلت كل الأقطار التي تتكلم الأسبانية.. في المكسيك، وفي كل دول أمريكا الجنوبية، كان حضوره مستمراً.. أما أسبانيا فقد كانت تحظى أبداً ببر حفيدها المخلص نيرودا.. بكاها بكل

جوانحه في كل وعكة مخيفة هددت حياتها، أو استقرارها، وبالذات في أحداث 1936.. ثم علَّق على صدرها الخافق أشهر دواوينه وأعذبها: (أسبانيا في القلب).

وككل الناس -وخصوصاً الشعراء- كان لنيرودا طموح عاشق نحو المرأة.. ربما كانت له مغامرات.. ولكنها ظلت مغامرات مسافر.. ومخالسات راحل لا يقوى على الاستقرار في مكان واحد،

كان (يرغب) المرأة.. وكان (يحبها) أحياناً.. ولكنها ظلت دائماً تثير دهشته.. تماماً كالطيور.. وكالمطر.. وكالبحر.. وكالشفق.

طموحه العاشق نحو المرأة كان يكبله، شيء واحد هو أن نيرودا كان يخشى المرأة.. أو يهابها.. أو يخجل منها.. لقد كان دائماً يود أن يحترق بهذا اللهب حتى الرماد.. أن يغرق في هذه البئر الغامضة حتى القاع، ولكنه كان -مع الأسف- يخالف اللهب.. ولا يجرؤ على قذف نفسه في الماء.

يقول: "كنت أمر أمامهن دون النظر إليهن، فما بالك بالابتسامة..".

كان يدرك خجله هذا، وكان ينسحق به ومنه، ولهذا كان يقول: "الخجل ظرف غريب من ظروف القلب.. يفضي إلى الوحدة، وهو أيضاً توجع لا نستطيع أن ننفك عنه".

برغم الوقفات الخجولة العجلى لشاعر دائم السفر مع نساء يأتين في الظلام، ويرحلن في الظلام، مات نيرودا وفي قلبه "حفرة" كبيرة لم تملأ هي "حصة" النساء فيه.

ترى هل استقبلت زوجته "ماثيلد" كل طموحه العاشق نحو النساء؟! ترى هل كان يبحث عن التعويض في صبه بسخاء تلك العاطفة الساخنة على الغابة التشيلية التي يقول عنها: "الذي لا يعرف الغابة التشيلية لا يعرف الدنيا"؟!

وكأي شاعر كبير شغل العالم بسمعته الأدبية، ثم بسمعته السياسية حظي نيرودا.. باهتمام كثير من النقاد والمهتمين بالأدب.. فخصص هؤلاء له ولدراسة فنه الشعري مؤلفات وكتب بحالها.

وكما يقع دائماً.. كان هناك اختلاف كبير حول ظاهرة نيرودا، بين نقاده ودارسيه.. ففي هؤلاء النقاد من قال بأنه (سوريالي).. وفيهم من قال بأنه (واقعي).. ونيرودا نفسه يقول عن الفريقين: "كلهم على قليل من الحق، وكلهم على قليل من الباطل، الشعر ليس له أن يكون فوق واقعي، وليس له أيضاً أن يكون واقعياً، الشعر يمكن أن يكون ضد واقعي فقط ".

هذا هو المفهوم "الرفضي" للشعر في محيطه العام الكامل، وفي مدرسته الكبرى عند نيرودا. وهذا المفهوم من جهة أخرى يؤكد ما ردده –هو- في أكثر من مناسبة من أنه لا يحب أبداً (الماركات) الأدبية التي يلصقها النقاد بالشعراء والفنانين، كما تلصق على علب الحلوى نوعياتها، وأسماؤها، وأسماء شركاتها المصدرة، فلهذا -مثلاً- ماركة سوريالية، وهذا ماركة واقعية، وهذا ماركة رومانسية إلخ. إنه يرفض كل هذه الأشياء، ويقر شيئاً واحداً فقط ، هو "مضمون" الفنان: روحه، وقلبه، وعقله. الفنان ليس من

حقه، ولا بيده أن يختار بين طريقة وأخرى، أو أسلوب وآخر، من أجل أن يبلغ مشاعر الناس وعقولهم، وإن حاول ذلك، فهو فنان فاشل، أو ليس فناناً على الإطلاق.

وكما يقع -دائماً- من تناحر حول أي مشكلة أدبية ضخمة كنيرودا، توزع أهل النقد في تقييمه على طول امتداد المسافة بين مستويي التطرف: المحابي منهما، والجائر. ومن أشهر من جار عليه (خوان رامون جيمينيز)، الذي قال عنه: "شاعر نادر البديهة، ليس لديه شعور سبقي، يبحث عن الغريب، وعن الاكتشاف المحتوم، وهذا يولد به كل شاعر، ليس له أسلوب شخصي، ولا حس نقدي، لديه مستودع يحشر فيه كل ما يلقى، إنه شيء يشبه المزبلة.. ".

ومن المعتدلين من قال عنه ما معناه: نيرودا كالسيل.. فيه كل شيء، يمكن أن نجد فيه الجواهر، ويمكن أن نجد فيه القش، ولكن -دائماً- من أجل العثور على الجواهر، لا بد من الغوص في هذا السيل، لا بد من الحفر في بطنه.

ومن أشهر الدراسات العلمية المعتبرة التي أنجزت على أعماله الشعرية كتاب: Neruda le voyageur immobile

أو (نيـــرودا.. المـــسافر الـــذي لا يغـــادر مكانـــه)، وكتـــاب: Poésie et style de Neruda أو نيرودا شعره وأسلوبه.

أما كتاب: "أعترف بأني عشت"، فهو كتاب ألفه نيرودا قبل وفاته، ويقع في أربع مئة وخمس وسبعين صفحة (475 من القطع الكبير.. الترجمة الفرنسية). وقد أصدره قبل وفاته بأشهر قليلة،

ونشرت الترجمة الفرنسية في مارس من العام 1974. ومن أقواله في تلك المذكرات:

المذكرات: التي عندما يكتبها المتخصص في هذا الفن، فإنها لا تشبه بحال المذكرات التي يكتبها الشاعر. فالأول ربما اختبر الحياة بصورة أقل، ولكنه ينفرد عن الثاني بأنه يصور بأمانة، كأنه يعيد خلق الشيء الذي يصوره من جديد لشدة تحديده للتفاصيل. أما الثاني فإنه يقدِّم لنا رواقاً من الأشباح المفزوعة بالنار وبظلال عصرها... ربما لم أعش داخل جسدي أنا، ربما عشت حياة الآخرين، وكل ما كتبت في هذه الصفحات يشبه الغابات في فصل الخريف، ولكنه أيضاً يشبه مواسم قطف الكروم، ستسقط منه كل الأوراق الصفراء التي تحتضر، كما سيجني منه العنب الذي سيستأنف حياته في الخمر المقدس.

حياتي هي حياة صيغت من كل الحيوات، إنها حياة شاعر!".

وبعد أن فرغت من قراءته، قلت في نفسي: هذا الرجل مدهش في نثره، كما هو مدهش في شعره، كان يتحدث فيه عن كل شيء بنثر يشبه الشعر، أو أنه هو الشعر، ولكن هذا لا يمنعني من أن أنوه هنا بما لاحظه عليه بعض النقاد، وهو أنه لم يستطع أن يتخلص من طغيان التبرير السياسي الذي نلمسه مباشرة في بعض الأحيان، وفي أحايين أخرى تشمه كرائحة الإبط، التي لا يقوى على إخفائها الإنسان إذا أشتد به العرق، وإن كان نظيفاً.

كل ما قرأته لنيرودا أو عنه، قرأته في الفرنسية، فأنا لا أعرف الإسبانية، وفي العربية لم تقع يدي له على شيء.

هـذه العلامـة البـارزة علـى صـدر تـشيلي، التـي يـدعونها: (نيرودا)؛ ستظل محاراً مخيفاً لا يفنى ولا يني!!

قيـل: إن نيـرودا تـوفي بمـرض الـسرطان، ولكـن وفاتـه التـي تزامنت مع مقتل صديقه الحميم " أليندي" الزعيم التشيلي أثارت شكوكاً كثيرة حول وفاته.

بادر ماينهوف:
لو ولد عربياً

شيء من تاريخنا المعاصر:

قتل العرب حاكمين عربيين!.. قتلاً.. (مفعول مطلق!).

ذبحوهما كما يذبحون شاتين! (وجه الشبه سهولة الذبح!).. ذبحوهما هكذا، دفعة واحدة، وفي يوم وليلة، وبكل بساطة انتهى موضوع (خليفتين)، وأسدل الستار على تاريخ (سلطانين)، وبقي الشرق بأساطيره وخرافاته، يثير دائماً فضول الكوكب في كل مكان.

الغشمي، وسالم ربيع علي قُتلا، وعندما نضيف إليهما قتيل آخر هو الرئيس الحمدي، تكون هذه الأمة قد نحرت ثلاثة من زعمائها في مدة لا تزيد عن شهور ثمانية.. أي أقل من السنة. حدث ذلك في عصر الحداثة الذي يبلغ غبارها عنان السماء! في عالم لا يعد التقاتل على الكراسي. فتداول الكراسي يتم بالوسائل الديمقراطية وفق تقاليد وإجراءات لا تعرف الدم.

عندما اغتيل الأرشدوق النمساوي وزوجته عام 1914م ، كان هذا الاغتيال بمثابة المحرض المباشر لانفجار كومة المضاعفات

الخطيرة التي كانت ترهص بقيام أول حرب عالمية عرفتها البشرية. أما عند العرب، فيقتل ثلاثة زعماء عرب، بالتتالي، وفي مدة وجيزة، ثم لا يكون هناك من ردة فعل سوى "بيان" أنيق من جامعة الدول العربية بـ "تجميد" العلاقات مع الجهة المسؤولة عن هذه المجزرة، وعما سيتبعها من مجازر!!

لم يتخذ العرب، شعوباً وأنظمة، أي إجراءات من أي نوع تجاه القتلة والسفاحين الذين تربعوا فوق سدة الحكم بكل تبجح؟!

إن مقتل عضو حزبي عادي لدى الشعوب المتحضرة، يمكن أن يخلق أزمة وطنية سياسية تعيد تقويم أوضاع كل مراكز القوى في الدولة، وقد لا تتردد مطلقاً في الإطاحة كلياً بالنظام.

إن المنظمات الفوضوية اليسارية التي تغتال القادة والزعماء لا تقدم على هذه الفعلة، وهي تطمح إلى تحقيق استمراء شعبي لها يجعل منها فئات حاكمة، بل إنها لا تفكر في هذا الهدف مطلقاً؛ لأنها تعلم أن الشعوب المتحضرة ترفضها، وترفض أعمالها، وتتنكر لها.

فالمنظمات التي اغتالت الملك الإيطالي همبار الأول عام 1900م، ثم رئيس الولايات المتحدة وليم ماكنلاي عام 1901م، ثم الملك اليوناني عام 1903م، ثم أخيراً كيندي قبل عدة سنوات؛ لم تفكر مطلقاً بأنها ستحكم إيطاليا أو اليونان، أو أنها ستأخذ بزمام الأمور في أمريكا، فهي تعرف أن شعوب هذه البلدان لن تمكنها من الحكم، لا بل إنها ستزج بها في السجن، وستتخذ في حقها أقصى العقوبات من حيث كونها منظمات إجرامية.

هذه المنظمات كانت تغتال بفعل خلفيات يسارية، ولكن من

أجل "مثاليات" ثورية، رومانسية، غير بلوغ الحكم، على الأقل في بلدانها.

أما عندنا وفي تاريخنا المعاصر المجيد، فإن المنظمات الإرهابية تحكم وتُسيِّر شؤون البلاد، بل ربما عبر هؤلاء الإرهابيون في مخيلة الشعوب كأبطال وطنيين وصلوا إلى السلطة بحد السيف، فتصبح جرائمهم هكذا أفعال بطولة وفروسية!

ولهذا لا نستبعد لو كان "أندرياس بادر ماينهوف" عربياً لأهلته عملياته الإجرامية لأن يكون رئيساً لإحدى الجمهوريات العربية الثورية التقدمية. ولو كان "رناتو كورتشيو" الزعيم التاريخي لعصابة الألوية الحمراء عربياً أيضاً؛ لكان قد حكم أحد الأقطار العربية. ولو كانت الملكة الحمراء "فوراكوشيغا نوبو" رئيسة الجيش الأحمر الياباني عربية هي الأخرى؛ لكانت اليوم على رأس القيادة في أحد أنحاء هذه المنطقة المرزوءة بجهلها وبتخلفها.

ظلت هذه الأمة محظوراً عليها أن تتكلم، أو تتصرف، أو حتى تفكر. ومن أجل أن نحكمها، لابد من العبور على عدد كبير من الجماجم والأجساد.

نظام عبدالفتاح إسماعيل في عدن أنهى – قتلاً- زعيمين عربيين في أربع وعشرين ساعة، ومع هذا فهو ما يزال النظام الحاكم في اليمن. إن "الحوار" في هذه المناطق المتخلفة لن يؤدي إلى نتيجة، والديمقراطية في هذه الأجزاء المقهورة، لا تعني إلا الفوضى والبلبلة والضياع. فالحسم الوحيد لا يمكن أن يأتي إلا من فوهة مدفع، أو من تحت عجلة دبابة!

إن مقتل الإنسان في هذه الأقطار يستوي مع مقتل عجل أو خروف!

الاتحاد السوفييتي – وهو وراء كل الأحزاب الشيوعية العريقة في أوربا – لا يمكن أن يطلب إلى رئيس الحزب الشيوعي الإيطالي أن يصل إلى الحكم في إيطاليا عن طريق تصفية زعماء الحزب الديمقراطي المسيحي، ولا يمكن أن يطلب إليه أن يقبل بوجود جنود أجانب على الأراضي الإيطالية لحماية حكمه وترسيخه. فهو يدرك أن الشعب الإيطالي يعرف لغة "حوار" أخرى غير لغة القتل، وغير لغة الموت. وهو قد يبلغ أهدافه في هذا القطر الأوربي بوسائل "متحضرة"، لا تمتهن القنص والتفجير.

لكن الاتحاد السوفيتي لم يتردد لحظة واحدة في تعبئة جسور جوية بأدوات الدمار نحو أنغولا، وأثيوبيا، وعدن للتبشير بالفكرة الشيوعية، ولتثبيت الحكام الذين سيؤدون رسالتهم بأمانة. بل إن طموحه الذي لا يتجاوز في أوربا تعميم فكره النظام الاشتراكي، قد يبلغ مستوى أكثر تفوقاً عندما يكون عالمنا الثالث هو الهدف؛ فيصل هذا الطموح إلى مستوى استغلال الثروات القومية، والحصول على القواعد العسكرية الجوية والبحرية. والسبب بسيط، فهو يعرف أن الشعوب الأوربية سوف لا تجد أي حرج في مقاومة نواياه، مهما كان حكامها ممعنين في مولاته، بينما يدرك على الجانب الآخر أن شعوبنا المسكينة لا تستطيع أن ترى إلاّ ما يراه حكامها، وهي لو رأت - لا سمح الله- غير ذلك؛ فإن مصيرها أن تسحق وأن تسحل، وأن تقذف إلى ما وراء الشمس.

إن من مبادئ حسن الولاء عندنا، هو الطاعة المطلقة

للحاكم، وإخلاصه لكل هموم الوطن. أما الشعب فيجب أن يرتاح، وألا يشغل نفسه بالسياسة، فالحاكم يقوم عنه بكل المهمات. وأي مواطن تسوّل له نفسه بغير ذلك؛ فإن أقل ما يوصف به، هو أنه إمبريالي.. ورجعي.. وخائن.. ومعرقل لجهود الحزب؛ ولهذا يجب أن ينتهي!! يجب القضاء عليه ذبحاً كما الشاه.. أو رمياً بالرصاص كما الخنازير.

شيء آخر أكثر إيلاماً.

هو أن القوى الشيوعية كانت تحرص في منطقة، مثل المنطقة الأوربية على أن تتعامل مع الشعوب؛ لأن هذه الشعوب تقرأ، وتكتب، وتفهم، وتفكر، وتختار، وترفض. وهي قبل كل هذا، وبعد كل هذا؛ الجهة الوحيدة التي تحدد نوعية الأيديولوجية أو النظام السياسي الذي يجب أن تتعامل معه؛ لهذا فإن من مصلحتها أن تسعى إلى هذه الشعوب فتحاور، وتجادل، وتختلق الأزمات السياسية، وتستغل الضائقات الاقتصادية، وتشكك في النظم القائمة، وتزجي الوعود الخضراء، وتراهن على المستقبل الطوبي؛ فتقيم المناظرات، وتعقد الندوات، وتصدر المؤلفات والنشرات والإعلانات، وتستقطب المثقفين والفنانين ورجال الصحافة وطلاب الجامعات وعمال المصانع، ويظل الأمر هكذا. وقد تغرق في هذه المناورات الطويلة التي لا تنتهي! وغالباً ما يحصل شيء من هذا.

لكن القوى التقدمية في منطقة، مثل منطقة العالم الثالث، كانت لا تستخدم أي وسيلة من هذه الوسائل المملة التي تلتهم الوقت وتقتله. فهي لا تتعامل مع الشعوب مطلقاً لأسباب لا يحيط بها إلاّ البارئ الجبار والمتكبر، ومنها أن هذه الشعوب، هي شعوب أمية

لا تقـرأ، ولا تكتـب، ولا تفهـم، ولا تفكـر، ولـيس لهـا الحـق فـي أن تختار،كمـا أنـه لـيس مـن صـلاحياتها أن تـرفض. إن مـن واجبهـا أن تـذعن فقـط، وأن تـساق نحـو منـاطق العمـل والإنتـاج كالماشـية، وأن يقدم لها الأكل في زرائبها كالبهائم. إنها غير قادرة على الاشتراك في تحديد هوية النظام الذي يتعامل معها، وعلى هـذا الأسـاس يجب أن يقوم بهذه المهمة عنها غيرها!

توجـــه القـــوى التقدميـــة نحـــو الـــشعوب فـــي عالمنـــا إذاً غيـر مفيـد وهـو مـضيعة للوقـت. ومـن هنـا كـان لابـد مـن خلـق اسـتراتيجية حيويـة للأخـذ بيـد هـذا المـواطن إلـى مـستقبل أحلـى وأجمـل، ومـن ثـم اختـاروا القـوة، والقهـر، والقتـل، والقنابـل، والرصاص. وكان لابد من تحديد جهة تنفذ هذه الاستراتيجية بأمانة وبـدون تـردد، ودون الـشعور بـأي حـرج، فجـاء التركيـز علـى "العسكر"، مثل منغستو، وعلى الثوريين الفوضويين، مثل عبدالفتاح إسـماعيل فـي عـدن، الـذي جنـدل الرؤسـاء جندلـة "مفعـول مطلـق أيضاً!".

فالـشعوب ملغـاة تمامـاً مـن اسـتراتيجية الـسلطة الحاكمـة فـي العالم الثالث. وهذه الشعوب عليها أن تأخذ بأفكار الحـاكم "فـرداً أو مؤسسة" قهراً؛ لأنه لن يكون بمقدورها أن تعتنقها اختياراً.

فـي أنمـاط حيـاة شـعوبنا، وفـي تـصرفاتها اليوميـة، وفـي طريقـة اسـتيعابها لمـشاكلها الداخليـة والخارجيـة، وفـي مواقفهـا مـن هـذه المـشاكل؛ مـا يبـرر وجـود اللـصوص وقطـاع الطـرق علـى عـروش الحكم، وما يسوغ بقاء القتلة والسفاحين في واجهات القيادة!

فـي اليـمن مـثلاً.. نقـول: مـثلاً، قتلـوا ثلاثـة رؤسـاء، وسـفكوا

دمـاءهم، ونثـروا أشـلاءهم، فـي مـدة لا تكفـي مطلقـاً لتهيئـة مرشـح حزبي واحد لرئاسة بلدية إحدى المدن الصغيرة في دولة متحضرة. قتلوهم، واستمروا يحكمون!

لم يسألوا أبداً عن اهتزاز الثقة الشعبية فيهم، فهذه الثقة لم تكن أصلاً طريقهم إلى السلطة، وهم ليسوا في حاجاتها لبقائهم في الحكم.

هم يعرفون أن أي شعب في العالم لا يمكن أن يولي ثقته قاتلا أو إرهابيا، وهم بوصفهم قتلة وإرهابيين، لم يكن منافياً لطبيعتهم ولأخلاقياتهم أن يبقوا على أنفسهم في الحكم.

قلنا: في اليمن؟! نعم قلنا ذلك، ولكن تاريخنا المعاصر كله، هو تاريخ اليمن. فالزعماء الذين حكموا هذه الشعوب وأذلوها جاؤوا دائماً على ظهر دبابة، أو خرجوا إلى الناس من فوهة مدفع.

الشعب العربي لم يحاول أن يفرض احترامه علـــى طالبي الحكم والطامحين إلى السلطة، ولهذا ظل موضوعاً حيوياً للإهانة وللعار.

فرانسوا ميتران الاشتراكي كان يريد أن يكون (حاكم) فرنسا بدلاً من ديغول، ثم بدلاً من جورج بومبيدو، ثم أخيراً بدلا من جيسكار ديستان. وقد خاض من أجل ذلك عدة معارك انتخابية، وفشل فيها كلها. لقد أضاع من عمره أكثر من ثلاثين سنة، وهو يسعى نحو الحكم، يريد أن يكون سيد فرنسا الأول دون جدوى. لقد كان بإمكانه أن يختصر هذه السنوات الثلاثين في ساعة واحدة، ويحكم ثالث قوة صناعية في العالم. كان بإمكانه أن يغتال ديغول، أو

بومبيـدو، أو جيـسكار ديـستان؛ فيكـون الآمـر النـاهي فـي الإليزيـة، وينتهي الأمر!

وجـورج مارشـيه الـشيوعي ظـل يريـد أن تـصبح فرنـسا قـوة شـيوعية كبـرى في أوربـا، فأصـدر البيانـات، وألقـى الخطابـات، وعقـد المؤتمرات، ودخل بحزبه الانتخابات النيابية وغير النيابية، ومع هـذا فقـد تبـدد كفاحـه أيمـا تبـدد، فلـم تـصبح فرنـسا شـيوعية علـى طـول سنين هـذا الـصراع الحـاد. لقـد أضـاع مارشـيه عمـراً كـاملاً مـن أجـل تحويل بلاده إلى قـوة شـيوعية، وكـان بإمكانـه هـو الآخـر أن يختـصر كـل هـذه الـسنين الممتـدة فـي يـوم وليليـة، فيؤلـب بعـض وحـدات الجـيش، ويعـد لانقـلاب عـسكري ضـد رؤسـاء الجمهوريـة الفرنـسية الخامسة، فيصل إلى السلطة، ويفرض الحـزب الواحـد الحاكم،فتـصبح فرنسا شيوعية رغم أنف الفرنسيين، ورغم أنف التاريخ.

إن أمراً كهـذا ألـم يكـن ممكنـاً؛ لأن الـشعب الفرنـسي شـعب غيـر أمـي، وشـعب يفكـر، ويختـار، ويـرفض، ولـه إرادة.. ولـه كرامـة.. ولـه كبرياء.

يـا شـعوب العـالم الثالـث، لابـد أن تـدخلي المدرسـة، ولابـد أن تقـرأي كتـب الهجـاء والمطالعـة! ولابـد أن تتعلمـي مبـادئ التـاريخ والجغرافيا.

وعنـدما يجـيء اليـوم الـذي تـصبحين فيـه عالمـة متعلمـة، ستعترفين بخجـل أنـه كانـت هنـاك مرحلـة تاريخيـة مـا لـم تكـوني فيهـا (محترمة)، بل كنت مجردة من أي إرادة، ومن أي رأي! كنت كالأغنام تحـاش إلـى المرعـى بعـصا، وتـساق إلـى الزرائـب بعـصا أيـضاً. نقـول: عندما يجيء اليوم الذي تستطيعين فيه أن تفكي الحرف ستتبينين أن

لك كبرياء قد ديست، وأن لك تراثا قد أحرق، وأن لك تاريخا قد شوه، وأن لك عقائد قد مسخت، وأن لك ثروات قد التهمت وامتصت وبددت!

من سيكون فيدلا في تاريخ الأرجنتين؟! ومن سيكون منغستو في تاريخ أثيوبيا؟! لن يكونا أكثر من سجانين غليظين يقفان على أوسع أبواب سجون الوجه الآخر للإمبراطورية البشرية، ولن يكونا أكثر من جلادين يشهران خناجرهما في ساحات الإبادة الجماعية، يوم ينحر البشر كما تنحر الخنازير!

العرب عندهم قائمة طويلة من السجانين، والجلادين، ومحترفي التهريب، و(القوادة) السياسية!.. والوطن عند هؤلاء سوى عاهرة ليل، يجب أن تنقاد إلى سرير (الزبون) طوعاً أو كرهاً، ما دام أنه سيدفع قيمة (البقشيش) للسمسار.

والوطن عندهم (عبد) مملوك يبيعه سيده متى شاء، ويبقى عليه متى شاء، وأن عصى أو تمرد، فدواؤه (الخصي)، أو سمل العينين!

والوطن عندهم رطل من (الحشيش)، يجب أن يتجاوز موظف الحدود، وإن تكلم هذا الموظف، فالمسدسات الصامتة أو الصاعقة تتولى شرح الفكرة له باقتضاب، اقتض بي شديد.

ألا ترون أن أندرياس بادر ماينهوف كان مخولاً لأن يصبح رئيساً لإحدى الدول العربية؟!

هو أيضاً كان "ثورياً"، وكان ضد الإمبريالية العالمية، وأيضاً كان يريد تحطيم مجتمع الاستهلاك، وكان يطمح إلى إنهاء

البرجوازية الغربية، وكان يعبد البرولتاريا.

كان يحمل في رأسه كل أدوات ومثاليات حرب الطبقات، وكان يقتل، و يفجر القنابل، ويثير الرعب في كل أرجاء ألمانيا وأوربا عموماً. لكن مشكلة هذا (الشقي)، أنه لم يكن عربياً، ولم ينفذ جرائمه في بلد عربي، ولم يلطخ سترته وبنطلونه بدماء عربية، وإلا لكان أصبح زعيماً مبجلاً يدعى إلى مؤتمرات القمة، ويبعث له زعماء الدول الأخرى برقيات التهاني في مناسبات توليه السلطة، ويستشار في مستقبل قضية فلسطين ومصير القدس الشريف، وتتناقل الصحف تصريحاته حول التضامن العربي وحقوق الإنسان!

بادر ماينهوف شاء له حظه العاثر أن يكون ألمانياً، وأن يقوم بعمليات القتل في الأماكن الخطأ، وضد الشعب الخطأ، فما كان من نصيبه سوى ملاحقة البوليس، ومطاردة رجال المباحث، ثم السجن الذي بقي فيه حتى انتحر، فودعت ألمانيا – بدون أسف – سفَّاحاً مجرماً كان يمكن أن يكون في غير بلاده سلطاناً، وزعيماً، وقائداً.

بالوما بيكاسو:
تستحم في الدماء

بالوما.. هذا هو اسم ابنة سيد رسامي القرن العشرين، الرجل الأسطورة.. بيكاسو.

هذه الطفلة الشرسة كانت تعبر دائماً عن عقوقها للاسم الثقيل الذي تحمله بطرق مختلفة، ومنها الفضائح التي لم تتردد في اقترافها رفضاً لاسم والدها العظيم، وهي في أكثر من مناسبة أعلنت: "أرفض أن أكون مدموازيل بيكاسو"، وقد رددت ذلك لسنوات طويلة، ولكن الناس كانوا دائماً يصرون على أن تكون هذه الطفلة الشرود: مدموازيل بيكاسو على الرغم منها!

تدخل إلى مقهى، إلى مطعم، إلى فندق، أو تمشي في الشارع، لا يهتم بها الناس كثيراً. إنهم ينظرون إليها كأي فتاة جميلة فقط، ولكنهم عندما يتأملون ويقرؤون في وجهها حروف اسم أبيها الكبير "بيكاسو"، يحنون رؤوسهم تحية للإرث الجبار الذي تركه هذا الرجل للبشرية، يحتفون بها، يزفونها إلى حيث تريد، كأنهم يريدون أن ينفذوا من خلال عيونها السوداء، وشعرها الحالك، إلى ما كان يخفيه أبوها داخل جمجمته الرحبة من إرهاصات مافتئ يتحدث عنها

تاريخ الفن العالمي في كل مكان بإسهاب وشوق.

كل هذا كان يؤرق "بالوما"، يضايقها، يذكي جذوة "الحقد" في ذاتها. فهي تريد أن تكون بالوما وكفى، بدون بيكاسو. تريد أن يحتفي بها الناس؛ لأنها "بالوما" فقط ، وليس لأنها ابنة الرسام الضخم المدهش.

ولكن إذا لم يكن الأمر مرده استقلالية مثالية، فما الذي يختفي إذاً وراء هذا العقوق، في حين أن كل شاب أو شابة من جيلها يتمنى أن يكون ابناً أو ابنة لبيكاسو.

القصة تبدأ منذ أن كانت بالوما طفلة مع أخيها كلود يتفيآن ظلال عملاقين: بيكاسو الأب، وفرانسوازجيلو الأم، وهذه الأخيرة هي المرأة الجسور التي استطاعت أن تقف في يوم ما تحت مناخير بيكاسو لتقول له: "أيش يعني بيكاسو"، فأنا أيضاً أجيد الرسم، إنها أيضاً المرأة الوحيدة بين النساء اللاتي عرفهن بيكاسو التي سحبت نفسها من جانبه، وأدارت له ظهرها، وفارقته وهي تلوح بيدها "تشاو بيكاسو". فالمعتاد والمألوف والمعروف أن بيكاسو، هو الذي يغادر نساءه، ولكن مع فرانسوازجيلو، كان هو المطعون في عزته وجبروته؛ لأنها هي التي تركته.

فرنسوازجيلو تركت بيكاسو وفرنسا كلها لتبني حياة جديدة في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهناك أنشأت مرسماً، وفيه أخذت تقدم للناس لوحاتها وأعمالها الفنية، كأنها كانت تحلم بتخطي بيكاسو وتجاوزه!

في هذه الأثناء، كانت "بالوما" هي الطفلة المدللة لبيكاسو،

وكان يجد فيها وفي أخيها كلود العزاء عن كل ما فقد برحيل فرانسوازجيلو، فقد كانا العلاج لطعنة الأم التي ما تزال توقظ في الأسد الجريح كل دواعي الألم، ولقد كان يؤكد على زوجته الجديدة بأن تولي الطفلين كل ما يفتقران إليه من حنان الأمومة.

ولكن كل هذا لم ينقذ بالوما من مضاعفات نفسية خطيرة معقدة بجبروت الأب، وغطرسة الأم، وكل هذا لم يغنها عن الجوع الشديد لتحسس "الجبهة" الجموح لتلك الأم التي استطاعت أن تتمرد على طاعة إنسان كله مجد، وكله تاريخ وعبقرية، هو بيكاسو. لم تجد بالوما فيما فعلته أمها حمقاً، بل وجدت فيه كبرياء، ولهذا كانت لديها الرغبة الحية الدائمة في أن تشد على يدها: "برافوا ماما!!".

بالوما لم تكتشف هذه الرغبة في نفسها بوضوح تام، إلاّ بعد أن أصدرت أمها كتاب"أن تعيش مع بيكاسو"، ويقع في أربع مئة صفحة، وكان قد طُبع منه يومها خمس مئة ألف نسخة. هذا الكتاب نزل على رأس بيكاسو كالصاعقة، لقد شرحت فيه فرانسوازجيلو كل ما كان بيكاسو لا يود إظهاره للناس. كانت هذه هي الطعنة الثانية في عمق كبرياء بيكاسو، الذي أدرك الآن أن ألمه ما برح يزداد تفاقماً، وأن امرأته المارقة فرانسوازجيلو ما تفتأ تنكأ ذلك الألم في كل مناسبة مواتية، مستخدمة من الأسلحة أقواها، ومن الوسائل أمضاها: الكتب، في مواجهة جبل شاهق في حجم بيكاسو، ثم شرع بيكاسو نفسه في ترجمة ذلك الألم في أشكال من الحقد المرير الذي يشاء – على الرغم من حب بيكاسو لبالوما - أن يفرز شيئاً من مضاعفاته على سلوك الوالد نحو ابنته، فهي ابنة المرأة العاصية

الـشريرة فرانـسواز جيلـو، ولا مجـال للهـرب مـن هـذه الحقيقـة، ولا فرصـة لمراوغتهـا أو اسـتبعادها مـن أي معالجـة للعلاقـة بـين الأب وابنته.. لا.. لا.. لم يكن بإمكانه إلاّ أن يتصور أمها فيها!

بالومـا في خلال حياتها بـالقرب من أبيهـا، كانـت تـضع أصبعها كل يـوم جديـد علـى مـوطن مـن مـواطن حب التسلط في أبيهـا. كـان هذا يغذي إعجابها بأمها التي استطاعت أن تـذل فيه هـذا التسلط، ويعزز هذا الإعجاب حاجة طبيعية دفينة في ذاتها، تتمثل في رغبة الاستئناس إلى عطف الأمومة الحقيقي!

استطاعت بالومـا أن تقول ذلك بوضوح عندما نشبت المعركة بين الأم والأب حول كتاب "أن تعيش مع بيكاسو"، إذ انضمت بالوما إلى حزب الأم، وكذلك أخوها كلود. عمل بيكاسو كل ما في وسعه بالمال والجاه، بالسمعة، وبالعنف، على ألا يدخل الكتاب إلى فرنسا، حيث يقيم، ولكن النصر هذه المرة أيضاً لم يكن حليف بيكاسو. فالسلطات الفرنسية لم تجد في يد بيكاسو ما يمكنها قانونياً من منع دخول الكتاب إلى فرنسا، فسمحت له بالدخول. أجل، كانت هذه هي الطعنة الثالثة التي تمكنت - فعلاً - من صدر العملاق الذي لا يتعب. طعنة سددتها إليه الأم، وصفقت لها بالوما وأخوها كلود.

أسند بيكاسو سلاحه إلى الجدار واستراح.

أخذ على نفسه من يومها ألا يسمح لولديه: بالوما، وكلود بأن يقابلاه أو يلتقياه ما عاش، ومن هنا كانت بداية هجرة بالوما إلى فضائها الخاص، وتواجدها وحيدة، لا أباً معها، ولا أماً حولها.

إرث بالومـا الأخلاقـي الـذي أخذتـه عـن أمهـا، وهـو الرغبـة فـي

المروق والعناد، وإرثها النفسي والغريزي الذي أخذته عن أبيها، وهو الرغبة في البروز إلى الواجهة دائماً، ورد الفعل الذي - على أساس ما تقدم- يرفض أن يستقبلها الناس على "صورتين": صورة ليس فيها أي اهتمام أو عناية، عندما لا يعلمون بأن علاقة نسب قوية تربطها ببيكاسو. وصورة الحفاوة والإكبار عندما يبلغهم أنها ابنه الرسام العظيم.

كل هذه الأشياء كانت تثير في داخلها الحسد لهذا الوالد الذي استبد بكل شيء عنها، وعن أمها وأخيها، حتى أن الناس ينسون أنها إنسان له مشاعره وهمومه ومشاكله الخاصة، ويتذكرون فقط أنها ابنة بيكاسو. وعندما يجلسون إليها، فهم لايسألونها عن حياتها، عن نشاطها، عن مستقبلها، عن عملها، بل يسألونها دائماً عن أبيها، عن حياته الخاصة، عن شؤونه الخاصة، كيف يأكل؟ كيف يشرب؟؟ متى ينام؟؟ متى يرسم؟!.. كيف يعامل أولاده وأسرته؟!.. إلخ.

وكان ذلك يدفعها إلى الرغبة في أن تقول لكل هؤلاء: "كفاية ياناس"، اسألوني عن نفسي، بمعنى آخر: كانت تريد أن تعلن استقلالها عن بيكاسو، كانت تريد أن تقذف هذا الاسم إلى الجحيم، كانت تريد تكوين شخصية مستقلة يتحدث عنها الناس بمعزل عن بيكاسو.

كان يعزز ذلك شيء من الغضب على الأب المتجبر الذي، بعد أن طردها وأخاها، أخذ يبعث لهما شهرياً من المال ما يستطيعان أن يعيشا به، ولم يكن ذلك حنواً عليهما، وإنما كان إمعاناً في الكبرياء!.. كبرياؤه هو!

بالوما حزمت حقائبها وشدت الرحال إلى نيويورك، ومن هناك أرادت أن تبدأ حياتها الجديدة، في فضاء غير فضاءات بيكاسو، فعملت رسامة ومصممة، ثم ذهبت إلى روما، وهناك أخذت تصمم حقائب يدوية، وأحذية، وأغطية أسرَّة. تركت هذه المهنة، واشتركت في تصنيع المجوهرات في أكبر مخزن للمجوهرات في أثينا باليونان.

كانت في كل تنقلاتها تحاول أن تخفي عن الناس أنها مدموازيل بيكاسو؛ لتثبت لنفسها وللآخرين أنها تستطيع أن تكون شيئاً آخر مجرداً من سمعة أبيها.

لم يحالف بالوما أي نجاح في مسارها الطويل الذي أخذته على نفسها، فالناس ينسون أنها رسامة، وينسون أنها مصممة، وينسون أنها مخترعة مجوهرات، ويتذكرون فقط أنها ابنة بيكاسو!

هذا هو الاسم الكابوس.. الذي يرهقها في وحدتها، وفي صحوها ونومها، وفي غدوها ورواحها، في الأماكن العامة، أو مع صديقاتها.

عندما جاء إليها المخرج وكاتب السيناريو البولوني "واليريان يوروفكزيك" يعرض عليها رغبته في إشراكها في بطولة فيلمه "قصص لا أخلاقية"، كانت بالوما مهيأة نفسياً لقبول العرض، لم تمانع على الرغم من معرفتها بأن هذا الفيلم لا أخلاقي، وغبي، ومبتذل.

عندما جاء إليها المخرج كان يدفن في رأسه خطة صفقة تجارية ضخمة، وهي: إقناع بالوما بالاشتراك في الفيلم، ليس لأنها ممثلة قديرة، فهذه أول مشاركة فعلية لها في السينما، وليس لأنها

جميلة، فهناك بين نجوم الخلاعة والإغراء من هن في مثل جمالها، أو ربما أجمل منها، ولكنها، أهم من ذلك، ابنة بيكاسو. والناس سيتهافتون على الفيلم ليروا ما تفعله بجسدها ابنة بيكاسو.

بالوما كانت تدرك كل ما يدور في رأس المخرج، ولكنها هي الأخرى كانت تدفن في رأسها أحد مكسبين معنويين سيتمخض عنه عملها هذا: إما فضيحة مجلجلة تشغل الناس بها، وتصرفهم عن الاهتمام بأبيها، وإما مجد تحققه في عالم السينما، يفضي إلى الهدف نفسه، وهو الحديث عن بالوما الممثلة الجديدة الناجحة، والكف عن الحديث عن "بالوما ابنة بيكاسو".

غمزت بإحدى عينيها للمخرج، واشتركت في الفيلم. وفي وقت لاحق، ذهب الناس لمشاهدته، وتكالبوا بأعداد كبيرة على صالات السينما التي تعرضه، وكانت النتيجة: ابتسامة عريضة تملأ أشداق المخرج ومنتج الفيلم؛ لأنهما قد حققا الهدف الذي كانا يطمحان إليه، ولكن كانت هناك دمعة ساخنة، وأسى يحز فؤاد بالوما، فهي خسرت في هذا الفيلم كل شيء، ولم تظفر - في المقابل- بأي شيء. كانت فضيحة أخلاقية فحسب. فالناس يتحدثون عنها - هنا أيضاً- بصفتها ابنة بيكاسو، بل ربما أكثر من السابق، ولم يتحدثوا عنها كفتاة خليعة اسمها بالوما، تنضم إلى عالم الخليعات، بل ظلت "ابنة بيكاسو"، على الرغم من الثمن الباهظ الذي دفعته. كان الناس ينظرون إليها في السابق بإكبار؛ لأنها ابنة بيكاسو، وهم ينظرون إليها اليوم باشمئزاز؛ لأنها ابنة بيكاسو أيضاً.

الفيلم؟ ذهبتُ لمشاهدته يومها.

كنت أتوقع قبل الدخول إلى الصالة بأنه ككل الأفلام الغبية

التجارية المبتذلة التي تملأ الأسواق، وإنما ذهبت، مثل الكثيرين غيري، لأرى ماذا ستفعل بجسدها بالوما.

يتكون الفيلم من أربع حكايات، بالوما تؤدي دور البطولة في الحكاية الثالثة فقط من الفيلم.

كل حكايات الفيلم الأربع، وبالذات حكاية بالوما مليئة بالعهر والابتذال، لم يكن للحكاية أو لبالوما أي هدف غير إضرام جذوة العاطفة المريضة لدى المشاهدين. تنهي بالوما "حصتها" في الفيلم بالاستحمام في (بانيو) كبير يفيض بالدماء الحمراء.

صحيح أن بيكاسو ألَّف مسرحية طويلة، بطلتها تقدم دورها في كل المسرحية بطريقة خليعة، ولكنها ليست مبتذلة وتجارية وجافة، ومفتقرة لكل معطيات الفن والإبداع، كما فعلت بالوما في فيلمها!!

بالوما، انظري إلى الخلف لترى عيني هذا الجبار أبيك خلفك مشحونتين بالدموع. إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً، ليس لديه من حيلة؛ لأنه فنان؛ ولأنه مات. مات منذ أن غادرته فرانسوازجيلو! ومنذ أن أخذت تجهز عليه بالطعنات المتوالية، كالشهاب القادمة من عمق الجحيم!

ليس مطلوباً من العظماء أن يكونوا عظماء دائماً في كل شيء، فهم قد يكونون من أضعف خلق الله تجاه بعض التصاريف، وقد تخونهم عبقرياتهم في أمور بسيطة وعادية، وذلك فقط لمجرد أن تذكرهم ببشريتهم، أو أنها تذكرنا نحن بأن البلور الجميل الناصع المشع قبل للكسر أيضاً!

بدر بن عبدالمحسن:
الجرأة الفاتنة.. ودمها الحار

بدر بن عبدالمحسن "رجل طويل".. ينظم الشعر!

هذا قول هادئ يجترح السكون، وهو في تعريف الكلام: "لفظ مفيد كاستقم!"

لكن الأكثر إفادة، والأكثر استقامة مع سياق حديثنا هذا، هو أن نقول بقدر أكبر من الإلحاح: بدر بن عبدالمحسن "شاعر طويل"، ينشر الحب في أنحاء الأرض، وفي أنحائنا!

أجل! فأنا أحسبه مكلَّفاً بإذاعة الحب بين الناس!.. فهو ينفثه في الهواء، يبثه في همس الماء.

هل قلنا: شاعر طويل؟!.. فقط؟! إن هذا لا يكفي! فهو في الحق فارع الطول، يطول ويطول، حتى يغيب هامه في سحاب الشعر!.. أعني في الحقل اليافع، حقل المغامرة اللغوية الجميلة، حقل الإبداع.

كلما تقدّمتَ إلى العالم الشعري لبدر بن عبدالمحسن خطوة أو خطوات، انتابكَ شعور ملح بأن "القصيدة" عند هذا الشاعر، إنما

هي إنجاز "مترف" من الخطوط النابهة، ومن التقاطعات، والتعاريج، والألوان، والضوء، والظلال، يتداخل في فضائها الرحب الحلم، والوهم، والذكرى، والخوف، والوله، والفرح، والدهشة. ويختلط في جنابها الحي الماضي بالآتي، ويستوي على متنها الممكن واللاممكن.

وأحسب أن بدراً في غزلياته، وهي كُثر، يحاول أن يقدم في كل مرة تجربة جديدة في مسألة العشق، تلك المسألة التي يخوض فيها الكثيرون، ولكن القليلين هم الذين يقولون المفيد، والصميمي، والجديد الباهر!

من القراءة الأولى للقصائد التي يكتبها بدر، يتملكك إحساس كاسح بأن هذا الرجل الشاعر له في كل يوم تجربة جديدة مع الحب. وتجارب الشعراء دائماً مستفزة، ومحرضة، فهم في عالمهم الخاص الذي ينسجونه من غشاء القلب، وخيوط الدم؛ "يحبون" في كل لحظة، بل في كل ما هو أشحّ من اللحظة. لكنه الحب في مجاله الفسيح، الأبيض، اللامنتهي. ذلك الحب الذي لا يأتي أبداً استجابة لمجرد لنشوة، أو إرضاء لغرض النزوة، بل يهطل في سخاء من أجل الروح، ومن أجل الفن، أو من أجل الناس. هؤلاء الناس الذين يكتشفون فجأة، وفي كل يوم، أن عليهم أن يتعلموا الحب من جديد، هذا الحب الذي يلقيه عليهم في دروس عامة الشعراء وليس غيرهم. الحب الذي هو حب في قصده وغايته، للحب!

عجيب أمر بدر! فكلما قرأت له "قصيدة" شعرت بأنه يدفعني من كتفي بلا هوادة، نحو مشهد جديد كان له فيه مطارحة "مختلفة" مع الحب، وفي نهاية كل مشهد كأنني أسمعه يردد دون كلل:

آه.. يالعطش!

جفّت شفاهي

وصوتي الواهي ارتعش

لو حبيبي ما سقاني ألما

لو شربت أظما لحبيبي.. وللعطش!

ديمومة العطش، والوصل، ومن ثم العطش من جديد، في متتالية ليست لها نهاية، أو أنها لا تريد أن تصل إلى نهايتها، أو حتفها.. أو تواريها. هذا هو فهم العشق.

وهذا هو بدر في كل قصائده التي قرأت أو سمعت، فهو لا يكفّ عن التحدي، والمغامرة، ولا يتوب مطلقاً عن الحب! واستمرار الحياة.. وهي ليست بذات قيمة من دون حب!

سمعته مرة يقول:

ابوعدك.. كان الطريق بيبعدك

بامشي الطريق

وكان الجحود بيسعدِك

مالي رفيق

ابجمع أوراق السنين وودّعك.

كان الفراق اللي تبين.. الله مَعِكْ!

ظننته، للوهلة الأولى، سيسند رمحه إلى الجدار ويستريح، سيعطي قلبه إجازة قصيرة، ثم يعيد الحساب، سيضع قدمه خلف أسوار مملكة الحب، ولو لمرة واحدة على الأقل، سيطلق العصفورة،

وسيتركها تغني بحرية خارج فضاء لغته ولو لحظة واحدة على أسوأ التقديرات، ولكنني فجأة أتذكر أنه يقول في أول القصيدة نفسها:

أبعتذر ..عن كل شيء

ألاّ الهوى.. ما للهوى عندي عذر.

ثم يقول في مكان آخر:

أتصدقي..ما اخترت أنا أحبك

ما حدٍ يحب اللي يبي.

سكنتي جروحي غصب.

ثـم يلقـي عليهـا سـرباله الـسرمدي.. فـي مكاشـفة متوقعـة ومحسوبة من عاشق عنيد مثله:

يا حبي المرّ.. العذب

ليت الهوى وأنتي كذب

كان اعتذر لك عن هواي!

فالهوى هو وجوده، وهو فضاؤه الرحب الذي يتنفس فيه، ولا حقيقة أكثر إبهاراً ورسوخاً من حقيقة الحب، وكيف له أن يتصور إنكاراً من أي نوع لمعنى الحياة.

إنه - بلا تردد- يضرب المستحيل في مستحيل آخر (هي كذب، الهوى كذب)، فتكون النتيجة الإصرار والاستمرار: "ما للهوى عندي عذر".

العاشق من هذا النوع الغاشم لا يتعب، ولا يريد أن يتعب، وهو لا يختلف كثيراً عن الفارس المولع بالكرّ والفرّ، المشدود إلى

السنان والطعان، مهما كانت المخاطر أو نُذر الموت. فإذا كان الفارس ذو البأس الشديد لا يجد، حين يخلو إلى نفسه، حرجاً في إزاحة الثياب عن جراحه، ومن ثمّ قياسها، والمسح عليها؛ فإن الشاعر العنيد في عشقه، الغاشم في استحواذه، لابد أنه يبكي كثيراً، وهو وحيد في خلوته. أي أنه هناك في المكان الأقصى، بعيداً عن الزهو، أو المكابرة والعناد، يصيح على هذا النحو الممض:

وليت يـــاليل التبـــاريح ولّيـــــت

أما محانـــــي الحـزن وإلاّ كـتبنـي

كل السما في دفتري وإن تجليت

مثل الشموس.. إغبار قبري حجبني

ويظل الشيء الذي يدهشني ويغريني في تجربة بدر، هو أنه بقدر ما يبدو متمكناً من أدوات حبّه فهو - في الوقت نفسه- متمكن كل التمكن من أدوات شعره. وهذا وضع يريحه بطبيعة الحال. فالبوح عندي وعنده، هو منتصف المغامرة وبعض العلاج. وأيُّ بوح يصبّه بدر على الورق؟! إن هذا الشاعر يتميز عن كل من سواه من أقرانه بأن يحاول دائماً أن يجمع تحت سنِّه، بين فرائد المخزون الشعبي التقليدي، وبين مركّبات الذاكرة المعاصرة لجيله هذا، وللأجيال التي ستأتي. إنه استشراف الحلم، وهو استشراف الوعد الشعري الجميل، وذلكم أمر يتجلى بشكل واضح في تجربة هذا الشاعر بكامل أبعادها، شكلاً ومضموناً، لغةً وحمولةً ثقافية، زمناً وإحالاتٍ حضارية، مرجعيةً وتفاعلاً مع مفاجآت الحياة واختراقاتها التي لا تستأذن أحداً. الحياة التي تفقد عنده صفة الركود والاستكانة، والثبات والجمود:

لي صاحب وأنا ما تخلى تخليت

لابد ما نهدم ولا بـــــد نبنـــي

ولا فرق بين الشعر كتجربة انفعالية إبداعية لا تقبل الاجترار والتكرار، وبين الحياة كممارسة وفهم وطموح وتحول نحو الأجمل والأمثل. فبدر متطور في شعره كما هو متطور في علاقاته بالزمن والكون والحياة. ولا غرابة أبداً –بناء على هذا- أن نجده أكثر وضوحاً، بملامحه وسحنته وعناده وهامته الطويلة، في شعره الشعبي الجديد أكثر مما هو الحال في شعره النبطي التقليدي. وهذه نقطة مهمة في رأيي. فكأنني أحسُّه يلجأ إلى هذا الأخير –أحياناً- لأنه يعرف أن للنبطي هيبته الكبرى التي يستمدها من جذوره العميقة الراسخة في البُنى الثقافية والنفسية لأهل هذه البلاد. وبدر يعرف أيضاً أن هذا الشعر، هو ديوان أجداده، أجدادنا البدو، فهو سجلّ حافل لأيامهم وأخبارهم وبطولاتهم، وبناء عليه فإن عراقة الأرومة في الشاعر تحتم عليه-كما يحس- أن يناجي هذا اللون من الأداء التعبير، وأن يلقي فيه بشيء من نفسه، وأن يودعه قطعة من قلبه، وبعضاً من عقله.

ولكنه مهما أجاد في تجربته التقليدية هذه، (وهو بالفعل يجيد)، فإن ما يكتبه بالطريقة الحديثة (أو المستحدثة)، يُعدّ أقرب إلى روحه، ومزاجه ونَفَسِه الشعري. ولنأخذ مسألة "الزمن" وهي -في نظري- مسألة ملحّة عند بدر بن عبدالمحسن. فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من مصادمة مع هذا المنتصب أمامه في عناد هو الآخر، وأعني الزمن.

يقول بدر:

قالت وش الوقت
ناظرت ليل عيونها
وصبح الجبين
ومرت ثواني صمت
وقلت الزمان أنتي
وكوني اللي تبين
من يومها ما عاد أناظر ساعتي
وش حاجتي عدّ الزمن
وهي الزمان الجاي

هذا الإلغاء الصريح للزمن في إيقاعه المعتاد، وهذا الخلوص للحب كحقيقة مجردة مستثناة من ظروفها، هل يعني خوف الشاعر من الزمن نفسه؟ أو أنه يعني عناد الشاعر وإصراره وتحديه للماثل والآتي؟! فهي زمانه الحاضر، و"زمانه الجاي"، ولا شأن له بأية اختراقات أو مفاجآت أو تحسبات، هي المغنم القائم، وهي الطموح، وهي التشوّف، وها هو يدخل عالمها، ثم لا يخرج منه أبداً، أو لا يريد أن يخرج منه، هي المصير! وهي المحتوم الإرادي الاختياري.

هذا المعنى مأخوذ من المعالجة المعاصرة لمسألة الزمن، أو النظر إليه كإيقاع مملّ، أي جامد وقاهر، وهذه المعالجة، إن بدت على نحو قليل من الحذر، أو عدم المباشرة في المقطع السابق؛ فهي تبدو أكثر صراحة في هذا المقطع من قصيدته الأخرى "مالنا وقت":

يقول:

احملي اللحظة حجر

وطوحيها في المدى

تصبح الساعة دقيقة

غيّري الزمن الحقيقة

هذا إلغاء آخر للزمن المألوف، والشاعر هنا يعبر عن ذلك بلغة جدّ مباشرة (في الجملة الأخيرة بالذات). إن ذلك الإلغاء يفضي في بعده الثقافي نحو رغبة ملحة لاختراق المعتاد، المعتاد في اللغة "غيري الزمن الحقيقة"، المعتاد في الصورة أو في المتخيل: "احملي اللحظة حجر.. وطوحيها!".. المعتاد في الإيقاع الجامد للزمن نفسه. ويؤكد الشاعر هذه المعاينة الأخيرة بقوله في مقطع لا حق من القصيدة نفسها:

ما لنا وقت.. وقتنا دايم يجبي

الزمان اللي يروح!

فهناك "وقتان": الوقت المعتاد المألوف، الذي يخضع له كل الأحياء وينتظم حركتهم، وهذا لا علاقة لهما به، والوقت الخارق المجترح من حبهما، وهذا دائماً موجود، متجدد وفي كامل زهوه وشبابه: "وقتنا دائم يجبي".

أما الكلمات التي تلخص الموقف الحضاري في شموليته من الزمن، فهي تلك التي يقول فيها بدر بن عبدالمحسن من قصيدته "صوتك يناديني":

جيتي من النسيان

ومن كل الزمان

اللي مضي.. واللي تغيرّ

فـ "تغير" تـأتي هنـا بمعنى المـضارع: "يتغيّـر"، فـالزمن هـو خبـزه المحبـب، عجينتـه الطيّعـة، النـسيان!.. واللـي مـضى، واللـي يتخير.. بل "من كل الزمان". زمانه هو. والبعد الحضاري الذي يتـضمنه الفعـل "تغيـرّ" لمفهـوم الـزمن عنـد بـدر بـن عبدالمحـسن، يتأكد في القصيدة نفسها عندما يقول: "وجهي اللي ضيعته زمان!". ولكن التغير هنا لا يعني أبداً التناقض مع النابه مع المدّخر الحضاري أو الثقـافي؛ فالـشاعر فـي كـل قـصائده ظـل فارسـاً مـن فرسـان هـذه الـصحراء، فهْـو دائـم الغنـاء لأدواتـه الملحّـة: الـسيف، والمهـرة، والخيـل. وهـو دائـم اللجـوء إلـى اسـتعارات وإحـالات لا تخـرج عـن محيطه القريب، مهما تباعدت آماد ثقافته. فكثيراً مـا تقع عينك على مثل هذه المفردات: المطر، والظمأ، والعطش، والسموم، والدهر... إلخ.

يقابـل كـل التحـديات الـسابقة الواثقـة التـي يطلقهـا بـدر بـن عبدالمحـسن فـي أشـكاله الـشعرية الحديثـة، عـودة لا تبـدو بالنـشاط نفسه، إلى الممارسة التقليدية في الشعر الشعبي. ونعني الكتابة على طريقـة الـشعر النبطـي. فهكـذا يعـالج بـدر "الـزمن"، أو يوظّفـه فـي قصيدته "ديمة":

لو للزمن عن نية الغدر شيمة

ما فرّق أحباب ولا بعّد أوطان

كل خصيم وذاق لوعة خصيمه

واللي خصيم الوقت يابنت خسران

وهي معالجة تبدو اعتيادية: لغة، ومفهوماً، وتوظيفاً. وغيره كثير من شعراء النبط قالوا في المعنى نفسه، وهم يخلصون غالباً إلى الخلاصات التلقائية البسيطة نفسها: "الزمن يقدر"، "الزمن يفرق الأحباب". وهذا استسلام ليس معهوداً في عناد الشاعر الذي كنا قبل قليل نلمسه في قصائده الأخرى. وكأن تجربة بدر بن عبدالمحسن بين الشعر الحديث والشعر التقليدي تؤكد حقيقة أن الشاعر، حين يضع نفسه في الإطار التقليدي للشعر، فإنه بالضرورة يدخله مُتنفساً كل مناخاته، ابتداء من القاموس اللفظي، وانتهاء إلى المرجعيات التقليدية الأخرى. ولكن كل هذا لا يحجب عن الذهن بعض محاولات الشاعر الجادة في اقتحام الذاكرة النبطية ببعض الصور الجديدة، ذات اللغة الجديدة، بطبيعة الحال، يقول:

تعبت أسافر في عروقي وملّيت

من جلدي اللي لو غصبته غصبني

ياما تجاوزت الجسد واستقليت

عن الألـــم، لا شك جرحي غلبنـــي

يريد أن ينتهي في اللامحدود، في اللامحسوس، يروم التمرد على الجسد؛ ليكون روحاً طليقة مستقلة، لكن "جرحه" يغليه ويعيده إلى الأرض من جديد!.. وهنا محاولة لم تنجح للتحالف مع "الزمن".

ولكن بعد هذه الصورة الحديثة، ذات التركيب المفاجئ في

العلاقة بين "السفر والعروق" ضمن هذه الهيكلية النبطية التقليدية، لا يلبث شاعرنا أن يجد نفسه منقاداً بتلقائية هينة أو ميسورة إلى مناخات القصيدة في لغتها، وفي مضامينها البسيطة أو العفوية:

أنا سجين الحال مهما تسليت

وأنا الطليق وكل شيءٍ قضبني

حريتي لا عل.. يا كود.. يا ليت

ما شفت حي جاد لي ما سلبني

ومهما أجاد بدر بن عبدالمحسن (وهو مجيد بالفعل)، فإنه بهذا الازدواج لا يستطيع أن يحقق في القصيدة النبطية، القدر نفسه من التفوق الذي حققه في القصيدة الحديثة. وإذا كان هو فارس القصيدة الشعبية الحديثة، ومبدعها الأول بلا منازع، فإن هناك غيره ممن يحرز القدر نفسه من التفوق في حياكة القصيدة النبطية وفق مناخاتها وظروفها الخاصة.

يقول:

يا من نثر برماح الأهداب دمّي

لو للجروح أضماد وصلٍ تصبرّت

لاشك ما انته يا أدعج العين يميّ

لا والذي أطغاك زين.. وتكبرّت

هناك غير بدر بن عبدالمحسن ممن يمكنه أن يكتب مثل هذا الشعر معنى، ولغة، وأداء فنياً: "رماح الأهداب".. "أدعج العين".. "أطغاك زين وتكبرّت"... إلخ.

لكن من الذي من أقران بدر يستطيع أن يقول:

لو شربت أظما لحبيبي.. وللعطش!

"لـو شـربت أظمـأ لحبيبـي" انـسيابية طبيعيـة هادئـة فـي اللغـة والمعنـى، رغـم مـا يبـدو مـن تنـاقض النتيجـة مـع الـسبب: "يـشرب فيظمأ". لكن الأداء المفاجأة لا يلبث أن يسطع، فيبهر حين يضيف الشاعر: " لحبيبي، وللعطش!": فهو يظمأ أيضاً للظمأ نفسه، إمعاناً فـي الحفـاظ علـى ديمومـة الولـه، إذْ لا فكـاك مـن حالـة العـشق التـي تتلبسه. فهو يشرب ليعطش، ويعطش ليشرب. وحبيبته نفسها، هي العطش الذي يهرب منه بالارتواء منها، وهي الارتواء الذي يذكي في داخله مزيداً من العطش إليها، وتظل الدائرة تدور في "تناقل" لا نهائي، أي بلا توقف أو تعب، حتى يصبح: "العطش شوقي، وشوقي للعطش"، كمـا يقـول بـدر فـي مقطـع لاحـق. فتتمـاهى الحبيبـة مـع العطش ومع الشوق، فتكون هي الشوق، وتكون هي في الوقت نفسه العطش، العطش الذي يصبح بدوره هو الشوق.

يقول بدر بن عبدالمحسن في قصيدة أخرى:

أعلق الدنيا.. على مسمار

مدقوق فيه جدار

وتسكن في ساسه ريح

من له سنين أيطيح

ولجل الليالي قصار

ممداه!

ممداه؟! عجيب يا بدر!.. ما هذه الجرأة اللغوية الفاتنة حقاً؟! وما هذه الجسارة في مناقلة الأدوار؟! كأن التهدم هو الإيجاب، فتبرر تأخره بضيق الوقت وشحّه. وأنت في مشروعك المعقّد هذا لا تكتفي بأن تعلق الدنيا على مسمار، بل تأتي بعد ذلك وتقلب الصورة، بحيث يكون الجدار هو "المدقوق في المسمار" على طريقة تساؤلك الإنكاري في قصيدة أخرى: "من يطعن السيف بحشاه؟" ثم تتركنا بعد ذلك نتخيل هذه الدنيا المعلقة في المسمار كما نشاء، قد نتخيلها قمقماً سحرياً معقداً، سلّة ضخمة غامضة، حقيبة واسعة مغلقة على العديد من الأسرار والمفاجآت. أمّا الجدار فهو معلق في المسمار، وأما المسمار فمثبت في الجدار، ولا يحق لنا أن نسأل كيف؟ المهم فقط أن نعرف أن هذا الجدار تهفهف من تحته ومن فوقه الريح، وهو مرفوع من أذنه اليمنى أو اليسرى (لا يهم!) في المسمار! كأنه يتهدم أو يهفو إلى السقوط، لكن المشكلة هي أنه "ممداه"!.. لأن "الليالي أقصار".

هل هذا يدخل في السوريالیزم يا بدر؟ ولكن كيف؟ هل يصحّ أن يكون السوريالیزم بالشعبي؟ ولم لا؟! فبدر بن عبدالمحسن أحسه يريد أن يقول: نعم، حين يؤكد في المقطع الثاني:

أعلق أعيوني على نجمة
محبوسةٍ في غرفةٍ ظلما
ومقفول عنها باب
ولها حارسٍ كذّاب
دّايم يشيل كتاب
ويقراه وهو أعمى!

هذه الأحلام أو الأوهام، هي بعض عوالم الشاعر الخرافية، فهو يغرق في رؤاه متمرداً على الذاكرة التقليدية للقول الشعري، خارجاً عن الإحالات البسيطة الاعتيادية لأقرانه ومنافسيه من رواد الكلمة الشعبية. لا، بل أن بدراً بن عبدالمحسن يكاد يكون الوحيد الذي استطاع أن ينفِّذ في الشعر الشعبي بمهارة فائقة. المشروع الحديث في الشعر الفصيح، ليس فقط من حيث الصورة والرمز والإيحاء، ولكن أيضاً من حيث التعامل مع اللغة، أو من حيث فهم الإبداع على أنه إنجاز "لغوي" بالغ الأهمية والتعقيد. فبدر بن عبدالمحسن، هو وحده الذي يحاول دائماً إقامة علاقات جديدة خارقة بين مفردات اللسان العامي وتعابيره. ومن يجرؤ في الشعر الشعبي أن يقول: "أعلق الدنيا على مسمار "، و"أعلّق عيوني على نجمة"، و"أغمض عيوني عليّ". من يجرؤ أن ينشئ علاقة بين فعل التعليق والرعد "أعلق في سمعي رعدا"، أو بين فعل الشرب والذكر "وأشرب ذكر ديمة"، أو بين فعل الإضاءة والصوت "تضوي في صوتي هديل". ومثل هذه الأمثلة كثيرة في شعر بدر بن عبدالمحسن. وأعتقد أن هذا الإنجاز يكشف عن قدرة هائلة لدى الشاعر للمغامرة المبتغاة في أحشاء اللغة، وفي دمها الحار. ولعل الأمير بدراً يذكر أنني تمنيت عليه أكثر من مرّة أن يجرب الكتابة في الفصيح، إنني أعتقد أنه لن يخفق في مثل هذه التجربة. وهذا التحريض الذي أوجهه إليه دائماً - وبلا تحفظ - استند فيه إلى شعره الشعبي نفسه، ولأورد لكم هنا مثالاً واحداً فقط .

يقول بدر:

يوم أصيح.. كنت أهزّك

يا نخيل الوادي..

غصب أهزّك مثل ريح

والوي أعناق الجريد..

للقصيد.. ولبحة الشادي

كانت أسراب الحمام.. تنشر فـ صوتي جناح

ولا بدا وجه الظلام .. تضوي فـ صوتي هديل

كنت أهزك يا نخيل

يا نخيل الوادي

في هذا المطقع: المفردة – قاموساً- فصيحة! والتركيب - بلاغيا- فصيح. وعدا بعض التحوير الصوتي لنطق بعض الكلمات بلهجة شعبية، وباستثناء ما تطلبه الوصل الوزني من "ترخيم" أو حذف، في إجراء بعض حروف الجر (في موضعين فقط)، فإن القصيدة تستطيع أن تكون فصيحة.

ويبدو أن الأمير بدراً لن يستجيب للتحريض الذي أمارسه عليه منذ مدّة، وسيكتفي بأن يلعب في حذق عجيب على حبال هذه اللغة "الوسطى" التي تنشأ الآن بين الفصحى وعاميتنا. ولعله هو نفسه أبرز روادها، وأقدرهم على المواصلة والاستمرار.

أجل، إن اللغة "الوسطى" التي نعني هي تلك التي يروج لها الأمير بدر في أغانيه، تلك الأغاني التي انتشرت في كل أنحاء العالم العربي، فلا يملّ الناس ترديدها، والانفعال بها. وهذه – لعمري- مهمة ثقافية وإعلامية أخرى ليس هنا مكان الحديث عنها.

بـدر بـن عبدالمحـسن!.. اكتفـى بهـذا القـدر الآن عنـك وعـن شعرك!

وبالله عليك مـاذا تريـد أكثـر!: الفروسـية، والإمـارة، والـشعر، والحب!

بدر، الكلمة لك!

الكلمة للشعر!

تركي الدخيل:
باغتنا كلما شئت

في رحلة جوية عمرها تسعون دقيقة، إن لم تخنيّ الذاكرة، التهمت صفحات الكتاب الأول للصديق تركي الدخيل بعنوان: "ذكريات سمين سابق"، أو هو بالأحرى أخونا "تركي القديم" .. هذاك الأول.. السمين.

كنت أعرف عن تركي ذكاءه، وثقافته المتنوعة، وكنت أعرف عنه كذلك سرعة بديهته، وقدرته على المناورة والمحاورة مع مقابليه، وطالبي مجالسته أو منادمته أو مناظرته. كنت أعرف عن تركي أنه خفيف ظل، وصاحب "قفشات" مهمة، وإن كانت غير موفقة أحياناً! لكنني لم أكن أبداً أعرف كم أن تركي بريء، وكم هو طفل كبير، وكم هو طيب قلب، ولاسيما عندما يسلم عنان فكره للقلم والأوراق والكلمات. في الأيام الأولى التي عرفت فيها تركي، لم أكن أبداً على علم بحجم معاناته من السمنة الفادحة، ذلك الحجم الهائل الذي كان عليه، مما تنوء به الجبال، والسموات، والأرض!.. لقد عرفت كل هذا وأدركته بعد أن قرأت كتابه "الرشيق"!..

والعميق أيضاً.. على الرغم مما يبدو عليه من بساطة وتلقائية!.. إنه "رواية إلا شوي!.." رواية ينقصها فقط بعض مقتضيات وملامح السرد التي تهيئ الفضاء اللازم لما يسمى بالحبكة الدرامية، بكل شروطها المعروفة المنتهية في الغالب بالتساؤل أو بالإدهاش. وينقصها كذلك بعض الشخوص الذين ينبغي أن يأخذوا مكاناً أرحب في العمل، أو في البناء القصصي المكتمل، مثل عبدالله، وأم عبدالله، وأصدقاء بيروت والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم، أما باقي الأمور فتمام التمام!.. اللغة، والفواصل، والنقلات، والبياضات، والإكسسوارات، والشدات، والكسرات، والضمات، والقفشات المليئة بأنواع السخرية: البيضاء، والسوداء، وتلك التي لا لون لها، أي السخرية "السروق" التي تفاجئك وتجعلك تنزف وأنت لا تعرف لماذا؟! أو كيف؟!

سأعترف لك اليوم بالذات يا تركي بأنه بقي من رحلتنا الشهيرة إلى القاهرة* موقف لم أتمكن أبداً من نسيانه، ولولا روحك الجميلة في هذا الكتاب، ولولا ثقتك الكبيرة بنفسك خارج الكتاب، لما ذكرته لك؛ لأنني أحسسته يومها بطريقة مختلفة. آسف هل قلت: "مختلفة"؟ بل هي طريقة تركي التي تفاجئك لتجعلك تنزف وأنت لاتعرف كيف. سأقول لك: كيف هبطت علينا تلك القفشة؟ كنا نتهيأ للمرور إلى طاولة العشاء في منزل أحد الأصدقاء المطل على النيل، وكنت أنت تريد أن تعبر من أمامنا، فقلت: (مزحة برزحة): يا جماعة، هل مسموح مرور "الشاحنات"؟! تقصد وزنك المخيف.

* ذهبنا سوياً للمشاركة في بعض حلقات برنامج "على الهواء" لعماد الدين أديب قبل حوالي عشر سنوات.

ضحكنا، وحاولنا ألا نطل عليك من خلف جدار الضحك! لم يكن وقتها في القلب متسع! كل شريان يملؤه صخبه: بوحاً وشجناً، وأوجاعاً طبعاً. وكما هي العادة دائماً، يأخذنا الضجيج لنغادر أصواتنا، وهي مذبوحة تحت الأرجل! أو تحت ما هو تحت الأرجل.

"تركي" لم يكن سعيداً "جداً" ذلك المساء!.. على الرغم من أنه ضحك معنا، بل إنه ضحك "أولنا"، وقد استمر يضحك ويضحك، إلى أن أتى على آخرنا ونحن مكتوفوا الكلمات والأحرف والأنفاس. هو لم يكن سعيداً؛ لأنه كان يعرف أو يرى ما وراء جدار الضحك!.. وهل لهذا السبب أنني.. أنا.. لم أنس تلك "القفشة"، على الرغم من أنني مترع برصيد كبير مما أسمعه لك ومنك من قفشات لاتحصى! هي دائماً ذكية، ولكنها ليست دائماً مريرة.

هل كان تركي الـ "ما مضى" يداهن؟! هذه مداهنة فادحة تلك التي يحاول فيها "الشخص" أن يظهر نفسه مغتبطاً وهو مطعون، يلتهمه كامل النصل!.. أظن أن هذا صحيح، فالنصل الساكن فيك، هو ذاته الذي يخالتنا يا "السروق!" ليغور في دمنا، لننزف معك!.. ولا بأس في ذلك! فمن قال لك بأننا لم نكن نريد أن ننزف معك!.. مذبوحين بالنصل ذاته!

وها أنت اليوم -ما شاء الله- أنيق في شكلك وقلمك ولسانك، ملء السمع والبصر، تنشر لواهب الغيرة في الكثيرين ممن حولك، وممن هم بعيدون عنك، نعم!.. لقد غادرنا منذ سنوات صاحبنا الذي أحببناه وألفناه "تركي السمين"! وجاء الآن تركي "النجم" سيد الشاشة والحوارات المبارزة، جاءنا تركي "الافتراضي" صاحب المئات من التابعين وتابعي التابعين، وهكذا وجدنا أنفسنا أمام تركي

جديد يعجبنا جداً، وفي ذات الوقت لم يغادرنا حب!.. والآن لمن ياترى نشتاق أكثر؟.. إني أنا شخصياً أحس في داخلي بعض الحنين لـ "تركي السمين"، ولا يعنيني إذا كان أمر كهذا يسبب بعض الرعب لتركي النجم.

ويا "تركي" نريدك أن تظل "تركيا" سميناً، ونحيفاً، وما بينهما.

نحن دائماً في انتظارك.. فباغتنا كلما شئت.

ثابت بن سلطان:

ثابــت أولاً.. ثابــت أخيراً!

يـوم كـان الطـائف "مأنوسـاً"، وقبـل أن يهجـره الـشعر والفـن والمطر والطيور.

قبل أن يصبح رمانه بلا طعم، وقبل أن تتحول ركبانه وكثبانه وأوديته إلى أسمنت، وإلى أعمدة للإضاءة السقيمة الكالحة،

يومهـا لـم يكـن فـي "شـهار" معقـل للمجـانين*، بـل كـان فيـه "مقهـى المفتـي" الغـارق فـي البهجـة، حيـث يغـزل الأصـيل خيوطـه الذهبيـة بـشغف، وحيـث يهبـط - فـي كبريـاء- الليـل المرصـع بـالنجوم وبالوجد والشجى، وحيث يحتشد الفضاء بـالأحلام الندية والأطيـاف الناعمة.

يـوم كـان الطـائف"مأنوسـاً"، وقبـل أن يـزدحم بارتـال الحديـد، ونـاقلات الـ "دينًـا"، والـ "هـاي لـوكس"، والأشـخاص المتعبين، فـي أسمالهم الفاترة العالقة بالهموم والشرود والأتربة.

---

* المقصود مستشفى الأمراض العقلية.

يومها كنا نقطع المسافة بين "حي الشهداء" ومقهى المفتي في لمح البصر، مشياً على الأقدام، عبر شاطئ "وجّ" الشرقي، حيث الرمل الناصع كقلب طفل!

ثابت بن سلطان (ابن عمي)، هو الذي اكتشفت معه مقهى المفتي، وهو الذي أغراني بميخائيل نعيمة، وجبران خليل جبران، والمنفلوطي في نظراته وفي عبراته، وطه حسين في "الأيام"، وفي أحاديث "الأربعاء".

لقد أغراني ثابت أيضاً بسواهم من المبدعين، وماذا في الطائف يومها سوى الإبداع والفن، والمطر، ونوارس الشعر، والشوارد من طرائد الكلام؟!

وفوق "مركاز" قصي في مقهى المفتي، وقبل أن يشرع الأصيل في نسج خيوطه الذهبية، يكون قد اكتمل الجمع: ثابت وأنا ميخائيل نعيمة، أو ربما جبران، أو ربما المنفلوطي، وقد يكون طه حسين أو العقاد، فلا ينفض سامرنا إلا بعد أن يرتفع أذان العشاء!.. نقرأ بلا توقف، وثابت هو المعلم، وهو الأستاذ، وهو الذي يضبط إيقاع الكلام، وهو الذي يحيك شروط الانسجام، وكلما شعرت بالضجر، وتململت في مكاني، أريد أن ألهو كما يلهو الصغار ممن هم في مثل سني، ذلك اليوم، (لم أكن أتجاوز الثالثة عشر)، ذكرني ثابت بأن اللهو في حدائق الكلمات أجمل، وأن اللعب في فضاءات الإبداع والمبدعين أحلى وأنبل، حتى إذا تمردت عليه، وعلى الكلمات، وعلى الإبداع والمبدعين؛ نهض من مكانه يجاملني ويلهو معي، إنه يريد أن أكون في متناوله عندما يقرر أن يعيدني إلى ما كنا فيه، حيث لا شيء يغريه غير أن أقرأ أنا ويستمع هو، أو العكس.

وأول مـرة رأيـت فيهـا صـحيفة، كانـت صـحيفة "النـدوة"، ثـم صـحيفة "البلاد"، قـدمهما لـي ثابت لأقرأهمـا بعـده، كـان يحضرهما إلـى بيتنـا، فهـو مقـيم معنـا، بعـد أن التحـق بمعهـد المعلمـين فـي الطـائف، وكـان يـشير فـي هـاتين الـصحيفتين إلـى أنـاس لا أعـرفهم: أحمد السباعي، وعبدالله عريف، ومحمد حسن العواد، ومحمد عمر توفيق، وخصوصاً أحمد محمد جمال، ومحمد أحمد با شميل، فقد كان ثابت مفتوناً بهـذين الأخيرين لميولهمـا الإسـلامية، ولمنافحتهمـا ضد مدّ الاشتراكية والقومية آنذاك؛ ولأنهما كانا خير من ينسجم مع خـط الملـك فيـصل فـي توجهاتـه الخارجيـة، فهـو رائـد "التـضامن الإسـلامي"، فـي مقابـل المـد القـومي الناصـري. ثابـت كـان مفتونـاً بالملك فيصل كذلك. وفيصل كان يحتشد به الأفق مع أبـرز منافسيه في عصره: عبدالناصر.

تلـك هـي البـدايات التـي اسـتدرجني بهـا ثابت ليزجنـي بكـل مـا أوتـي مـن حـب وحمـاس فـي فـضاءات القـراءة والكتابـة: القـراءة للقـاء المجهول، والكتابة لإعادة صياغته. لـم أكن أدرك أن ثابتـا كـان يحيـك لي مستقبلاً يتوخاه في عـالم الأوراق والأحبـار والكتابـة، والحـق أننـي لم أعـد أعـرف اليـوم، هـل نجـح ثابت فـي مهمتـه، أم أنـه فـشل وخـاب ظنه، كل ما أعرفه، هو أن هذا الرجل كان يقلقه كل شيء يتعلق بي، وهـو الـذي يـدرك منـذ ذلـك الـزمن، أن لا طريـق إلـى المـستقبل إلاّ طريق العلم والمعرفة.

وعلاقة ثابت بالمعرفة علاقة إلهام، وعلاقـة عقـل وحصافة، وإلاّ فـإن والـده كـان كمـا والـدي، فهمـــا أخـــوان أميـان لا يقـرآن ولا يكتبان، وكذلك والدتانا.

علاقة ثابت بالمعرفة بدأت مع شـخص مـن عُمـان، اسـمه سـعيد

الشكيلي، جاء إلى "المريفق" ليتولى تعليم من تدفعه الأقدار إليه من أبناء هذا الوادي الوديع، المستلقي في أحضان الحلم والمجهول. هذا "الأستاذ" الشكيلي علم ثابتا القراءة، وعلمه أيضاً الخطابة، ومازلت أذكر عندما رأيت ثابتا، بعد أن ارتحل إلى الطائف، وأنا في نهايات المرحلة الابتدائية، وهو يتدرب أمام المرآة في بيتنا على الخطابة، والإلقاء، وعلى الإلحاح على مخارج الحروف. لقد كان يتأهب لهذا الأمر في كامل زينته، ثم يشرع في تمارين الخطابة التي تأخذه بالساعات. ولقد أصبحت لديه القدرة فيما بعد للارتجال في الحجاج العمانيين بالساعات أيضاً، في عرفة، أو في منى، يوم صار مسؤولاً عن شؤون الحجاج من القطر الشقيق.

عندما دخل علينا ثابت لأول مرة في الطائف، قال لي والدي: هذا ثابت ولد عمك سلطان، ولم أكن أعرف ثابتا ولا عمي سلطان، فقد عشت طفولتي في المدينة (الطائف)، وكل أعمامي وأولادهم كانوا يعيشون بعيداً عنا، بعيداً جداً، في القرية، ويومها كانت القرية بالفعل بعيدة جداً. سيارة واحدة أو سيارتان تقطعان الفيافي والأودية والجبال، عبر طرق ترابية مكتظة بالحفر والحجارة والمفاجآت، لتصل فقط إلى قرية "الصور" أو "السور"، ثم لا تتعدها.

ويتحقق هذا الإنجاز بعد حوالي خمس ساعات على الأقل من السفر المضني، والخضّ والرضّ، والغناء الشاحب المنطلق من حناجر المسافرين المنهكين بعناء النهارات وقلق المساءات. أما بقية المسافة إلى المريفق، وهي حوالي 25 كيلو متر فعلى الأقدام.

لم يكن بالإمكان أن أخوض غمار هذه التجربة إلاّ بعد أن كبرت، وبعد أن أنجز الشيخ علي بن سراج شيخ القبيلة -رحمه الله-

طريقاً ترابية أيضاً إلى المريفق، تداهمها السيول والصخور من فوق ومن تحت، ومن كل الجوانب، وهي الوحيدة التي تصل الصور بالمريفق. كان تدشين تلك الطريق، هو في الوقت ذاته تدشين علاقتي البكر بأعمامي وبأبناء عمومتي، وفي مقدمتهم بطبيعة الحال ثابت، فهو ما زال هناك واقفاً شامخاً يفتح كامل ذراعيه ليضمني إلى صدره، وهو حقيقة أشعرني بممارسة هذه المهمة منذ أن رأيته لأول مرة في بيتنا في الطائف، أما بعد أن اتصلت الصور بالمريفق، فها هو يغري والدي ووالدتي بأن يمنحانه الفرصة لأقضي الصيف معه في القرية، أي عندما ينضج الرمان والتين، وعندما تنهمر فوق الرؤوس خصلات العنب، وحبات الخوخ، وعندما تصدح أصوات الصبايا العفيفات في الحقول، وعندما يرتفع صخب البنادق وإيقاعات "الزير" معلنة مواسم جديدة للفرح. وبالمناسبة فإن أمي -رحمها الله- هي التي علمت ثابتا وعلمتني "الرقص" على الزير، فهي من قبيلة ثقيف المشهورة بولعها بالعرضات واللعب على الزير، وقد نجحت في مهمتها، ففيما بعد لم يعد لابنها من منافس عند بالحارث كلهم في "الرقص" على الزير، سوى شخص واحد يدعى سعد بن سليم (أبو بطين).

أول مرة شاهدت فيها ثابتا في الطائف، كان يافعاً، شاباً، يشد وسطه بالحزام المحشوّ بالرصاص الحي، ويضع فوق كتفه شيئاً أراه لأول مرة اسمه "المصنف". في تلك المرة، كان أول عهدي بموضوع المصنف. قال والدي: هذا هو زينة الرجال عندما يكبرون، وهو بمثابة المشلح اليوم، لم أكن في سن يسمح لي بلبس المصنف، مثل ثابت، لكني بقيت أحلم بأن أتزين يوماً ما بالمصنف، مثل ابن عمي الوسيم الجميل. وحصل هذا، فقد اشترت لي والدتي

"منصفاً" أثقلني وأثقل مشيتي، وكنت أحياناً أتعثر فيه، وأحياناً ألمه من الأرض، بعد أن يسقط من فوق كتفي الصغيرة.

منذ ذلك اليوم، دخل ثابت إلى قلبي، وقد بقي فيه إلى اليوم، ومنذ ذلك اليوم أيضاً دخلت أنا أيضاً إلى وجدانه، فلم أغادره قط. لثابت أخ يكبره سناً اسمه "راضي" ،وقد مات وترك ثابتا وحيداً. وكان لي أنا أخ يصغرني سناً اسمه "فهيد"، وقد مات هو الآخر طفلاً، وتركني وحدي. فعندما التقينا - ثابت وأنا- لم يكن هناك بد من أن نملأ مكان الفقيدين، كلٌّ من جهته.

في الواقع أنني هنا أتمحك في البحث عن مبرر يسمح لي بفهم ما جرى ويجري بيني وبين ثابت على خلاف خلق الله كلهم، أو هكذا يخيل لي.

ما برحت أحس أن ثابتا أخذ على عاتقه أن أكون همه الوحيد، ليس فقط منذ أغراني بمخائيل نعيمة، وجبران، والمنفلوطي، وطه حسين، ولكن قبل ذلك وبعده، إذ لا ينفك ينتزع من والدي ووالدتي الجزء الأكبر والأهم من مسؤولية تربيتي، فهو يدربني على الجلوس في مجالس الرجال، ويعلمني السلام والكلام، والقعود والقيام، ويذكرني بـ "المواجيب" التي للقبيلة، ولأبناء العمومة الأقربين، وهذه قصة أخرى فحواها أنني لم أكن أفهم الشيء الكثير، وإذا حصل بعض التطوير في هذه الأمور، فالفضل يعود إلى ثابت، فهو الأكبر سناً، وهو الأقرب إلى ثقافة القبيلة وعاداتها وأعرافها، فقد عاش جلّ عمره في مرابعها، أما أنا فقد غادرتها رضيعاً إلى "البندر" في الطائف. لقنني ثابت التحية التقليدية عندما أواجه الرجال، وعلمني "التراحيب"، وضوابط الاستقبال عندما يحلون علينا "ضيوفاً" ودربني على طريقة الجلوس، وأسلوب الأكل،

وموعـد القيـام عـن موائـد الطعـام. أعطـاني دروسـاً طويلـة فـي ذبـح الولائم، والنحر، والسلخ، والتقطيع (تقطيع اللحم له أصول)، وأخذت عنه كيف أتعامل مع معاميل القهوة (من المحماس إلى الدلة)، وكيف أقدمها للضيوف، ومن أين أبدأ، وأين انتهي. أجلسني في مجالس "الطلايب"، وحل المشكلات بالطرق العرفية. ما كان يدعني إلا بعد أن يتأكد أنني أجدت ما يريدني أن أتعلمه!

وهو في خضم هذه الأمور، لم يكن ينسى أن يتابع كل تطورات تطرأ على تعليمي النظامي في المدرسة، ثم بعد ذلك في الجامعة، وما بعد الجامعة.

نعم لم يقتصر اهتمامه هذا على مراحل حياتي الأولى، بل إن ثابتا يعاملني إلى اليوم معاملة الابن/ الأخ الصغير، الذي هو في حاجة مستمرة إلى التوجيه، وإلى الإرشاد، وإلى الوقوف بجانبه. وهو لا يتردد، ونحن في هذه السن المتأخرة اليوم، في الانتحاء بي أحياناً إلى مكان قصي ليلقي عليّ من نصائحه وتوجيهاته ما يشعرني بأنني مازلت ذلك الأخ الصغير، الذي ليس له أن يسلم من ملاحظات الأخ الأكبر، الدائم القلق، الدائم الحرص على أن تكون الصورة في كل الحالات هي الأفضل، وهي الأنقى، وهي الأجمل!

وإذا كان والدي - رحمه الله- لم يكن يعرف معنى الجوائز التشجيعية، عندما أحرز بعض التفوق في تعليمي، فإن ثابتا يقوم بهذه المهمة في مكانه. وإلى أن ذهبت للبعثة الدراسية خارج السعودية، كنت موعوداً في إجازاتي بسيارة جديدة "لنج" يقدمها لي ثابت في مطار جدة، فلا أخرج إلى شوارع "العروس" إلاّ مدججاً بكل مقومات الأبهة والفخفخة، هكذا كان ثابت يريدني دائماً، ولا أظن أنه فعل لأي من أولاده مثل ما فعل لي. وقد بقيت أشعر في

كل مراحل العمر أنني الأثير عنده، وذلك كان دائماً الدافع لي بأن أرضيه، على الرغم من أنه كان يرهقني بطموحاته في شخصي، وفي مستقبلي، ولم أكن أستطيع اللحاق به مهما حاولت أن أرضيه، فطموحه يتجاوزني دائماً، إنه ما ينفك أمامي، وأنا أواصل اللهاث وراءه. نعم، لقد كانت طموحاته دائماً أكبر مني.

كان ثابت يقول لي: اليوم كنت في الحرم في مكة!.. وقد دعوت الله لك. وأنا أعرف أنه يدعو لي في السر والعلن، وهذا فضل من الله - عز وجل. وهو اختار مكة المكرمة سكناً له منذ أكثر من ثلاثين سنة، وبقي من الملازمين للحرم، ومن المتعبدين القانتين، وقد كان هذا هو ديدنه في القربى إلى الله، منذ أن كان في صباه ومراهقته، يلجأ إلى مسجد القرية، يختلس الوقت من محمد الفقيه - رحمه الله - ليضطجع على جنبه الأيمن قبل صلاة الفجر، كما كان يفعل الرسول - صلى الله عليه وسلم!.. ولم يكن يكلّ أو يمل من أن يوصيني بتقوى الله - عز وجل- فيما أقول، وفيما أفعل، وفيما أكتب!

تعلمت على يد أخي وحبيبي أشياء كثيرة، وأنا مدين له بكل ما عندي على تواضعه. علمني كيف أقرأ، وعلمني كيف أفكر، وعلمني كيف أحب، وعلمني كيف أكون أنا هو، وكيف يكون هو أنا. فماذا أقدم له غير الاعتراف بأنني صنيعته، وعلى أبي عبدالله أن يتحمل كامل المسؤولية فيما أفعل.

أعانه الله عليَّ، فأنا مازلت في حاجته!.. وليس له أن يفكر لحظة واحدة في أنه سيغادرني، أو أنني سأفارقه!

جون بول بولمندو:
الخوف يجتاح المدينة

"الشايب".. أو.. "شيخ القبيلة"

هكذا أحب أن أدعوه، فهو أكبرهم سناً، وأقدرهم على احتلال الواجهة، وأمكنهم في احتلال قلوب الناس، هنا، وعقولهم!

"جون غابان".. الباريسي ذو الأخلاق الشرسة، والطبع الحاد، الذي ما يزال –على الرغم من ذلك، ومن أجل ذلك- يحصد من عيون الباريسيين والفرنسيين عموماً كل حب، وكل إعجاب!

"جون غابان".. أو .. "جون مونكورجيه"، كما هو اسمه الحقيقي، يحبه الفرنسيون؛ لأنه أصدق صورة للباريسي "ابن البلد"، الذي لا يعجبه شيء، ولا يسره شيء، نفسه في رأس أنفه، دائماً معكر الصفو، دائماً صعب المزاج، كأن كل قواعد هذا الكون –في نظره- "غلط!"، وهو غالباً في حالة خصام محتدم مع كل من حوله، ومع كل ما حوله.

الفرنسيون يجدون فيه هويتهم الانتروبولوجية، ويرون ذواتهم الحقيقية.. بلا كذب وبلا تزييف.

يـدخل إلـى منـازلهم، وإلـى أمـاكنهم العامـة كـالهواء! ويفـد إلـى خيـالهم كالبـشرى! ويتوغـل فـي واقعهـم كالقـصة الفارهـة، فيلتهمونـه كالفرحة وكالنجوى كل صباح ومساء.

تذكرت جون غابـان وأنـا أهـم بالكتابـة عـن جـون بـول بالمنـدو؛ لأن الـسينما الفرنـسية قـدمت لهـذه الـصناعة شخـصيات سـينمائية مذهلـة، مثـل جـون غابـان. والشخـصيتان نموذجـان لجيلـين مـن الفرنسيين الأصليين بالبعد الأنثروبولوجي والنفسي. وعلى مستوى ممثلي الأرياف إن صح التعبير؛ فقد قـدمت السينما الفرنسية أسماء كبيرة أخرى، مثل فرناندل بلندوهومن، جيو آلان ديلون.

"جـون بـول بلمنـدو" يجـد فـي قلـوب الفرنـسيين مكانـة، بـرغم المكان الكبير الذي يشغله هذا "الشايب". جـون غابـان، أو فرنانـدل أو بلمنـدو شـيء آخـر لا يـشبه "غابـان"، ولكنـه بـدأ فـي ثقـة يـصعد نحو "سدة" هذا الواقف على ذؤابة المجد وكأنه صانعه!!

بملنـدو.. يقـدم للنـاس بـضاعة أخـرى غيـر بـضاعة "غابـان" وغيـره مـن نجـوم الـسينما الكبـار، ولهـذا فهـو لـم يـضطر يومـاً لمنافستهم، فـاختلاف نوعيـة "البضاعة" هيـأ لـه مكانـه الواسـع علـى واجهـات المدينـة الكبيـرة، دون الحاجـة لمزاحمـة "غابـان"، فهمـا يقتسمان هذا "الحظ" بدون "مجاكرة!".

مـن الأعـلام التـي تعكس تمامـاً شخـصية بلمنـدو فيلم "الخـوف يجتاح المدينة"، من أعمال المخرج الكبير فرناي.

المدينـة كبيـرة.. وواسـعة.. ومليئـة بالنـاس.. وبالفرصـة.. وبالمسابقة.. وبالخطيئة.

المدينة كبيرة.. تنتفخ أوداجها بالحقد، وبالغضب، وبالعنف، وبالعدوانية، وهذه بعض الظواهر الحضارية للتخمة.. التخمة بكل شيء.. عمليات الـ"هولد – أب".. حوادث القتل والاغتيال، والنهب والسلب والاختطاف، والسرقة تملأ الآذان والعيون في كل مكان. هذه المدينة تنام في الليل على جريمة، وتصحو في النهار على مذابح، وعلى مقابر مفتوحة تنتظر موتاها!!

في هذه المدينة الكبيرة كثيرون هم الذين لا يجدون مكاناً للجلوس حتى "القرفصاء"، كثيرون هم الذين "ينتظرون"!.. ينتظرون أي شيء.. وينتظرون لا شيء.. وأيديهم مصفودة إلى السلاح، وإلى الانتقام، وإلى الثأر من أنفسهم ومن الناس، لا يتورعون أبداً عن زلزلة المدينة الجاحدة المتغطرسة، التي وهبت قلبها وجسدها وجواهرها وأساورها "القادرين"، الأذكياء، الأقوياء، المراوغين، الذين يستخرجون من "فم" الذئب نصف لقمته أو جميعها، ويعرفون كيف يقفلون الأفواه الفارغة على الحسرة، والسقوط والقصور والخيبة!!

هذه المدينة الكبيرة فيها المكلفون بحفظ توازنها، والموكل إليهم أمنها وهدوؤها، يتجرعون في شوارعها المرعبة، السهر والخوف والمغامرة، وكثيراً ما يتجرعون أيضاً "الفشل"، فهم لا يستطيعون أن يضعوا أيديهم على كل جروح المدينة الكثيرة النازفة!!.. لا يستطيعون أن يقدموا لها سوى وثائق أمن قابلة للتفسير على أكثر من صورة، ولهذا فهم يتخذون فيها أكثر من وجهه، وتتسربل وجوههم بأكثر من قناع!..

أكبر خطايا هذه المدينة في نظر القانون أنها "متحضرة"،

وأكبر عيوبها في نظر "المتهم" أنها مدينة مداهنة.. متزلفة.. منافقة!.. أو على الأصح مدينة كالحسناء التي لا تعطي يدها سوى لـ"القوي"، الذي يستطيع أن يقدم لها قائمة طويلة حافلة بمواقعه، ومناوراته، ومبارزاته، وضحاياه أيضاً، والرجل الذي يستطيع أن "يدق" من أجلها أعناق كل الرجال الذين يحيطونها، ويطلبون ودها، لتهز –هي- كتفيها وهي تبتسم لـ"قوة" فارسها، وزهوه، ثم تنقاد له، وعيونها تنحشر بالغرور، وبكل "مكر" الحسان، وبما يفشين من غوايات.

بلمندو.. قدمه "فرناي" في هذا العمل بصفته كأحد الرجال الأقوياء، الأذكياء، الذين عهد لهم بإعادة الهدوء والراحة والنوم الهانئ إلى أجفان هذه الفاتنة "باريس"، التي تلطخ صدرها الناهد بمخالب الجريمة القذرة في كل مكان، وفي كل شيء. باريس التي أخذت تضع على شفتيها الدم الأحمر، بدلاً من "أحمر الشفاه". الدم الذي يتدفق في شوارعها، وعلى أسطح بناياتها، كل ليلة بغزارة، وبسخاء يقف له شعر رؤوس كل الآمنين فيها.

بملندو.. يجعل منه "فرناي" المطارد الشجاع المليء بالمغامرة، والذي لا يود أن "يفشل"؛ حفظاً لكبريائه أولاً، ووفاء للمهمة المنوطة به ثانياً. فضابط البوليس هذا ينجح في المغامرة بحياته كلها من أجل القبض على "المجرم"، أي مجرم.. ولكنه يفشل في أن يعيد للمدينة ابتسامتها وضحكتها الساطعة.

الخوف ما يزال يتوغل في خلايا جسدها المترهل، كأنهم سيدعونها الآن: مدينة "الخوف"، أو مدينة الإرهاب. فالثغور النازفة فيها بالجريمة ثغور مخاتلة وكثيرة، والبوليس لم يكن

يومـــاً العلاج الناجح لمردهما.

بلمندو، عند الفرنسيين، هو رمز الفتوة، والفحولة، والنشاط، وسرعة البديهة والتصرف، والمراوغة كلما احتاج الأمر، ولهذا كان اختيار "فرناي" له في فيلمه الأخير اختياراً موفقا. لقد ازدادت – بعـده- المـساحة التـي يـشغلها بلمنـدو اتـساعاً فـي قلـوب كـل الفرنسيين.

الفيلم يكاد يكون استعراضياً.. تستعرض فيه الفتوة والقوة والخوف، ولكنه يثير بطريقة غير مباشرة الرغبة في فتح حوار مع المدينة الكبيرة، حوار حول جبروتها، وجحودها، واهتزاز هدوئها، وأمنها. "فرناي" أراد أن يشرك الفرنسيين والناس في كل مكان في لحظات "الكرب" التي تجحظ بها عيون الليل في مدينة كباريس. الوجه الجميل لعاصمة النور والعقل والإبداع، هو في بعض صوره وجه غير جميل، يفرق في الظلام، ويثيره في اللاعقل، ويعطل تماماً عجلة الإبداع. مدينة باريس مدينة العشاق والمجبولين على الحب، هي في الوقت ذاته مدينة المجرمين، والقتلة، واللصوص، ومصاصي الدماء، ومثيري الرعب بكل صيغه وألوانه.

لقـد نجـح فرنـاي فـي إدراك أن النـاس يحبـون مـشاهدة "الخـوف"، ولكـنهم يهربـون مـن التعامـل معـه!.. إنهـم ينفـرون مـن معايشته، ولكن رؤيته تستهويهم، وتخلب أذهانهم، ولهذا فقد بلغ عدد مشاهدي فيلم "الخوف يجتاح المدينة" في ستة أسابيع فقط أكثر من ست مئة وخمسين ألف مشاهد في مدينة باريس وحدها، فضلاً عن المدن الفرنسية، والعواصم العالمية الأخرى التي عرض فيها الفيلم. هذا النجاح لا يعود لموضوع الفيلم فقط، بل يعود

أيضاً لوجود بلمندو، الممثل الذي لا يدلس ولا "يغش"- إن صح التعبير- فإلى جانب موهبته الممتازة في التمثيل المسرحي والسينمائي، فإن الخدعة السينمائية نادراً ما يلجأ إليها مخرج أفلام بلمندو، فالمشاهد يعلم أن منظر بلمندو وافقاً على سطح المترو، وهو في أقصى سرعت، أثناء مطاردة أحد المجرمين؛ هو حقيقية وليست خدعة سينمائية. والمشاهد يعلم أن منظر بلمندو معلقاً في "مرزاب" إحدى البنايات الشاهقة في باريس، هو أيضاً حقيقة، وليس في ذلك أي خدعة.يعلم المشاهد كذلك أن رؤية بلمندو معلقاً في نهاية حبل موثق بطائرة هيلكوبتر تحوم في السماء الشاهقة، المطلة على أحد أحياء باريس، لإنقاذ بعض "الرهائن"، هو حقيقة وليس فيه أي إثارة سينمائية. يعلمون باختصار أن كل مغامرات بلمندو في هذا الفيلم حقائق، وأن أي واحدة منها كانت كفيلة بإزهاق روحه، وهذا ما زاد في حبس أنفاس المشاهدين أمام مشاهد الفيلم المتعددة. أنت أمام لاعب سيرك، ورياضي متمكن، وممثل ذي موهبة طاغية!.. أنت لا تشاهد أداء تمثيلي جيد فحسب، بل تشاهد أيضاً مغامرات رياضية في منتهى الخطورة.

قالوا: إنه "مجنون"، فلا شيء يضطره إلى هذه المجازفات القاتلة، فغيره من النجوم يتستر دائماً وراء الكاميرا الخادعة. إنه يكلف نفسه مغامرات مهلكة، مع أنه يستطيع تجاوزها بالخدعة السينمائية، يرد هو على كل ذلك بقوله: "أعرف أن الناس لا يحبون أن أمثل دور الجبان، وعندما مثلت دوراً بطولياً للخوف ارتكبت – شخصياً- المغامرة بلا رتوش ولا خدعة، فخفت –أنا- فكان اندماجي في الدور أبلغ ، وخاف الناس معي، فكان التأثير فيهم أقوى وأبعد".

كأنه يقول بعبارة أخرى: أنا أقدم الخوف كما هو، بلا خداع، ولا مراوغة، ولا كذب. البطل الذي استطاع أن يرتكب مخاطرة في الواقع، أو في خيال الكاتب؛ ليس بأقدر ولا أشجع مني، ولهذا فأنا أطبق مخاطرته كما فعلها هو، أو كما توهمها الكاتب أو المؤلف.

يقول: "ربما إن ما أفعله شيئاً من الجنون، على أي حال، أنا أحب المغامرة، فهي تشكل جزءاً من حياتي الشخصية، وفي الأدوار التي أقدمها للناس أجد فرصة للتعبير عنها".

كأنه يقول: "لو لم أفعل ذلك في فيلم سينمائي لفعلته بالضرورة وبالحاجة على مسرح الحياة في أي مكان".

سيظل بلمندو"نكهة" مميزة في السينما الفرنسية.

"فرناي" قدَّم للناس صورة صادقة من حياتهم، قد تكون محبطة، وقد تكون مؤذية، ولكنها على أية حال واقعية؛ فهذا هو الوجه الآخر لمدينتهم التي يظنون أنها دائماً حالمة!

المدينة ما تزال تخاف، والناس كلهم يخافون، ولهذا فأكثرهم يمشون في الشوارع وفي الأماكن العامة مسلحين، يمشون وآذانهم مفتوحة تتدحرج فيها همهمات الوعيد والترقب والحذر كالحجارة!

التجار.. وسائقو التكاسي.. وأصحاب المقاهي والنوادي الليلية.. يقدمون ما تريد، وأيديهم تداعب المسدس الذي يحتل أحد الجيوب الداخلية في "البذلة" الأنيقة!.. إنهم يخافون!.. فقد تكون قاتلاً!.. وقد تكون لصاً!.. وقد تكون مريضاً يريد إشباع إحدى نزعات العنف والصلف والتهور في داخله.

المدينة تخاف!.. تقرأ ذلك في عيون كل الناس، وفي بطون

راحاتهم المرتجفة، رقم "الجريمة" ما يزال يرتفع!

"الجريمة" مكتوبة بحروف عريضة كاللعنة على كل النوافذ والأبواب. هذه المدينة الخائفة، هل سيقولون عنها يوماً: لقد "كانت" مدينة؟!

يأخذك فرناي في جولة مرعبةتقتصم الظهر، وتخدش الطمأنينة ليقول: إن حياة الناس في المدن الكبيرة، هي حيوات، وليست حياة واحدة، هي حيوات يشترك في صناعتها المال، والجنس، المخدرات، والسلاح، والجوع، والطمع، والأمراض العقلية والنفسية. وهي ليست دائماً حياة الفن، والجمال، والترف، والموسيقى، والكوكتيلات، والحفلات المخملية، والضمان الصحي، والتعليم المتفوق، والكسب الحلال!

أراد فرناي أن يقدم ذلك في قوالب مخيفة، لكنها في الوقت ذاته مدهشة، فأوكل المهمة إلى "وحش" السينما الفرنسية الجديد بلمندو، (وحشها القديم كان جون غابان)، وقد استطاعت موهبة بلمندو أن تكون، هي نفسها، قصة أخرى في الفيلم، فالناس يشاهدون كيف يتهاوى وجه مدينتهم، لكنهم يشاهدون أيضاً كيف يحبس بلمندو الدماء في عروقهم، وهو ينفذ المشاهد الموحشة في الفيلم.

هذا الفيلم لم يكن قصة مدينة فقط، ولكنه كذلك قصة بلمندو نفسه مع التمثيل والمغامرة.

جون بول سارتر:

من الغثيان إلى العمى

هذه الفتاة "غير العاقلة" سيمون دو بوفوار عرفته من شهر يوليه عام 1929م.. وفي بداية الشهر التالي "أغسطس" تركته لتقضي إجازتها بعيداً عنه.. فقالت يومها: "عندما تركته في أوائل أغسطس، كنت أعرف أن خروجه من حياتي لم يعد قط ممكناً!".

ستجدون هذه العبارة في كتابها "مذكرات فتاة أصبحت عاقلة!".

أول لقاء بينهما كان في صالة الامتحان الشفهي لتحضير "دبلوم التدريس".نجحا كلاهما، فكان ترتيب سارتر "التلميذ النجيب" الأول، وكان ترتيب "العاشقة المعشوقة" الثانية!

كان حباً مثقفاً، متمرداً، صعلوكاً، وخارجاً على كل القوانين. كتبا بحضورهما المتصل فيه كل فصوله المحتجة والرعناء. تلك الفصول التي لم تكن تنتهي، فقد ظلا عشيقين، مع أن سارتر كان يحتفل بعيد ميلاده السبعين.. ومع أن سيمون لم تعد ابداً "فتاة"!!

ستة وأربعون عاماً من الهوى "العادل" بين امرأة "غير عاقلة"، ورجل قضى عمره في البحث عن العقل.

ستة وأربعون عاماً من الهوى، يقابلها سبعة وثلاثون عاماً من المجد الفكري والأدبي، إذ أن "سلطنة" سارتر الفكرية في فرنسا كلها كانت قد بدأت بالتحديد في عام 1938، حيث تفجرت قنبلته الرهيبة الحارقة التي دعاها "الغثيان"!!

أجل، فقد كانت البداية، كانت رواية لا ترحم!.. أراد أن يدعوها سارتر: "مذكرات أنطوان روكنتان"، ولكن غاليمار "الناشر" اقترح أن يكون عنوانها: "الغثيان". فقد كانت -فعلاً- غثياناً حشرج به سارتر أكثر من سبع سنوات، هي مدة تأليف الرواية و"تهذيبها"!

كانت سيمون في متابعة متواصلة لكل فصول الرواية، برغم المسافة التي كانت تفصل العاشقين، سيمون في مرسيليا.. وسارتر في هافر!

هذه الرواية التي يقول عنها سارتر نفسه: "سأظل شديد الإخلاص لشيء واحد في حياتي الفكرية، هو الغثيان". ما تزال - مع رواية "الغريب" لكامو – تمثلان أكبر روايتين لاقتا اهتماماً بالغاً من الدارسين والنقاد في كل مكان.

أهميتها بالنسبة لسارتر، أنها طرحته على المائدة كظاهرة حية أو كموضوع يتجدد نقاشه ودرسه وتأمله، أو قولوا: خلية جديدة تنمو في كيان الأدب الفرنسي، وبالذات الروائي. التفت الناس كلهم

لهذا "المدرس" المنطلق الذي يكره مهنته؛ لأنها قعيدة بناموميس ونظم كان يحسبها -هو- مخالب شرسة خناقة. أخذوا كلهم يجرون وراءه؛ لأنه كان ينذرهم بميلاد جديد للرواية الفرنسية وللفكر الفرنسي كله!

سارتر كان يعد نفسه منذ سن مبكرة بمثل هذا "الانقلاب" الفكري، فعدُوه "محرراً"؛ لأن الغثيان سمحت للقصة الفرنسية الجديدة بأن تولد، وبأن يتعهدها الناس بالرعاية، ولهذا كان موريس بلانشو يقول -حين قرأها: "مشروع نادر جداً.. ومهم جداً.. وضروري جداً.."، إذاً.. "الغثيان" لم تحرز فقط نجاحاً فائقاً حين وقوعها بين أيدي الناس، ولكنها فوق ذلك دفعت إلى الواجهة كاتباً كبيراً. وفي ذات الوقت، مزقت كل الأغشية التي كانت تغطي عيون الأدب الروائي في فرنسا. من هنا كانت فتحا، ومن هنا كانت بشارة بوصفها رواية. أما من حيث كونها تاريخ، فقد كانت وثيقة ممتازة للحياة اليومية في الثلاثينيات، تتخللها "ندوب" ذابلة من سيرة سارتر الذاتية ما بين عام 1931 وعام 1936. المدهش فيها أنها لم تكن رواية فجرت الطريق أمام الذين كانوا يودون أن يصبحوا "محدثين" أو مجددين، ولكنها زيادة على ذلك كانت رواية "مستقبلية"، فمنذ ذلك الوقت وهي ما تزال حديثة، وما تزال تتجدد من خلال كل قراءة جديدة لها، ومن خلال كل تفسير جديد لمضامينها. أيام ظهروها كانت حديثة، وكانت تسبق زمانها أيضاً، وفي هذا المعنى يقول عنها أدمون غالوا: "كتاب مستقبلي، وحياته ستكون طويلة".

كلهم كانوا يرون أن فيها موهبة ضخمة تتفجر، كلهم كانوا يجدون أن كل شيء فيها كان يعلن عن ميلاد كاتب بارز، أو "روائي نترقب منه كل شيء"، كما يقول ألبير كامو، أو "موهبة استثنائية"، كما دعاه أندريه بروتون.

"الغثيان" أحلت الطريق أمام سارتر، وبرأته أمام كل المفكرين من القصور أو القعود عن بلوغ "الريادة"، أو الظفر بها كهدف ثانٍ "لـ"الانقلاب" الذي حققه بهذا العمل الأدبي الأول "الغثيان"، التي أعقبها بالقنبلة الأخرى، "الوجود والعدم". الكتاب الذي يعدونه رائداً في الفلسفة، وفي اكتشاف علم الظاهرات أو "الفينومينولوجيا". ظاهرات الجسد، أو الوجود. التي تجدد تجارب الفرد في التفكير والحياة. هذا الكتاب الذي تلاه أو صحبه نشوء جيل الوجودية في فرنسا.

كان سارتر بـ"الوجود والعدم" سيداً من سادة الفلسفة في الدنيا، فقد صبغت الوجودية ملامح جيل كامل، وكان سارتر مدرسة، أو أنه كان صاحب مذهب ناهض به أقوى الاتجاهات الفلسفية، بالرغم من التجهم اللاذع الذي كان يواجهه به أكثر معاصريه أو الخارجين على تفسيره للوجود؛ ولهذا كان كثيراً ما كان يسمع مثل هذا القول لأحد معاصريه: "الوجوديون ضعفاء، والجودية انتصار للخمول والقذارة. كان عندنا حركة دادا، والآن أصبح لدينا حركة كاكا". وحركة "دادا" هي فرقة من الحركة السريالية المعروفة التي كان يتزعمها أندريه بروتون وأراغون، أما "كاكا" أي البراز، فيعني بها الوجودية.

وبرغم ما لاقاه سارتر من مناقضات، إلا أنه ظل تحولا فلسفياً لا يستهان به في الفلسفة الحديثة. وقد زاد فأكد مركزه هذا بكتابه عن "نقد العقل الجدلي".

وإلى جانب الرواية والمسرح والفلسفة، كانت معارك سارتر مع ليفي ستروس معروفة في مناقضة "المدرسة البنوية" في النقد.

ميدان واحد ظل يصعب تطويعه على سارتر، مع أنه كان يحتفظ له باكبار ملحوظ، أعني السينما. سيمون دو بوفوار تقول في مذكراتها: "هناك وسيلة تعبيرية واحدة كان سارتر يضعها في مستوى الأدب، هي السينما"، ولكن كل تجاربه في السينما، أو بالأحرى في كتابة "السيناريو" كانت دائماً تفشل. أشهر ما قدمه في هذا الميدان، هو الفيلم الذي كتبه عن فرويد، رائد مدرسة التحليل النفسي، والذي جعل عنوانه: "فرويد أهواء نفسية". وأغرب ما في مشروع هذا الفيلم، كما يقول سارتر نفسه، هو أن جون هاستون "المخرج" طلب منه - أي من سارتر- أن يكتب فيلماً عن فرويد سيد "اللاشعور"، أو العقل الباطن، مع أن سارتر هو الذي قضى جل حياته في محاولة إثبات أنه لا وجود قطعياً لما يسمى بـ"اللاشعور" أو بالعقل الباطن.

حتى المسرحيات التي كتبها سارتر، وحاول فيما بعد أن يجعل منها أفلاماً سينمائية، مثل مسرحية "الأيدي القذرة"، ومسرحية "B المحترمة"، ومسرحية "الأبواب المغلقة"؛ كان يقول عنها -هو نفسه- كأفلام سينمائية: "لقد كانت فشلا يثير الشفقة"!

سارتر هذا الذي نجده قد ضرب في كل الاتجاهات، كان يتمكن من "الريادة"، وكان "سلطان" الفكر في فرنسا كلها، ومحط الأنظار في العالم كله، ولكن نشوة "الريادة" هذه كانت توقعه في أكثر من حرج، خاصة بعد أن ترك "فرديته"، فأخذ يدس أنفه في كل المشاكل غير مشاكل الفكر. فجعل يتخذ "موقفاً" من كل شيء في خلال مساراته السياسية، حتى تحول في فترات متلاحقة من مفكر إلى رئيس حزب، أو كأنه كذلك.

يوم أن أصدر "الأزمنة الحديثة" "مجلته الشهيرة، كان القراء ينتظرونها بتطلع لا يهون ليعرفوا ما كان يقوله سارتر في بابه الثابت: "ما الأدب؟" وليقرؤوا أيضاً ما كانت تكتبه سيمون دو بوفوار، وصامويل بيكيت، وموريس بلانشو وغيرهم. ولكن "الأزمنة الحديثة" منذ أن أخذت تتقاذفها أهواء سارتر السياسية؛ تغير ثقلها الأدبي والفكري. وسارتر نفسه أخذ يتعرض لكثير من المهاترات السياسية والهرطقات الحزبية. كان يسخر في مجلته بديغول، فنفر منه الدوغوليون، وشتموه، وأعرضوا عنه، حتى الشيوعيون كانوا يقولون عنه يومها: "سارتر كفيلسوف جعل الإنسان يمشي على أربع، وكسياسي كان رجعياً، وككاتب كان انحطاطياً، وكفرد كانت له عفونة شديدة"، ولكن شاء له مساره السياسي أن ينضم يوماً إلى هؤلاء، فلاقى من الفئة الأخرى التي كان يعاضدها مورياك، الذي قال -يومها- عن سارتر: "كتاب اليسار يعتمدون على سمعتهم في اقتناء نيات خبيثة للتخليط . البير كامو كان يخطئ، أما سارتر فيغالط الناس، وهذا هو الفرق بينهما".

ترك سارتر الشيوعيين ليلجأ إلى اليسار المتطرف، وهنا بدل أن يبقى مفكراً، انتهى به المطاف إلى اعتماده عند كل الناس كرئيس حزب، أو سياسي محترف، حتى وإن كانت ميوله السياسية تلك مبنية بمعنى ما على "قناعات" فكرية، أو أنه كان يريد لها أن تكون كذلك!

كان له موقف في حرب الجزائر حمده له كل العرب، وكان له موقف من النضال العربي ضد إسرائيل، كرهه فيه كل العرب!

قالوا: إنه يؤيد إسرائيل؛ لأنه يهودي! وهذا غير صحيح، فهو من أبوين مسيحيين. وقالوا: ضلله الصهاينة! وهذا أيضاً ليس صحيحاً، فسارتر لا يضلله أحد، بل إنه يضلل نفسه بنفسه. فواقع الأمر أنها كانت "قناعة" تاريخية ضالة، استتلاها استقراء ناقص لجانب واحد من المشكلة. كان لسارتر أن يحول تلك القناعة إلى "موقف"، ليس فقط ليساعد في تأكيد خروجه التام من "فرديته"، ولكن ليوافق أيضاً ميل الاتجاه السياسي الذي يعتنقه سارتر بعد أن كره تلك "الفردية"، وهو يَعبُر إحدى مراحله الفكرية. وبعد أن سخَّر فكره للهوى السياسي، أو للهوى الحزبي، هذا "الهوى" الذي ما زال يبدو لبعض الناس على أنه مبني على قناعات فكرية، أو تفسيرات معينة للتاريخ والأحداث!!

اليسار المتطرف متى كان يوماً مع العرب، وبالذات فيما يخص مشكلة فلسطين، فكيف نود من سارتر أن يكون معنا كمفكر،وهو يعد نفسه حزبياً في اليسار المتطرف قبل كل شيء.

وموقف سارتر من حرب الجزائر، والذي حمدناه له، لم يكن

هو الآخر عن قناعة فكرية بقدر ما كان يتمشى أولاً وقبل كل شيء مع هوى سياسي معين. فسارتر يومها كان ضد الجنرال ديغول، وكان يستخدم كل شيء في محاربة النظام الديغولي. وحرب الجزائر -كما نعلم- كانت حرباً ديغولية، وعندما ندد بها سارتر، إنما كان يندد في الواقع بديغول والديغولية. وعندما أيد سارتر الجزائريين في نضالهم، وطالب بالوقوف إلى جانبهم، إنما كان يستنفر الناس لمحاربة الجنرال، والخروج على نظامه. أجل، كان يحارب الجنرال من خلال الجزائريين، ومن خلال الناس الذين وقفوا معهم. كان لا يهمه استقلال الجزائر، بقدر ما كان يهمه أن يضع في أذهان كل الناس أن ديغول مستعمر، ولا إنساني.. إلخ. استقلال الجزائر كان بالنسبة له "أداة" لحرب ديغول، ولم يكن "غاية" يهدف إليها نضال شعب يروم حريته. لقد كان يعد ديغول مستعمرا في فرنسا نفسها قبل أن يكون مستعمراً في الجزائر، ولهذا فقد كان يروم - كما يزعم- تحرير فرنسا أولاً. يقول، هو نفسه، في محاضرة ألقاها في أوائل عام ،1956 (نشرت في مجلة الأزمنة الحديثة، عدد مارس - أبريل):"الشيء الوحيد الذي يمكن عمله، هو النضال إلى جانب الجزائريين من أجل تحريرهم، وفي الوقت نفسه تحرير الفرنسيين أنفسهم من الاستبداد الاستعماري". فسارتر لم يكن يساند الجزائريين، إلا ليحارب النظام الديغولي الذي كان يختلف مع هواه السياسي أو الحزبي.

كان سارتر يُسخِّر تكوينه الفكري لخدمة ميله السياسي أو التزامه الحزبي كمحترف. إنه يتحدث في مثل هذه الأمور كحزبي

توجهه ثقافة الحزب، ولا يتحدث كمفكر له استقراءاته الفكرية أو التاريخية المجردة من أية ميول "غيرية"، وهذه هي المشكلة التي تورط فيها سارتر، فأصبح الناس يعدونه "زعيماً" سياسياً محترفاً أكثر مما يحتسبونه مفكراً أو فيلسوفاً.

كثير من الكتاب المفكرين كان لهم ثقافات واتجاهات سياسية مختلفة، ولكنها لم تكن تطغى على اعتبارهم كتاباً أو مفكرين؛ لأنها لم تصل بهم إلى مستوى الاحتراف.

عادة جهاز تحرير "الأزمنة الحديثة" يجتمع كل خمسة عشر يوماً مرة في منزل سيمون دوبوفوار، وبرئاسة سارتر نفسه، ولكنه منذ أن انشغل بالاحتراف السياسي، احتجب عن تحرير المجلة، وكانت سيمون دوبوفوار هي التي تقوم بكل شيء. هناك التزامات أدبية وفكرية كثيرة تخلى عنها سارتر للسبب نفسه.

عندما احتفل سارتر بعيد ميلاده السبعين، كان ذلك يعني شيخوخته وفقدانه البصر، وعدم قدرته على الإملاء -كما يقول هو- وكل هذه الأشياء كانت تزيد في إضعاف نصيب الجانب الفكري من نشاطه. وبالرغم من أنه كان يتهيأ لإصدار الجزء العاشر من سلسلته: "ظروف"، إلا أن الناس لم يعودوا يتطلعون إلى سارتر الراهن أكثر مما يلتفتون إلى الخلف ليكبروا ماضيه الفكري الزاهر. هذا الماضي الذي كان ما يزال - على من الرغم كل شيء- يؤكد انفراده بـ"سيادة" الساحة، واغتصابه بثقة لعرش الأدب في فرنسا كلها. هذا الماضي الذي كان ما زال أيضاً يدفع كل النقاد -أو

أكثرهم- إلى الترديد بأن سارتر كاتب لم يفتأ يترك بصمات واضحة على كل مسار الفكر في هذا القرن.

كان قد بقي إلى جانب سارتر في السبعين من عمره الشيخوخة والعمى.. وسيمون دوبوفوار.. تحبه.. وتقرأ له!

جون دو بوفيه:

التمرين الفلسفي العسير

سلفادور دالي.. يصنع قنابله التي لا تحصى في أي مكان: في سيارته برفقة سائقه، في بيته وهو يتلقى مكالمة هاتفية من حسناء، أو من أحد وجوه الفن، على إحدى طاولات مطعم "مكسيم" في باريس، وهو يخاطب معجبين من وجوه المدينة، (هناك كان يحب أن يتناول وجباته)، أو في إحدى فلل ساحل "آزور" في جنوب فرنسا. إن غرضه في أكثر الأحيان، هو أن يلتفت الناس نحوه، مع أن كل ما يفعله - مهما كان سوء الظن- لا يخلو أبداً من روح فنان، وطموح مبدع. هو رجل يحب دائماً أن يغمس أصابعه في "الزيت" أو اللون، ثم يضعها في عيون الناس، وهو يقول: أنا هنا.

جون دو بوفيه هو الآخر أراد أن يقول بأنه "موجود"، ولكنه قالها بعمل مدروس، وليس كدالي "كيفما اتفق". وكلمة "مدروس" هذه يجب ألا تؤخذ هنا بكل معانيها التكنيكية، فيتجرد دوبوفيه من خاصته "الجنونية" التي تحتمها فيه طبيعته الفنية، إذ إنه بدونها لا يمكن أن يكون فناناً، فالفنان لابد أن يكون "مجنوناً"، أو على شيء

من الجنون بالضرورة.

دوبوفيه أراد أن يقول: "أنا هنا" بصوت عال جداً، ليسمعه كل الناس في هذا العالم الصاخب، ولكن فمه كان قريباً جداً من فتحة الأذن، بل كان ملاصقا لها، فسمع الناس الصراخ، بل لقد أصمهم الصراخ، ولكنهم لم يفهموا ماذا كان يريد أن يقول. حتى أنني أتخيل أن كل من رأى دو بوفيه كان يقول له: (وطي صوتك عشان أفهم)؛ ولهذا لا أشك أنه كان يقول لنفسه: لقد تعجلت كثيراً بتقديم هذا العمل للناس. إنهم لم يكونوا مهيئين لاستقباله اليوم، هكذا دفعة واحدة.

كان من الصعب عليَّ تحديد هوية عمله الفني الأخير، هل هو مسرحية؟ هل هو معرض لوحات؟ هل هو عرض راقص؟ أم أنه كل هذه الأشياء في آن واحد؟

ذهبت إلى الشانزليزيه لمشاهدة العرض بدعوة من أحد المساهمين فيه. ذهبت وأنا لا أعرف عن هذا العرض سوى اسمه: "كوكو بازار"، ولا عن صاحبه سوى أنه رسام كبير ومعروف. ومع أنني كنت أثق بأنني سأجد نفسي أمام "لغز" فني معقد جديد، إلا أنني لم أشأ أن أطلب تفسيرات أو تعليقات قبل رؤية العرض شخصياً، ومحاولة فهمه بدون تفسير أو شرح خارجيين. ربما لامتحان ذكائي الفني الذي "خيب ظني" بعد دعكه وتركه ساعة كاملة، حسبتها أطول ساعات عمري، وبعد مشاهدة العرض، لم أكن حزيناً إلى حد بعيد؛ لأنني كنت على ثقة بأن أكثر الحضور إن لم أقل: أجمعهم؛ لم يكونوا على نصيب أوفر من نصيبي فهما لما رأوا.

وماذا رأينا؟

لوحـات رسـم كبيـرة جـداً طـولاً وعرضـاً، بعـضها مثبـت علـى عجلات، بحيث يمكن دفعها وتحويلها من مكان إلى آخر، وبعضها مثبت على أجسام راقصين وراقصات، بحيث يمكن أن يؤدي حركات الرقصة باللوحة وعنها. كانت صالة العرض الواسعة، والتي تزيد مساحتها عن مئة وخمسين متراً تقريباً مليئة باللوحات والراقصين والراقصات. ومنذ دخولي قبل بداية العرض، حاولت أن أفهم ماذا تمثل هذه اللوحات، فلم أفهم شيئاً. خطوط متعرجة باللون الأسود والأحمر غالباً على قاعدة بيضاء.

بدأ العرض، فتحركت كل الصالة دفعة واحدة. اللوحات ذات العجلات يحركها ويقدمها ويؤخرها فتيات وفتيان يرتدون لباساً ملاصقاً للجسد، وملوناً بألوان اللوحات نفسها، أما اللوحات المثبتة على أجساد الراقصين والراقصات، فتتحرك حسب ما تتطلبه إيقاعات وحركات الرقصة المؤداة.

موسيقى؟

أجل.. كان هناك موسيقى، ولكن أي موسيقى؟ لقد كان ما أسمع أعقد مما كنتُ أرى، كانت موسيقى إليكترونية. وأعتقد أنني سأنتقل إلى جوار ربي قبل أن أفهم أو أتذوق هذا النوع من الموسيقى: صرير، وخرير، وزفير، وشخير، وقرقرة، وغرغرة، وعواء، وأنين. كل هذه الأشياء تأتيني دفعة واحدة بدون "رثم"، ولا إيقاع، ولا تطريب، ولا تنغيم. لم أستطع أن أدرك هل كانت حركات الرقص موائمة لها، أو أن الأمر على خلاف ذلك.

مرت ساعة كاملة – هي مدة العرض – وكأنها سنة كاملة، فخرجنا ومنا من ترك معطفه، أو حقيبته، أو قبعته في مكان جلوسه؛

لأنه فقد بصره ووعيه في آن واحد. سألني صديقي الداعي: ما رأيك؟ فكانت إجابتي الفورية هكذا: فيلم من أفلام الرعب، أفظع من أفلام مصاصي الدماء، أو أفلام السادية، ولكن بعد أن هدأت أعصابي، وعدت إلى حالتي الطبيعية، مع التسليم بأنني كغيري لم أفهم شيئاً، أخذت أتساءل: هل كنا نشاهد مسرحية؟ أم عرضاً راقصاً؟ أم معرض لوحات؟ أم كل هذه الأشياء مجتمعة؟ لم أصل حتى إلى مجرد تحديد هوية هذا العرض، فسألت غيري ممن شاهده، فوجدت الحيرة نفسها تبسط أجنحتها على أعين كل من سألت ممن كانوا هنا، فطلبت الجواب عند صاحب العرض، الفنان دوبوفيه نفسه، فوجدته يقول:

أنا لست كاتباً مسرحياً ولا مصمم رقصات. الرسم هو أداتي التعبيرية الوحيدة، وما رأيتموه هو تطوير في عالم الرسم، أي أنه حركة جديدة". لوحات فنية؟ نعم، ولكن تمرين فلسفي متطور في الوقت نفسه. أردت للوحة ألا تقف عند كونها منظراً للمطالعة فقط ، أردت أن يكون لها وجود حقيقي، أن تستقبلكم في داخلها، وهنا تكمن فضيلة هذا العرض. أن تجد نفسك منقولاً إلى داخل اللوحة، ربما كان هذا شيقًا بالنسبة للبعض. لوحة أضع فيها مثلاً شخصية جالسة قريبة من أخرى واقفة، عربة نقل ذات عجلة واحدة في مركز ثانوي من اللوحة، قصراً وشجرتين أو ثلاث في عمق اللوحة. القصر على اليسار، والشجر جهة اليمين. انتهت اللوحة ولها أبعادها، ولكن نريد أن نجرب ماذا سنعطي هذه اللوحة من أبعاد جديدة لو تغيرت أوضاع عناصرها. القصر الآن على اليمين والشجر على اليسار، العربة في مركز أولي في اللوحة، الشخصيتان في مركز

ثـانوي، هـل بقيـت للوحـة أبعادهـا الـسابقة نفـسها، أم أنهـا اكتـسبت أبعـاداً جديـدة؟ مـع أن عناصـرها لـم تتغيـر، وإنمـا تغيـرت أوضـاعها فقط؟!!

هـذا هـو التمـرين الفلـسفي المقـصود مـن كوكـو بـازا، وهـذا مـا يفسر عملية تحريك اللوحات وتقديمها وتأخيرها.

لقد كـان دوبوفيـه يريـدها ثـورة فـي عـالم الرسـم تجديـداً. كـان يعلم بأنه يجب أن يكسر الحواجز، ويحطم القواعد التقليدية للرسم، ولمفهوم اللوحة ووظيفتها.

والشخصيات المتحركة وغير المتحركة في العرض، كـان يجب أن تكون من الراقصين والراقصات، بل أن يكونـوا خبـراء فـي الرقص – كما يقول هـو – لأن الحركة في العرض تتم بطريقة بطيئة جداً، بحيث يُتاح للمشاهد متابعة مراحل تحول اللوحات. والحركة البطيئة فـي العـرض صـعبة التنفيـذ، ولهـذا يطيـب لدوبوفيـه أن يقـول عـن عرضه: إنه "باليه بطيء، بطيء جداً".

الموســيقى نُفِّــذت فــي اســتوديوهات المركــز الموســيقي الإليكتروني لجامعة كولومبيا برنيستون في نيويورك، ومؤلفها اسمه: الهان ميمارونحلو، وهو تركي الأصل، موسيقار في جامعة كولومبيا برنيـستون، لـه عـدة مؤلفـات، مثـل: "تـاريخ الموسـيقى".. و"فـن الجاز".. و.. "أصوات أمريكا".

كـان لابـد لدوبوفيـه أيـضاً مـن اختيـار خبـراء فـي "تكنيـك" العـرض، فـي الإخـراج، والإضـاءة، والإدارة إلـخ. كـل هـذه الإمكانـات كرسـها دوبوفيـه لعرضـه، فقـدَّم للنـاس مقدمتـه في نيويـورك، ثـم جـاء

إلى باريس، ولكنه لم يصافح النجاح والتصفيق الذي كان يتوقعه تماماً، كما حدث له في نيويورك كما أعتقد؛ ربما لأنه تعجَّل في "ثورته" هذه. لقد سبق زمانها الذي كان يجب أن تولد فيه. فمفاهيم زمانه الفنية، وخاصة في عالم الرسم، لم تكن مهيأة لاستقبال "تطور" فني على هذا المستوى من الجموح والشدة والعنف.

حركة دوبوفيه التي تحدث الناس عنها كثيراً، لم يحالفها النجاح الذي كان ينتظره الفنان. لا أريد أن أقول: إنها كانت فاشلة، فهي ليست فاشلة، وإنما عسيرة، صعبة المنال. والحركة الفاشلة هي – دائماً – التي لا تثير في الذهن أي تساؤل أو استفسار.

دوبوفيه ليس رساماً عادياً ولا مبتدئاً، ولكن الناس في حركته هذه – وأنا منهم – لم يدركوه، فهو "مجنون" حقيقي، أو فنان حقيقي إن أردتم.. ربما مشكلته أنه يتقدم على عصره.

جيسكار ديستان:

النساء.. يا سيدي الرئيس!

يوم كنا طلاباً في باريس، كان أكثر "الزميلات" في جامعة السوربون يصارحننا بضرورة التصويت لجيسكار ديستان!

كان ذلك بعد وفاة الرئيس بومبيدو، وكان منافس جيسكار يومها (في الدورة الثانية)، هو الرئيس الفرنسي الحالي فرانسوا ميتران.

لم يكن خلف حماس "الزميلات" تلك اللحظة إلا شيء واحد، هو أناقة الرئيس المرتقب ورشاقته!

لقد كن يقلن: في عمر الجمهورية الفرنسية الخامسة المديد، لم نحظ برئيس واحد أنيق ورشيق، وجيسكار سيخلب أنظار العالم –وخصوصاً نساءه- "ديغول" كان عسكرياً، ولم يكن وسيماً، ويومبيدو كان ممتلئا بالشحم، وكانت رقبته غليظة، وكان وجهه مستديراً، لم يكن رشيقاً. ثم يضفن: نريد جيسكار، ليكن لنا رئيس بهي الطلعة والصلعة، مرة واحدة على الأقل!

لقد كان نصف الناخبين من النساء، وأكثرهن -أو بعضهن- عشقن بدلة الرئيس، وربطة عنقه، فمنحنه أصواتهن.

فحكم جيسكار فرنسا سبع سنوات؛ لأن أمه أحسنت تربيته، إذ علمته كيف يلبس، وكيف يختار ما يلبسه!

أما المناضل القديم، صاحب الهزائم المتكررة، فرانسوا ميتران فقد انثنى إلى منزله، بعد العدة لمعركة قادمة مع جيسكار نفسه، ويكون يومذاك قد شاخ وترهل، أو مع غيره، ولن يكون بالضرورة وسيماً؛ لأن وسامته غالباً ما تكون ضد الطموح، أو أنها تفدسه وتبعثره!

لعلكم تضحكون الآن، ونحن نتناول من هذه الزاوية مسألة تتعلق بمصير بلد كامل يسكنه حوالي خمسة وخمسين مليون نسمة آنذاك، وله قوة صناعية واقتصادية معتبرة في العالم المعاصر.

لكن يجب أن تعلموا أن هذه هي إحدى المفارقات الطريفة التي تميز الانتخابات، حتى في أقوى البلدان وعياً وثقافة.

لقد أثبت المهتمون بهذه الأمور من خبراء الدعاية والعلاقات العامة، ومن خبراء مراكز سبر الآراء (استطلاعات الرأي)، أن مثل هذه الشكليات التي قد تبدو تافهة، تؤدي دوراً مهماً في إقبال الناس على التصويت لصالح المرشح أو ضده.

لعلنا نقول الآن: إن من مسببات هزيمة ميتران أمام جيسكار عام 1974م، أن النساء في فرنسا كان لهن حق التصويت.

إن هذه النسبة الكبيرة من الإناث الفرنسيات كن نعمة على جيسكار، وهنّ كن نقمة على ميتران الذي تعرفه أوساط السياسة الداخلية الفرنسية أكثر من معاون "ديغول"، ووزير مالية بومبيدو.

النساء هن النساء في أي مكان، وفي أي زمان!

وهـذه السيدة سيمون فيً، وزيـرة الـصحة الفرنـسية، والكلمـة القويـة فـي البرلمـان الأوروبـي، تـصر علـى ألا تظهـر علـى شاشـة التلفزيـون في فستان أبيض؛ لأن هـذا اللـون يـضخم أمـام الرائين أو المشاهدين سمنتها، فتبدو أقل رشاقة.

كـل مـا وصـلت إليـه مـن سـلطة ومكانـة لـم "يـشفها" مـن أنوثتهـا!.. ولـم تحررهـا مـن ضـرورة أن تخلـب "بحلاوتهـا" لـب الرجل!! لم تغنها الوزارة عن طلب الأناقة، ولم تطلقها السلطة من عبودية المثال والنموذج.

ومثلهـا الـسيدة فرانـسواز جيلـو، مـديرة تحريـر أكبـر مجلـة فرنسية: "الاكسبريس"، ولا التي أصبحت في أوائل عهد جيسكار، وزيـرة هـي الأخـرى لـشؤون المـرأة. لقـد كانـت تعطـي تعليماتهـا للمصورين بألا يلتقطوا لها الصور "بروفيل"؛ لأن "بروفيلها" أقل تأثيراً من ملامح وجهها من الأمام!

الزعمـاء علـى وجـه العمـوم، ممـن يتعرضـون للامتحانـات الانتخابية في بلدان للمرأة فيها حق التصويت؛ يكونون غالباً مكرهين لوضع مزاج النساء في الاعتبار، فيولون مظهرهم عناية فائقة، وقد يبدو هذا الأمر مضحكاً في بعض المجمعات، ذات الثقافات المنغلقة أو المحافظة، أي نحن الذين لا نخوض تجارب الانتخابات والتداول السلمي للسلطة.

والحـق أن الاهتمـام بهـذه الأمـور يكتـسب أهميـة خاصـة لـدى السلطة التي تعتمد في دعمها على الناس، فكل شيء يراه هؤلاء الناس أو يلاحظونه، قد يدعم تعزيز التصور الإيجابي للشخصية التي تحتاج إلى دعم الناس. فالشكل مهم، والمظهر مهم، واللباس والأناقة عموماً مهمة، وهي كلها قد تسهم في دعم قبول الشخصية

عند الناس، وقد تعمل العكس. ويمتد تأثير هذه الأمور على الناس، حتى في أوقات لاحقة بعد الفوز، وبعد تبوء سدة الحكم، فالجاذبية الشخصية سيكون لها دور كبير في التفاف الناس في المناسبات التي يظهر فيها خطيباً، أو متحدثاً، عن الناس وللناس، في شؤون البلاد، وشؤون العالم كله!

حدثنا صديق لنا في باريس، يعمل في التليفزيون الفرنسي منذ أكثر من عشرين سنة، قال:

إن "ديغول" العظيم، مؤسس الجمهورية الفرنسية الخامسة، كان في صحبته رجل مختص بعمل المكياج، فلا يظهر فخامة الجنرال على الشاشة الصغيرة، إلا ويكون قد أمضى في غرفة المكياج أكثر من ساعة! كان يخرج إلى مساعديه ومستشاريه، نحو "البلاتوه، وعلى أنفه الطويل ألف لون ولون، لون يذهب التجاعيد، ولون يعمق النظرة، ولون يعمل على تصغير ذلك الأنف البالغ الطول والجرأة!

واستطرد الصديق:

ومثله كان يفعل بومبيدو، وخصوصاً في سنيه الأخيرة. أما عندما زاد وزنه، وبعد أن بدأت أمراضه وهمومه تفسد كل محاولات المكياج، فقد نصحه مستشاروه بعدم مقابلة رجال الصحافة أوالتليفزيون.

إن ملايين الناخبين يذهبون إلى صناديق الاقتراع، دون أن يكون لهم رأي سياسي أو فكري محدد وواضح في المرشح الذي سيهبونه أصواتهم، بعضهم يذهب بحكم العادة، إن كان مسناً، وبعضهم يذهب - إن كان شاباً- ليقنع نفسه بأنه أصبح راشداً، فهو فرح بممارسة حقوقه المشروعة في الانتخاب لأول مرة.

ومثل هؤلاء يقفون أمام صندوق الاقتراع، وليس في مخيلتهم غير ما تركته شخصية المرشح من أثر أثناء الحملة الانتخابية، وهم أحياناً لا يقوون على استيعاب البرامج المقترحة للمرشحين، فما بالك بفهمها، وفرزها، واتخاذ موقف منها.

وربما يصوتون لرجل قد يجر البلد بأفكاره وبمخططاته إلى كارثة، والسبب أن له شخصية مؤثرة.. مظهراً.. وتعبيراً.. وقوة منطق.

وقد يكون من الصعب على أحد التسليم بفكرة أن الرئيس الفرنسي جيسكار، داهية السياسية والاقتصاد، إنما هزم ميتران في انتخابات 74 ؛ لأنه كان أكثر منه أناقة، وأبلغ رشاقة. ونحن لم نقل إن الأناقة تنفي السياسة، أو أن الرشاقة تحبط الخبرة الاقتصادية، فالرجل كان بالفعل قوياً وبارزاً، ومن أذكى زعماء العالم المعاصر، لكن عدداً من الناخبين لم يكونوا يقدرون هذه الموهبة فيه، فكان لمظهره ولفصاحته ولبلاغته التأثير الأمكن في اتخاذ قرار كثيرين نحوه! وبالذات في الوسط النسائي، فليس كل الناخبين على معرفة تحليلية بالتحديات القائمة، وبخيارات المستقبل، ولكنهن يأنسون لشخصيات بعينها تشترك في عوامل الجذب إليها أمور متعددة، منها المظاهر العامة، وسهولة القبول عند الناس.

ما ذنبنا نحن إن كانت النساء أكثر ميلاً إلى ترجيح هذه المعطيات، وهن مازلن يفكرن بهذه الطريقة، حتى اليوم وحتى غد.

تتساءلون الآن: لماذا أخفق جيسكار ديستان في انتخابات الأسبوع الماضي؟ هل ترهل الرجل؟ هل اتسعت مساحة "الصلعة"!

لا، ليس هناك أي شيء من هذا هذه المرة، لكن هناك سر آخر

من أسرار الانتخابات الشعبية العريضة في أوروبا، وهو أن الناس هناك يتعاملون مع رؤسائهم مثلما يتعاملون مع أشيائهم العادية، فكما يفضل الشخص هناك تبديل سرته، أو مكتبه، أو معطفه، أو حذائه، أو صديقته، فإنه يميل غالباً إلى تبديل رئيسه، خصوصاً في فرنسا التي يبقى فيها الحاكم على قلوب الشعب سبع سنوات، وهن يرونها طويلة بطول هموم المطلقات والأرامل.

لقد رفضوا ميتران مرتين؛ لأن منافسه كان من غير اليساريين، ولم يكن "مكرراً"، لكن في هذه المرة الأخيرة لم يكن أمامهم خيارات كثيرة، فالمنافس غير يساري، صحيح ، ولكنه "مكرر"، وهذا وحده عائق مهم وكبير.

لقد كان هناك عوامل سياسية واقتصادية متعددة ساهمت في سقوط جيسكار ديستان، أهونها ارتفاع نسبة البطالة، ولكن هذا الأمر كان يعني فئة قليلة من الناخبين، أما الفئة الأخرى فكان أكثر ما يهمها، هو أن "تغيير" الرئيس، أن ترى في التلفزيون قائداً آخر، وأن تصفق لزعيم جديد.

إن كل ما سمعناه عن انتشار المد اليساري في فرنسا، وعن انحسار الفكر الديغولي، قد يكون صحيحاً إلى حد ما، لكن هذه الجوانب الصغيرة "التافهة" التي تحدثنا عنها –بعد عفوكم- كانت تؤدي دورها في مخيلة سواد كبير من الناخبين، وربما كانوا هم الذين رجحوا كفة ميتران هذه المرة، وربما لم يكن للمد اليساري كل الأثر في النسبة الضئيلة التي هزمت جيسكار، وتوجت ميتران!

ماذا لو قلنا لكم: لو كان منافس ميتران في الدورة الثانية من الانتخابات الفرنسية مرشحاً من الوسط أو من اليمين، غير جيسكار، لما ربح هذا الفارس العجوز، ولظل يصارع الهزيمة حتى يموت؟!

حمد الجاسر وحسن قزاز:

"ليكن هناك نور"

الوقت كان ليلاً، وها نحن نخرج للتو من قصر "اليمامة" بالمعذر، في العاصمة السعودية، بعد أن جئنا لتناول طعام العشاء على مائدة الملك*. نحن الآن في الفناء الكبير، والليل ليل قرّ، والريح ريح صرّ، وحمد الجاسر بكامل هيبته يقف وحيداً وسط هذا الفناء الرحب، في عباءته (المشلح) ذات اللون البني، وهي العباءة الوحيدة بهذا اللون في عشاء الملك. فالبروتوكول يقتضي أن يكون المشلح في الغالب باللون الأسود، ولكن آخر هموم حمد الجاسر ما يقوله أو يمليه البروتوكول، وهذه العباءة هي كذلك، العباءة الوحيدة -في هذا المساء- التي لا يلمع فيها شيء البتة؛ فهي تظهر بلون واحد لا غير، تماماً تماماً كصاحبها.

كان البرد قارساً.. وهؤلاء الخارجون من القصر يحيطون "الشيخ" ويلتفون حوله.. وماذا يريدون منه غير تحيته وتحية بهاء العلم فيه؟! فتسللت بينهم حتى بلغته، فأنا أولى به منهم جميعاً!..

---

* الملك فهد رحمه الله.

ألا يكفي أنني يومذاك كنت رئيس تحرير "يمامته" العزيزة! قبَّلت رأسه، ثم عرفت أن أبا محمد يقف هنا ينتظر سائقه الذي "ضاع" في زحمة السائقين. مشينا سوياً، هو وأنا، نبحث عن السائق المفقود في عرض الفناء وطوله وشرقه وغربه، وفي المواقف المخصصة للسيارات، فتعبنا، ولم نجد "فريدي" فلبيني الجنسية. سألت الشيخ بهدف تسهيل مهمتنا في البحث: ما لون سيارتكم يا شيخ!؟ وما نوعها؟ فأشار بشيء من الثقة إلى سيارة "بويك" وقال: كهذه، ثم تردد قليلاً والتفت إلى سيارة أخرى "كاديلاك" يشير إليها قائلاً: أو كهذه. وما لبث أن صوَّب سبابته إلى "اولدزموبيل" وقال: لا، لا، بل كهذه! فهمت أن نوع السيارة وأصلها وفصلها ولونها، هو آخر ما كان يفكر فيه الشيخ حمد الجاسر، الذي تعمر ذاكرته ووجدانه بما هو أجدى وأهم، وليس ببعيد أن تكون سيارته من فصيلة أخرى بعيدة كل البعد عما أشار إليه من ألوان وأنواع وموديلات، وهي قد تكون بالضبط السيارة التي أمامنا، وقد تكون تلك التي إلى جانبنا، دون أن يميزها الرجل الذي يحمل داخل جمجمته هذا الوطن بكامل حجمه، وبكل أماكنه ومواقعه.

كان البرد قارساً جداً، ونحن مازلنا نمشي وندور، و"فريدي" لا ينوي أبداً أن يظهر أو يبين. قلت للشيخ: أوصلك إلى دارك يا شيخ!.. و"فريدي" يلحق بك فيما بعد! قال: ولكن قد تعترضه بعض المتاعب لو وجدوه في هذا المكان "الحساس" وحيداً! قلت: ما العمل إذاً يا أبا محمد؟ وقبل أن يجيب اقترب منا بعض السائقين، ومن باب رفع العتب، والبرد يلسع وجوهنا ووجه الشيخ، سألتهم: ألا تعرفون يا شباب سائقاً فلبينياً اسمه كذا؟ قالوا: بلى؟ فأكمل الشيخ: أين هو؟ قالوا: يتعشى مع بقية السائقين في المكان

المخصص لهم. فتدخلت أنا: بالله! اذهبوا إليه وقولوا له: ليأت حالاً، فالشيخ ينتظر هنا منذ زمن. فأمسك الشيخ بيدي ثم نظر، بعين ليست ممتنّة، إلى وجهي الذي كان البرد يلفحه بجسارة، أحسست أن نظرته كانت أقسى من البرد وأوجع منه، ثم عاد يقول لهؤلاء: دعوه يكمل عشاءه!

عجيب أمرك يا أبا محمد! وأنت ذاتك! هل تقف في هذا البرد، بهذه المهابة، وهذا الجلال، في هذه السن! وحتى متى؟ حتى ينهي "فريدي" العظيم عشاءه! كان يدفعني الشيخ نحو سيارتي مقسماً ألا أشاركه برودة هذا الليل، وعصف هذه الريح، ولاسيما ونحن لا نعرف متى سيختم "فريدي" وجبته الهنيئة فقد تطول، من يدري؟!

تركت حمدا الجاسر وأنا خجل مرتين: مرة لأنني غادرت أبا محمد وهو تحت لفح البرد، ولكنه إصراره. والمرة الثانية؛ لأنني تشددت في طلب حضور السائق قبل أن ينهي عشاءه، فبدوت له على شيء من الصلف والقسوة، حتى وإن كان ذلك مع سائق! لقد تصرَّفت كما يتصرف كل السعوديين في بيوتهم ومع سائقيهم، فهم لا يحاولون أن يتذكروا، من وقت لآخر، أن الناس الذين يقومون على خدمتهم هم، مثلهم، من البشر، يجوعون ويعطشون، ويمرضون ويتعبون، وهم يحتاجون إلى أوقات للنوم وأوقات للراحة، وربما أوقات للبكاء والحنين أيضاً!

أقول: إنني كلما قابلت هذا الرجل آخذ عنه: علماً طيباً، أو سلوكاً محموداً! وغالباً ما أبدو أمام نفسي على شيء من البلادة؛ لأنني لا أتقن الدرس كما أبغي ويبغي الشيخ نفسه. وكلما قابلته أتأمله، وأقرأ في وجهه في كل مرة سطوراً بكرا جديدة، تجعله يزداد

كبراً ونبوغاً في عقلي وقلبي وعيني، ولهذا فلا مبرر لسؤالنا كل مرة عن "صورته" التي نُزِّين بها مدخل مؤسسة "اليمامة" الصحفية، يمامته التي اجترحها من أحشائه وفؤاده، قبل أن تعرف منطقة وسط السعودية ما الصحافة. نعم. لا مبرر أبداً لسؤلنا هذا السؤال؛ لأن الجاسر هو، بوضوح واعتزاز، ملهمنا، فنحن نصطبح بوجهه ونتمسى، ونحن نراه يخرج علينا، بكامل هيبته، وفي عباءته البنية نفسها، في كل حرف تحمله "اليمامة" إلى الناس في هذه البلاد. هنا في كل مكان، وكل زاوية، يراقبنا حمد الجاسر، يحاسبنا، ويغرينا بحب الوطن والحرية!

*****

لحمد الجاسر خصال كثيرة؛ أبرزها ثلاث: العلم الغزير، والوطنية النقية، والريادة الخالصة.

فعلمه بجغرافية بلاد العرب وتاريخها لا ينافسه فيه أحد، وقد شهدت له بذلك المحافل العلمية في كل مكان، إذ ظل مصدراً من المصادر المهمة العريقة في هذه الحقول، وقد أثرى المكتبة العربية بإنتاجه المتواصل الذي لم يعرف الانقطاع، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، على الرغم من تقدمه في السن، وعلى الرغم من ظروفه الصحية التي كانت، غالباً، حرجة، ولاسيما في السنوات الأخيرة من عمره.

أما وطنية الشيخ الجاسر؛ فهي النموذج الذي نأى عن المزايدة والتشوف، وهي كذلك النموذج الذي ظل دائماً يتمتع بقدر كبير من الصلابة، والصراحة، والشجاعة، والإخلاص.

إن شخصية فريدة كهذه، تستلزم أن تكون صاحبة ريادات ثقافية واجتماعية متعددة، (وهذه هي الخصلة الثالثة)، ويأتي على مقدمة قائمة تلك الريادات: أن المرحوم هو من أنجز أول مشروع ثقافي إعلامي في المنطقة الوسطى من هذه البلاد، إذ أنشأ مجلة اليمامة، التي التف حولها طيلة سنوات عمرها شباب كثرٌ، فكان الشيخ حمد الجاسر هو الأستاذ، وهو المعلم، وهو لم يكن كذلك بالنسبة إلى الجيل الذي عاصر ولادة اليمامة فقط؛ بل كان كذلك بالنسبة لأجيال أخرى كثيرة، تعاقبت وتوالت إلى اليوم الذي وري فيه في قبره.

لقد كان الشيخ حمد الجاسر يدرك موقعه في وجدان تلك الأجيال من مثقفي بلاده؛ ولذا فلقد ظل صدره مشرعاً، وبيته مفتوحاً لهم.

والذي يبقى للشيخ عند تلاميذه كلهم؛ هو أن يعيدوا نشر آثاره، وأن يعكفوا على دراستها، وأن يقولوا عنها ما تستحق من التقويم، وهي، بلا منازع، إحدى مفاخر هذه البلاد على مستوى الإنجازات العلمية الرصينة.

*****

لقد شرفت برئاسة تحرير مجلة اليمامة أكثر من اثني عشر عاماً، وكان مما يزيد غبطتي بعملي في تلك المجلة؛ هو عراقتها وريادتها، وأكثر من ذلك، أن نسبها يلحق بشخصية فذة؛ هي حمد الجاسر، ولقد مات الشيخ -رحمه الله- وهو مازال يحس بأن اليمامة يمامته.. وهو لم يكن راضياً كل الرضا عما فعلناه بها نحن - الجيل

الجديد من الصحفيين- فهو لا يحبذ الإغراق في الشعبيات، بل كان يعدّها، أحياناً، "سوقيات"، وهو لا يأبه للأوراق الصقيلة، والألوان الفارهة، والصور التي لا هدف لها، وكنا نقول له: إن شروط العمل الصحفي الحديث تتطلب أشياء كهذه، وشروط العمل الصحفي، هي شروط السوق، ثم يذكرنا الشيخ بأن آخر همومه، هي السوق وشروطها وحبائلها وغواياتها التي لا تعد ولا تحصى.

رجال كثيرون خرجوا من تحت العباءة الفضفاضة لمجلة "اليمامة"، أو تحدروا من جلبابها الرحب، وذلك بعد أن محضوها حبهم، وبعد أن سكبوا على صدرها وبين كفيها عرقهم وخوفهم وقلقهم، فكانت لهم حصناً مهيباً لا يملون النظر إليه، ولا يتعبهم أبداً أن ينقشوا أسماءهم وذكرياتهم الجميلة على حجارته البلورية الفاتنة.

لا أظن أن أحداً يجرؤ على جحود حصة "اليمامة" الوفيرة في مهمة نشر "الوعي" بين الناس في وطننا الفسيح بطوله وعرضه. نقصد الوعي بالتاريخ، والوعي بالجغرافيا، وبالتالي الوعي بالثقافة، والمسؤولية، والحقوق، والواجبات، والحرية، والعدل. فالفكرة الجموح التي التمعت في مخيلة حمد الجاسر (اليمامة)، كان يدرك هذا الشيخ العجيب -رحمه الله- مكارمها، وكان يعرف، في الوقت ذاته، مخاطرها اللانهائية، منذ ذلك اليوم الذي كانت الصحافة فيه مدعاة لسخرية الناس، ومبعثاً لهزئهم، إلى هذا اليوم الذي أصبحت فيه الصحافة رمحاً مشهراً طويلاً ذا ذؤابة حادة، تأخذه، إن شئت، زينة لك في صلاة العيد، أو تهزه في يديك، إن أردت، لتنذر بالموت ونهايات الأشياء، أيُّ أشياء ليست جديرة بالبقاء والاستمرار!

ملحمة طويلة قادتها "اليمامة" منذ تلك الأيام، أيام حملها حمد الجاسر وحيداً على كتفيه، فعلمت الناس، بالفعل، الأدب والفكر والشعر، ولقنتهم الحب والحلم، وهي، في الوقت ذاته، لم تنس للحظة واحدة أن تنقل إلى خبراتهم أصول الغضب ولوازم الاحتجاج!

لقد تحدَّث الكثيرون عما يعرفونه عن "اليمامة"، وعن حمد الجاسر، وتكلموا عن تاريخها، وعن كونها "رمزاً" حضارياً سامقاً للثقافة، وللحس الوطني المرهف الذي ينتصب في ارتفاع صارم جليل في قلب الرياض. وقد ظلت "اليمامة"، في عهد الجاسر، وفي بعض مراحل عمرها بعده، على العهد، وبقيت تأخذ، لسنوات طويلة، بشآبيب الوعد، حباً لهذا الوطن النابه، وموتاً له ومن أجله، يحدوها في ذلك عظم الواجب الذي تزهو به في كل حين، ويدفعها نحو ذلك ضخامة الأمانة التي تفعم ضميرها، وتملأ عقلها ووجدانها.

والوطن، عندنا، هو "التراب"، وهو ذرات الدمع والدم. والوطن، عندنا أيضاً، هو "الإنسان" في شجنه، وفي حلمه، وبما يحمل من معتقدات وأفكار وطموح.

فكل حبة في ذلك "التراب"، هي الدنيا بكل مباهجها، وكل لمعة أو لمحة في ذلك "الإنسان"، هي العالم بكل تحدياته وبكل ما بلغ من جبروت ومهابة.

*****

وكنا مجموعة من الشباب الذين التقوا حول مائدة اليمامة، في الثمانينيات من القرن الماضي، وبكل ما في هؤلاء الشباب من حماس، فقد كانوا يظنون أحياناً أنهم سيصلحون الكون، وسيعيدون

إليـه رشـده، وسـيمنحونه اسـتقامته، وسـيعيدون صـياغته وتـشكيله وتلوينه على طريقتهم، وذلك في مدة قصيرة، أي خلال يومين، أو ربما ساعتين!

يومها كتبنا، بعض ما كتبنا، بالسكاكين والحراب، ففرح بنا الكثيرون؛ لأنهم كانوا يرون في ما نفعل وعداً جميلاً، وقد غضب منا الكثيرون أيضاً، وقد حملوا علينا، وبعضهم لم يدخروا في جعبتهم من الأسلحة والذخائر أي شيء! صوبوها إلى نحورنا وصدورنا!

المسؤولون عدُّوا أن هدفنا، هو "التشكيك" في مشروع "التنمية" الذي كان على أشده، والمحافظون، من جهتهم، اعتقدوا بأن غايتنا، هي الإجهاز على ثقافة العرب وعلى تراثهم!.. وكان حل مشكلتنا مع المسؤولين أسهل بكثير منه مع الآخرين. والمشكلة كانت دائماً مشكلة "مفاهيم"، وقد كان هناك دائماً حساسية مفرطة تجاه بعض المفاهيم، مثل ما حدث مع مشروع الحداثة التي كانت شغل العالم كله تلك الأيام، سواء في أبعادها وصفاتها الحضارية المتصلة بمستقبل الكون والإنسان، أو في فضاء الإبداع والثقافة على نطاق أكثر تحديداً. فأُخرجَ يومها من الملة من أُخرجَ، وفُسِّقَ من فُسِّقَ، ولم يكن هناك، في هذا الضجيج المحتدم، من صوت عاقل واحد يدعو إلى شيء من الهدوء، ومن العلمية، ومن الالتقاء حول "مفاهيم" أكثر وضوحاً تنشلنا من هذا التيه العجيب!!

سقط في تلك المعمعة العديد من الجرحى والقتلى، ولكنهم كانوا دائماً ينهضون!

لقد كنا ننطلق، أيام عملنا في اليمامة، من خطوط شديدة

الوضوح في الذهن وفي الضمير؛ استجابة لمتطلبات المجتمع الذي نحمل رسالته، وفي هذا تأكيد على المحرك الذي يدفع الأداء الإعلامي إلى مسؤولياته المباشرة في ضبط التوازن الدقيق في المعادلة الصعبة للتقدم والتخلف، وقد كنا، كما كان يريد مؤسس هذا الصرح الكبير حمد الجاسر، مع التقدم طبعاً بكل شروطه وظروفه وتبعاته، ومهما بلغت تضحياتنا من أجله؛ لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي سيكفل لنا مستوى مشرفاً من المنافسة أو ربما التفوق، وبهذا المستوى نفسه نستطيع أن "نستأنف" الجهاد في طريق رسالتنا التاريخية والحضارية القديمة المستمرة، والتي لابد أن تعود جذعة. ونحن في حماسنا للتقدم والبناء، وفي حرصنا على صيانة الإنجاز ومواصلته؛ لا ننسى، لدقيقة واحدة، أن قوتنا إنما تنبثق من تلك الرسالة التي حملنا أمانتها، فلا تفريط في ديننا، أو تاريخنا، أو النابه من تراثنا وقيمنا الحضارية المختلفة.

وكان علينا دائماً أن نستبعد كل ما من شأنه أن يؤدي إلى زعزعة الطمأنينة بين الناس، أو التفرقة بينهم، فنحن ضد الاستفزاز وضد الاستعداء، فالحوار لا يعني الخصومة، والاختلاف في الرأي لا يعني التأليب أو تكريس التشرذم، ونحن نؤمن تمام الإيمان أن هذا هو الداء الوبيل الذي لابد أن ننجو بمجتمعاتنا منه، ولا بد أن نرفض كل من يهيئ له، وأن ندحر كل من يروِّج لعوارضه.

*****

أدت "اليمامة" دوراً ملاحظاً في الإسهام في حركة التنمية واستحثاث الوسائل والطرق المفضية إليها، بدءاً بالمشاركة في حركة التثقيف والتنوير وتبصير الرأي العام بهمومه ومشكلاته

الماثلة؛ وانتهاء بالمساهمة الفاعلة والمؤثرة في تحديد مسارات عجلات التنمية نفسها، وتعيين درجة حركتها، وسرعة دورانها، وهي في هذه السبيل لم تكن تخلو من نقد، (قد يكون شديداً أحياناً)، ولكنه صريح ومخلص يطال كل ما يستوجب المراجعة أو التصحيح، أو إعادة ترتيب الأوليات. فالمناقشة النظيفة سمة حضارية، وواجب وطني، وشعارنا كان دائماً، هو ذلك الشعار القديم الجديد: "ليكن هناك نور".

بعضهم عدّنا نلعب بالنار، وأن هدفنا -كما ذكرنا أعلاه- إنما هو التشكيك في سلامة المشروع التنموي وعفته وصحته، فعاقبنا، وعنفنا، وآذانا، في مقابل ذلك، أخذنا بعضهم بأيدينا وأقعدنا إلى جواره، يؤاخذنا، ويلومنا، ويعاتبنا، وقد يحتد علينا، ولكن دون أن ينس أبداً أننا بعض أولاد هذا الوطن الكبير، ونحن شركاء في ماضيه وحاضره ومستقبله.

لاشك أن ما كنا نفعل كان يستفز الذين اعتادوا على السكينة والهدوء، وربما الجمود في الحركة، والفكر، والإبداع، والتنمية.

شيء واحد -على الأقل- لا يستطيع أن ينكره أحد على اليمامة، ولاسيما في تلك المرحلة الساخنة جداً من عمرها؛ وهي أنها كانت حدثاً مهماً في تاريخ الصحافة السعودية، بل في تاريخ الإعلام كله في بلادنا. لقد أباحت اليمامة هامشاً أرحب في إعمال العقل والتفكير، كما أنها أتاحت فضاء أرحب للمساءلة والمحاسبة والمراقبة والنقد، وهي أمور كانت من أحوج ما يحتاجه مجتمع ناهض كمجتمعنا.

*****

تماثلت، الرقصة الجديدة لـ "الزينة" التي مازال يلمع وشمها

البني فوق الذقن، تحت الشفة السفلى!

نثرت شعرها على مقدمة الوجه ومساحة الكتفين، ثم أخذت ترقص، ترقص بولهٍ وثقة، وشيء من الغرور. والغرور في المليحات إغراء وإثارة وصخب.

قالت منذ "أمس": سأمضي نحو الفعل النابه، سأرتمي في الخطر!

كانت ترسخ لتقاليد إعلامية نابهة ونظيفة ومسؤولة، كما أنها تمكّنت من أن تؤسس لمنهج صحفي كان مثالاً احتذته عنها أكثر المطبوعات التي تصدر في البلاد. ونحن نقول ذلك دون تشوف أو غرور أو منّة، فالذي يهم هو أن تجربتنا كانت سليمة، وأنها قد أثارت عدداً من الأسئلة حول المسكوت عنه.

لقد كان الهاجس الأول الذي يلح على القلب والذهن، هو هذا الوطن الجميل الذي ينتصب كالسيف. هذا الوطن الذي يخوض تجربة حديثة متفردة في موضوعها وتطلعاتها. نعني التجربة التي نعتقد أن كثيرين بين المثقفين يتعاملون معها – حتى الآن – بقدر لا بأس به من الاعتيادية من حيث المتابعة، والتقويم، والتفاعل، والتأثير، وهل نذكر الآن بقضيتنا التي آثرناها في اليمامة حول المثقف السعودي الذي أسميناه "شاهد ما شفش حاجة"؟ أو هل نلوح بقضيتنا الأخرى حول نظرته السالبة تجاه التحولات التي طرأت على المجتمع السعودي؟

حين انقضت السنة الأولى في الشوط الأول مع اليمامة (عام 1401هـ)، أشفق علينا عدد كبير من أصدقائنا، وقالوا لنا بملء الفم: ننصحكم بالخروج عاجلاً من هذه الدائرة الخطرة، أخرجوا إلى

ساحات خضراء أخرى، رحبة، فقد تسقطون، أو قد يضيق بكم المكان، أو تتقطع فيكم حبال الصوت، أو ينضب وهج التجربة. فالحركة المجتمعية هنا – بتفاعلاتها المختلفة لا تسمح بأكثر مما قلتموه، وسيبدو للناس -فيما بعد- أن العيب ليس إلا فيكم وفي تجربتكم. ولقد حَضَنّا في العين، ذلك الاهتمام من الأصدقاء، لكننا بقينا نؤمن بحقيقة واحدة، وهي أنهم كانوا يسيئون التقدير، فأبينا إلا أن نغني النشيد نفسه، ولحوالي 13 عاماً، فنحن نحب بلادنا، ونحن أيضاً نوقِّت إيقاع دقات القلب مع خطوها وتنفسها. و"اليمامة" هي - في نظرنا على الأقل- إحدى العينات القليلة التي لها طريقتها في الحب، فهي تعي عمق تجربة الوطن وثراءها الجم، وهي توائم بين الغناء للمجد ومسؤولية الاعتراف بالتقصير أو الأخطاء. لقد كنا نلتقي دائماً، ونراجع قوائم الفشل والنجاح، وكانت الرغبة الملحة، هي أن نحدث جديداً يتوافق مع طموحات الوطن، وينسجم مع تطلعات الناس نحونا، لكننا مقتنعون بأن نبقي – في الوقت نفسه – على التقاليد الإعلامية التي رسخناها، وأن ندعم المنهج الصحفي الذي اخترناه، وناقشناه، في اللُحمة الداخلية للأداء الذي عرفه عنا أصدقاؤنا وزملاؤنا في المهنة، دون حاجة إلى الاستغراق في التفاصيل. كان التصميم هو أن ننفثْ الروح في قنوات أخرى للتجربة، وحاولنا أن نختار الطريق الصعب، فبنينا "خطتنا" على استراتيجية صريحة وبارزة، وهي "الناس"، ومن هذه الاستراتيجية تصببت الآراء والأفكار، وتفتَّح العديد من القنوات الموصلة إلى الأهداف التي نريد، أو الاستراتيجية التي رسمنا، وكان التكتيك هو التمييز بين عدد من الأساليب المشروطة بقيم إعلامية نزيهة، ومنهج وطني يتوخى الصدق في الإشادة، والصدق أيضاً في

التصحيح. فجاءت صفحات "قلم وحبر" في بداية المجلة، وتأكدت "قضية الأسبوع" في وسطها، ثم أفردنا صفحات أربعاً لـ "صوت المواطن"، فظهرت بطرح جديد جنَّد له أبرز المحررين. والمهمة هنا هي الوساطة الفعلية والعملية بين المواطن وصانعي القرار، فنحن نختلف إلى الدوائر الرسمية بحثاً عن إجابات واقعية وعملية على تساؤلات الناس، وليس غير الناس. والأهم الذي كنا نركز عليه، هو محاولة أن تكون "الأهداف" التي نريد أن نصل إليها واضحة وصميمية، وأن تؤدي "خططنا" الداخلية إلى الإفضاء إليها، وهذا ما عزمنا عليه؛ لأننا لا نؤمن بالأعمال "المجانية"، ولا يهمنا الجانب "الترفي" في الطروحات التي سنختار، فجانب "التسلية" والإلهاء، و"مشغلة"، أوقات الفراغ بالبارد، والمترهل، والاستهلاكي؛ هي آخر ما سنظل نفكر فيه.

لقد وضعنا كذلك حدوداً صريحة لـ "لغة" اليمامة، ووقفنا عند هذه النقطة طويلاً، وكان الزملاء في أشد الحماس لها. و"لغة" المطبوعة قد يحسها كل الناس، ولكن لا يستطيع تقدير قيمتها "التأثيرية" إلا المختصون وأصحاب المهنة، وتبدأ من صياغة العنوان، وتنتهي بتحديد نسبة الأزرق والأصفر، أو الأسود والأبيض في شكل أي صفحة داخلية ثانوية.

*****

نزعم في "اليمامة" مخطئين أو مصيبين، أن الفضاء الذي نتنفسه في عملنا يختلف عن كل فضاء آخر غيره.

نحسب أن ليس بيننا من يحاول أن يحتكر مجداً لنفسه.. فكل عمل نقدمه للناس، على تواضعه، نقول: إنه عملنا كلنا، فإن فشلنا

تقاسمنا مرارة الفشل بالتساوي، وإن حققنا بعض النجاح، أخذ كل منا بنصيبه كاملاً منه غير منقوص.

نزعم أيضاً، ودائماً، أن الجهد الذي نقدمه، هو اجتهاد ليس له من هدف غير السير في ركب الزميلات، من وسائل الإعلام الأخرى، كي يكون لنا وطن زاهٍ وجميل.

والعمل الإعلامي في كل الأحوال "له منغصاته"، وله في الوقت ذاته ملذاته، التي تأخذ بتلابيب العقل والفؤاد. له بريقه القاتل الفتاك، وله في الوقت نفسه حلاوته الشيطانية، التي لا تزيدك إلا إصراراً على التحدي، وعلى المغامرة الفذة.

إننا لا نريد أن ننافس أحداً، كما لا نروم أبداً التفوق على أحد!.. وكل ما نتمناه، هو أن نتغلب على أنانياتنا فنحن بشر، ولنا نقاط ضعف كثيرة، يأتي في مقدمتها تلك الأنانيات التي نحاول بكل ما في وسعنا أن نكبحها، فمرة نخفق، وأخرى نكون أقل إخفاقاً، والصراع ما يفتأ قائماً وعلى أشده. نفعل كل ذلك، ويفعل مثلنا زملاء آخرون في وسائل أخرى، والهدف واحد، وهو أن يكون لنا وطن عملاق ونبيل.

فضاؤنا الذي نتنفسه في العمل "له شوائبه"، وله عنعناته الضئيلة، التي لا يخلو منها أي فضاء يعج بالإنتاج والحركة، ولكننا نحس دائماً بأننا أشبه بالنبتات الصغيرة التي نمت سوياً.. وتعرضت لبعض الأوبئة سوياً. وما انفكت تعانق الشمس والربيع سوياً أيضاً!..

هذه هواجس مشروعة كانت تدور في رأسي وأنا أرقب شباب اليمامة، عن بعد وعن قرب، يصطخبون، ويتزاحمون بالسواعد

والمناكب والأجساد.

تذكرت أن هؤلاء الشبان إنما نشأوا، وأُخْضِلَتْ مواهبهم، تحت مطر اليمامة، وهم اليوم في هذه الساعة أعمدتها القوية، وأطنابها المتينة.

إدريس الدريس (مدير التحرير، ثم نائب رئيس التحرير)؛ لم يكن قبل سنوات سوى متعاون في صفحات الرياضة، وعبدالله الصيخان، الشاعر الذي هبط علينا من تبوك، فلم يلبث أن أصبح هو الآخر مديراً للتحرير، وفهد العبدالكريم (سكرتير التحرير التنفيذي)، دخل علينا محرراً صغيراً لـ "رحاب الإيمان"، وعبدالعزيز السويد (سكرتير التحرير أيضاً) اكتشفته اليمامة، قبل أعوام قليلة، كاتباً في أول الطريق في صفحات "قلم وحبر"، ومثله جاسر الجاسر كان رئيس القسم الثقافي والناقد المعروف، (تقلَّد فيما بعد مناصب قيادية في بعض المؤسسات الإعلامية)، ومثلهم توفيق نصرالله، ومحمد أبو عمير، ومحمد اليامي في المحليات. وأنا لست بصدد الحديث عن الجميع، ولكنها مجرد أمثلة تأخذ بعنان القلب لشباب نشأوا معاً، وكبروا معاً، وشدوا أيدي بعضهم بعضا تحت سقف مشرق واحد، هو سقف الموهبة والسعي الحثيث إلى النجاح.

سأتذكر باعتزاز زملاء آخرين غادروا اليمامة، في وقت لاحق، مدججين بعدة التفوق، داود الشريان المحرر الفني الذي أصبح مديراً للتحرير، ثم صار بعد ذلك رئيساً لتحرير أكثر من مطبوعة في مواقع صحفية أخرى. وعلي العميم محرر المحليات المبتدئ، الذي أمسى الآن من أبرز كتاب الجيل الأخير من الشباب.

سأتذكر مبدعين كانوا يدفعون العجلة معنا بحماس: محمد

علوان، وعبدالكريم العودة، ومحمد جبر الحربي، سعد الدوسري، والمرحوم صالح العزاز، وبدر الخريف، وعبدالرحمن المنصور.

لن أتذكر كل الآخرين غيرهم، وهؤلاء إنما أتذكرهم استجابة للهواجس التي حدثتكم عنها.

الفضل فيما حققه هؤلاء الشباب، (أو غيرهم ممن لم أذكرهم) تحت خيمة "اليمامة"؛ لا ينسب لأحد أو لشخص بعينه، إنه إنما يعود لهؤلاء الشبان أنفسهم، ويعود أيضاً إلى فضاء اليمامة الذي اشتركت في نظم خيوطه كل الأجيال من المثقفين الذين عبروا من تحت سماء هذا الصرح، منذ أكثر من أربعين عاماً.

لن أذكر هنا الكتاب والشعراء الذين خرجوا من عباءة اليمامة، ولن أذكر زملاءنا الآخرين الذين جاؤونا جاهزين بمواهبهم التي ازدهرت خارج فضائنا. لن أذكر بشيء أيضاً عواجيز اليمامة: سعد الحميدين مثلاً، وعبدالعزيز المنصور؛ لأنني حين أذكر هؤلاء سأضطر إلى وضع اسمي في مقدمتهم، فأنا عجوزهم الأكبر، ولم يعد هناك مجال لإخفاء ما ليس من الممكن إخفاؤه.

*****

هذا كلام استحضرته بعد مرور سنوات طويلة على "عصر اليمامة"، وأجدني كلما أعدت قراءته، أتذكر جيلاً من شباب بلادنا ورجالاتها، آمنوا بأن الإعلام أساس في تشكيل "وعي" الناس، ولاسيما وعيهم بكل ما يشمل تحديات حاضرهم وهموم مستقبلهم، وربما أن كثيراً من الأفكار التي كانت أساساً في بنية الإعلاميين والمثقفين ذلك اليوم؛ تعززت اليوم في أشكال ملفته من الوسائل

والأداءات. فقد تعددت الآن المنابر، وزاد حجم النوافذ المتاحة مع ما نشهده من تصاعد لا ينقطع ولا يتوقف فيما يسمى بـ"ثورة الاتصال"، وتقنية المعلومات التي غيَّرت وجه العالم في السياسة والاقتصاد والاجتماع، ونقلته تماماً من عصر الصناعة (عصر الحداثة)، إلى عصر المعلوماتية والمجتمع الرقمي، أو عصر"ما بعد الحداثة"، الذي أضحى القول الفصل فيه، إنما هو منسوب إلى الرموز، والصور، والأرقام، وتدفق المعلومات، وإنتاجها، وإعادة إنتاجها!

وقد تحوَّلت قنوات التواصل الاجتماعي –مثلاً- إلى برلمان مفتوح، أو نادٍ سياسي وثقافي، يشترك فيه الجميع، ويناقشون من خلاله آراءهم وأفكارهم، ومن ثم يظهرون نقدهم للغابر والماثل في آن، وذلك بكل جرأة وشفافية، فهذا مجتمع ألغى السلط التقليدية بكل أشكالها وتجلياتها، كما دشَّن بكل اقتدار عصر ديمقراطية المعرفة والرأي، والثقافة الأفقية، معلناً في الوقت ذاته "موت النخبة"، ونهاية الثقافة الرأسية. فالنخبة اليوم هي كل الناس، فالناس من اليوم يصنعون ثقافتهم، ويشيدون إعلامهم، ولا وصاية أو رقابة من أي أحد، والجميع لهم حقوق متساوية في إبداء الرأي وحريته، والجميع مسؤولون عن صياغة المستقبل، وتحديد ملامحه وغاياته.

نحن بحاجة، دائماً إلى تأكيد بعض القيم التي من شأنها أن تساعد على تضييق نطاقات الخسائر الممكنة، في ظل التسابق المحموم نحو "المنافسة"، وفرص التحكم في المستقبل!

*****

بعد أسابيع قليلة من وفاة الشيخ حمد الجاسر، توفى الأستاذ

حسن عبدالحي قزاز، مؤسس صحيفة "عرفات"، ثم صحيفة "البلاد"، التي بلغت من العمر اليوم حوالي السبعين عاماً. وبوفاة حسن عبدالحي قزاز طويت آخر صفحة في كتاب ذهبي مشرق، يعج بالإنجازات الفذة لجيل من العصاميين المكافحين، الذين نحتوا أسماءهم فوق أبهى صفحة في تاريخ بلادهم وبكل اقتدار. فإذا كان يروق، اليوم، للصحفيين عموماً، أن يفرطوا في الحديث عن التضحيات التي قدموها ويقدمونها من أجل بلوغ أهدافهم! وإذا كانوا يسهبون في الكلام الطويل العريض عن مهنتهم "مهنة المتاعب"، كما يسمونها؛ فإن التضحيات الحقيقية والمتاعب الصحيحة، إنما تسجل بكل اعتزاز لجيل الجاسر والقزاز، قبل أي أحد غيرهم، فهم قد أوجدوا - فعلاً - أشياء من لا شيء، كما يقول التعبير الشعبي المتداول، فمن شح الأموال، إلى ندرة الكوادر البشرية ذات الكفاية والخبرة، إلى ضعف وسائل الإنتاج؛ استطاع ذلك الجيل العظيم، على الرغم من كل المصاعب والتحديات الجليلة التي اعترضته؛ أن ينشئ صحافة. وقد كانت صحافة نشطة وقوية، وذات تأثير في التطورات التي مرت بها البلاد: سياسياً، واجتماعياً، وثقافياً، بل إن تلك الصحافة كانت بمثابة "المفرخة" التي خرج منها إلى الناس العديد من المثقفين، والمفكرين، والشعراء، والمبدعين، أو بعبارة أخرى: لعل أول من أسهم في تقديم هذه الأجيال من المثقفين والمبدعين إلى الناس؛ هي صحافة الجاسر والقزاز وجيلهما من الرواد. فمن فوق المنابر التي أنشأها الراحلان، كان يطل ابن إدريس، والبواردي، والجهيمان، وابن فياض، والعواد، وحمزة شحاته، وأحمد قنديل، وضياء الدين رجب، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب. لقد كانت الصحافة يومها وعاء الصناعة الثقيلة

للفكر وللثقافة، فهي تمثل المساحة الأرحب التي تستوعب، بذكاء ومسؤولية، أوجه الإبداع المختلفة، والناس يقبلون عليها، تلك الأيام، لهذا السبب بالدرجة الأولى. هذا بالإضافة إلى أن عنصر "الصورة" لم يكن بالقوة أو الأهمية التي هو عليها اليوم، والحال كذلك بالنسبة إلى "الأخبار" والمعلومات بصفة عامة. فالراديو وإذاعة "لندن" تتكفل يومها بإشباع نهم المتابعين للأحداث، كما أن الأحداث نفسها لم تكن تحظى بالاهتمام الذي تحظى به اليوم، ولا ندري إن كان هذا من سلبيات عصرنا هذا، أم من إيجابياته.

ربما كان الأمر كذلك، في تلك الأيام؛ لأن العالم كان متباعداً جداً، فلا يعنينا، ولم يكن يمس مصالحنا، أو يؤثر على حياتنا ومستقبلنا ما يجري في أواسط آسيا، أو في أدغال أفريقيا، أو صحاري أمريكا الجنوبية، بينما يشاء اليوم عصر ما بعد الحداثة أن يضيق المساحات المتباعدة بين الشعوب، فيكون ما يجري في آخر بقاع الأرض جزءاً من الأمن القومي للمنطقة العربية، وربما أكثر تحديداً لبلادنا ذاتها.

وهكذا فإن قيمة الصحيفة، أيام القزاز والجاسر، هي فيما تطرحه من "رأي"، وفيما تقدمه من فكر وإبداع، ولهذا فقد ظل المرحوم الشيخ حمد الجاسر يؤاخذنا – إلى أن مات – على ما فرطنا فيه من "يمامته"؛ نظراً لالتفاتنا، كما هي ضرورات الصحافة اليوم، إلى نبض الناس واهتماماتهم اليومية.

وبالمناسبة فإذا كان للجيل الأول توجهاته ومشاربه المتعددة، فأنا أحسب أن المرحوم الأستاذ حسن قزاز كان الأقرب إلى صحافة جيل اليوم، فهو لم تثقله "صرامة" الجاسر في الشأن الثقافي

عموماً؛ لأنه الأقرب إلى دينامية صحافة الخبر والتقرير والتحليل، وهو الأكثر تمتعاً بأدوات اللهاث المطلوب والمرغوب في العمل الصحفي، ومن تلك الأدوات: حاسة الاستشعار، والمتابعة، والإلحاح، والسرعة وتقدير الوقت، وإعطاء الأولوية للمعلومة الجديدة حسب أهميتها عند الناس، وليس عند المثقفين بالضرورة.

إن جيل الجاسر وحسن قزاز، هو الجيل الذي بنى لنا هذه القاعدة الصلبة التي نقف فوقها اليوم.

حمد الحجي:

من الذي قتل المجنون؟!

جنازة متواضعة جداً.. سارت في هدوء.

كان على "الآلة الحدباء" شاعر! وكان عليها أيضاً سنوات هائلة من العذاب والمرض والوحدة. سارت الجنازة في هدوء تام، والشاعر - منذ الآن- يصمت إلى الأبد!.. لم يعد بإمكانه أن يعالج لغته، أو هواجسه، وكوابيسه، ومخاوفه، وظنونه، وشكوكه التي كانت تتعاظم وتتعاظم إلى أن مات. لم يعد بإمكان حمد الحجي أن يطلب من أي أحدٍ سيجارة!.. ولم يعد بمقدوره أن ينادي أصدقاءه القدامى، أو يتوسل إليهم أن يزوروه.. أو يعودوه في المستشفى!

مات الشاعر وعلى شفته نصف بيت من الشعر، لم نمنحه وقتاً ليكمل البيت. مات وهو يلهث خلف القصيدة، والأحلام والجنون، وإنني لأحسبه كان يريد أن يقول قبل برهة من الموت: سأظل أحبكم يا أصدقائي!! رغم كل الذي حدث.

كان يبدو أن الذي ينقص حمد الحجي في عالمه الرهيب والمريب، هو سيجارة وبعض قليل من الأصدقاء! أجل! فهذا هو

كل ما كان يريده الحجي لمزاجه وقلبه. ومع ذلك، فالجميع يقولون بأنه مجنون! فاختار أن ينعزل عنهم، أو أنهم هم الذين نبذوه. يعتمد ذلك على الراوي في أي معسكر يقف: معسكر الأصدقاء، أم معسكر الشاعر؟!

عجيب أمر هذا العالم، شاعر يريد سيجارة، ويريد أصدقاء. هل يدخل إلى المستشفى مكتوف اليدين، ومعصوب العينين بتهمة الجنون؟! أين هي تخوم العقل؟ وما حدود الجنون؟!

التهمة الأخرى المدرجة في "ملف" الشاعر، هي أنه "متطرف" أكثر مما ينبغي، فهو ينشد الحد الأعلى من حقه في الحرية، فلا يريد أن يكتب شعراً بعد، ولا يريد أن "يثرثر" مع الثرثارين، والدجالين، والكذابين، والحواة الذين يعج بهم فضاء الثقافة!!

لقد قرر في الوقت نفسه أن يدخن بشراهة، وأن يخفي عن جميع أطبائه أنه مصاب بالسل الذي كان يعبث في رئتيه، ويحرث في صدره وفي شراييه كحصان أهوج!!

المرض الوحيد المغري الذي كانت تتحدث عنه المستشفى دائماً، هو فقط الجنون!.. أما السل فقد استطاع الحجي أن يخفيه، أن يدسّه تحت جلده، وأن يحني عليه جوانحه فلا يراه أحد!.. حتى أجهزة الكشف بالأشعة تآمرت هي الأخرى مع الشاعر على صدره ورئتيه، فتركته يموت.. يموت ببطء شديد ومملّ!

المثقفون من جهتهم، كان يغريهم في الحجي مرض الجنون، فلم يسألوا صديقهم الشاعر مرة واحدة على الأقل، عما يحس غير

الجنون!.. ولم يسألوه كذلك عما يريد غير السيجارة.

بعضهم كان يرى فيه أعجوبة الأعاجيب، فلقد منَّ الله عليه بنعمة الصمت، وحب التدخين!! أقصد التدخين بشراهة!.. وهم يبدون لذلك انزعاجاً غير يسير، فهم يريدون منه أن يثرثر أكثر، وأن يدخن أقل!.. وكل ذلك من أجل صحته. فالصمت يذهب العقل – كما يرون – والتدخين هو وحده"!!" الذي يشجع على الجلطة، والسرطان، وانسداد الشرايين!!..

وبعضهم كان يرى أن حالته تلك ملحمة عريقة لصراع الإنسان مع نزواته، وشهواته، وطموحاته، ومواهبه، وأصدقائه!.. أما الأغلب الأعم في أولئك المثقفين، (ويدخل فيهم الأدعياء، والمزيفون، والتجار طبعاً)؛ فقد كان لا يهمهم من حالة الحجي إلا أنها موضوع خصب للكتابة؛ فهي تدخل تخصيصاً في باب الإثارة الصحفية التي كان يراها الشاعر نفسه قميئة ومبتذلة ورخيصة، ولهذا فقد كان يرد دائماً على كل من يحاوره بهذه اللغة، بأن يطلب إليه طلباً واحداً ضئيلاً، وهو أن يعطيه بكل تواضع ورحمة، سيجارة واحدة فقط ، (فهو لا يطلب أبداً سيجارتين دفعة واحدة)، ثم لا ينسى الشاعر أن يوصيه، وهو يهم بالذهاب، بأن يخبر أصدقاءه القدامى بأنه بخير – ولله الحمد – وأنه يريدهم أن يأتوا لزيارته في المستشفى، ليشهدوا عن قرب عبقرية الجنون، والصمت، والتدخين، والحرية!

لم يلب أحد نداءات الحجي؛ لأنهم جميعاً يخافون!.. إنهم لايخافون التدخين المكتظ ، كما قد يتبادر إلى الذهن، فهم أنفسهم يدخنون، ولا تضايقهم أبداً رائحة السجائر، إنما الذي يخافونه الصمت!.. نعم الصمت، فالثرثرة أكثر جذباً للراحة؛ لأن الضمير

بعـدها تـسترخي عـضلاته، وتلـين عـصباته، فـلا يعـود إلـى التـوتر أبداً!.. والوحـدة والعزلة، كمـا إنهـم يخـافون الحريـة كـذلك. وهـم لا يريـدون أن يُتهمـوا بـالجنون والفـصام، أو أن يختـرقهم الـسل مـن الضلع إلى الضلع!

نعم، الوحيدون الذين كـانوا يتكبكبون على مـدير الاستعلامات فـي المستـشفى، وهـم يتقـافزون كـالقردة، هـم مراهقـو الـصحافة، يريدون – يـا سيدي! – أن يخرجوا للنـاس بعـد قليـل معلنين أنهـم قـد قـابلوا الحجـي، وصـافحوه،وتحدثوا إليـه، وهـو يقـرئهم جميعـاً السلام، ويتمنى لهم مزيداً من العقل والثرثرة والنساء والإنجاب!..

ثم يضيف هؤلاء الصحفيون بأن الشاعر الحزين مـازال مريضاً بالجنون، ويدخن كثيراً جداً، ويتكلم قليلاً جداً جداً!

ويـوم أن مـات الحجـي، سـارت الجنـازة فـي صـمت قاتـل، وفـي هـدوء شـديد، ولـم يعـرف بهـا أحـد مـن المثقفين، ومـا سـمع عـن موعدها أحد من الصحفيين!

هذا الحجي مجنون حتى في موته!.. لقد استطاع أن يخاتـل المثقفين، فيخـرج إلى عالمـه الأبـدي دون أن يأخـذهم معه، أو حتـى يـودعهم، أو يخبـرهم علـى الأقـل بقـراره. كـان هـو وصـديقه الـسل الوحيدين اللذين يعرفان بذلك القرار ويدركان حيثياته!

هـذا الحجـي غريـب حتـى فـي حياتـه الأخـرى الجديـدة، فلقـد استطاع أن يُفوِّت على الصحفيين الفضوليين حفلة طويلة مـن الطبل والزمر، مما اعتاد عليه هؤلاء في كل حادث أو مناسبة. لقد كانت محاولة يائسة من الحجي أن يضعف قليلاً في هؤلاء رعشة الافتعالات والمبالغـات، وربمـا النفـاق والهلـس، إذ مـا أن علمـوا بوفاتـه بعـد

أسـبوع!! حتـى هبـوا كالمـسعورين إلـى أوراقهـم، وإلـى ذاكـراتهم المثقوبـة يكتبـون، ولكـن بـلا انفعـال، ويبكـون ولكـن بـلا دمـوع! ويلطمـون ولكـن بـلا خـدود، أو حتـى وجـوه، ويولولـون ولكـن بـلا حنـاجر أو أصـوات. وأحـسب أن الحجـي، لـو كـان حيـاً، كـان سـيقف بعيداً يتأمل هذا المنظر الساخر، ثم يحزن بحرقة متأكداً مرة أخرى، أن الناس في هذه الدنيا لن يستطيعوا أبداً أن يعرفوا حدود العقل أو حدود الجنون؟! هل المجنون هو مَنْ يعزف بطوعه عن الثرثرة، ويـؤثر الـصمت، وينـشد الحريـة فـي وحدتـه، وعزلتـه، وتفكيـره، وخيالاته، وأحلامه وأوهامه؟ من المجنون؟! هل هو الذي يحاول أن "يُعلِّم" أصدقاءه القدامى حكمة الصبر، وحكمة الاستسلام للموت، وحكمة معاشرة السل، وحكمة الدأب الطويل على التدخين، وحكمة مقاومة نفايات الكلام الذي ينساه الناس، أو يضعونه بلا حياء أو تـردد علـى الجـدران والأبـواب، وفـوق الطـاولات، وداخـل منـاديـل الكليـنكس الملقـاة فـي الممـرات، وأحيانـاً فـي دورات الميـاه؟ مـن المجنون؟!

كأنني متأكد بأن الحجي المسكين قد مات، وفي قلبه حسرة كبيرة بحجم هذا الجيل؛ لأنه لم يستطع أن يحسم هذه المسألة -قبل أن يمـوت- مـع مراهقـي الـصحافة، ومـع المثقفـين، ومـع أصـدقائه القدامى!..

لكننـــي علـــى ثقـــة بأنـــه قـــد مـــات وهـــو -علـــى الأقـــل- يضحك!..يضحك من نفسه، ومن أعقاب السجائر المُلقاة على سجاد غرفته، ومن الكلمات الصماء المتكاثرة حوله، المتناثرة بلا نظام فوق وسادته.

إنه يضحك أيضاً من الأصوات التي يسمعها تهمهم خلفه وهو يغادر، فلقد أقفل بموته ملفاً آخر للكتابة!.. فلم يعد هناك حجي يكتب عنه المبتدئون ومستدرو عطف الناس من البسطاء والأبرياء.

لم يعد هناك حجي نكذب عليه، ونتفرج على وجهه الشاحب، ويديه المعروقتين، وعينيه المرتعشتين.

لم يعد هناك حجي "نفبرك" على لسانه الكلمات، ونبني فوق شفتيه أهراماً من الجمل، ونُعلِّق على صدره عقود الكلام المفترى.

لم يعد هناك حجي نتظاهر بالحزن على مأساته؛ لندعم صورة إنسانيتنا فوق أعمدة الصحف، ونبكي بين يديه لنشتري الوجاهة في الصالونات والمنتديات وفوق منابر الخطابة.

وباختصار شديد، لم يعد هناك حجي نتاجر بجنونه!!

أجل، لقد سارت الجنازة في هدوء قاتل!.. واكتشف الحجي، وهو في طريقه إلى القبر، أن الشيء الوحيد الصادق كل الصدق فوق هذه الأرض، هو الموت.

لله كم هو شجاع هذا الموت!.. إنه هو الوحيد الذي يقول كلمته ويمشي. يلقيها ولا يهمه أحد، يفجرها ولا يبالي!.. إنه هو الشيء الوحيد الذي لا يبكي، ولا يضحك، ولا يجامل، ولا يحابي، ولا ينافق، ويكره الأقنعة والوجوه المزيفة، وهو – بعد هذا كله – لا يثرثر كثيراً. إنه يحب الصمت والعزلة، وهو في هذه الأخيرة يشبه - إلى حد بعيد- صديقه الجديد حمد الحجي، الذي قضى القرون العشرين الأخيرة من عمره "!!" لا يطلب سوى طلب واحد، يكرره على زواره القليلين، وهو أن يأتي إليه أصدقاؤه القدامى! كما أنه

لايسأل سوى سؤال واحد، هو أن يعطوه سيجارة واحدة لا أكثر.

لقد سارت الجنازة المتواضعة في هدوء، ثم أقفل بذلك إلى الأبد مشروع ضخم من مشروعات القصيدة النادرة، أعني القصيدة السكين، أو القصيدة الزلزال التي لا يقبل الشاعر الحق بأقل من أن تغير ملامح وجه العالم!!

وفجأة تلفت أصدقاء الشاعر القدامى حولهم!.. فوجدوا أن صديقهم القديم قد غادر المكان منذ أسبوع، أو أكثر من أسبوع، دون أن يعلم به أحد. سريره الصغير أضحى كالحاً مفتضحاً بلا شراشف، بلا خصوصية. وغرفته الضيقة في المستشفى لم يعد بها أي ضوء، والريح تعبث بشباكها الوحيد على غير هدى وبلا رحمة، والكلمات الصماء المنتشرة في المكان تذبل واحدة واحدة! وتتساقط!

مات الحجي بالشعر!.. وقيل مات بالجنون.

وفي رواية ثالثة، مات بالسل. أجل، لقد اغتاله صديقه السل، دون أن يراعي نواميس العشرة الطويلة!.. العشرة المديدة في السيرير الواحد، وفي الجوف الواحد. لقد ختله وهو نائم، وقيل: بل داهمه وهو يكتب نصف بيت من الشعر، خنقه حتى حبس الهواء في جوفه، فاستحال شيئاً ضخماً كهذا الجبل، ثم انفجر ومات. مات ولما يكمل بعد بيت الشعر!

هناك - في رواية رابعة- من يرى أنه مات بالتدخين!.. فقد كان يتسوّل سجائره من العابرين في دهاليز المستشفى، ومن المثقفين الذين يذهب بعضهم للحب، ويذهب آخرون للفرجة!.. أجل، إن تلك السجائر هي التي قتلته؛ لأنها ليست سجائره!.. وهو

لا يحبها!.. بل يحرقها، ويحرقها، ويحرقها؛ ليتلهى عن الكلام!.. أو الثرثرة!.. وليغمر وجهه بالدخان الكثيف، فلا يراه الناس، أو لا يرى هو الناس. أعني الناس الذين يلطخون كلامهم على الجدران، وفوق الطاولات المهشمة، وفي مناديل الكلينكس، وداخل علب الكبريت المهملة!

هناك من يشيع بأن الذين قتلوا الحجي، هم أصدقاؤه القدامى، قتلوه بالجحود!.. ارتعوا كأسه بالسم فمات، ثم انسلوا دون أن يراهم أحد!

مطلوب أن نعرف بالضبط من الذي قتل الحجي؟ فالشاعر هو الكائن الوحيد الذي لا يمكن أن نقبل بأن يذهب دمه هدراً.

ألقُوا القبض عليه – هو نفسه – حالاً واسألوه: يا أيها المجنون، من قتلك؟!.. ولكن المصيبة هي أنه ربما طلب منكم، هنا أيضاً، سيجارة أخرى، ثم أوصاكم كعادته بالسلام على أصدقائه القدامى الذين نسوه، والذين رفضوا أن يجربوا معه حكمة الصمت، والذين تركوه يختبر الموت وحيداً مع صديقه السل!

أقول: ربما!.. فهذا رجل شاعر، رجل مجنون!

خالد الفيصل:

أمير الكلام!

عندما أتيحت لي الفرصة، لأكون مقدماً لإحدى أمسيات الشاعر الأمير خالد الفيصل، (أقيمت في تبوك) وجدتني أكتب كلاماً لا هو بالشعر، ولا هو بالنثر، كان كلاما يتدفق في الكلام، كلاما يشبه خالد الفيصل أكثر مما يشبهني، فقلت مخاطباً الشاعر، والشعر، والجمهور:

السلام للشاعر!

ومثله للشعر!

وآخر للجمهور!

الشعر -أيها الجمهور- هو أمير الكلام وسيده!

والأمير -أيها الشعر- هو الناسك والعاشق والجارح والمجروح!

والجمهور –أيها الأمير- هو قوت الشعر، وهو نسيجه وعروقه المكتظة بالفرح وبالهجير، وبالحياة!

ويحق لي بأن أنادي بأعلى صوتي:

إنّ هـذا الأميـر يليـق بهـذا الأميـر: الأميـر مـن النـاس، والأميـر الشعر، أمير الكلام!

فأميران يهطلان فوق رؤوسنا مطراً، وحبّاً، وريش نعام.

والشعر كما تعلمون أو تفهمون- هو ديواننا، وهو علمنا، وهو شوقنا وخوفنا، صحونا وإغفاؤنا، ألمنا وطموحنا، ضحكنا وبكاؤنا.

الشعر هو نحن واقفين تحت الشمس، نتشرب عطر الرمل، ونستنشق ورد المستقبل.

ولـولا الـشعر لمـا اسـتطعنا مقاومـة اليـأس!.. أو مكابـدة الظلام!.. أو معانقة البرق والرعب والعاصفة!

ولولا الشعر ما كان للعشب رونقه، ولليـاسمين عذوبته، وللغناء صوته، وللحروف لؤلؤها، وللفواصل ألقها، وللمعاني غواياتها!

لولا الشعر ما كان للخيل شموخها، وللسيوف بريقها، وللنقع طعمه، وللدم رائحته، وللموت شهوته وذروته ولذته.

لـولا الـشعر مـا كـان للعطـر سـطوته، وللكـلام مـضاؤه، وللأمـل أطيافه، وللوعد نشوته، وللوصل بهجته، وللقبلة دمها السائل الثائر المندفع كاللهب!

لـولا الـشعر مـا كـان للحمامـات هزيجهـا، وللإبـل حنينهـا، وللجـداول أنينهـا، وللـريح عنفوانهـا، وللطيـور ألوانهـا، وللفراشـات رقـصتها، وللنـساء ملكـوتهن الـذي لا يلجـه إلاّ هالـك، أو هالـك، أو هالك!

أيها الشاعر، هذا هو الجمهور الواقف ببابك، المتكالب على

أعتابك، المتهالك فوق صحنك، الثمل بكلماتك، النازف بأوجاعك، الحالم بلواعجك!

أيها الشعر يا أمير الكلام، هذا هو الشاعر أمير الناس، سوف يخطفنا الآن من ذهولنا، وسوف يعفّر وجوهنا بالعطر، وسيصبغ ثيابنا بألوان قوس قزح، وسيملأ جوانحنا بالحنين!

سوف يفرّ بنا إلى حقوله، إلى أحلامه، وإلى ممالكه وإمبراطورياته، إلى مبالغ النور في وجدانه!

سوف يعلمنا اليوم –كما علمنا دائماً- قواعد الهوى وأصول الغرام!

سوف يعلمنا الغناء والحداء والبكاء!

سوف يعلمنا الرقص على حافة الموت، الموت اللذيذ الذي ما فتئنا أبداً نشتهيه!

سيعيد إلينا وعينا بالوردة! وسيعيد إلى الوردة وعيها بالحقل.. وبالسيف!

هل قلت: السيف؟!

نعم، قلت ذلك!

هذا هو "دايم السيف".. أمير الناس وأمير الكلام!

دايم السيف الذي ما برح يفك فينا "عقدة" الكلام، حينما يلتقي الوجه بالوجه، فيضيع منّا الكلام!

دايم السيف الذي نسطو عنوة على كلماته، حينما نضع الكف بالكف، فتتبدد كلماتنا وتتلاشى!

دايم السيف الذي نسرق منه صوته، حين تلتقي العين بالعين، فتختفي تماماً أصواتنا.

دايم السيف الذي عندما يحتدم الحب، يعيد إلى شراييننا دماءها، وإلى قلوبنا نبضها، وإلى كلماتنا وهجها، وإلى أكفنا حرارتها، وإلى عيوننا تدفقها وتحدياتها.

خالد الفيصل بن عبدالعزيز! هو شعرُنا بالغترة والعقال!

أنشدنا الآن – يا سيدي! – أحلى الكلام!..

فأنت أنت – وربّ الكعبة! – أميرُ الكلام.

*****

خالد الفيصل، وسراج عمر، والخزندار.. قدموا لنا في الجنادرية ملحمة فنية رائعة: كلمات، وموسيقى، وإخراجاً. كل شيء كان في ذروته: المعنى، والتعبير، والمؤثرات. وكل شيء كان في عنف اكتماله: الصوت، والكورال، والإضاءة. أما الأداء الغنائي المنفرد، فقد كان فرسانه الخمسة في أحسن حالاتهم انسجاماً مع الاحترام الملحمي الشامل الذي جسَّده الأوبريت!

وُفِّق الأمير خالد الفيصل في اختيار الموضوع، ولاسيما في مناسبة كهذه المناسبة، أي افتتاح أحد مواسم الجنادرية التي تُعنى بتراث هذه الجزيرة، الذي هو في أسمى دلالاته انعكاس لثقافة أرضنا وتراثها وتاريخها، بل هو أيضاً تجسيد حسي ومعنوي لمنهج معين في التفكير والتذوق.

وإذا كان من المناسب في مثل هذه الحالات استدعاء بعض

"الرموز" المتوهجة التي تلتف حولها خيوط التراث والتاريخ، فلا أنسب من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل - غفر الله له- فهو بالنسبة إلى الأجيال السعودية رمز "توحيدهم" وائتلافهم، ورمز قيام دولتهم الحديثة المترامية. فعلى يديه تحققت المعجزة، ومن ذكائه وحنكته وشجاعته النادرة أن أصبح خصوم الأمس، بسبب النعرات والثارات والجهل؛ هم إخوان اليوم بعد تأكيد الطموح، وبعد رسوخ الإيمان بالوحدة ومسؤولياتها الوطنية والحضارية! فهي المستقبل الذي ليس له من بديل!

لقد اختار خالد الفيصل لعمل فني ثقافي جماهيري، جزئية واحدة في "إنجاز" عبدالعزيز المتعدد الفعاليات والأوجه، لكنها في واقع الأمر ليست جزئية بسيطة، بل هي من أعقد ما في ذلك الإنجاز، وهي جزئية "التوحيد". وهي بما تتوافر عليه من قيم حضارية وثقافية ووجدانية، الأنسب في أن تملأ كامل فضاءات ذلك العمل الفني الثقافي الجماهيري. فبين السعوديين من الأجيال الجديدة من قرأ ملياً عن ذلك الماضي المثقل بعيوبه ونواقصه (ما قبل التوحيد)، وجميعهم اليوم – الصغار والكبار – يدركون عظمة ما أصبحوا عليه من التقاء على المحبة في الطريق الطويل لطموح فريد ومستقبل واحد.

والذين يتابعون شعر خالد الفيصل يعرفون أنه من الشعراء القلائل الذين يقفون باقتدار فوق قمة هرم القصيدة النبطية في كامل هيبتها، وبكل ما فيها من صرامة، مع الاحتفاظ للأمير الشاعر بكل ما له من قيم تجديدية، ليس لها إلا أن تنسب إليه وحده، لكن خالداً الفيصل في هذا العمل الفني الثقافي خرج إلى الناس في إهاب

جديـد، فالإيقـاع غيـر الإيقـاع، واللغـة غيـر اللغـة، والمـدهش أنـه استطاع أن يحقق درجة عالية من الانسجام مع نفسه، ومع الإيقاع الجديد، ومع اللغة المختلفة، على الرغم من أن الموضوع نفسه، طبقاً للبنية المنهجية التي التجأ إليها الشاعر؛ هو موضوع مستعص على تجليات فنية انثيالية إنسانية تلقائية.إنه مضطر إلى مراعاة كثير من الأمور التي تتداخل فيها الجغرافيا مع التاريخ، مناطق المملكة وترتيبها في سلم الوحدة مثلاً.

هناك زخم انفعالي ملحمي شديد في هذا الأوبريت، وهو مدين في ذلك للموضوع، وللموسيقى، ولأداء المنشدين، وللانتقالات أو التحولات المتقنة من مقطع إلى آخر. ولكنني كنت أتمنى لو أن المخرج استغنى كلياً عن الألعاب النارية في آخر الأوبريت؛ لأنها في نظري أنهكت "النهاية"، وربما تحولت إلى عبء على مزاج الأوبريت كله.

الذي نتمناه، هو ألا تنتهي علاقة الجمهور بهذه الأعمال الفنية الرائعة بنهاية الجنادرية الموسمية؛ لأننا نريد أن نشاهدها في التلفزيون في كل حين مناسب لإذاعتها. فنحن ضنينون بالفن أن يموت أو يهمل أو يقبر، وضنينون بالجهود الكبيرة، والعرق والسهر والتعب، أن يسدل عليها الستار في غمضة عين، مجرد غمضة عين.

*****

وقلت لخالد الفيصل مرةً: إن قصيدة "المعاناة"، هي واحدة من قصائد "الفحولة" في الشعر النبطي، أما موضوعها ففي غاية الصعوبة، بل هو - في الأصل- ليس موضوعاً شعرياً، فإن تستطيع

أن تحوله إلى مادة شعرية، فهذه لا شك قدرة هائلة لا تتوفر في جمهور كبير من الشعراء.

وأنا أظن أن لغة "الشعبي" نفسها؛ هي من الفسحة والرحابة والسخاء، بحيث تجد في قاموسها وفي مجازاتها ما يغطي بيسر وسهولة مثل تلك "المعاني" الدقيقة، البالغة التعقيد. هل أقول: إن لغة "الشعبي" لغة ميسرة؟ أو هي لغة غير متزمتة في شروطها؟ فإذا وجدت صانعها الماهر، مثل خالد الفيصل، تستطيع أن تعبر عن أي موضوع صعب، وتستطيع أن تحول أي معنى وعر إلى مادة شعرية جذابة، ومحفزة على التذوق والتأمل.

ويحضرني مثال على ما هو صعب على الفصحى، يسيرٌ على الشعبي، وهذا المثال هو ما يقوله الشاعر فهد عافت:

أخافك تواعدني.. ولا توفي الميعاد

وأخافك تواعدني وتوفي مواعيدك

لأنك إذا أخلفت مات الهوى ببعاد

ولأنك إذا أوفيت مات الهوى بيدك

هذا المعنى قد لا يبدو في الفصيح بهذا المستوى من البهاء والإدهاش، فهو قد يولد ضعيفاً، فلا يستفز الإحساس أو الذائقة، وقد لا يحفز على فحص التجربة في وجدان المتلقي نفسه، أما لدى فهد عافت، فأنت مضطر لإعادة قراءة البيتين من أجل إعادة ترتيب المعنى وفق مزاجك، ودون أن تتوسل الاستمتاع أو تركض خلفه بحثاً عنه!

وما لنا الآن وللثنائيات التي يقترحها هذان البيتان، فهما غاية

في الدقة، وغاية أيضاً في الاستفزاز، لكن الذي يعنينا بعد ذلك، هو كلمة "لأنك" التي تكررت مرتين في البيت الأخير، فبقدر ما هي ثقيلة في شعر الفصحى، إلا أنها جاءت هنا سلسة، ومنسجمة تماماً مع بقية عناصر البيت ومكوناته، أي أنها استطاعت أن تقيم علاقة حميمية متناهية مع ما ينتظمه السياق من كلمات وحروف وإيقاع داخلي.

نعود لموضوع خالد الفيصل الصعب، الذي حوّله إلى مادة شعرية راقية، فنقول: إن مثل هذا الأمر هو من طبائع الشاعر نفسه، فهو يختار دائماً الصعب، والذين يعرفونه عن قرب، يعرفون أن قصيدة "المعاناة" هي خالد الفيصل. قلت له: أحسب أن محمدًا عبده قد ولج ساحة التحدي من نافذة أخرى، فهو من جانبه، استطاع باللحن والأداء أن يجعل من موضوعك الصعب أغنية جماهيرية يرددها كل الناس في كل المناسبات. وأذكر لمحمد عبده بالمناسبة إنجازا آخر غير مألوف، وهو أنه جعل من قصيدة "وطنية" أهزوجة جميلة وسهلة، تُطرب وتُعجب، وتُغنى وتردد في كل مكان، وفي كل المناسبات، حتى مناسبات الأعراس ومناسبات الأفراح الخاصة، والعادة هي ألا تبلغ القصائد "الوطنية" هذا المبلغ. إنني أعني قصيدة "فوق هام السحب" التي كتبها الشاعر المبدع بدر بن عبدالمحسن.

فمحمد عبده هو الآخر، صاحب مغامرات موسيقية وأدائية ليست سهلة!!

خلف الحربي ومشعل السديري وآخرون:
الساخرون.. الحاسدون، المحسودون

تعددت مؤخراً الكتابات الساخرة في الصحف السعودية، ومن الكتّاب الساخرون من كان ظهوره - في الأصل- على هذا النحو من التناول، ومنهم من كان ظهوره الأول على غير ذلك، لكنه فضل أن ينتقل إلى الكتابة الساخرة.

ومن الأولين، مثلاً: أحمد مصلح، ود. سعيد بن فالح، وثامر الميمان، وجعفر عباس، وعبدالكريم الرازحي. ومن الأخيرين على وجه الخصوص: داود الشريان، ومشعل السديري ومحمد علوان، ثم عرفت متأخراً أمير الكتابة الساخرة في نظري: خلف الحربي، وهم جميعاً يتفاوتون في القبول عند الناس، لكنهم -في مجموعهم- يحصدون النسبة الأكبر والأوفر من القراء، والسبب في ذلك لا يحتاج للعثور عليه، إلى جهد ذهني خارق، فالناس يكونون أشد ميلاً إلى الكتابة الرشيقة، خفيفة الدم، أي: الكتابة التي تقدم الرأي أو المعلومة، مع ابتسامة عريضة تزيد في تسهيل التهام الكلام، وتسهم في رفع مستوى القدرة على استيعابه وهضمه، وهم – أي هؤلاء

الناس – لا يقبلون بنهم كبير على المقالات كاملة الدسم، الغنية بالبروتينات والنشويات والسكريات، فذلك غالباً ما يسبب تلبكاً في المعدة، ويؤدي في الغالب إلى عسر في الهضم، وعسر في الاستيعاب، وعسر في المتعة!

المزاج العام في البيئات المحافظة، (مثل السعودية) قليلاً ما يسمح بظهور غير ما هو جاد و"منضبط"، والقاعدة هي أن حتى الإكثار من الضحك غير مستحب، وهو نذير شؤم، بل ويميت القلب!! وكثير من الفنون ذات الصلة بالفرح والفرفشة، أي الأقل جدية والأقل انضباطاً، كانت تواجه في المجتمع ببعض التجهم، حتى وإن وجد بعض الإقبال "الخفي" عليها بحكم نزوع ما هو بشري في الإنسان إلى شيء من الترويح، حتى لو كان ذلك عن طريق السخرية المرة أو السوداء؛ لهذا كان الغناء والتمثيل مثلاً من الفنون ذات الشعبية الواسعة من حيث الاستهلاك وخلق النجوميات، لكن الغناء والتمثيل كانا إلى وقت قريب من "المهن" المستهجنة، بل لعلها تدخل في باب العيب! وهذا "المزاج" الحاد الطباع ينسحب على كل المنتجات الموجبة بالترفية أو المفضية إليه، ومن ذلك الرياضة وكرة القدم وغيرها مما يندرج تحت عنوان: اللعب. وما أظن أن شيخ السخرية في السعودية، المرحوم الأستاذ أحمد قنديل كان يحظى عنده الناس بما كان يحظى به حمزة شحاتة، أو محمد حسن العواد، أو عبدالله بن خميس، أو حمد الجاسر، مع أنه لا ينقص عنهم مكانة أدبية وشعرية وفكرية بأي حال، هذا إذ لم يكن هو الأقرب إلى مائدة الإبداع.

كان الناس يعدون الضحك "هماجة"، وكانوا يعدون الكلام

الساخر "سماجة"؛ لهذا تأخر كثيراً ظهور قرناء لأحمد قنديل، وتأخر كذلك ظهور كتاب ساخرين إلى ما قبل سنوات قليلة، أي تطور "المزاج" العام للمجتمع بفعل وسائل الترفيه المختلفة، وبتأثير الاتصال بثقافات أخرى قريبة وبعيدة. ومؤخراً جداً عرفت أو اعترفت صحافتنا بفنون صحفية ساخرة، مثل فن الكاريكاتير، وإلى عهد قريب ظلت ساحة هذا الفن محتكرة للمرحوم على الخرجي، ثم انضم إليه فيما بعد محمد الخنيفر، ولم يكن في الصحافة السعودية غير هذين النجمين، إلى أن جاء اليوم الذي انفتحت فيه الصحافة السعودية على بيئات إعلامية وفنية أخرى، ليصبح الكاريكاتير أحد الفنون الأساسية في الصحافة السعودية، وليس هناك اليوم صحيفة سعودية واحدة تخلو من الكاريكاتير، بل إن بعضها يبالغ في الانتفاء بهذا الفن، فلا يخلو منه قسم من أقسام الجريدة.

الكتابة الساخرة من جهتها عرفت اليوم أسماء متعددة، وأصبحت مجالاً رحباً للمنافسة والتسابق إلى وجدان القراء.

والقراء يتساءلون أحياناً: لماذا لا يكتب كل الكتّاب بهذه الطريقة المرحة المريحة، فيوصلون أفكارهم بأيسر الطرق وأسهلها وأسرعها، ثم إنهم بهذه الطريقة يستطيعون أن يضيفوا إلى أرصدتهم من القراء أرقاماً جديدة، هم أحوج ما يكونون إليها في عصر أخذت تشح فيه أعداد القراء، جراء الاستدراجات والإغواءات التي يتعرضون لها لصالح بدائل أخرى، أكثر "نعومة" من القراءة ذاتها.

والذين يراودهم هذا التساؤل، ينسون أن الكتابة هي- في النهاية- "مزاج" هي الأخرى، ومن حكمة الخالق - عز وجل- أنه لم يجعل خلقه كلهم على "مزاج" واحد، ولا أظن أن واحداً، مثل

حسن حنفي، أو زكي نجيب محمود، أو محمد سيد أحمد، أو عبدالمحسن هلال، أو تركي الحمد؛ يستطيع أن يكون كاتباً ساخراً مقبولاً، وهو لو حاول أن يخرج من جلده الأصلي إلى جلد آخر؛ فقد يصبح مثاراً للسخرية بدلا من أن يكون كاتباً ساخراً.

أما لماذا جرب مشعل السديري أو خلف الحربي ونجحت تجربتهما، فأحسب أن ذلك لا يعني سوى شيء واحد، وهو أن الأصل في الاثنين، هو الكتابة الساخرة، وكل الذي حدث، هو أنه لم يتم اكتشاف ذلك فيهما إلا مؤخراً، فكان نبوغهما في السخرية، مثل نبوغ النابغة في الشعر، أي: بعد سن الأربعين"!!".

مشعل السديري تكفل بمتابعة "التفاصيل" اليومية، الصغيرة أحياناً، لحياة البشر، من خلال الحديث عن نفسه في أكثر الأحيان، فهو مولع بالمتناقضات، والمفارقات، وهو لا يقصد إلى التسلية بقدر ما يقصد إلى "العظة"، أو أنه يرمي إلى التبخيس الذي يدفع إلى التفكير في الأمثل! أما خلف الحربي؛ فقد أخذ على عاتقه أن يجلد بسياطه المفسدين، والكذابين، والمزيفين، وأصحاب الأقنعة، وكل الذين يضرون الناس في حياتهم وفي مستقبلهم، وكل الذين يهددون السلم الاجتماعي، أو يعرقلون النزوع إلى التقدم. لقد أصبح خلفًا اليوم السوط الساخن الذي ليس من سواه، يلهب ظهور، وصدور، ووجوه كل من ذكرنا أعلاه.

محمد علوان، وعبدالعزيز السويد يجمعهما، عندي، أمران: "اليمامة"قديماً، والكتابة الساخرة! فأما اليمامة، فقد كان علوان مدة طويلة محررها الثقافي إلى جانب صديقه وزميله الشاعر عبدالكريم العودة. في حين أن عبدالعزيز السويد جاء بعد ذلك، أي

بعد أن تم اكتشافه في زاوية"قلم وحبر" في مجلة اليمامة نفسها، فأصبح فيما بعد سكرتياً لتحرير المجلة، ثم أنتقل بعد ذلك إلى مواقع إعلامية أخرى مرموقة.

علوان والسويد يجيدان –كلاهما- هذا الفن الصعب المعقد على اختلافهما الواضح في المشارب، والمزاج، ونوع الهمّ الثقافي أو الإبداعي.

علوان هو أحد فرسان القصة القصيرة في المملكة، وله في ذلك مجموعتان أحتفي بهما تاريخ هذا الفن عندنا وفي العالم العربي عموماً. علوان عندما ينحو نحو السخرية، عندما يكتب في غير القصة، يذكرني بما يفعله الشاعر السوري المعروف محمد الماغوط إذْ يغادر الشعر أحياناً إلى فضاء السخرية الرحب، كي يضْحكَ الناس على أنفسهم، وكي يفضح زيفهم، وكذبهم، وأوهامهم العريضة التي لا تجف ولا تنضب.

عبدالعزيز السويد صحفي ممتاز، وهو من الجيل الحديث، المتميز في انضباطه، وفي رؤيته المهنية، وعندما تلتقيه، أو تتحدث إليه، لا تشعر بأنك أمام شخصية ساخرة إلى هذه الدرجة الملحوظة التي تخرج بها مقالاته إلى الناس، بل إن العكس هو الصحيح فللسويد شخصية صارمة في ملامحها، وفي مواقفها، وفي آرائها. وأكثر ظني أن السويد يختفي –عندما يكتب- خلف دعوى السخرية ليقول أشياء كثيرة ربما لن تكون مقبولة كل القبول لو قيلت في حمأة الجد. وفي كل الأحوال فإن السخرية هي، بالفعل، غطاء جيد يمكن أن يحتمي به كل من يعتقد بأن آراءه أو أفكاره صعبة التداول في وجهها الكالح الجاد، وهي قد تتعرض "للمحبطات والمثبطات"

على رأي السويد نفسه.

محمد علوان ربما يلجأ أحياناً إلى السخرية للسبب نفسه، وربما يلجأ الاثنان إليها في أحايين أخرى لسبب آخر أكثر جرأة، وهو جعل الرأي أكثر حدة، وأكثر مرارة، فهو أبلغ في الإيلام، وهو أمكن في تجاوز اللحم إلى العظم!

علوان ظلت السخرية عنده أحد الخيارات الممكنة في الكتابة، فهو يلجأ إليها عندما يريد أن يحتمي بها، أو هو يستخدمها عندما يريد –بالمقابل- أن يوجع أكثر، أو يجهز تماماً على خصمه أو هدفه أو غايته. أم السويد فقد كانت الكتابة الساخرة عنده غاية في ذاتها، وهي في كل الأحوال تتقدم على كل ما سواها. فقد اختار منذ البداية أن يقدم نفسه للناس كاتباً ساخراً، بل متخصصاً في السخرية.

ولاشك أن الكتابة الساخرة، كما عبرّ صديقنا د.عبدالواحد الحميد، هي أمر صعب ونادر، فهي ليست ميسرة لكل أحد، وفرسانها ليس من السهل العثور عليهم أو اكتشافهم عند كل غروب شمس، وقد صدر للكتابين: علوان والسويد، كتابان هما: "لذاكرة الوطن" بالنسبة إلى الأول، و"أحياناً" بالنسبة إلى الثاني، والكتابان يحملان ملامح هذا الصنف من الكتابة، على أن كتاب السويد بالذات يظل هو المخصص كله، من أوله إلى آخره، للسخرية منا، ومن نقاط ضعفنا، ومن أشيائنا الصغيرة، أعني الصغيرة جداً أحياناً.

ومما يجمع بين هذين الكتابين، من جهتهما، أن ما احتويا عليه من مقالات نشرت كلها (بالنسبة إلى السويد) أو أغلبها (بالنسبة إلى علوان) في اليمامة أيضاً! ومما يجمع بينهما أيضاً تلك

المسحة العذبة من الفن الجميل الذي يصادفك منذ أغلفة الكتابين، فعلوان يختار صورتين بليغتين جداً للمرحوم صالح العزاز: واحدة غلاف أول والأخرى غلاف أخير. والسويد "يفبرك" أو "يلعب" بـ "بوست كارد" ليصنع منه غلافين في منتهى البلاغة هما أيضاً. وتداعيا لفكرة اللعب التي وردت قبل قليل، فإنني أتذكر ما كتبه على العميم (وهو بدوره يمامي قديم) عن سخرية السويد إذْ يقول: "السخرية عنده تقوم على اللعب بالكلمات وعلى تداعيها مما يجر إلى تداع في الموضوعات بطريقة تتعمد الإسقاط".

وإذا كان لابد من ذكر مثالين لسخرية السويد فلا أبلغ من هذين المثالين:

يقول الكاتب: "البعض يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، والبعض الآخر يولد وفي لسانه مشبك من خشب.. والبعض الثالث يولد بدون فم، والبعض الرابع لا يولد أصلاً!"

ويقول أيضاً: "في التأني السلامة وفي العجلة الندامة.. ولكن الإنسان منذ أن صنع "العجلة" وهو في تقدم"!

والكتابة الساخرة، عدا أنها تساهم في التحفيز على نهم القراءة، ففيها حكمتان أخريان، الأولى: أن صدر هذا النوع من الكتابة، يبدو أكثر رحابة، فهو يستوعب من النقد والثلب والسب ما لا تستطيع أن تستوعبه الكتابة في نمطها الجاد أو ثقيل الدم، فيجوز للكاتب الساخر ما لا يجوز لغيره، أما الكاتب كامل الدسم، فلا يجوز أن يكون "أعور ويتنقور"، فتكفيه ثقالة الطينة، ولا ينبغي أن يزيد في "التفلسف". أما الحكمة الأخرى، فهي أن الكتابة الساخرة، هي الأبلغ إيلاماً عندما يكون هدفها التندر أو الشرشحة، ولهذا فهي

الطريقة الوحيدة التي تشفي -فعلاً- غليل الناس فيمن لم يعد ينفع معهم، إلا أن يكونوا -واقعاً- موضوعاً للتندر والشرشحة.

والكلمة الأخيرة هنا، أن إخواننا الكتاب الساخرين محسودون على أشياء كثيرة -بلا شك- وليس أقلها أنهم -من حسن طالعهم- يدخلون في عداد "المهابيل" الذين "ما عليهم شرهة"، وهم حتى على هذا المصير "لا يخلون من الحسد".

وأنا لهم من أول الحاسدين.

خوان كارلوس:
فيفا أسبانيا

أميرة اسمها: صوفيا، ابنة فريدريكا ملكة اليونان، وشقيقة قسطنطين ملك اليونان أيضاً!

وأمير اسمه: خوان كارلوس، سليل ملوك. فجده هو "الفونس الثالث عشر"، آخر ملوك أسبانيا، والذي تهاوى عرشه في الأربعينيات، وأبو خوان هو دجوان برشلونة، الذي طالب فرانكو بمنحه فرصة الاعتلاء على عرش أسبانيا من جديد، لكن فرانكو كان يعزف حتى عن مجرد الإجابة عليه، ولأمر ما حظر عليه دخول الأراضي الأسبانية فيما بعد، فعاش بعيداً عن أسبانيا.

الأميران: صوفيا ، وخوان كارلوس عقدت إحدى كنائس العاصمة اليونانية "أثينا" اقترانهما قبل عدة سنوات.

كانت صوفيا تدرك أن خوان كارلوس "زوجها"، سيكون في يوم ما ملكاً لأسبانيا، وبالذات بعد أن عقد له ولاية العهد فرانكو نفسه عام 1969م.

وهناك في أقصى غرب أوربا كانت إليزابيث ملكة بريطانيا ترقب

الـزوجين الـصغيرين بعينـين فيهمـا إكبـار، وفيهمـا طمـوح، وفيهمـا انتظار قاهر لبلوغ خوان كارلوس وصوفيا العرش الأسباني، فهما من أبناء العمومة، إذ إن إليزابيث، وكذلك صوفيا وكارلوس من سلالة الملكة فيكتوريا.

أصبح كارلوس ملكاً لأسبانيا، وأصبحت صوفيا هي الأخرى ملكة، و"جلالتها" في كل احتفالات التنصيب والاعتلاء على العرش، التي كانت تنقل على الهواء مباشرة على كل شاشات التلفزيون الأوربي؛ بدت "ملكة" فعلاً، مليئة بالثقة والارتياح، تعطي الانطباع الواضح بأن هذا الحدث لم يكن بالنسبة لها فجائياً أو أكبر من المقام. أما "جلالته" فقد بدا في أكثر المناسبات متجهماً قاتماً، إذ قلما يفصح عن ابتسامة صريحة واسعة. بعضهم كان يقول: إن ذلك يعود إلى طبيعة مزاج الملك، وبعضهم يقول: إنها ضخامة المسؤولية، وفداحة الميراث الذي خلفه له فرانكو، فهما لا يبعثان أبداً على الابتسامة في كل حين.

الموالون لملك أسبانيا الجديد يتمنون على الله ألا يكون حظ كارلوس مع صوفيا، مثل حظ قسطنطين مع أمه فريدريكا في اليونان. ولكن خشية هؤلاء من مثل هذا المصير السلبي لم تستبد بكل شيء فيهم، فهم يعلمون أن الحال في أسبانيا تختلف عما هي عليه في اليونان، وأن وضع كارلوس لا يشبه بأي معنى وضع قسطنطين، فهذا الأول يسنده في الحكم اليوم الجيش، والكنيسة، والحركة الوطنية كحزب سياسي وحيد. وهذه هي الأعمدة الثلاثة التي ثبتت قبله أقدام فرانكو فوق سدة الحكم لمدة أربعين عاماً، على الرغم من كل ما كان يناهض هذا العجوز من خصوم وفرق

مناوئة في الداخل والخارج.

منذ أول يوم لتوليه العرش، كان يعلم خوان كارلوس الأول أن الطريق بين الفرانكية والديمقراطية طريق وعرة، ومعقدة، ومليئة بالمخاطر، ويحتاج إلى مقدار جيد من التضحيات، والمجازفة والشجاعة، والحذر الشديد. وكان يعلم، أيضاً أنه يقف في إحدى بدايات هذه الطريق المخيفة وأمامه كل ميراث الجنرال فرانكو العصيب، الذي يشكل في خطوطه الرئيسة التفسيرات المخلصة لفترة تاريخية منعزلة من تاريخ أسبانيا، كانت مدتها، يومذاك أربعين عاماً مليئة بالتحدي، وبالإصرار، وبالثقة، وبالسلطة الفردية.

فالوضع السياسي الداخلي شهد له بالعنف في أكثر مواقفه وإجراءاته البسيطة والمصيرية. نظامه لم يكن يشبه بحال أي نظام أوربي في كل الدول الأوربية المجاورة، التي ظلت تريد لأسبانيا وللأسبانيين حياة تشبه حياة بقية الشعوب الأوربية الأخرى، في الانفتاح والديمقراطية. والمجموعة الأوربية لم تكن تخفي عدم رضاها عن العزلة التي كان يفرضها فرانكو على بلاده. فالحلف كان لابد أن يأتي إلى أسبانيا قبل أن تجري هي إليه، والسوق الأوربية كانت إحدى المناطق المحظورة على الأسبانيين. وكان الوضع يزداد ترديا بعد أن كان يرفض فرانكو وساطة جيرانه الأوربيين في مسألة العفو عن الباسكيين الذين يختلفون إلى سجونه. كان ذلك هو أهم ما تركه فرانكو لخوان كارلوس الأول على منضدة الحكم، إلى جانب بعض المشاكل الأخرى، كالمعتقلين السياسيين والمنفيين في الخارج... إلخ.

كانت أسبانيا في عهد الجنرال فرانكو جزيرة معزولة عن الرياح

التي تهب على باقي جيرانها الأوربيين، كانت ديكتاتورية بشعة في وسط غابة من الديمقراطيات، فكأنها وضعت في هذا المكان لإعطاء العبرة للشعوب الأوربية الأخرى، فإذا لم تكن الأجيال الأوربية وقتها قد خبرت الديكتاتورية معيشاً يومياً، أو أسلوباً في التفكير، فهذه هي أسبانيا فرانكو، أقرب إليهم من حبل الوريد. ولعل ديكتاتورية فرانكو الصارمة، ورغد الديمقراطيات المجاورة، هما اللذان كان يدفعان بالأسبانيين إلى إظهار مزيد من الحبور بأفول شمس الديكتاتور، وقدوم الملك الجديد.

من أجل تحديد سياسة "إنقاذية" عاجلة، كان على الملك أن يتخذ سياسة الانفتاح، مع عدم الإخلال بالمبادئ والمثاليات الأساسية للحركة الوطنية، أو الفرانكية. فيبقى بذلك عند ثقة الفرانكيين، وفي الوقت نفسه، يمكن أن يتم له إشباع تطلعات الأسبانيين المعتدلين، الذين ينادون بضرورة ميلاد "مجتمع جديد" في أسبانيا. وحتى فرق المعارضة نفسها تكون بذلك قد وجدت فسحة -مهما تضاءلت- في ظل النظام الجديد.

كان ما يجري في البرتغال يومها يقف بعناد أمام ملك أسبانيا، فهو لا يريد لبلاده أن تتورط فيما تورطت فيه جارتها من مضاعفات النقلة الفجائية، فالملك الشاب يحسب حساب كل كلمة يقولها، وكل خطوة يخطوها، وكل إجراء يتخذه، فهو يريد أن يرضى الفرانكيين ويريد في الوقت نفسه أن يلقم المعارضين من الشيوعيين والاشتراكيين حجراً. لم يكن يهمه أن يهدد "المتطرفين"، سواء من الفرانكيين أو من فرق المعارضة إذا استطاع أن يكسب "المعتدلين" من الفئتين، والجيش بالذات سيكون من هؤلاء، ولهذا فكارلوس لم

يكن فرانكياً صرفاً، كما أنه لن يطلق الحبل على الغارب لمن يراهم من الناقمين على هدوء أسبانيا واستقرارها.

في حالة تراخي الملك، فإن أسبانيا كانت أقرب إلى الفوضى، فمجرد الشعور بابتعاد الجنرال عن الحكم؛ كان ذلك سيسمح بخروج العقارب والثعابين والهوام التي كان فرانكو يمنع عنها الهواء والماء. والملك خوان كارلوس يعلم أن خياره، هو نموذج جيرانه وشركائه الأوربيين، ولكن ذلك لابد أن يحدث بشكل متدرج وثابت، ثم إن الانتقال من ديكتاتورية صارمة منغلقة إلى ديمقراطية متقدمة على الطريقة الأوربية؛ قد يخل بتوازن المجتمع الأسباني!

كان تولي خوان كارلوس الحكم في البلاد إيذاناً ببداية مرحلة جديدة في التاريخ الأسباني، هي "مرحلة ما بعد فرانكو.. "، ما بعد الديكتاتور!.. ويمكن تحديد طبيعة هذه المرحلة في هذا المفهوم السياسي: "التغيير داخل الاستمرارية"، أي التغير مع استمرار صيانة المبادئ "الأساسية" للحركة الوطنية التي كان يشكل فيها فرانكو نفسه الرأس والقلب. لم يكن مطلوب من الملك تغييرات جذرية حاسمة في تلك المبادئ (الآن على الأقل)، فالميراث الذي تركه فرانكو، على الرغم من ثقله، هو "ميراث مقدس"، أو أن هذا على الأقل ما كان يحاول رئيس الخط اليميني السيد "جوزيه أنطونيو، خيرون" أن يُذكِّر به الملك الجديد كل صباح. بل إن الملك نفسه في نظر اليمين، أحد عناصر ذلك الميراث، فهو، بالنسبة للفرانكيين، "اختيار" فرانكو ووصيته لمركز القيادة من بعده.

لم يلتفت الملك كارلوس عندئذ إلى أولئك الذين يقولون بأن الطريقة الوحيدة لإيجاد الديمقراطية الفعلية في أسبانيا، هي

"تمييع" الفرانكية كلياً، فهو يدرك أن الفرانكية في أسبانيا دامت أكثر من أربعين سنة، وما زالت قوية ومعقدة. وعلى الرغم من أن هناك من يقول الآن بأن الفرانكية قد شاخت في خلال الشهر الأول من حكم خوان كارلوس بمقدار عشر سنوات، بل ربما أنها تقترب من حتفها أو تلاشيها.

أخذ كارلوس منذ أول يوم لتوليه الحكم يقدم تحدياته للمتطرفين من اليسار واليمين، ولكنه لم يكن يقوى على إدارة ظهره للفرانكية، والفرانكيين كلهم.

اصطدم الملك بنهم الأسبانيين المتطلعين إلى نظام أكثر مرونة وأكثر "ديمقراطية" من نظام فرانكو الديكتاتوري.

كما أنه واجه حركة الباسكيين الذين كانوا يرومون الخروج من تحت المظلة الأسبانية، كما، واجه كذلك تحديات اقتصادية. فصحيح أن وضع أسبانيا، الاقتصادي لاقى تحسناً ملحوظاً في عهد فرانكو، حتى أنهم كانوا يصفون هذا الوضع بـ"المتطور على الطريقة اليابانية". وتبين أن أسبانيا كانت تعاني من درجة تضخم حادة، تفوق ما هي عليه جاراتها من الدول الأوربية الأخرى، كما كانت تعاني من نسبة بطالة مرتفعة.

كان يشترط خوان كارلوس مسبقاً أن يكون دخوله في المجموعة الأوربية دخول الند للند، وإلا فإن أسبانيا ستبقى بعيدة عن الجماعة. بالنسبة إلى العالم، فتنصيب الملك خوان كارلوس لم يكن مجرد وصول حاكم جديد إلى السلطة، بل إنه فوق ذلك نهاية مرحلة سياسية خطيرة، وبداية أخرى أخطر، هذا إلى جانب أن "التحول" السياسي في هذا الجزء من العالم، بات أمراً مؤكداً مهما

كان "وفاء" كارلوس لفرانكو والفرانكية، وهذا أمر سيترك تأثيرات واضحة على مختلف مجالات العلاقات الدولية، وخاصة فيما يخلقه مثل هذا "التحول" من تنافس وأطماع في مد النفوذ، واتخاذ مواقع استراتيجية بين الدول الكبرى، خصوصا، التي يهمها دائماً أن تفيد من مثل هذه الأحداث لتحقيق أهداف جديدة، ومواقع جديدة. ولهذا فوسائل الإعلام لم تكن تعطي أي حدث عالمي من الاهتمام، بعد فضيحة ووترقيت، مثل ما أعطته لهذا الحدث، أي "ما بعد الفرانكية" في أسبانيا، حتى أنه ليخيل للملاحظ أن اهتمام الآخرين بمشاكل الأسبانيين أكثر من اهتمام الأسبانيين أنفسهم بهذه المشاكل.

"فيفا أسبانيا"، رددتها الملكة الشابة الذكية بين يدي ملكها الشاب، استفتاحاً متفائلاً لأيام أسبانيا الجديدة التي ستكون فيها صوفيا "قرة عين" زوجها، و"قرة عين" كل الأسبانيين في المشوار الطويل الذي كان حافلاً ببشرى "التحول"، والإقلاع نحو "المجتمع الجديد".

لم يعد هناك اليوم أي شيء من الميراث الفرانكي، لقد جعلته أسبانيا وراء ظهرها، وتحولت إلى الديمقراطية الكاملة، مثلها مثل شركائها الأوربيين. ولم يكن المدهش هو ما آلت إليه أسبانيا اليوم، بل لعل المدهش حقاً، هو استمرار فرانكو في الحكم حوالي أربعين سنة، شيد فيها ديكتاتوريته الصعبة في محيط من الديمقراطيات العريقة التي كانت تزخر بها القارة العجوز!

لم يكن سن الجنرال يسمح له بمزيد من السنوات في الحكم، ولم يعد الفضاء المحيط بأسبانيا يسمح بمزيد من فرص الحكم

الـديكتاتوري، فقـرر فرانكـو أن "يتنحـى"، وأن يطلـق أسـبانيا مـن قيودهـا البائسة. وكـأي نظـام ديكتـاتوري لـم يتـرحم عليـه أحـد، ولـم يبكه أحده، ولم يلهث خلفه أحد، عدا بعض منتسبي الحركة الوطنيـة الـذين يعلمـون أن نهـايتهم هـي نهايـة الـديكتاتور الـذي أنـشأهم، ورباهم، وعمـل علـى تـسمينهم. منـذ اليـوم الأول للنظـام الجديـد، زحفت أسبانيا نحو الفضاء الجديد.

ذهـب وصـي العـرش، وجـاء ولـي العـرش، جـاء ومعـه الملكـة الجميلة صوفيا، إذْ ولدت أسبانيا الجديدة، وها هي كما نراها اليوم، أحسن حالاً بلا ديكتاتور!

الأميرة ديانا:

مهرجان العويل

عندما قضت الأميرة ديانا في أحد أنفاق باريس، شبع العالم لشهور طويلة لطما وبكاءً على الفقيدة.

البريطانيون بكوا عليها لأسبابهم، والعرب سفحوا عليها كثيراً من دموعهم لأسبابهم أيضاً، والعالم صلّى كله من أجلها لأسبابه هو الآخر!

ومن أسباب البريطانيين، أنهم ظلوا يشعرون بأن الأميرة الجميلة كان يلحق بها "ظلم" كبير، إلى أن لقيت حتفها. ومن أسباب العرب، أنها كانت ستصبح أما لعربي، هو أخ قادم لملك بريطانيا الآتي!

عدا مثل هذه الأسباب الخاصة، العالم كله اشترك في مهرجان العويل، لأسباب مشتركة عامة. فالبريطانيون والعرب والعالم، تحولت دايانا بالنسبة إليهم جميعاً، إلى فقيدتهم الكبرى، فهم لن ينسوها أبداً، أو هم على الأقل لن ينسوها بالسهولة الممذكن تصورها.

وأود أن أشير هنا إلى حقيقتين مهمتين، الأولى: وهي أنني

– شخصياً – لم أحزن حزناً كبيراً ولا صغيراً على فقد دايانا، ولم أتابع شيئاً من أخبار الحادث الأليم، وقد كنت وقتها في باريس، ولم يكن ولا يهمني أن أتابع مثل هذه الأمور بأي حال. الحقيقة الثانية: أنني لا أضمر للمرحومة أي عداء من أي نوع، ولهذا فقد كانت عندي كنساء كثيرات مثلها، تعرضن لمظالم كثيرة، وارتكبن - هن أنفسهن- أخطاء كبيرة، وعملن في الوقت ذاته، أعمالاً جليلة، ثم غادرن هذه الدنيا في حوادث سيارات أو طائرات، أو غادرنها بالتهاب حاد في الرئتين، أو بفشل كبير في وظائف الكبد، أو بغير ذلك من أدوات الموت ووسائله وحبائله المتعددة. وبقدر ما حزنت على أولئك النساء الكثيرات، حزنت على دايانا. لكنني لم أبك كما بكى الآخرون، ولم ألطم كما لطم كثيرون، ولم أقاطع الناس أو الأصدقاء، كما فعل بعض من أعرف، وعديدون ممن لا أعرف.

لست بريطانيا فأبكي للأسباب التي بكى لها البريطانيون، ومع أنني عربي صميم، إلا أنني لم أحس للحظة واحدة، أنه سيكون منا يوماً ما أخاً لملك بريطانيا القادم، ثقة في "أخلاق" دايانا من جهة،وثقة في "ضمير" الاستخبارات البريطانية، من جهة أخرى.

نعم، أنا من هذا العالم، ولكن أسبابه العامة المشتركة التي بكى من أجلها الأميرة الجميلة، لم تقنعني أنا شخصياً بالبكاء، أو حتى بالحزن الشديد.

في نظري أن العالم لم يبك دايانا؛ لأنها أمٌ غادرت الدنيا وتركت أطفالها للحزن واللوعة، فهناك أمهات كثيرات يحدث لهن ما حدث لدايانا، ولم يبك عليهن سوى "بعض" من الأقربين من الذين يرون مكانهن كل يوم خالياً.

وفي نظري أيضاً أن العالم لم يبك دايانا؛ لأن الدنيا فقدت فاعلة خير كبيرة، أو محسنة نادرة، يصعب وضع اليد على مثلها، ففوق هذه الأرض محسنات كثيرات، وفاعلات خير كثيرات متن وسيمتن، ولم ولن يحدث من الوجيب والنحيب مثل ما حدث عندما وري في التراب، جثمان فقيدة العصر الجميلة.

إن ما أعتقده، هو أن العالم بكى دايانا لأسباب لها علاقة بنجوميتها، وأسباب لها علاقة بطبيعة الحادث وظروفه، وأسباب عاطفية بحتة، ذات صلة بأزمة الجيل نفسه.

فالتي لقيت حتفها في نفق "ألما" بباريس، هي نجمة النجوم، فظروف زواجها، وظروف طلاقها، وجمالها، ومغامراتها، وصراعاتها؛ ساعدت الإعلام على أن يخلق منها خرافته النادرة، ولهذا كان من المتوقع أن تغادر الدنيا بمستوى الحفلة نفسها التي دخلت بها إليها. فإذا أضفنا إلى ذلك، أن خروجها من الدنيا كان خروجاً دراماتيكياً شنيعاً، ومفجعاً، راح ضحيته ثلاثة أشخاص، تدفقت دماؤهم كما تتدفق الجداول المكظومة، وإذا زدنا أيضاً بأن واحداً من هؤلاء الأشخاص، هو "الحبيب" الجديد لدايانا، وهو الذي من أجله تركت كل شيء، وباعت كل شيء، وكانت للتو تغادر معه طاولة "نادي الريتز" بباريس، بعد عشاء لا يشبه أبداً أي عشاء! فهو عشاء الحب الكبير، والتضحيات الكبيرة. عشاء العهد الجميل الذي لن يكون كمثله عهد، إنه العشاء الذي كانت قد "ماتت" فيه دايانا، وهي تتهاوى بين ذراعي "دودي"، أي كانت في أعلى ذروات الحب.

إذا أضفنا كل ذلك إلى فصول القصة التقليدية المعروفة، فإنها لن تكون تقليدية بعد البتة، وسنرى أن هذا هو ما أشعل مشاعر

الجيل في الغرب بالذات، هذا الجيل الذي يفتقر في واقعه إلى مثل هـذه القـصص الحلـوة/المـرة، وهـو بالـضرورة يفتقـدها، حتـى فـي أحلامـه، أي قـصص الأميـرات الجمـيلات فـي فـساتينهن البيـضاء الطويلة، فوق حقول القصر الممتدة، تحاك لهن المكائد وقصص الغيرة أو الانتقام، فيقتلن شرّ قتلة، ويغرق الفستان الأبيض في الدماء، ثم تنقل المغدورة إلى دهاليز القصر، وخصل الشعر الأشقر الجميل تتدلى إلى أن تلامس الأرض.

فتكنس معها بعض أوراق الشجر اليابسة، وبعض حشرجات الأبواب والصور الشاحبة فوق جدران الممرات. دموع كثيرة سالت من أجل "المشهد" المكتمل من حياة دايانا، ومن ثمّ من أجل موتها. وأعتقد أن دايانا لو ماتت ميتة طبيعية مع تشارلز، "زوجها الأول الممل" لما أصاب الناس ما أصابهم من إسراف شديد في الدموع، والحزن الذي ليس بعده حزن.

أميرات كثيرات، وملكات عديدات، غادرن الحياة بشكل طبيعي وعادي، ولم ينلن شيئاً مما نالته دايانا.

ومن المؤكد أن دايانا أميرة غير **طبيعية؛ لأن حياتها امتلأت بصراعات مريرة، ومغامرات مريرة أيضاً**. والإعلام يحتاج أحياناً إلى أن يخلق أصنامه وخرافاته، لتكون قصص تلك الأصنام، وأحداث تلك الخرافات؛ هي طريقة إلى عقول الناس ووجداناتهم. والحق أن الإعلام في الغرب قد وجد كل شروطه ومتطلباته في الأميرة الحسناء، وفيما رافقها من الظروف والتوترات، فبنى منها " الصنم" المطلوب، وأشاد الخرافة المتوخاة، ولاسيما بالنسبة إلى النساء الصغيرات، وخصوصاً المغدورات، المظلومات، المحسودات،

المستهدفات. ولا شك أن دايانا نفسها، قد لانت كثيراً لإغراءات الفكرة الإعلامية، بل لقد جعلت منها - مؤخراً – ثمناً للخروج من مظلة "العرش" البريطاني، فتمادت الفكرة الإعلامية ذاتها في تضخيم نفسها، إلى أن أقنعت الأميرة الجميلة بمغادرة العرش البريطاني، لتستقر ملكة متوجة فوق قلوب كل الناس، وهذا ما قيل صراحة في مناسبات كثيرة، لاسيما بعد وفاة دايانا.

الأكثر إغراء بالتحليل في وضع دايانا، هو "الفكرة" التي حملت تناقضاتها في داخلها، فبقدر ما فتن الناس بـ"أميرية" دايانا، بقدر ما أعجبوا ودهشوا من خروجها منها، فهم عشقوها وهي "أميرة"، وهم زادوا عشقا لها وهي لم تعد "أميرة"، بل وهي تتحول إلى متحدية شرسة وعنيدة للمؤسسة الملكية كلها، فهذا التضاد نفسه صار فكرة إيجابية في وجدان جيل الانهيارات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

إن هذا التحدي الذي اختارته دايانا، والذي كان من صوره الواضحة القوية قرارها الزواج من دودي، المصري العربي الذي لم يتمكن والده من الحصول على الجنسية البريطانية، على الرغم من كل ما بذل من الجهود والأموال. يالالمفارقة! الولد يظفر بقلب أم ملك بريطانيا القادم، بينما الوالد يعجز عن الحصول على الجنسية البريطانية! على الرغم من بذله وتفانيه. هل هذا فصل درامي آخر من فصول حياة ديانا المثيرة؟! ربما. لهذا نقول: إن ذلك التحدي، هو الذي أغرى بعض المحللين باللجوء إلى فكرة "المؤامرة" في مصرع دايانا!

أنا شخصياً لست مع هذه الفكرة، لكنني أقول ببساطة: لقد

خدم القدر المشؤوم الاستخبارات البريطانية، ووفر عليها كثيراً من الجهد أو التفكير، أو التخطيط، "لفركشة" موضوع الزواج، أي إنني مع القائلين بأن زواج دايانا من دودي كان أمراً مقلقاً جداً للبريطانيين، وهم - لا شك- سعوا وكانوا سيسعون أكثر وأكثر إلى تعطيل فكرة الزواج من أصلها، ثم أقف عند هذا الحد، فلا أتعداه أبداً إلى فكرة، أن ما حدث في نفق "ألما" بباريس، كان أمراً مدروساً أو مخططاً له؛ لأن جميع الفرضيات التي تستند إليها مثل هذه الفكرة، تظل في نظري "فرضيات" ضعيفة متهالكة.

هذه هي دايانا، وهذه هي لواعجها.

وفي النتيجة، فإن الإعلام هو الذي بناها، وهو الذي في الوقت نفسه هدمها، وها هو قد أعاد بناءها من جديد.

رفيق الحريري:
تجربة البناء.. والموت

الرئيس رفيق الحريري، لم أكن أعرفه شخصياً، ولم تكن تربطني به أي علاقة مباشرة أو غير مباشرة، ومع ذلك فقد كنت أشعر بأن له تقديراً شخصياً خاصاً في نفسي، ويعود هذا التقدير إلى أمور كثيرة تتعلق ببعض المواقف أو التصرفات الحميدة له مع أبناء بلده الأصلي لبنان، من قبل أن يعود إلى لبنان، وبعد أن عاد إليه، ومن قبل أن يصبح رئيساً للحكومة في المرة الأولى، وبعد أن صار كذلك، وليس هنا مكان لذكر كل تلك المواقف أو التصرفات، فلربما أن كثيرين يعرفونها ويقدرونها مثلما نعرفها نحن ونقدرها. ولعل أكثر ما يلفتنا في تلك الأعمال، تركيزه على الجمعيات الخيرية، وعلى البعثات التعليمية، فقد اشتهر عند الناس بأنه يدعم الجميعات، ويقدم مئات المنح الدراسية إلى اللبنانيين للتعلم في بلدان العالم المتقدم، إيماناً منه بدور العلم وأهميته في بناء الفرد والأمة.

لن يكون هذا الأمر هو موضوعنا هنا، فالذين كتبوا عن ذلك

كثيرون، بل سأذكر هنا، ما سمعته أو شاهدته، مثل غيري، من مواقف طيبة لرفيق الحريري تجاه أهله في السعودية، فلقد تعودنا دائماً على أشخاص ينكرون فضل بلادنا عليهم بعد أن يمتلئوا، أو بعد أن يقضوا منا مآربهم، لا بل إنهم أحياناً، يتعمدون الإساءة إلينا تحت ضغط المكابرة، أو هروباً من تبعات واجب ردّ الجميل الذي أسديناه إليهم في وقت من الأوقات، بلا أدنى تشوف، وبدون أي منّة.

رفيق الحريري - على خلاف ذلك- كان دائماً من الأشخاص النادرين الذين ظلوا أوفياء للسعودية، فلم يغمطوها حقها، ولم يستنكفوا من ترديد فضلها عليهم. ولقد شاهدنا ذلك وسمعناه من رفيق الحريري، بعد أن عاد إلى بلده الأصلي لبنان، وبعد أن أصبح رئيساً لحكومة بلاده، ومعه من المال الكثير، وله من الجاه ما هو وفير، ولو شاءت له أخلاقه أن يدخل في زمرة ناكري الجميل ممن لم يحفظوا ود السعودية، لكان أحرى الناس بأن يفعل ذلك، فهو نظرياً حقق الأموال التي طمح إليها، ونال النفوذ الذي سعى إليه، ومهما يقول عنا من كلام معسول، فلن يكون هو المصدر الرئيس للتأثير اليوم على ما سيحقق من مكاسب معنوية ومادية، فغيره أنكرنا وأدار ظهره لنا على أقل من ذلك بكثير. أجل، فالحريري على الرغم من كل ما توافر أمامه من مغريات، كان أقل منها قد دفع غيره إلى الأسوأ في علاقته معنا؛ ظل حتى على شاشات التلفزيون، وفي وسائل الإعلام الأخرى المختلفة، لا يستنكف من ذكر فضل السعودية عليه، والعرفان لأهلها بما هيأوه له من فرص ثمينة، جعلته يحقق كثيراً من الطموحات التي كانت تعتلج صدره، ونلاحظ بأنه

كان لا يقول ذلك بالتلميح، بل إنه يعلنه صراحة على رؤوس الأشهاد وبكل ثقة.

كان الحريري لا يقول ذلك لظروف المجاملة، بل يقوله وهو يشعر بكثير من الغبطة والامتنان. وهذا هو ما جعل للحريري مكانه الخاص في تقديرنا وفي احترامنا، وهذا هو أقل ما يمكن أن يواجه به من هو في مثل صدقه ووفائه لنا ومعنا.

وعندما التقيته لأول مرة في قصره في بيروت في معية أحد مستشاريه الإعلاميين، وهو الزميل الأستاذ مصطفى ناصر، سمعت منه عن بلادنا أكثر مما سبق أن عرفته عنه، وسمعت منه عن مستقبل لبنان ما كان يبعث بين جوانحي الكثير من الأمل والطموح. أما لقائي الآخر به، فهو عندما شرفني بحضور تدشين كتابي الذي صدر من بيروت في العام 2004م، بعنوان "أمريكا التي تعلمنا الديمقراطية والعدل.. ". وقف في طابور المثقفين الذين كانوا ينتظرون توقيع المؤلف، متجرداً من كل اكسسوارات المال والجاه ومظاهرها التي لا تجدي في مثل هذه المناسبة. وزار –رحمه الله- فالتقط صوراً تذكارية مع المؤلف، وليس عندي شك بأن رفيق الحريري يفعل هذا مع غيري من المؤلفين الذين يحضر إلى مناسباتهم، فقد كان مثقفاً ويحب المثقفين، وكان لبنانياً وسعودياً وعروبياً من طراز فريد.

ولهذا كله نحن كنا سعداء بأن يتسنم شخص بقلب الحريري سدة الحكم في بلاده. وكنا سعداء بذلك؛ لأننا نؤمن بمواهبه ومؤهلاته، وأنا شخصياً كنت أقول لأصدقائي اللبنانيين، في المرة الأولى التي ترأس فيها الحريري الحكومة، بأن لبنان بعد الحرب

والـدمار، ونزهـات البنـادق، والقناصـة، والمفجـرين، والمخـربين، هـو أحوج ما يكون إلى شخصية مثل شخصية الحريري، فعدا الألمعيات السياسية الأخرى المتوفرة أصلاً فيه، فأنا أحسب أن لبنان في حاجة الآن إلى "مقـاول" أكثـر ممـا هـو فـي حاجـة إلـى أكاديميـة سياسـية محـشوة بالنظريـات، وقـادرة علـى المنـاورات. لبنـان فـي حاجـة إلـى شخصية اقتصادية ماليـة تـزرع الثقة على الأرض، أكثـر ممـا هـو فـي حاجـة إلـى أسـتاذ يلقـن النـاس والمؤسـسات دروسـاً "مجـردة" فـي الترشيد وأوجه الاستثمار الذي يأتي ولا يأتي!

وعندما عاد الحريري مرة أخرى إلى الحكم في لبنان، عاد وهو يتصرف بعقلية المقاول، فكان اتجاهه نحو البنية التحتية الأساسية، ولأنهـا تعـدّ أهـم العناصـر الجاذبـة للاسـتثمارات الأجنبيـة التـي تبحـث قبـل هـذا كلـه عـن الثقـة، ولـيس هنـاك مـن كـان أوفـر ثقـة للاقتـصاد اللبناني من رفيق الحريري، وقد قيل ذلك صراحة في أوسـاط يابانيـة وأمريكية وأوروبية كثيرة تريد أن تدعم عجلة الاستثمار في لبنان.

كـان الاقتـصاد اللبنـاني، والوضـع المعيـشي كلـه فـي لبنـان؛ يمـر بأعقـد أزماتـه، فالـديون الأجنبيـة باهظـة، والبطالـة قائمـة ومنتـشرة، ومستوى الـدخول منخفضة انخفاضـاً شـديداً، وكـان الحريـري أنـسب الحلول وأفضلها لمحاولة فك هذه الاختناقات، والتخفيف ما أمكن من تلك الأزمات. فإذا أضيف إلى كل ذلـك مـا يجـده الحريـري مـن قبـول سياسـي مـن الأطـراف المعنيـة بالـشأن اللبنـاني، ومـن قبـول أيـضاً فـي أوسـاط القـوى الـسياسية والاقتـصادية فـي الخلـيج، وفـي اليابـان، وأوروبـا، وأمريكـا؛ تكـون قـد تـوفرت بـذلك أكثـر شـروط نجاحـه فـي

مهمته الصعبة. لذا فقد كان الحريري أحرى الناس بإنقاذ لبنان، الذي طالت معاناته أكثر مما ينبغي.

إن "وطنية" الحريري، وجهاده من أجل "استقلال" لبنان، ومن أجل أن يتمتع بسيادته الكاملة غير المنقوصة؛ هي التي كلفته حياته، فقتلوه ليكون رمزاً واضحاً للشهادة في سبيل الله وسبيل الوطن. ولم يكن اختفاء الحريري بتلك الطريقة الإجرامية المشينة بالأمر السهل، فقد انعكست آثارها الخطيرة - ومازالت- على استقرار المنطقة كلها، ولن تنتهي آثار أزمة مقتل الحريري إلاّ بعد أن يأخذ الحق مجراه، وبعد أن يقول العدل كلمته، فليس من اليسير أبداً تجاوز ما حدث، والذين ظنوا مثل هذا الظن مخطئون تماماً، وخصمهم اليوم ليس عائلة الحريري وأهله فقط، بل العالم كله، ممثلاً في المحكمة الدولية التي مازال البعض يحاول تعطيلها، وعرقلة مهامها، والوقوف في وجهها، ولاسيما بعد نشر لائحة الاتهام التي أشارت إلى مجموعة أشخاص ينتمون إلى أقوى الأحزاب السياسية في لبنان، وأكثرها تأثيراً، وهو "حزب الله".

ومعروف من الذي دفع إلى القيام بهذه المهمة القذرة، فلا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله، فها هو الشعب السوري البطل يموت في الشوارع والميادين من أجل الإجهاز على قوى الشر والغدر التي لوثت تاريخ الشام الحبيب، وسينتهز هذا الشعب، وسيخرج من عهود الظلام والبطش والاستيراد إلى عصر جديد مضيء من الحرية والكرامة والعدل.

اللهم أرحم رفيق الحريري، اللهم إنك أنت الذي تظهر الحق، وأنت الذي تخزي الباطل، وتدحره، وتفضحه!

الماركيز ساد:

اكتب اسمك.. حرية!

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يقفل فمه على فوهة مسدس ليفرغ في حنجرته رصاصة أو رصاصتين!.. يكتب بهما نهاية حياته!.. (ينتحر!).

لم نقابل قط حيوان آخر حاول الانتحار!

والإنسان أيضًا، هو الحيوان الوحيد الذي قد يمر بتجربة جيدة من المتعة، عندما يرغمه إنسان آخر على ابتلاع حفنة لا بأس بها من المسامير الحادة، أو من قطع الخشب الناشف!

لم نشاهد أي حيوان آخر قد يجد متعته في العذاب!

والإنسان أخيرًا، هو الحيوان الوحيد الذي لا يبحث في زوجته أو عشيقته إلا عن الوجه السالب أو الرافض، لتسحبه على وجهه وقفاه في دهاليز البيت، ولتصلبه على باب المطبخ والحمام، وتتفل في وجهه، تضربه بالمكنسة، وتكسر على جمجمته زهريات الصالون، فلا يستنكف، بل يعود ويتضرع إليها أن تغرس أظافرها الطويلة في ثنايا وجهه، وعلى صدره الأشعر!.. أشعر مع الآسف!

لـم نـسمع أبـداً عـن حيـوان آخـر يجـد نفسه ويلتقي روحـه فـي هذه المهانات!

هـذه مجموعـة أفكـار مازوشـية، لكـم أن تعـدوها خلاصـة فلـسفة ساشـير مـازوش (الكاتـب النمـساوي)، الـذي ضـرب فـي طـول القـرن التاسع عشر وعرضه، ليؤكد مدلولاً فكريًا ونفسيًا (بشرياً بالتحديد) لتعلـق الإنـسان بـ (المتعـة)، كإحـدى الفواكـه النـادرة للألـم والقـسوة والتعذيب. التعـذيب الـذي يتلقـاه هـو كمقـصد، وهـدف وليس كفاعـل مباشر، فالإنسان – عنده – يتوق دائماً لأن يكون (معذباً)، كوسيلة لبلوغ (اللذة).

طلـب المتعـة غريـزة، هـذا أمـر لا اخـتلاف عليـه، ولكـن إشـباع الغريزة عن طريق التألم والتوجع، بينمـا يكـون عنـد بعضهم انحرافـاً، فهـو عنـد مـازوش (جبلـة) لا تنـاقض فـي أي حـال طبيعـة الإنـسان وتكوينه.

هـذا الكاتـب كـان يناقش فـي أعمالـه قـضايا مهمـة فـي الوجـود، الإنسان، وتاريخ الحضارة، مثل: التملك، والدولة، والحـرب، والعمـل، والموت. ولكن مناقشة كل هذه القضايا كانت تنبعث لديـه مـن نقطـة واحدة، هـي فلسفته لـدور (الرغبـة) وأهميتهـا فـي الإنسان وقـضاياه، تلك كانت تتلون دائماً بلـون قرمـزي واحـد، هـو الـصراع بين النـساء والرجـال، كواقـع وذكـرى يونانيـة مغرقـة، أو قولـوا كحلـم طـوبي لـ (مـستحيل) جديـد، وفـي هـذا التـصور، فـالمرأة ليـست فقـط الـشريكة الشرعية للرجل في كل شيء، بل أكثـر مـن ذلـك، أنهـا لابـد أن تتخـذ من الرجل (عبداً) مسخراً لا يُقدم ولا يؤخر.

قال يوماً:

"إنني أجد جاذبية غريبة في أن أتألم، في أن أتوجع، ولا شيء يستطيع أن يضرم متعتي، مثل الطغيان أو القسوة اللذين يتخذهما في حقي آخرون، ثم لا تسألوا عن متعتي البالغة عندما تغدر بي امرأة فاتنة جميلة"!

هذا المفهوم لأحد الجوانب المعقدة في طبيعة الإنسان، وسلوكه وتصرفه، شكَّل اصطلاحاً جديداً، ومبحثاً طارئاً لدى علماء النفس والأمراض العصبية، هو: المازوشية، وكان منطلقاً لأبحاث ودراسات نظرية وتطبيقية لتمييز إحدى (عقد) الإنسان العصيبة، وهذه العقدة ليست جديدة، من حيث كونيتها، وإنما من حيث اكتشافها وتبويبها بين مجموعة العقد الأخرى. وأثناء عثورهم على هذا المكتشف الجديد، كان لهم أن يزيحوا الحجاب عن عقدة أخرى نقيضه، هي: (السادية).

وبرغم أن ساد (الكاتب الفرنسي) خلقه الله قبل مازوش (القرن الثامن عشر)، إلا أن أحداً لم يكن يجرؤ حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين على الإشارة بصراحة ووضوح إلى هذا الكاتب الفضيحة وفلسفته الساخنة.

الفلاسفة نسبوا السادية إليه؛ لأنه سواء بسلوكه وسيرته الشخصية، أو بما كتب فأحرق ودمر؛ كان يؤكد ضرورة توفر (المتعة) للإنسان، بل إنه لا يفسر وجود هذا الإنسان إلا بها، ولكن لبلوغ هذه المتعة، كان يتخذ طريقاً معاكساً تماماً لطريق مازوش، هذا الطريق يتصف هو الآخر بالقسوة والطغيان. ولكن الباحث عن (الظفر) عند ساد، هو الذي لابد أن يتولى تعذيب الآخر، وأن يلحق الشر بالغير، بعبارة أخرى، فإنه الفاعل المباشر، وليس المتلقي،

ويجد في تعذيب الآخرين، وفي الاغتسال بدمائهم لذة لا تحصر، هو الذي يجد في توجع غيره انتصاراً لمتعته.

الإنسان عنده لم يخلق إلا ليلهو بكل الموجودات من حوله، وقد يكون للهوه هذا ضحايا، ولكن لا بأس؛ لأن من (المفروض) أن يكون هناك ضحايا.

القسوة – عنده – هي الطاقة الفعلية للإنسان الطبيعي الذي لم يفسده التمدن، وهي، على هذه الحال، فضيلة وليست عيباً.

هذا هو مفهوم ساد للإنسان وللحضارة وللتاريخ.

وعند علماء الأمراض العقلية والنفسية يتحدد المفهومان: السادي، والمازوشي في انحرافين خطيرين لطلب اللذة عند شخص، فقد يكون الإنسان سادياً فقط، وقد يكون مازوشياً فقط، وقد يكون في آن واحد الاثنين معاً.

وقد حاول بعض الفلاسفة المحدثين العثور في هذين المفهومين على تفسيرات أكثر بعداً، وأكثر غوراً للوجود الإنساني اليوم، خصوصاً هذا الوجود الذي يتخذ من العنف والقسوة والطغيان وتقديم الضحايا قاعدة له.

لو سئل أحد هؤلاء: ما أهم مميزات الحضارة الإنسانية اليوم؟ لما تردد لحظة في لفظ هذه الإجابة القاسية الغليظة: العنف!

والعنف بمفهوم ما، ليس له مسببات، وكل ما (يدفع) إلى اقتراف جريمة من الجرائم، لا يمكن أن يعد مولداً للعنف في الإنسان، وإنما هو بالأحرى أحد العوامل التي تكشف في الإنسان أحد جوانب فطرته السلبية، والجوانب السلبية للفطرة دائماً

موجـودة، ولكنهـا مختفيـة؛ لأنهـا خجولـة وخائفـة، تخـشى نفـور المحيطين، وتتلافى عقاب السلطة.

والإنسان في بعض المواقف الاستفزازية ينسى المحيطين، ولا يفكر أبداً في عقاب السلطة، فـ (يقسو)، ويطغى، ويجندل ضحاياه. والمواقف الاستفزازية التي تلهب رغبته في الكشف عن لذة القسوة فيه، لها أكثر من صورة، نشاهدها كل يوم، وفي كل مكان، يجمعها إطار واحد، هو البحث عن (النجاة)، فالإنسان المعاصر يبحث في كل مواقفه عن النجاة، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد، أو على مستوى الشعوب.

وهـذا هـو التفـسير الأمثـل لكـل حـروب الإنـسان وجرائمـه الجماعية والفردية.

والبحث عن النجاة شعور يراود الإنسان، وهو لا يحتسبه مبررا لهذه الجرائم، بل يجده ضرورة حتمية لسعادته ولذته.

هو (يقتل) من أجل أن ينجو، و (ينتحر) من أجل أن ينجو أيضاً، وهو في الأولى أو الثانية أو فيهما معاً؛ يمر بتجربة حادة من اللذة والمتعة. وربما لهذا السبب، يكثر ترديد السادية والمازوشية على ألسنة الذين يتحدثون بتبصر عن حضارة الإنسان اليوم وإنجازاته الفكرية .

فالفكر هو الآخر، من حيث كونه ضرورة من ضرورات تفسير سلوك الإنسان أو نقله أخذ يهتم بالقسوة، وأحياناً يتشكل بها، وهذه القسوة بالنسبة إليه، لا تتوقف عند مجرد كونها موضوعاً أو قضية تناقش وتدرس، بل تذهب بعيداً إلى مستوى (النوعية)، أي

نوعية الفكر نفسه، ومحتواه، ومادته، وهدفه. فأدوات الكاتب مثلاً، هي دائماً أدوات مدببة حادة، تجرح وتدمي، وشخصياته دائماً مرعبة مخيفة تقضم الجمر، وتفتل من أمعاء الآخرين ضفائر أو جدائل مسبلة تتحلى بها. ولهذا كان هناك اليوم كتاب وشعراء ساديين وآخرين مازوشيين، وهذا لا يعني أن هاتين النوعيتين من الكتاب والشعراء لم تكن موجودة قبل اليوم، وإنما يعني أنها كانت سابقاً أقل ظهوراً أو أقل اكتشافاً.

كراهية سارتر لفلوبير (1821 – 1867) إنما جاءت من طريقة فهم سارتر لهذا الكاتب، حيث وجد أنه مزوشي وسادي في آن واحد، فجاءت شخصياته بائسة، تثير الشفقة، وفي نفس الوقت عنيفة لعينة لا تستدر إلا الكراهية. وفي القرن التاسع عشر مع فلوبير، كان هناك كتّاب آخرون أصيبوا بإحدى هاتين العقدتين أو بهما معاً!

ولا يهمنا المفكرون الذين أكد بعض دراسيهم أنهم تأثروا بالسادية بصفتها فلسفة وتفسير للوجود، ووسيلة للمتعة، مثل بلزاك وأبوللينير وغيرهما، وإنما يهمنا المفكرون المرضى المصابون فعلاً بهذه العقدة، مثل أربال، وبازوليني وغيرهما.

اليوم كأنه أصبح لابد لكل مفكر أن يكون سادياً أو مازوشياً، أو الاثنين في آن معاً. والناس أنفسهم أصبحوا شديدي التعلق بأي كاتب أو شاعر له هاتان الصفتان أو إحداهما. أكثر هؤلاء الناس هم أيضاً مرضى مصابون، ولهذا فهم يبحثون دائماً عما يملأ (تصوراتهم)، بما يكتبه الساديون والمازوشيون من كتب وأشعار ومسرحيات وأفلام. بعضهم يثق بأنه لابد أن (يخاف)، وأن ينزل

الرعـب منـه كـل منـزل، وأن يتعـذب ليـستمتع، وبعـضهم لابـد أن (يخيف)، أو يشاهد ويقرأ درجات الرعب والألم في نفوس الآخرين للغرض نفسه.

وهؤلاء الناس أصبحوا لا يجدون حرجاً في أن يكونوا ساديين أو مازوشيين؛ لأنهم أصبحوا أكثر صراحة في مواجهة مقومات وجودهم؛ ولأن (الإصابات) قد تعددت، وانتشر الوباء في كل مكان، ومن هنا جاء الفكر يعاين هذه (الإصابات)، وأحياناً يشبعها ويغذيها.

قبل سنوات صدرت ثلاثة كتب، دفعة واحدة، كلها عن ساد وله:

الأول: (ساد، أو الكتابة الراغبة)

Sade. Ou l,ecriture du desir

الثاني: (الفلسفة في المعصرة)

La philosohie dans le pressoir

الثالث: (ساد، اكتب اسمك: حرية).

Sade. J, ecris ton nom. Liberte

ربما وجدتم في السطور السابقة أسباب هذا الانفتاح الجديد على السادية، وعلى دراسة سيدها بعد حوالي قرنين من وفاته. ففي القرن الثامن عشر، حيث عاش ساد، وطوال القرن التاسع عشر بعد موته؛ لم يكن هناك من يجرؤ على الحديث عنه، لا ككاتب ولا كإنسان. ويقول بعض الباحثين: إن في تواريخ الأدب الفرنسي كلها، ليس هناك أي ذكر له ككاتب؛ لأن الفكر يومها كان يرفضه؛ ولأن

النـاس يومهـا أيـضاً كـانوا يلعنونـه، ولا يذكرونـه إلا بالـسوء، حتـى الذين تيسر لهم في الخفاء، أن يقرؤوه كانوا ينكصون عن الاعتراف بهذه الحقيقة.

والمعروف أنه كان يحمل لقباً فرنسياً نبيلاً (ماركيز)، إذ كان يرتبط عن طريق أمه بكل ما كانت تحتضنه مملكة لويس الخامس عشر من عظمة. وكان يتعلق عن طريق أبيه بكل ما للريف من تميز وكبرياء، ولكنه خرج على ناموس هذا الميراث بفسقه، وجرائمه، فقضى في السجن أكثر من ثلاثين عاماً، والإحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته قضاها في مصحة للمجانين، بطلب من أولاده. لم يكن مجنوناً، وإنما أودعوه هذه المصحة تلافياً لفضائحه التي كان لا يتردد في ارتكابها. وعندما مات مسحوه من شجرة النسب، ورفض ولده أن يرث اسمه أو لقبه النبيل من بعده.

بعض أعماله الأدبية، مثل (جوستين)، و(جولييت) نشرت خفية في حياته، إذ كانوا يمنعونها ويمنعون قراءتها. وأعماله لم يتم لها النشر الرسمي إلا في القرن العشرين في النصف الأخير منه.

أبوللينير الشاعر المشهور الذي أخذ إلى حدود اللامحدود الشعر الفرنسي، بضربة واحدة، عندما أصدر في بداية هذا القرن ديوانه: (الكحول) l,alcool متأثراً عن طريق صديقه بيكاسو، ربما بأهم مدارس الرسم التكعيبية الحديثة. هذا الشاعر غامر عام 1909، فأخذ على عاتقه أن يقدم للناس (عينة) من أدب ساد، فاضطر -على الرغم من كل شيء- إلى (تخفيض) طعم تلك العينة وروائحها، وإلا فإن السجن ينتظره هو الآخر.

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر اصطلاح السادية، ومؤخراً

جداً ظهرت مؤلفات ساد ورواياته. ولهذا فقد أدهشني وأنا بصدد كتابة هذا الموضوع ما قاله مجدي وهبة، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة القاهرة في كتابه (مصطلحات الأدب) من أن السادية: (فلسفة مادية حسية تميز بها كثير من أدباء القرن الثامن عشر في فرنسا). فمن هم هؤلاء الأدباء (الكثيرون) الذين تأثروا بساد، وبالفلسفة السادية في القرن الثامن عشر، أي القرن الذي عاش فيه ساد نفسه؟! لا أحد مطلقاً؛ لأنه لم يتيسر للناس قراءة ساد آنذاك، وإنما بعد موته فقط، أي في بداية القرن التاسع عشر، بدأ بعض الكتاب والشعراء، كما يؤكد دارسو الماركيز ساد، يقرؤون ما يسقط في أيديهم من أعماله الممنوعة، ويتأثرون بها أحياناً، ومن هؤلاء أكثر كتّاب (الرواية السوداء)، مثل بلزاك، وبعض الشعراء أيضاً، مثل (بروبل) الذي قال عنه أندريه بروتون: "إنه سيد الدعابة السوداء، والوحيد الذي تنطبق عليه صفة المسعور". هذا الشاعر كتب رواية دعاها (بوتيفار)، وفيها كان يبدو للنقاد أنه خير من قرأ أعمال ساد.

وسانت – بوف الذي بلغ ذروة مجده النقدي وهو ما يزال في سن العشرين، صديق هوغو وزميله في جماعة (سيناكل) التي كانت تناضل ضد الكلاسيكية الجديدة، دفاعاً عن الرومانسية التي كانت تشغل مكاناً فسيحاً يومها. سانت – بوف هذا كتب يوماً يقول: "أستطيع أن أؤكد أن بيرون وساد كانا الملهمين الحقيقيين لمحدثينا. فقط الفرق بين بيرون وساد، هو أن الأول ظاهر معلن لكل الناس، أما الثاني فقد كان خفياً مستتراً". ويقصد بالمحدثين هنا أصحاب الرومانتيكية يومها. وما من شك أن بيرون الشاعر

الإنجليزي، الذي كان يُعرف بأنه خير من كان يجسد تعاسة ذلك القرن؛ قد ترك آثاراً واضحة على هؤلاء. وساد هو الآخر، كما يذكر بعض الباحثين، كان له تأثير على بعضهم، ممن توفر لهم أن يقرؤوه، ولكن كل ذلك لم يتم إلا في القرن التاسع عشر، وليس الثامن عشر كما ذكر الأستاذ مجدي وهبة.

الفريد دوموسيه، كما يذكر بعض الباحثين، كان أحد المتأثرين بساد، وخاصة في (حكايات من أسبانيا وإيطاليا)، التي تميزت بطعم واضح لرومانتيكية عدوانية عنيفة. ومسرحيات دو موسيه فيها شيء من هذا التأثير، وتعد المساهمة الأكثر أصالة، والأكثر خلوداً في الرومانتيكية الفرنسية في الفن الدرامي بالذات.

إعادة اكتشاف ساد، ونشر أعماله التي نجت من الحرق والتدمير، ومحاولة دراستها وتبويبها في تاريخ الفكر الفرنسي؛ لا تعني أن هناك ميلاداً جديداً لرومانتيكية جديدة، بل تعني أن هناك عثوراً فريداً للفكر الحديث على بعض ملامح الفلسفة السادية في أخلاق القرن الحالي، وفي نفسية إنسانه المعاصر. فلا غرابة أن تجد اليوم من يعيد (تقويم) ساد بصفته كاتباً و(فيلسوفاً) فيقول: إن كتبه انعكاسات لفلسفة الحرية، وتحرير الإنسان. فـ"الرغبات" والشهوات في القرن الثامن عشر لم يكن لها سمعة حسنة، ولهذا طاردوا ساد، وسجنوه، وكتموا أنفاسه، أما الآن وقد أصبحت الرغبات والشهوات، هي القاعدة الأساسية لسلوك الإنسان وتفكيره، فلا حرج عندهم أبداً في الترديد بأن "ساد ذهنية حرة لم يسبق لها مثيل"، وأنه كان يعطي للأدب الفرنسي ما كان ينقصه. والذي كان ينقصه، هو الرواية البيكارسكية التي تعني بتصوير حياة التشرد

والمغامرة. و(جولييت) التي كتبها ساد، هي الرواية البيكارسكية التي "لم ينتج الأدب الفرنسي مثلها".

وحتى أسرة ساد التي محت اسمه من شجرة نسبها، تلافياً للعار؛ أصبح الآن بعض أفرادها شديدي الفخر بأنهم ينتمون إلى هذا الفيلسوف (الحر)، وخير من يقدم هذا الموقف الجديد: (أغزافييه دو ساد) أحد أحفاد ساد. وقد حاول هذا الحفيد أن يخرج كل ما كان في حوزته من رسائل جده وآثاره التي لم تنشر من قبل، وهو أيضاً الذي كتب مقدمة أحد الكتب التي صدرت عن ساد، التي ذكرناها أعلاه: "ساد اكتب اسمك: حرية" للكاتب قيشني. وفي هذه المقدمة يؤكد اعتزازه بساد، وبما خلفه من آثار، ويؤكد كذلك براءة جده من كل ما علق به من فضائح وجرائم، ويقول: إنه لم يكن سوى ضحية سائغة لعصره ولأسرته النبيلة المحافظة، ثم يعلن احتجاجه على مصطلح (السادية) الذي نُسب إلى ساد، ويقول: إنه مصطلح متعسف؛ لأن السادي هو الذي يعذب ويقتل ويسفك الدماء، وساد لم يقتل أحداً!

قد يكون رأي هذا الحفيد صحيحاً من حيث واقع سلوك جده، فساد – فعلاً – لم يقتل أحداً، ولكنه عذب واستلذ بالتعذيب، وسجنوه أكثر من مرة في أكثر من قضية تعذيب، بل ومحاولة قتل أيضاً، هذا فضلاً عن المصير المحتوم الذي كان ينتظر شخصياته في رواياته. فهذه الشخصيات دائماً تتعذب، ودائماً تتألم، وأحياناً تموت وتُقتل، وهذا هو الأكثر أهمية لدى مُقعدي الفلسفة السادية؛ لأن الكاتب عموماً له عالمه الخاص (الحقيقي). وهذا العالم الحقيقي للكاتب، هو العالم الذي ينشئه هو بتصوره وخياله. فالكاتب

لايستطيع أن يؤكد (وجوده) ما لم يتمكن من تبديل الأشياء التي تحيط به، وتلوينها، ولو -على الأقل- بنظرته إليها، يبدلها، ويلونها، حتى يتحول العالم (الطبيعي) الذي يشترك في معاينته كل الناس، إلى نوع من (الضد) المثير للسخرية أو الحزن أحياناً.

اسم (ساد) الذي كان يستعاذ منه كما يستعاذ من عفاريت الأقبية المهجورة. هذا الاسم الذي كان يرفق (بكميات) وافرة من اللعنات؛ أصبح الناس يجدون فيه الهوية الحقيقية لواقعهم ومصيرهم اليوم، أي أنه أصبح يشكل منعطفاً جيداً في الفكر الحديث كله.

اليوم في مجتمع المال والقسوة والرصاص والعيوب، كل العيوب، أصبح المنطق الذي يحكم العلاقة ويسيرها، هو من منطق ساد، ولهذا أعيد اكتشافه، ولهذا أيضاً أصبح (رائداً).

أنا مدين في هذه المقاربة لقراءات مختلفة ومتعددة حول ساد، وتاريخه، وإعادة اكتشافه.

ساعد بن سعد:

التمرد.. على القطيع

قصة صاحب هذه الجائزة* مع التعليم قصة مثيرة!.. مليئة بالمعاناة، والتصميم، وقوة الإرادة. وفي ذهني أمثلة لأبناء القرى والبادية ممن شقوا طريقهم في سلم التعليم، متغلبين على عدد ليس قليل من العقبات والصعوبات والفقر والجوع، لكن ليس في ذهني مثال واحد آخر لما واجهه أ.د. ساعد بن سعد العرابي الحارثي من مشكلات في طريقه الشاق المضني نحو العلم. لم يكن من بين الصعوبات والعقبات التي واجهت غيره أن أهلهم كانوا يعارضون تماماً تعليمهم، لا، بل إنهم يقاومونه بكل وسائلهم المتاحة، كالمراقبة والترصد والقمع. لم يكن بإمكان جيل "الأهل" في تلك الأيام أن يقدم التعليم على مهمات أخرى تنتظر طفل السابعة، أو العاشرة، أو الخامسة عشرة. (لا نعلم متى ولد د. ساعد، وليس له عيد ميلاد!)، فقد كانت المهمة التي تنتظر ساعد، هي رعي الأغنام،

* د. ساعد يقدم جائزة سنوية باسمه للمتفوقين في وادي "المريفق" ببني الحارث.

ولكن هذا الطفل الشقي كان المتمرد على إرادة الأهل، فهو يخفي كتبه المدرسية بين ركام من الأحجار في إحدى جنبات "الوادي"* قبل أن تغرق عين الشمس في البحر، وتختفي هي الأخرى. يؤوب ساعد إلى المنزل للنوم، بعد عناء يوم طويل من الكر والفر في الجبال والأودية، يحرس أغنامه من الذئب أو الضياع. كان ساعد عندما يعود للمنزل، يتظاهر بالنوم، بينما يتسلل خلسة في الظلام إلى المعلم الوحيد في القرية لأخذ واجبات الغد. استمرت الحال هكذا، إلى أن وصل إلى الصف السادس الابتدائي، وهنا كان لابد أن يفتضح أمره، وينكشف سرّه الذي خبأه لسنوات، إذْ إن الشهادة الابتدائية لا تمنح يومها في "المريفق"، ولابد من الرحيل إلى "ميسان"* لأداء الامتحانات على الأقل. وهاهم الأهل أمام مفاجأة ذلك العصيان الجميل، فساعد سيغادر مرتحلاً إلى قرية أخرى، باحثاً عن هدفه الذي مازال بعيداً.. بعيد جداً!..

وعلى الأهل من الآن أن يبحثوا لأغنامهم عن راعٍ آخر من الهند، أو السند، أو يبيعوها، أو يأكلوها، أو يخللوها.كانت رحلة "ميسان" تلك هي رحلة (اللاعودة)، كانت مغادرة نهائية للحجارة، والعشب، والقطيع، والمطر الذي يأتي ولا يأتي. والمحطة التي بعد "ميسان"، هي أقصى شرق البلاد (الدمام)، حيث بزغ شباب ساعد هناك، تحت وطأة نأي الأهل، وضيق اليد، و"الشحططه"، و"المرمطة"، والطموح الذي لم يعد يعرف الحدود. عمل ساعد في المنطقة الشرقية في كل شيء، لكنه لم ينس مطلقاً أن يتعلم!..

---

* وادي المريفق/ بني الحارث

** وادي ميسان من مرتفعات بني الحارث، وهو مقر أهم الإدارات الحكومية.

جاع، وسهر، ومرض، وبكى ولم ينس أبداً أن يتعلم، لجأ إلى التعليم الليلي. العمل المضني في النهار، والتعليم في الليل. ساعات طويلة يستغرقها تعليمه الليلي، وتحول الموظف الصغير في إدارة الجنسية (الأحوال المدنية) في المدينة اليقظة التي تقع على حدود أرامكو العملاقة!.. أقول: تحول الموظف الصغير بين عشية وضحاها إلى فسحة أمل للأهل كلهم، فهم لم يعودوا غاضبين، وأيضاً للقرية كلها، فهي تحن إليه أشد الحنين، ولنا كلنا، نحن الجيل الذي جاء بعده، نريد أن نفعل مثل الذي فعل.كنا – مخطئين- نتصوره مديراً كبيراً في إدارة الجنسية. هذا كل ما يمكن أن يصل إليه ساعد، لكنه فاجأنا المرة الثانية بما لم يكن في الحسبان، فليل ساعد ليل قرّ، وريحه ريح صرّ، وهو تعلم من ذلك الليل أكثر مما كان يقرأ في كتاب المدرسة. لقد تعلم المغامرة، والتحدي، واختراق المجهول. لم يكن في ذهن ساعد أن يكون "مديراً" أو "وزيراً"، بل كان في ذهنه أن يواصل مشوار العلم، فلقد أخذ على نفسه - فيما يبدو- عهداً بألا ينسى في أي لحظة أن يتعلم. ابتعد عنا أكثر هذه المرة، ولكن باتجاه الغرب، بل أقصى الغرب، النمسا، أو فيينا، أو مدينة الأنس والكونسترو والعلم!..

أجل، فليس للطب بديل. دفعة واحدة ينتقل ساعد من الحجارة، والصخور، والأودية، والشعاب، والقطيع، والمطر الذي لم يعد يأتي.. إلى واحدة من أعرق الجامعات الأوروبية. من سعيد الشكيلي المعلم العماني البسيط في دار المشايخ، إلى كلية الطب في العاصمة النمساوية، ثم إلى كليات طب أخرى في ألمانيا، ثم جاءت درجة الدكتوراه، ثم درجة الأستاذية في أمراض القلب. لقد أحرق

ساعد المراحل كلها، وصقر ويزيد والأهل ينتظرون، ونحن ننتظر أيضاً نهايات المغامرات الجميلة لرجل لا يتعب، ولا ينسى ولو لمرة واحدة أن يتعلم!..

أحسب أن أول خطوة لساعد، بعد عودته من النمسا وألمانيا إلى القرية، هي أنه تفقد مواقع القطيع والصخور والأودية والشعاب، وهو لاشك، تبادل التحايا مع "أحفاد" الذئاب الذين كان يشتهون لحمه الغض، يوم كان راعياً، أكثر مما يشتهون لحم غنمه، وهو حتماً تجاذب أطراف الحديث مع الحجارة، التي كان يواري خلفها طموحه، وأحلامه، وكتبه المدرسية. شخص كهذا الشخص، كان هو الأحرى بتقدير العلم والتعليم، فهو يرى نفسه في أبناء قريته الصغار، ولم يكن أمامه لحثهم على التعلُّم، إلاّ أن يضع لهم جائزة علمية باسمه، كأنه يحدد لهم ملامح المستقبل!.. مستقبل العلم في زمن لم يعد يحتفي بغير العلم. فالعلم هو "البطل" في الملحمة الطويلة للرقي والتقدم.

وكل أبناء وادي المريفق الساكن المستكين لهم قصصهم الصغيرة والكبيرة مع أحجاره أو أشجاره، مع لياليه القارسة، أو نهاراته المتوقدة. كلهم سيجعلون من ساعد نموذجهم في طريق التعليم، وستكون جائزته شاهداً له، وشاهداً عليهم، فإما أن يمضوا كما مضى، وإلاّ فإنهم سيكونون من الخاسرين!

سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز:
مواهب أمير

تشرفت بالعمل – تطوعاً- إلى جانب الأمير سلطان بن سلمان في خدمة المعاقين، وتحت إدارته، لأكثر من سبع سنوات متواصلة، وقد كان سموه خلالها شعلة من النشاط والحيوية والتفاني والعمل الدؤوب المتواصل؛ بل لعل مما تعلمناه منه، أن الانتساب إلى عضوية مجلس الإدارة، أو إلى أي لجنة من لجان جمعية الأطفال المعاقين ليس أبداً انتساباً شرفياً، كما هو المعتاد والمتداول والمعروف في الفعاليات الاجتماعية أو الإنسانية المماثلة، بل هو على الأصح، وكما يفهمه سلطان بن سلمان، بذل، وعطاء، وإنتاج، وعمل لا ينقطع، وهو يقول ذلك صراحة لكل تشكيل جديد للمجلس أو لبعض اللجان، بل أنه يطلب بوضوح شديد، ممن لا تمكنه ظروفه من تقديم ما هو مطلوب منه، أن يتنحى عن مكانه ليترك المجال لغيره، ممن لديه الاستعداد بأن يتجاوب مع تطلعات الجمعية إليه. وهكذا وربما لأول مرة، وجد العاملون مع الأمير الشاب أنهم أمام مفهوم مختلف لدور مجالس الإدارة أو اللجان المكلفة بمهمات خاصة، إذ إن المفهوم المعروف والمتداول في كثير من الأنشطة

المؤسسية الأخرى، ظل يعني أن الأداء في مجالس تلك الأنشطة ولجانها يقتصر في الغالب على الجانب الشرفي، أو الجانب المتعلق برسم بعض السياسات العامة، دون مباشرة حقيقية وفعلية للأعمال والإنجازات نفسها في جانبها التنفيذي اليومي. وأنا أعرف أن بعض الإخوان الذين عملوا إلى جانب الأمير، اعتذروا فعلاً عن مواصلة العمل أو الاستمرار فيه، بعد أن وجدوا أن العمل مع الأمير النشط يختلف - مثابرة وتفانياً- عن غيره. وقد تركوا العمل لا متذمرين ولا ممتعضين، بل تركوه مكبرين في هذا الرجل ما يقدمه، ومقدرين تمام التقدير ما يبذله، من وقت ومن جهد ومن قلق دائم، فهو يكاد يقصر كل جهوده على عمله في الجمعية بالذات، وهذا يحدث دون كلل أو ملل أو إعياء.

لقد عَلَّم سلطان بن سلمان الذين بقوا إلى جانبه قواعد العمل التطوعي، ولقنهم أصوله، وجعلهم يتذوقون قيمه الروحية والخلقية الغنية الثرية، فكل من حوله في المجلس أو لجان الجمعية المختلفة المتعددة، هم من العاملين المثابرين بلا أي مقابل مادي من أي نوع، فهم يغنيهم عن المقابل المادي، الامتلاء الوجداني الذي يحسونه ويشعرون به، إذ يؤدون واجبهم في حقل خصب من حقول العمل الإنساني بمعطياته الروحية والقيمية.

لا بد أننا نستطيع أن نقول: إن سلطان بن سلمان قد نشر في مجتمعه كله، من خلال ما يفعله ويؤصل له في الجمعية؛ وعياً جديداً بالعمل التطوعي من حيث هو قيمة، ومن حيث هو واجب وضريبة إنسانية وخلقية، ففي الوقت الذي تتفاقم فيه فرص المكتسبات المادية، استطاع الأمير سلطان أن يفتح نافذة بهية تطل على موسم

مختلف من مواسم العطاء الروحي والإنساني، وبعد أن كان العمل التطوعي يشكو عموماً من الخمول أو الجمود -وعياً وممارسة- استطاع الأمير سلطان أن يجعل منه هاجساً حياً في وجدان الناس. وهناك اليوم أعداد كبيرة ممن هم على قائمة الانتظار، يبحثون عن تهيؤ الفرصة كي يسهموا بما يمكن أن يسهموا به في خدمة المعاقين.

والعمل التطوعي بطبيعة الحال شيء آخر غير التبرعات أو تقديم المساعدات المالية. العمل التطوعي هو البذل من الجهد والوقت للمشاركة في البناء والتشييد، أو هو على الأقل تقديم خدمة ما في نشاط ما اجتماعي أو إنساني. وهذه هي ميزة المشاركات التطوعية التي لا تفرق بحال من الأحوال بين الموسرين وغير الموسرين من محبي الخير وجنوده المخلصين.

*****

لما جاء سلطان بن سلمان إلى جمعية الأطفال المعاقين (رئيساً لمجلس الإدارة)، كانت الجمعية قائمة فعلاً، وكانت تستقبل المستفيدين من خدماتها، وقد تم ذلك بفضل جهود الرجال المخلصين الذين سبقوا سلطان بن سلمان، والذين كان لهم الفضل في انبثاق الفكرة، وفي التأسيس. وكثيرون ظنوا أن الأمير، رئيس مجلس الإدارة الجديدة، سيكتفي بأن يمنح للجمعية وهج اسمه، ووهج مكانته الاجتماعية والسياسية، وسيقتصر في علاقته بهذه المؤسسة الإنسانية على ممارسة الدور المعروف، أو المهمات المنتظرة لمجالس الإدارة في المؤسسات والمنشآت الأخرى، أي التخطيط ورسم السياسات العامة، لكن سلطان بن سلمان -على

خلاف ما ظن الجميع- فاجأنا بتصوره الخاص للدور الذي آل على نفسه أن يؤديه في هذا الحقل الإنساني، الذي يحتاج بالفعل لمن هو في حجمه ومكانته. فقد حوّل نفسه ومن معه في مجلس الإدارة - كما ذكرنا سابقاً- إلى عاملين تنفيذيين متواجدين في كل آليات الإنجاز، فهو نفسه يرأس لجاناً تدير أعمالاً تنفيذية، كما أنه وزَّع أعضاء المجلس كلهم في لجان مختلفة تتولى أعمالاً تنفيذية هي الأخرى، وهنا تأكد أكثر فأكثر الدور الخاص الذي قرر أن يؤديه سلطان بن سلمان في الجمعية. فقد أراد أن يضيف إلى ما بناه سابقوه من إنجازات محسوسة وملموسة وعاجلة، وتطلعاته الشخصية لها. وأبرز ما يبين المدى البعيد لتلك الطموحات وتلك التطلعات؛ هو ما عمل الأمير سلطان على تحقيقه منذ أن تولى مسؤولياته، ونعني: الانتشار الرائد لخدمات الجمعية في أنحاء أخرى من البلاد، فبعد أن كانت تلك الخدمات تقتصر على مجتمع الرياض وحده، جرى العمل على إنشاء فروع للجمعية في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقصيم، وغيرها من مناطق السعودية الأخرى. وكل هذه الفروع تتطلب مبالغ طائلة من المال للإنشاء، وتتطلب مبالغ أخرى للتشغيل والصيانة، وفرع واحد فقط من فروع الجمعية يكفي أن نعلم أن تكاليفه التقديرية للإنشاء بلغت حوالي 140 مليون ريال، وهو فرع مدينة جدة.

ولكي يواجه الأمير هذه الالتزامات المالية الباهظة المستجيبة لتطلعاته الطموحة، لم يكن متاحاً أمامه سوى المورد الرئيس للجمعية، وهو التبرعات والهبات. ونظراً للظروف الجديدة، يحتاج إلى أمرين: الأول: وهو شحذ الهمة لرفع دخل الجمعية من هذا

المصدر نفسه. والثاني: هو التفكير المنهجي العملي لتوفير مصادر تمويـل أخـرى ثابتـة ومـستمرة ومتناميـة للمتطلبـات المتفاقمـة للمستقبل.

فأما فيما يتعلق بالأمر الأول، فقد استخدم سلطان بن سلمان كل نفوذه، وكل ما يتمتع به من وهج، داخل الفعاليات الاقتصادية والاجتماعيـة المختلفـة؛ ليحـصل فـي النتيجـة علـى مـا لا يمكـن أن يحـصل عليـه غيـره مـن التبرعـات والهبـات والأوقـاف والـصدقات الجارية. وأما فيما يتصل بالأمر الثاني، فقد حشد الأمير حوله عدداً مـن المتخصـصين، مـن ذوي العلـم والخبـرة فـي المـال والاقتـصاد والاستثمار، سواء من اللجنة المالية التي يرأسها هو شخصياً أو من خارجهـا، ليـشرع الجميـع فـي وضـع الـسياسات الماليـة، والخطـط الاسـتثمارية الناجعـة لتنميـة مـوارد الجمعيـة، بحيـث تـستطيع فـي المستقبل مع سلطان بن سلمان أو بدونه، أن تواجه التزاماتها بما ينبغـي مـن القـوة والـصمود والطمـوح، فـلا يكفـي أن تقـام الفـروع والمنشآت الجديدة اليوم، ثم تترك غداً أو بعد غد للريح والأعاصير والأقـدار الغامـضة. لقـد كانـت هـذه هـي فلـسفة سـلطان بـن سـلمان الرائـدة لتنميـة مـوارد الجمعيـة، وكـان هـذا هـو تـصوره لمـستقبلها الواثق بحول الله وقوته. وهي فلسفة تنم عن عقل وعلم وذكاء، وهو تصور يعكس مخزوناً مفرحاً من الحكمة وبعد النظر.

*****

وفضلاً عـن أن سـلطان بـن سـلمان أصَّل بممارسـته وتطبيقاتـه لقـيم العمـل التطـوعي فـي عمومـه، فقـد عمـل مـن خـلال الأفكـار والتصورات التي وطَّدها في الجمعية على نشر وعي منصف بالإعاقة،

وبـدور المعـاقين فـي مجـتمعهم، وانطلـق فـي ذلـك مـن اسـتراتيجية واضحة في هذا الخصوص ترتكز على فكرة محورية مهمة، وهي أن الإعاقة ليست تشوهاً أو عيباً يمكن له بأي حال أن ينفي المعاق، أو يـصادر إنـسانيته. فالمعـاق عنـصر فعّـال فـي مجتمعـه، وفـي حركـة التنمية في بلاده. وقد عمل الأمير نفسه على رسم الأطر العلمية لسياسة إعلامية داخل الجمعية وخارجها، تهدف أول ما تهدف إلى بلورة وعي اجتماعي منهجي عام بهذه الفكرة. وقد انعكس ذلك على أداء مجلة "الخطوة"، وأيضاً على جميع المطبوعات الأخرى التي تـصدرها الجمعيـة، وانعكس أيـضاً بالتـالي علـى جميـع الأفكـار التـي تتناول موضوع الإعاقة والمعاقين في الوسط الثقافي والإعلامي في البلاد كلها. وقد عزز سموه هذه الفكرة المحورية بما خلص إليه المـؤتمر الأول للمعـاقين مـن توصـيات، وهـو المـؤتمر الـذي أقامتـه الجمعيـة تحـت رعايـة خـادم الحـرمين الـشريفين، الملـك فهـد بـن عبدالعزيز - رحمه الله-.

فقـد كـوّن الأميـر لجنـة إعلاميـة خاصـة برئاسـة وكيـل وزارة الإعـلام للـشؤون الإعلاميـة؛ لتفعيـل الأفكـار التـي تـضمنتها توصـيات المؤتمر فيما يتعلق بجانب الإعلام عن الإعاقة والمعاقين، ومثل ذلك فعل بالنسبة لتوصيات المؤتمر المتعلقة بجوانب أخرى غير الإعلام، بعد أن استصدر توجيهاً سامياً بذلك. ويعيدنا هذا إلى ما سبق أن قلناه عن فاعلية سلطان بن سلمان الذي لا يؤمن بالأفكار العملية جامـدة فـوق الـورق، بـل يـؤمن بهـا وهـي تتحـرك، وتنمـو، وتتفاعـل وتمشي على الأرض في شكل ممارسات وتطبيقات يختبرها ويجيز جدواها الواقع والناس. ويفضي هذا الأمر أيضاً إلى نتيجة أخرى من

نتائج أفكار الأمير سلطان وإنجازاته في الجمعية، فالتوصيات التي أشرنا إليها آنفاً، عدا تطبيقاتها العملية، وتحويل معظمها إلى ممارسات؛ اقتضت قيام "نظام للمعاقين" في المملكة يضمن حقوقهم، ويكفل لهم دورهم وموقعهم في خريطة مجتمعهم.

وفضلاً عن هذا الفكر، وهذه المنهجية التنظيمية والتطبيقية للمعاقين عموماً في خارج الجمعية، فقد عمل الأمير سلطان على خلق اللوائح التنظيمية والتنفيذية في داخل الجمعية نفسها، وقد استقطب إلى الجمعية الكوادر المؤهلة ذات الدرجة العالية في الخبرة والممارسة، كما أوجد تنظيماً مستقلاً للابتعاث والتدريب؛ لرفع مستوى الخبرة والتأهيل. ومدّ جسوراً متينة من العلاقات العلمية وتبادل الخبرة بين الجمعية وعدد من الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات والمعاهد المتخصصة والشخصيات العلمية المرموقة في داخل المملكة وخارجها.

وإضافة إلى هذا المستوى من العلاقات الذي تحكمه قواعده وضوابطه، والذي يكشف عن مستوى من المستويات الراقية للمنهجية التخطيطية والتنفيذية، وكذا الإدارية بوجه عام؛ فالمتابع لحركة الجمعية وجهاز التفكير فيها، يلاحظ أن سلطان بن سلمان قد استقطب لخلايا العمل والتفكير من حوله مجموعات من النخب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الذين يتفانون – تطوعاً- لخدمة الجمعية، وللاستجابة لتطلعات وأفكار أميرهم الطموح.

لقد بسط سلطان بن سلمان جناح الجمعية، ولأول مرة في بلادنا، ليشمل مجالاً في غاية الأهمية والتفوق، وهو مجال البحث العلمي في ميدان الإعاقة نفسها، فأنشأ مركز الأمير سلمان الذي

قدم له والده الفذّ -حفظه الله- تبرعات سخية منذ التأسيس، كما أوقف له مبلغاً وقدره عشرة ملايين ريال. والمركز الآن يقدم خدمات علمية جليلة في ميدان كان يحتاج بالفعل إلى مؤسسة تعنى به وتكرّس له.

ولتحفيز الاهتمام بالإعاقة، وبالبحث العلمي، أوجد سلطان بن سلمان جائزة الجمعية للخدمة الإنسانية، وجائزة البحث العلمي، وجائزة سموه لتحفيظ القرآن الكريم.

وهناك أشياء أخرى كثيرة أنجزها الأمير سلطان للإعاقة وللمعاقين ليس أهونها "نظام كفالة المعاق".

*****

لقد أتاح لي سموه العديد من الفرص للاقتراب منه، ولمعرفة مواهبه وإمكاناته.

وقد عرفت عنه أنه لا يركن فقط إلى ذكائه على وفرته، ولا يعتمد فقط على مواهبه الشخصية في التحليل واستخلاص النتائج، على الرغم من ثراء تلك المواهب وألمعيتها. فسلطان بن سلمان، رجل يؤمن بالحوار، وتلاقح الأفكار وتثاقفها. إنه يستمع إلى من حوله ممن يمحضهم ثقته، فيناقشهم، يتفق معهم حيناً، ويختلف معهم حيناً آخر. والتعويل دائماً على الرأي الأكثر صواباً أو الأكثر سداداً، أياً كان مصدر ذلك الرأي!

هذا المنهج في الإدارة، يعرفه عن سلطان بن سلمان كل من عمل معه. وهو منهج يشترط فيمن يمارسه أن يكون على قدر كبير من الثقة في النفس، وأن يكون قد تربى على مبدأ احترام الآخرين.

وأشـهد أن سـموه كـان مثـالاً فـي ثقتـه بنفـسه، وكـان أنموذجـاً فـي احترامه لمن حوله؛ ولهذا فقد عمل الجميع معه بارتياح كبير، فكانوا يعطونه من أنفسهم كل ما هو متاح: إخلاصاً، ونقاءً، ووفاءً.

وعنـدما أُعلـن عـن تعيـين سـموه أمينـاً عامـاً للهيئـة العامـة للسياحة، أحس كل من يعرفه بارتياح شديد لهذا الاختيار. فالتجربة السياحية في شكلها المؤسسي تجربة جديدة عندنا، وتحتاج إلى إنشاء بنية تنظيمية وإدارية لم يسبق لنا بها عهد، ولا بد أن ترمي إلى بلورة أهداف واضحة لصناعة من نوع خاص، تحيط بها العديد مـن التطلعـات والتحـديات، ونحـسب أن سـلطان بـن سـلمان بعقلـه وعلمـه وثقافتـه ومواهبـه، هـو الاختيـار الموفـق لحمـل هـذا العـبء الضخم. وقد أعطاه من حيويته ونشاطه ومثابرته ما يستحق من الجهد والإبداع. ويدرك سلطان بن سلمان أهمية الهيئة العامة التي تشرف على هذه الصناعة، وأهمية ما يمكن أن تقدمه له ولجهازه من تعضيد ومؤازرة، كما أنه يدرك أن السياحة ما تفتأ تلح بأهميتها وبمردوداتها الثقافية والاقتصادية على كل الدول المؤهلة بإمكاناتها التاريخية والطبيعية، للأخذ بهذه الصناعة، ولا نستثني من ذلك حتى الدول الأكثر ثراء في هذا العالم. فالسياحة في أسبانيا مصدر أول للدخل القومي، إذ يرتاد السواحل الأسبانية في العام الواحد أكثر من سبعين مليون سائح. والسياحة في فرنسا هي الصناعة الأولى التي تتفوق في مردودها المادي على جميع الصناعات الفرنسية الأخرى، ابتداءً من صناعة الطائرات، وإنتهاءً بصناعة العطور وأدوات التجميل. ويرتاد فرنسا سنوياً حوالي خمسة وسبعين مليون سائح!

إن سلطان بن سلمان وكل من له علاقة بالسياحة، يدركون جميعاً أن السياحة في بلادنا لها شروطها التي تجعلها مختلفة عن السياحة في فرنسا أو أسبانيا، أو أي مكان آخر في العالم. ومهما كان مردود الاستثمارات في السياحة مغرياً، فإن ذلك لن يؤثر بأي حال من الأحوال على صلابة تلك الشروط وقوتها.

وقد قال لنا سلطان بن سلمان في أول لقاء به بعد تعيينه أميناً عاماً للهيئة، بأن المردود المادي لم يثننا عن شروطنا تلك في القديم، أي يوم أن كنا في حاجة إلى أي مصدر للدخل، وهو من باب أولى لن يثنينا عن التمسك بتلك الشروط اليوم، ونحن ولله الحمد على خير كثير من تعدد الموارد والمصادر.

إن سلطان بن سلمان، لا يقصي من حساباته الأهداف الاستثمارية للسياحة، وهي كبيرة إن شاء الله، ولكنه لا يريد بأي حال أن يضعها في ميزان واحد مع القيم التي يؤمن بها مجتمعه، أو المبادئ التي تتشبث بها بلاده، وكأننا نحس بأنه أخذ في رسم صورة لسياحة تاريخية وثقافية وترفيهية نظيفة، تتلاءم معنا ومع موقعنا من تاريخ الحضارة الإسلامية في كل مفهوماتها.

لقد قال لنا سلطان بن سلمان أيضاً: إن دور الهيئة العامة للسياحة، هو دور المشرف الذي يُنمِّي الوعي بالسياحة وبأهدافها، ودور المخطط الذي يفتح المزيد من الفضاءات الممكنة للسياحة. أما الاستثمارات في هذا المجال، فهي للمؤسسات المتخصصة، سواء كانت حكومية أم أهلية أم مشتركة.

هذا نموذج من الأمراء السعوديين الذين عملت معهم، وعرفتهم عن قرب.

سلفادور دالي:
اللوحة السحرية

تقرأ نداءً كهذا: تعالوا شاركوا سلفادور دالي مشروعه!.. وهو إعادة بناء العالم، أو بتعبير آخر: إشادته من جديد!

وتدخل لتشارك ذلك المجنون آخر منتجاته الفنية. أنت الآن أمام واحد من أكبر عمالقة الفن الحديث وأغلاهم ثمناً، بل من أكثرهم إثارة.. وعبقرية!

أمامك على الجدار، على بعد حوالي ثلاثة أمتار أو أكثر قليلاً، من المكان الذي تقف فيه لوحة تظهر فيها "غالا" ملهمة دالي وحبيبته، عارية، وهي تنظر إلى البحر الأبيض المتوسط من النافذة، محاطة بسلسلة من المربعات والمستطيلات، وببعض من الألوان القاتمة الصارمة، والفاتحة الأقل صرامة، والمتماهية التي تبدو الأكثر رحابة وحرية.

أنت تنظر إلى "غالا" من الخلف، فهي تعطي وجهها للبحر، أما ظهرها فلك. مستغرقة أو غارقة في "المتوسط!".. إنها تصحو للتّو من النوم، وعليك أن تتصور أنت أن سلفادور دالي كان يجلس على "الصوفة" المقابلة للسرير، يشرب قهوته ويرسم، يرسم "غالا"

الراحلة هكذا في البعيد، عارية بالتأكيد، فهي تفعل كما تفعل الأسماك في "المتوسط" الممتد المتفاقم أمامها، أو كما تفعل الفراشات البيضاء في حديقة الفندق الذي تسكنه اليوم! على حافة البحر وعند إقدامه.

سأتحفظ بعد قليل على درجة الإبداع ومستوى الإيحاء فيما نشاهده الآن في هذه اللوحة. ولكن هذا كل ما يمكن أن يقوله بالمجمل شخص مثلي يزعم أحياناً أنه يتذوق الفن. ومتذوق الفن لا نطلب منه أن يكون محيطاً بخبايا "تكنيك" الرسام، وعبقريات ذلك التكنيك، أو أنه يكون ملماً تمام الإلمام بما هو عميق، أو بعيد المنال في غوايات الضوء واللون.

هذه اللوحة سموها: "اللوحة السحرية".. وهذا الاسم ليس له أي دخل في شاعرية اللوحة، أو في فتنتها. لقد سموها كذلك؛ لأن دالي يضطر في "التكنيك" الذي استخدمه أن يستعين بوسائل من خارج فضاء الرسم؛ للمساعدة على الكشف عن التعبير الثاني أو الثانوي للوحة، وقد نعد ذلك قراءة أخرى من القراءات المقترحة.. للوحة. كيف؟! سأشرح:

تقف أنت على بعد ثلاثة أمتار من اللوحة، وتتناول منظاراً صغيراً تضعه بين الإبهام والسبابة، وتمد ذراعك، وترفع يدك ليستقر المنظار أمام عينيك، ثم تنظر إلى اللوحة. هذا المنظار اسمه "داليوبتيك"، ونلاحظ أن الحروف الأولى من اسمه تمثل اسم "دالي" الرسام نفسه، أي أن المنظار منسوب إليه. وعندما تنظر إلى اللوحة من خلال المنظار تكون "المفاجأة". فاللوحةأو "غالا" التي تكتنف بين ذراعيها البحر المتوسط محاصرة بالمكعبات والألوان الصارمة والأقل صرامة، تتحول كلها إلى "بورتوريه" لواحد من

"أعظم" رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين، هو: إبراهام لنكلن، الرئيس السادس عشر في الفترة من 1861 إلى 1865، والذي اشتهر بمعارضته للحرب ضد المكسيك، ومعارضته لضم أراضيها بالقوة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (تكساس، ولوس أنجلوس) كما اشتهر بخطبه النارية ضد مشروع الرقيق، واُتهم دائماً بمحاباة "الزنوج".

وهذا ليس كل شيء فيما تشاهده في اللوحة من خلال المنظار، فأنت تستطيع أن توجه المنظار في كل اتجاه من اللوحة: فوق، تحت، يمين، شمال، ستشاهد لنكلن في كل مكان. ولو أدرت المنظار، بدت لك مجموعة بورتوريهات لنكلن كأنها ترقص. أما "غالا" التي تطل على البحر الأبيض المتوسط من النافذة، فتختفي تماماً. أنت لا تراها، ولا ترى المتوسط ، ولا ترى النافذة إلا عندما تزيح المنظار عن عينيك. رحلة في الحلم، ورحلة في التاريخ. تأخذك غالا إلى فضاء مفتوح بلا سقف، ولا موانع، ولا حواجز. فضاء لا يوقفه سوى التقاء الماء بالسماء. وما استغراق غالا أو غرقها في ذلك الفضاء، إلاّ دليل الرغبة في الثناء على الحرية والهيام بها. أما رحلة التاريخ فتتم عبر إبراهام لنكلن، الذي يرفض الرق والاستعباد، ويرفض الاستحواذ على الأشياء بالقوة، وربما لهذه الأسباب التقى إبراهام لنكلن وغالا في إلهام فني واحد.

أنا أخالف كثيراً من الناس رأيهم في هذه "اللوحة السحرية". فأنا أجد أنها قد فقدت الكثير من رؤاها الفنية وإيحاءاتها، ومن حمولتها الشعورية، وذلك بمجرد أن جعلوها "سحرية"، وبمجرد أن تدخلت فيها "التقنية"، أو الوسائل من خارج فضاء صناعة الرسم ذاتها (المنظار)، وبمجرد أن حُددت المسافة للوقوف من اللوحة،

فـالفن الملهـم المتـدفق بالمعـاني والقـراءات، هـو الـذي نتعامـل معـه بشكل مباشر ،ومن دون وسائط أخرى، أو مؤثرات، أو محددات.

صحيح أن ما تشاهده يظهر "المهارة" العالية في التكنيك عند دالي، ولكن اللوحة بتدخل المنظار لم تعد محضة أو ناصعة، أو شديدة الولاء لجنسها، وهكذا تقع "الدهشة" المتوخاة في العمل الفني ضحية للإكسسوارت المستخدمة في التعامل أو التعاطي معه، ويشتغل عقل المشاهد ووجدانه بالوسائل وليس بالمنتج، وقد يعزى التواصل الذي نحس به تجاه المنتج إلى براعة الوسيلة، وليس إلى متضمنات العمل أو معانيه أو موحياته، وهذه هي مشكلة هذه اللوحة. وهي مشكلة أفقدتها الكثير من قيمتها الفنية، وأضعفت رسالتها الثقافية، وكذلك متعها الروحية.

كم هي رائعة "غالا"، وهي تدير ظهرها للجميع، تجعلهم خلفها، يتجادلون ويتذاكرون، ربما حول قراءة ما تفكر فيه، وهي تسلم حواسها كلها للمتوسط . تقرأ على خد البحر كل أحلامها القادمة من أقصى المدى، أو أنها القابعة خلف المدى!

هذا هو إيحاء اللوحة الذي أدركه أو أحسه واحد، كان "يحلم" هو الآخر مثل "غالا"، ولكن ليس بالطريقة نفسها!!

إيحاء اللوحة أكثر من ذلك. أعفوني من شرحه لكلم؛ لأنني أن ارتكبت هذه الحماقة فسأشوهه. ولكن كواحد من الجمهور الذي قدَّم لهم دالي لوحته ليفرحوا بها، أو لينفروا منها، من حقي أن أقول: ليتها سلمت من اللعبة "السحرية"؛ لتبقى لوحة عامرة بالفن المحض!

وسلفادور دالي، المدهش المفاجئ دائماً، هو رائد المدرسة

السوريالية، وغالباً ما تصدم أعماله المشاهد، سواء بموضوعاتها أم تشكيلاتها، وهو مشهور بشخصيته غير المألوفة، وكذلك تصريحاته وتعليقاته الغريبة الصادمة هي الأخرى. وكل ما ينجز دالي يختلط فيه الجنون بالعبقرية، وهو حسب تقويم معاصريه، استثنائي في فوضاه، وإبداعه، ونرجسيته التي لا يحدها حدود!

ولد في كاتالونيا في أسبانيا، ويقول دالي عن ذلك: "لقد كنت بنظر والدي نصف شخص!! أو أنني بديل، "فوالده أطلق عليه اسم أخيه الذي كان قد مات قبل ثلاث سنوات من ولادة دالي، ثم يضيف: "لقد كانت روحي تعتصر ألماً وغضباً جراء النظرات الحادة التي تثقبني بحثاً عن الآخر، الذي كان قد غاب عن الوجود"، وربما كان هذا أحد الأسباب التي فجَّرت عبقرية دالي، وبالتالي فجَّرت فيه الزخم الهائل للاعتداد بالنفس، أو الغرور في أحيان كثيرة، وكانت هذه طريقته للتعبير عن رفضه أن يكون "نصف شخص"، أو يكون "بديلاً" لآخر غاب عن الوجود.

كان دالي يهتم بمطالعة نيتشه، وفولتير، وكانط، وسبينوزا، واهتم كذلك بأعمال ديكارت، واستند إليه في إنتاج عدة لوحات رائعة. وبعد أن تعرف على كتابات نيتشه، وبالذات "هكذا تحدث زرادشت "،عمد إلى إطالة شاربه ليكون مثل نيتشه، وظل محتفظاً بهذا الشارب إلى نهاية حياته. كما اشتهر بعصاه التي يستند إليها متشبهاً بالنبلاء، (وهو بالمناسبة من أسرة ثرية)، وقد رافقته هذه العصا في باقي حياته، وقد استخدمها كموضوع مسيطر في معظم لوحاته.

تعرف دالي على بابلو بيكاسو رائد التكعيبية، كما تعرف على الشاعر الفرنسي لويس أراغون، ومن ثم على أندريه بروتون،

وثلاثتهم من رواد السوريالية الحديثة، ولكنه بشهادة الكثيرين من معاصريه، تفوق عليهم جميعاً، وهو أحد الموقعين على "البيان الأول" الذي يعد الرسالة التأسيسية للسوريالية.

أما غالا (زوجته)، فهي فتاة روسية جاءت إلى باريس، وهي لم تتجاوز التاسعة عشر من عمرها، وقد التقت الشاعر بول إيلوار وتزوجت منه، إلى أن وقعت في غرام الفنان ماكس أرنست، ثم ارتبطت بعد ذلك حياة غالا بحياة دالي، وكانت تكبره بأكثر من عشر سنوات، وظهر تأثيرها الكبير عليه، وعلى أعماله الفنية، إلى درجة أن دالي كان يوقع على بعض لوحاته باسمه، واسم "غالا" معاً، وكان يقول: "إن كل رسام جيد يريد أن يكون مبدعاً وينجز لوحات رائعة، عليه أن يتزوج زوجتي!!". وقد يكون ارتباطه الشديد بـ"غالا" نتيجة فقده والدته وعمره 16 عاماً، وقد قال: إن موتها كان بالنسبة له "الصدمة الأعظم التي تعرض لها في حياته".

سلفادور دالي الذي وضع في هذه اللوحة غالا التي تتأمل المتوسط من نافذة غرفتها، كما وضع في نسختها الأخرى، أو صيغتها الثانية إبراهام لنكلن، الذي عرف بمناهضته للقوة المستبدة والعبودية؛ هو نفسه الذي يؤيد فرانكو المستبد في أسبانيا، ويؤيد هتلر الذي كان موضوعاً لبعض لوحاته؛ مما دفع السورياليين إلى فصله تماماً من الحركة السوريالية، هذا بالإضافة إلى ولعه الشديد بالمال. لكن دالي رد على الذين زعموا فصله بقوله: "ليس بإمكانكم طردي أو فصلي، فالسوريالية هي أنا".

حياة دالي كلها إثارة، ودهشة، وجنون، وعبقرية، وتناقضات، وفوضى!.. وهذا هو بالضبط ما كان يريده، كان يريد إعادة اختراع العالم بشروطه هو!.. وليس بشروطنا نحن!

سلمان بن عبدالعزيز:

رجل دولة .. و"عمنا" الذي ظل معنا وحولنا

كان لقائي الأول بالأمير سلمان بن عبدالعزيز في باريس، في الثمانينيات. كنت تلميذاً في جامعة السوربون، وكان هو أمير الرياض، وقرة أعين أهلها، وكان رجل الدولة، وصديق الثقافة والمثقفين.

التقيت الأمير سلمان في باريس لأنني كنت، وقت الدراسة، أعمل أيضاً مديراً لمكتب صحيفة الرياض (مؤسسة اليمامة الصحفية) في باريس، ولأنني يومها كنت كذلك كاتباً، وقبل مجيئي إلى باريس كنت رئيساً للقسم الثقافي في الصحيفة نفسها (صحيفة الرياض).. كنا دائماً البعيدين عنه، القريبين منه.. تحت النظر.. النظر الغامر.. والمحيط بنا من كل اتجاه!

زارنا الأمير في مكتب الصحيفة في البناية رقم 90 بشارع الشانزليزيه، الدور الأول (فوق نادي البحر الأبيض المتوسط!).. كان مسروراً أن يكون للصحف السعودية مكاتب ومراسلون في عواصم العالم الرئيسة!.. تحدث إلى الزملاء الصحفيين في المكتب،

وتحاور معهم، وأبدى غبطته بما رأى وشاهد. وبعد الزيارة خرجنا إلى الشانزليزيه، فأخذني معه إلى مكاتب مجلة "الوطن العربي" في شارع "ماربوف" القريب جداً من الشانزليريه، وكان في باريس يومها، من بين الصحف العربية المهمة، إلى جانب "الوطن العربي"، مجلة "المستقبل" التي يملكها ويديرها صديق سلمان المرحوم نبيل خوري، و"النهار العربي والدولي".

الذي استقبل الأمير سلمان في مكاتب "الوطن العربي" كان المرحوم لطفي الخولي، جلس الأمير على مكتب رئيس التحرير، ثم بدأ حواره مع لطفي الخلي. هذا هو سلمان بن عبدالعزيز المحيط بكل التحديات المحدقة بعالمه العربي، والعارف بكل أحلام أو أوهام أو عنعنات مثقفي العرب، يساريين. وغير يساريين، لم أشاهد على ملامح لطفي الخولي سوى الاحترام الشديد لشخص الأمير، وللأفكار التي يطرحها، سواء اتفقا أو اختلفا حولها!.. وكان يصعب علي، قبل أن أرى هذا اللقاء، أن أتصور أميراً خليجياً في نقاش طويل مع مفكر من تيار لطفي الخولي، حول مستقبل العرب، ومستقبل العالم؛ فالمسافات بين الطرفين مترامية، أو هكذا نظن على الأقل!

كان ذلك اللقاء بداية معرفتي الحقيقية بسلمان بن عبدالعزيز .. وقد التقيته، بعد ذلك، مرات أخرى في بعض زيارات الملك فهد -رحمه الله- لأوربا، وأنا مازلت يومها تلميذاً بباريس، ومراسلاً صحافياً من العاصمة الفرنسية. كان الأمير سلمان، في جولة الملك فهد الأوربية، يلتقي الصحفيين السعوديين في صالونه الخاص، في الفندق الذي يسكنه، أكثر من مرة في اليوم الواحد! ليؤكد لنا دائماً أنه منا ومعنا، وأنه "رئيسنا" وعمنا!.. في كل يوم .. وكل مرة..

نجد عند الأمير معلومات جديدة، أو أفكار جديدة، فهو قرأ هنا، أو سمع وشاهد هناك، ليس فيما يخص السعودية فقط، بل كل العالم، وليس في السياسة فحسب، بل في كل شئون الإنسان وشجونه، ولا نعرف، إلى اليوم، كيف كان يتهيأ لسلمان كل هذا الوقت للمتابعة!

وبعد أنهيت دراستي في الخارج، وعدت البلاد، وأصبحت رئيساً لتحرير إحدى المطبوعات السعودية (اليمامة) كان كل شيء في متابعات الأمير سلمان يدهشني، كما يدهش زملائي الآخرين من رؤساء التحرير، فهو قد يفاجئك في الساعات الأول من الصباح بمكالمة تليفونية، يبدي فيها وجهة نظر، أو يصحح معلومة، أو يناقش رأياً، أو يعاتب ويلوم، حول ما نشر اليوم، أي قبل قليل، في المطبوعة التي أنت مسؤول عنها، ثم يسألك عن مصادرك، ويضيف، من عنده، عن مصادره هو، وهذه المصادر هي أحياناً من الوسائل المتاحة، التي يكون من الحري بك قراءتها والاطلاع عليها، فأنت صحفي، وهذا من صميم واجباتك، ومن متطلبات عملك، ولا ينبغي أن تنتظر إلى أن يرشدك إليها مسؤول إداري، يفترض أنه ليس على مستوى قربك أنت من مجالك! وهنا كنا نتذرع ببعض الأعذار، وكنا نتخفى وراء بعض المبررات، وقد نكذب أحياناً (كذباً أبيض طبعاً) من أجل الخروج من مأزقنا مع معلومات سلمان!

بعد تخرجي بثلاثة شهور فقط، فوجئت بوزير الإعلام آنذاك المرحوم د. محمد عبده يماني يبلغني باختياري رئيساً لتحرير مجلة اليمامة، إلى جانب عملي في جامعة الملك سعود، عضواً في هيئة التدريس. عرفت بعد أيام أن الذي رشحني لهذا المكان هو سلمان بن عبدالعزيز، فهو أمير الرياض، ولكنه كذلك أمير الإعلام! وهناك

أمران ملفتان في قصتنا مع "اليمامة" هو وأنا. الأمر الأول هو أن اليمامة كانت وقتها تقول كلاماً لا تقوله الصحف الأخرى، ولاسيما من حيث الجرأة والجدة في الطرح. فكان الزملاء في مطبوعات أخرى، وآخرون غيرهم، يتساءلون عن السّر وراء هذا الهامش المتاح لليمامة، وهو في الظاهر غير متاح لغيرهم! والأمر الثاني، وهو الذي يفسر الأمر الأول، أنني أتذكر في بداية عملي رئيساً للتحرير، كان يلتقيني الأمير سلمان، في مبنى الإمارة القديم، ويأخذني بلطفه وعطفه إلى المختصر في مكتبه، ثم يشرع في تصفح العدد الصادر من المجلة اليوم، أمامي؛ فيعلق، ويبدي ملاحظاته، ودون أن يقول ذلك صراحة، كنت أحسه يعاملني ويتصرف معي، ويوجهني، بصفتي مبتعداً عن المجتمع السعودي، أيام البعثة الدراسية، بحوالي ثمان سنوات، ولابد أن أدرك ما طرأ ويطرأ على هذا المجتمع من متغيرات!.. ففهمت وحدي أن الهامش الذي نلقاه في اليمامة، أو أننا أخذناه، هو محاولة لفرصة تسنح لي لمزيد من الفهم، طبعاً ما لبث الأمير سلمان بعد ذلك أن تركنا لمصيرنا، ولكن الشوق كان كثير ما يغالبنا ويغالبه فنعود إلى سلمان ويعود إلينا، وظل دائماً البعيد القريب، والعكس أحياناً صحيح.

شخصياً لست مديناً للأمير سلمان فقط بالترشيح لمنصب الإعلامي المرموق الذي قضيت فيه حوالي ثلاثة عشر عاماً، ولكني مدين له بأن علمني، وأرشدني، وأخذ بيدي، وحماني سنوات طويلة. وقد استقبل أصدقاؤه وأصدقائي في باريس "اليمامة" الجديدة حينها بكثير من الترحيب: نبيل خوري في "المستقبل" ووليد أبو ظهر في "الوطن العربي" وحمادة في "النهار" العربي والدولي" وغيرهم.. كتبوا كلهم عن "النَفَسْ" الجديد التي حملته

"اليمامـة" إلـى الـصحافة الـسعودية والإعـلام الـسعودي!.. وكنـت، وزملائي في المجلة، مغتبطين بكل كلمة تشجيع نقرأها أو نسمعها في تجربتنا التي خضناها بسعادة كبيرة تحت رعاية رجل كبير.

في بعض اللحظات الصعبة، حتى داخل المؤسسة نفسها، كنت أحس أن الأمير سلمان هو أخونا وأبونا و"معزبنا" والأقرب إلينا، فالجأ إليه، فيتدخل شخصياً، أو يكلف الشيخ عبدالله البليهد بتبليغ رسالته أو توجيهاته، لينتهي كل شيء، ومازلت أتذكر بعض لقاءات أبي محمد البليهد ببعض أعضاء المؤسسة! لغرض إطفاء بعض مناطق الخلاف.

لم أشعر في يوم ما بأي حرج وأنا أزج الأمير في أمور، داخلية كهذه، لا أدري لماذا، ولكن ربما لشعوري أنه كان وليّي بعد الله! فهو الذي جاء بي إلى هذا المكان، وعليه، مشكوراً، أن يظل معنا، وحولنا.

كل رؤساء التحرير الآخرين في الصحف الأخرى كان لديهم شعوري هذا نفسه، فكل منا كان يحس أنه الأقرب إلى سلمان، ويمتد بعض هذا الشعور إلى الصحفيين والمثقفين العرب الآخرين، من كل الأقطار، فسلمان هو وجهتهم عندما يفدون إلى عاصمته، وهو مقصدهم عندما يلتقونه في أي مكان في الأرض، وما زلت أذكر "معرض المملكة بين الأمس واليوم" الذي أقيم في عدة عواصم عالمية: لندن، باريس، مونتريال، القاهرة، برشلونة، فقد كان سلمان، الذي يرعى المناسبة ويديرها، هو محور اهتمام الإعلام والإعلاميين، وهو يجمع حوله كل الكتاب والمثقفين العرب المقيمين في الخارج، أو أنهم هم يتحلقون حوله في مجلسه، يومياً، ودائماً للحديث عن

تجربة السعودية، ولمناقشة هموم المنطقة والعالم العربي. كان الإعلاميون العرب يعدون مناسبة المعرض الفرصة المواتية الأنسب لبناء الأفكار مع شخصية سياسية خليجية وعربية بحجم سلمان. ولعلي هنا أشير إلى ملاحظة ملفتة، وهي أن علاقة الأمير سلمان بالإعلاميين تنتهي حدودها عند "شخصه" هو، فهم ليسوا هنا، في مجلسه، لإجراء أحاديث أو مقابلات صحفية معه، ولا أذكر أن صحيفة واحدة نشرت مقابلة واحدة مع الأمير سلمان في تلك الأيام، فليس هذا هو همّه، لا من قريب ولا من بعيد، بل إنه قد يتصرف مع بعض الإعلاميين السعوديين ببعض الجفاف، عندما يحس أن التركيز في تغطيات المعرض قد تحول إليه هو، بل لقد بلغ به الغضب مرة، في برشلونة، إلى أن طلب من المسؤول عن الإعلام التوقف عن أداء مهامه في العاصمة البرتغالية، لأنه وجهه، أكثر من مرة، بعدم تصويره (هو) أثناء تجوله في المعرض، بل يكون التصوير والتركيز على زوار المعرض والجناح السعودي، وحين لم يأخذ هذا المسؤول توجيه الأمير بحرفيته، وظن أن ما قاله سموه مجرد مسحة تواضع، غضب غضباً شديد، وطلب إليه أن يبقى في الفندق الذي يقيم فيه الوفد. ولكن، كالعادة، فقد كان عمر ذلك الغضب قصيراً.. قصيراً جد!

يوافقني زملاؤنا الإعلاميون في الداخل بأن الأمير سلمان أقل المسؤولين في الإدلاء بمقابلات أو أحاديث صحفية. ولقد قضيت في اليمامة ثلاثة عشر عاماً ولا أذكر أنني ظفرت بمقابلة واحدة من سلمان بن عبدالعزيز.

رؤساء تحرير صحف منطقة الرياض (وأنا منهم) لديهم شعور

بأن اهتمام الأمير سلمان يقتصر عليهم، باعتبارهم من المقيمين في منطقته، وأن صحفهم تعد تحت ولايته بحكم منصبه الإداري، فهم ينالون النصيب الأوفر من اهتمامه، ولكني عندما كلفت بالعمل على مشروع تأسيس صحيفة "الوطن" في عسير، أدركت غير ذلك، فقد كان سموه متابعاً للمشروع منذ انطلاقة فكرته، وإلى أن استقر بين يدي الناس! واستمر تعامل الأمير معنا على الوتيرة نفسها، فهو يهاتف، ويناقش، ويعاتب، ويلوم، ويوجه، فقلت له يوماً ممازحاً: يا سمو الأمير أنا لست رئيس التحرير، أنا رئيس مجلس الإدارة، فأنا غير مسؤول عما ينشر في الصحيفة، فكان يرد ممازحاً هو أيضاً: "كلنا أهل قريَّة وكل واحد يعرف أوخيه" كان الأمير على صلة دائمة برئيس التحرير أيضاً، وبكتاب الصحيفة، بل كان يكتب، وينشر ردوده عليهم.

وكان الأمير سلمان هو الذي رعا مناسبة مرور "العام الثاني" على صدور صحيفة "الوطن" في احتفال بهيج أقيم على شرفه وفي عاصمته! وقد حضر الاحتفال مثقفون وإعلاميون من كل مكان، وليلتها قدمت الصحيفة للأمير درعاً تذكارياً بمناسبة مرور خمسين سنة على توليه إمارة الرياض (اليوبيل الذهبي).

الأمير سلمان موجود في تفاصيل مشاريع إعلامية مهمة أخرى مثل مشروع جريدة "الشرق الأوسط"، والشركة السعودية للأبحاث، التي تمثل اليوم الدار الإعلامية الأكبر، والأوسع انتشاراً، والأكثر إصداراً، على مستوى العالم العربي كله!

تفصيل صغير بالنسبة إلى الأمير سلمان، كبير بالنسبة إلى الإعلاميين كلهم، وهو أنه وقف يوماً ضد إلغاء صدور مجلة اليمامة،

عندما عزم بعض منسوبي المؤسسة على ذلك، فـ"اليمامة" عند سلمان، كما عندنا، هي جزء من تاريخ المنطقة، وتاريخ الثقافة والإعلام في السعودية كلها.

هناك ولع آخر يجمع الأمير سلمان بالمثقفين، وهو ولعه بالتاريخ، فهو قارئ جيد ونهم لهذا الفن، ولا سيما ما يتعلق منه بتاريخ بلاده، فهو دائماً المناقش، والمناكف، والعارف الحذق بالتفاصيل، وهو شغوف بذلك سواء في مجالسه أو على مستوى النشر، وهو لهذا السبب رئيس داره الملك عبدالعزيز المعنية بتاريخ المؤسس، وتاريخ المملكة. وهو كذلك رئيس مركز أبحاث مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولا تقف اهتماماته الثقافية والعلمية عند هذه الحدود، فهو الرئيس الفخري لمركز الأمير سلمان لأبحاث الإعاقة، وقد شرفت شخصياً بالمشاركة في فريق العمل الذي قام على فكرة هذا المركز، تحت إدارة وإشراف الأمير سلطان بن سلمان، وللأمير سلمان أكثر من كرسي بحثي في الجامعات، وهو رئيس الصندوق الوقفي لجامعة الملك سعود، وهو مؤشر واحد من مؤشرات دعمه لبيوت العلم ومراكزه الكبرى.

ولا بد أن أنوه ببعض ما عرفته شخصياً، وعن قرب، من اهتمامه بالبحث العلمي وإدراكه لأهميته، ولنجاعته، بالنسبة إلى صانع القرار، فقد كلفنا الأمير سلمان مرة، في مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام، بالقيام بعمل بحثي ممول مادياً من سموه، وهو عبارة عن دراسة "تحليل مضمون" لاتجاهات الكتاب والمطبوعات السعودية حول الغزو الأمريكي للعراق. وبعد أن أنجزنا البحث المذكور، الذي استغرق منا شهوراً، اقترحنا على سموه، أن نقوم

بنشره في كتاب مطبوع يستفيد منه الدارسون والباحثون، فوافق، وخرج البحث مطبوعاً في كتاب يتداوله للناس.

واقترحنا على الأمير سلمان أن نجري، قبل سنوات قليلة، بحثاً على المستوى الوطني، يشمل جميع مناطق المملكة، وينجز لأول مرة، حول استخدامات الإنترنت في المجتمع السعودي، فلم يتردد في مباركة الخطوة، وكتب إلى سمو الأمير محمد بن نايف بتبني البحث وتمويله، وقد أنجز، ذلك البحث بالفعل، وكان الأول من نوعه شمولاً لجميع مناطق المملكة، وكل المتغيرات الديموغرافيه للسكان.

ثم غادر سلمان بن عبدالعزيز إمارة الرياض إلى وزارة الدفاع، غادر العاصمة لكنه بقي في قلوب أهلها، وسيظل؛ فهو الذي شيد هذه المدينة "بيت العرب" وهو الذي ألبسها رونقها وجمالها وحللها الأنيقة، وأهم من ذلك أنه أودع فيها من روحه وعبقريته.. حوالي 55 عاماً، وهو يحتضنها بين يديه وجفنيه.

وعندما تشرفت بزيارة سموه في مكتبه في وزارة الدفاع، كان في المجلس معالي د. محمد آل الشيخ وزير الشئون البلدية والقروية الأسبق، وهو كان المسؤول في هيئة تطوير مدينة الرياض قبل أن يصبح وزيراً؛ فذكر آل الشيخ للحضور، بكثير من الإكبار، دور الأمير في بناء هذه العاصمة العربية الكبيرة، مشيداً ومعتزاً بالسنوات التي قضاها تحت إدارة سموه.

والحق أن سلمان ليس الإعلام، وليس الثقافة، وليس الرياض؛ فحسب، بل إن سلمان هو كذلك رجل الدولة، وهو أحد أصحاب الرأي فيما يتعلق بمستقبل بلاده سياسياً وتنموياً.

لا بد من أن أفرد، في يوم ما، مساحات أرحب للكتابة حول ما أعرفه عن سلمان، وهناك الكثير مما يعرفه غيري!.. ونحن، جميعنا، تهمنا كل جوانبه، وكل اهتماماته، ليس الإعلامية أو الثقافية فقط، ولكن أيضاً التنموية، والإدارية، والسياسية!.

فليكن ذلك في وقت قريب إن شاء الله!

صدام حسين:

يوم أن بكى الجميع

بغداد جزء من حلم، وبغداد جناح طير أخضر يرف داخل الفؤاد، كانت المرة الأولى التي أزور فيها مدينة الرشيد بمناسبة انعقاد أحد مؤتمرات العرب. وقد عقد هذه المرة في عاصمة العباسين، وكان شعاره الأمن القومي، فيما أذكر إذا كان لابد أن أذكر شيئاً من ذلك المؤتمر. لا عاد!

لا أعرف بغداد من قبل، ولكنني أعرف جيداً صدام حسين!

هو رجل طويل، ممتلئ الجسم بحذر، كأي رجل أخر طويل وممتلئ الجسم بحذر!

إنه يشبه الآخرين، له قدمان ويدان ورأس واحدة تميل إلى الاستدارة.

وإنني أعرف صداماً تمام المعرفة، فقد شاهدته في التليفزيون وفي الصحف والمجلات أكثر من مرة لسوء حظي وحظه معاً.

إنه يشبه كل الناس- كما قلت- فهو يأكل، ويشرب، وينام، وله زوجة، وعنده أولاد، كما قرأت، وكما قال لي الناس، والدليل على

أنه عنده أولاد- فيما لو كذب الرواة، وهم كثيراً ما يكذبون- هو ما أكدته حادثة عدي بن صدام بن حسين التكريتي حين ذبح ذبحته المشهورة أحد العاملين في قصر والده، فرددت الصحف والإذاعات أن صداما (أو عمر بن عبدالعزيز الذي عاش من جديد) سيطبق حد القصاص على فلذة كبده، انتصافاً لـ "الخادم" الضعيف الأعزل، المهيض الجناح، ولكن ما لبثت تلك الصحف والإذاعات أن نشرت، ورددت، أن عائلة القتيل قد أفسدت على "الرئيس القائد" الفرصة لإعادة العدل إلى هذا العالم المتوحش، ولإحياء سيرة بطل من أبطال العدل في التاريخ الإسلامي، هو عمر عبدالعزيز. لقد فكرت عائلة القتيل، وهي بكامل أهليتها الشرعية، وبدون ضغوط أو تهديد، أو حتى خوف من المستقبل الغامض؛ فأصدرت عفوها عن الحمل الوديع عدي، مؤكدة أن ما حدث ليس قتلاً عمداً، فالهراوة الملعونة هي التي انطلقت وحدها من يد ابن الرئيس، ترعد تزبد كالمجنونة، لتهوي على جمجمة عامل القصر فترديه على الأرض جثة هامدة، ليس فيها أي حركة أو حياة، ثم ماذا يساوي هذا الخادم من خسارة للأمة، مقابل موت عدي؟ وماذا يساوي حزن هذه العائلة المتواضعة، أمام حزن القيادة الرشيدة التي يجب أن يخلو قلبها من أي كدر؟ لتستطيع التفكير بنقاء وصفاء فيما فيه مصلحة الأمة؟ هذا فضلاً عن أنه لم يعرف في تاريخ الابن أو الأب أي حادثة تشبه هذه الحادثة، فهم عادة لا يقتلون إلا الوزراء وقواد الجيش!

قلت: إنني لا أعرف بغداد، لكنها تعيش في القلب، فهي إحدى عواصم عز الحضارة العربية. أنا – على العكس – أعرف صدام حسين، الذي ظل يعيش خارج القلب، وحجة القلب العنيد في هذه الجفوة (غير المهمة بكل المعايير)؛ هي أن في صدام شيئاً يختلف

عن الآخرين، شيء يؤذي العين، ويدمي الفؤاد، شيء تراه بوضوح، ولا مجال للاختلاف عليه، وقد أكدته لي بغداد منذ أن وضعت أول خطوة على ترابها النابه.

نعم، لقد وصلنا إلى بغداد .. نحن الآن في مدينة الرشيد، وهذا صدام مغروس في كل ركن من المطار، وإننا لننهب الطريق إلى الفندق المعدّ لإقامتنا، وهذا صدام أيضاً يقابلنا في طريقنا، أكثر من عشرين مرة، في الشوارع والميادين والساحات التي اجتزناها، صور وصور من كل الأحجام، منتصبة كأنها نصب إبليس.

وعلى الوسادة الخالية (طبعاً) في فندق "فلسطين" قلنا: لعل في الأمر ما فيه، فهذا اليوم هو حتماً عيد ميلاد الرئيس، يعيش الرئيس!!

لكننا لم نسعد طويلاً بحلاوة هذا الاكتشاف، إذ أكد لنا في صبيحة اليوم التالي كل المتابعين لتاريخ فخامته، أنه لم يولد في هذا الشهر من العام، ولا في هذا اليوم من الأسبوع، قلنا: هو عيد زواجه إذاً؟ قالوا: ولا هذه. قلنا: عيد تنصيبه: قالوا: ولا تلك، وبعد أن استعرضنا كل ما نعرف من مناسبات وأعياد عند العرب والعجم، عند الجن والإنس، قالوا لنا ببساطة: إن فخامته "اقترح" على رئيس بلدية العاصمة تزيين الشوارع العامة وغير العامة بما يليق بها، وهل يستطيع رئيس البلدية أن يفكر في أي شيء أخر "يليق بها" غير صور الزعيم؟!

إن هذه المساحة الكبيرة المتاحة من الحرية للشعب وللمسؤولين، هي نفسها التي كانت تجعل أصدقاءنا من المثقفين والإعلاميين العراقيين يستأذنون من مجلسنا حين تحبك النكتة، وهي

قليلاً ما تحبك، فتمس الذات العلية في بغداد، وفي هؤلاء من كانوا يخافون علينا حتى نحن، فيتوددون إلينا بإعلان التوبة، وعدم العودة إلى اقتراف مثل هذه الجنحة أو الجريمة، التي قد تجرنا أو تجرهم إلى حبل المشتقة، أو عفواً إلى مسدس الرئيس ذاته، فهو يفضل دائماً أن يطبق عدل السماء بنفسه، وبذات المسدس السامي الكريم. وهم يرددون أحيانا: أقلها أنتم راحلون، أما نحن فباقون!

لا، حتما فهذه ليست بغداد التي تعيش في قلبي!

إن بغداد الطيف والحلم شيء آخر غير ما أرى وما أسمع، وإن هذا الشخص الذي يعيش خارج القلب، (أعني عمر بن عبدالعزيز الجديد)، هو الذي يسد بيني وبين بغداد الرؤية، ويقيم هذا الهرم من المجهول والغامض.

أما شوارع بغداد، وخوف الناس، وهذا البؤس الذي يخيم على حي الشهداء، حيث الأرامل والأيتام، حيث المرض والجوع، فكلها أكدت في داخلي ذلك الشيء الذي يجعل صدام يختلف عن الآخرين. إنه الشيء الذي لا يجعلني أفكر أصلاً في الاقتراب من أي شخص يخلقه الله على شاكلة "المهيب"، أو بطل تكريت إن صحت الروايات.

لقد جمع صدام في تلك الجمجمة شبه المستديرة كل ما خلق الله من غطرسة، وجنون، وعظمة في الأولين والآخرين.

لا بأس فقد تقولون: إن هذه مسألة تعنيني وحدي، وصدام لايهمه في شيء أن يعيش في القلب أو خارجه. وأنا بدوري، في هذه اللحظة من التجلي، أعلن لكم أنه لا يهمني، أنا أيضاً، كل هذا الحشد من الصور، وكل هذا الكمّ من الخوف في بغداد، ولا يهمني

كون الزعيم المجيل طاووسا كاملاً أو نصف طاووس!

صحيح أن فخامته كان يعكر المزاج بطريقة إدارته لجلسات القمة، ولكنها برهة من الوقت، ثم نرحل بعيداً عنه، وعن لغته المستعلية، وعن مسدسه، وصوره ومجسماته.

ويوماً ما- يا سادة يا كرام- غضب صدام بل استشاط غضباً! فالشيخ سعد العبدالله لم يوقع له دون مناقشة على الملفات أو الأوراق التي جاء يحملها إليه شخص أخر يقال له: عزت إبراهيم، وتقول الروايات الصحيحة: إن هذا الأخير كان مصاباً في إحدى أذنيه بداء يمنعه من الكلام والسماع والحوار مع قرينه الكويتي، فاكتفى بالإشارة إلى موضع التوقيع، مهدداً ومتوعداً، ومنذراً بالويل والثبور، (هدد بعينيه فقط)، فارتكبت الكويت غلطة حين تذكرت كرامتها، فأغضبت عزت إبراهيم وصدام حسين. ومن الذي يستطيع في هذه الدنيا أن يغضب صدام حسين؟

الكويت استطاعت أن تفعل ذلك، لكنها لم تكن تدري أن حامي حمى العروبة كان ينتظر هذه الفرصة بفارغ الصبر.. بل لعلها تبدو وكأنها جزء رئيس من السيناريو المعدّ للشروع في تنفيذ أطماع الطاووس في الكويت وفي المنطقة.

وفعلاً أشار الجار الشهم –مجرد إشارة- في الليلة نفسها لمئة ألف جندي "عربي عراقي" مقترحاً عليهم بأن يذهبوا في نزهة برية، إلى ضاحية من ضواحي الإمبراطورية القادمة. وكانت تلك الضاحية هي الكويت، ثم صحونا ذلك الخميس المشؤوم على الفاجعة، عربي يشرد عربياً، يقذفه خارج الجغرافيا، وخارج التاريخ، يدعه في العراء، لا ماء ولا خلا.. بلا أرض ولا وطن.

سرق صدام حسين الوطن!

عـضب الـزعيم، وبهـدف "توحيـد" الـوطن العربـي، وبغـرض المشروع الكبير في لمّ شمله تحت لواء واحد، هو لواؤه - إن شاء الله- فعل ما فعل، وإن كنا نتذكر، فإنه قبل أشهر فقط كان هذا الزعيم نفسه يعقد مؤتمراً في عاصمته عن الأمن القومي العربي، دفعاً لأي معتد أجنبي!.. كم كان مخلصاً ونقياً هذا الزعيم! ترى هل كان كل ما ينويه، هو أن يفسح الطريق لجيشه هو وحده، فلا تضايقه الجيوش الغازية الأجنبية الأخرى؟

انتقض العالم كله (عرب وعجم) وقال: هذا خطأ، ولكن الزعيم الهائل ظل يطلّ من فوق ساخراً من كل ما يسمع، هازئاً بكل من يرتفع صوته إليه: مجلس الجامعة العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ومجلس التعاون الخليجي، والقمة العربية، ومجلس الأمن، ودول العالم من الشرق إلى الغرب، وحلفاؤه أنفسهم من العرب وغير العرب.

كان الزعيم الضخم الهائل ما زال يطل من فوق، ولا يسمع إلا صوته!

صوته هو وحد، وحده، ولا أحد سواه!

ثم احتشد العالم كله بأسلحته ونيرانه على حدود الكويت، ولكن الرئيس ظل لا يسمع إلاّ صوته!

*****

ما حدث في عالمنا العربي هذا، في زمننا هذا، لا يصدقه عقل!

رجل قرر الانتحار، وهذا طبعاً شأنه، وما حسابه إلاّ على الله.

أما أن ينتهي شعب كامل نتيجة لذلك الانتحار، وأما أن يبارك "بعض" العرب هذه النتيجة النبيلة، فهذا ما لا يمكن أن يفهمه أحد، أو أن يصدقه أي عقل!

صدام حسين فضل أن يموت "كريماً"، على أن يعيش "ذليلاً" كما يقول.

والعيش "الذليل" في رأيه، هو أن يعيد الكويت إلى الكويتيين، رضوخاً لمنطق الحق، و"إذعاناً" لإرادة العالم. والموت الكريم، بمقتضى فهمه، هو أن يغادر الحياة بعد أن يكون قد أفنى كل العراقيين، وبعد أن يكون قد قضى على كل مقدراتهم، ومكتسباتهم الحضارية.

و "دوتكيشوت"، العرب له الحق في أن يختار نوع الميتة التي يشأ، ولكن هل من حقه أن يقذف بالعراق دون استشارة أحد من أهله إلى فوهة الدمار والمهلكة الحتمية؟!

وإذا كان الشعب المسكين المروع دائماً بالقتل والسحل وأنواع السجون، لم يجد الفرصة المناسبة بعد كي يقول كلمته النهائية في هذه الحروب، وفي جميع الحروب التي خاضها صدام حسين باسمه، هل كان يجوز للنظارة والمتفرجين والمشجعين من العرب المريدين للصدام، أن يدلوا بشهاداتهم المتتابعة، المتوالية، الحمقاء على شرعية التهالك على المذبحة التي يعرفون ويدركون أنها لن تبقى ولن تذر؟ وكان ذلك ما حدث بالفعل! عندما ركزت قوات التحالف أعلامها على أطراف بغداد، أو أطراف العراق، مخلفة وراءها أشلاء جيش العراق!

هل كان يجوز لهم أن يشجعوا الزعيم المجنون على التهور، وأن يدفعوا بالشعب المضطهد المغلوب على أمره إلى مزيد من "التضحيات"، وقد كانت هذه المرة مثل كل مرة، أي الموت، والدمار، والشتات الذي ليس بعده شتات؟!

هل يمكن أن نصدق ولو للحظة واحدة، أن المشجعين والمتفرجين كانوا يعتقدون، ولو بنسبة ضئيلة، في نصر لازب لصدام حسين أو لجيش العراق في حرب كتلك الحرب؟ وإذا كانوا لا يفكرون أبداً في أي نصر للعراق، ولجيش العراق، فما الهدف إذاً من دفعه هكذا، وبكل هذه الحماسة إلى المهلكة، وتشجيعه على الانتحار، بدلاً من الأخذ بيده، وترشيده في مسيرته، حتى لو وصل الأمر إلى أن يطلبوا إليه العصيان على قائده الذي يريد أن ينتهي، وأن ينهي معه كل شيء؟!

ما الهدف الحقيقي الذي كان يسعى إليه المتفرجون والمشجعون؟ هل هو أيضاً أن يموت العراق كله "كريماً"، بحسب مفهوم صدام حسين، عوضاً عن أن يعيش "ذليلاً" كما هو المنطق المقلوب الأهوج.

الحرب؟!.. ياللغباء!

تذكرت هذه العبارة العظيمة للشاعر الفرنسي جاك بريفير وأنا أتأمل حال حاكم العراق، وحال شعب العراق، وحال المشجعين والمتفرجين من المريبين والدجالين والتائهين!

لماذا نموت أصلاً أيها الأغبياء؟! وهل هناك "قضية" حقيقية صميمية نموت من أجلها؟ هل مسألة أن لا تعود الكويت إلى أهلها الذين شردوا وقتلوا قضية، لابد أن نموت من أجلها؟ هل الموت

من أجل الباطل استشهاد وتضحية؟ وهل الموت من أجل الرعونة والصلف والعناد، هو الطريق إلى المجد والجنة؟

لماذا نموت أصلاً أيها الأغبياء؟!

فحتى لو كانت الحرب من أجل قضية عادلة. هل من العقل أن نقدم عليها إذا لم تكن فرص المكاسب أكثر وأبلغ من فرص الخسارة؟ هل تنقصنا مناسبات تدمير أخرى؟! ألا يكفينا ما لحق بنا من ضياع، ومن تبديد للقدرات، والمقومات، والقوة طوال تاريخنا المعاصر المنهك بالهزائم والضياع، والحافل بأنماط ثرة من الجهلة، والمتغطرسين، وطواويس المجد الزائف، والسياسات البلهاء؟

ما حدث لا يمكن أن يصدقه أي عقل، لأنه تمَّ بمباركة من الكثيرين من المؤيدين والمشجعين، بينهم المنتفعون، وبينهم الثعالب الماكرون، وبينهم الإمعات التي تقاد كما تقاد الخراف إلى المرعى، أو أحياناً إلى المسلخ.

وكنا نظن أن هناك حساباً طويلاً سيفتحه شعب العراق مع المشجعين والمؤيدين والمتفرجين، سيفتحونه بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها، وبعد أن ترتفع قوائم الخسائر، وبعد أن تتصاعد أرقام المآسي، فتبلغ عنان السماء. سيسأل العراقيون المشجعين والمتفرجين هذا السؤال: لماذا دفعتهم بالملعون إلى مزيد من التهور حتى أهلكنا، وحتى قضى على كل طموحاتنا وتطلعاتنا نحو البناء والخير؟ سيسألون بحرقة وغضب لحساب من كان كل هذا؟ ومن أجل أي قضية حدث كل الذي حدث؟ عندها فقط كنا نعرف أنه سيتحطم كل الكلام، وستكتسي الوجوه من جديد بالعار والخجل! وعندها أيضاً بكى الجميع، ولم يضحك أبداً أحد!

إن ما حدث في عالمنا العربي بالفعل لا يصدقه أي عقل!

ما زالت شعوبنا، مع الأسف، تعطي الدليل تلو الدليل على أنها غير قادرة على التمييز، وغير قادرة على فرز الحقيقة من الزيف والصدق من الكذب!

يكفي أن تلوح لها بقضية فلسطين لتكتب سلفاً اسمك الكريم في رأس قوائم الشهداء والأبرار والصديقين، وأولياء الله الصالحين.

فالذي كانت تبديه بعض هذه الشعوب، هو أنها على شبه قناعة –إن لم تكن قناعة تامة- بأن صدام حسين إنما يموت من أجل فلسطين، وأن هذا العالم إنما يقاتل صدام؛ لأنه يخشى أن تحدث بالفعل المعجزة، فنفيق ذات يوم من نومنا الهادئ الهانئ، لنجد أن أبا عدي يحتبي في إحدى الساحات في مسجد القدس، بعد أن يكون قد قضى على كل الإسرائيليين فوق كامل الأراضي الفلسطينية!

والذي كانت تبديه بعض هذه الشعوب، هو أنها كانت متأكدة –أو شيء قريب من ذلك- من أن صدام حسين هو المجدد العظيم، الذي يولد على رأس كل قرن، فهو الذي سينتشل الإسلام من كل ما يحيق به من دس وكيد ومؤامرات، وما هذه القوى الدولية الصليبية التي انقضت عليه من كل صوب إلا قوى الشر، التي لا تريد لهذا الدين الحنيف الخير، أي خير.

عجيب...

عجيب كل هذا الذي سمعناه، وكل هذا الذي رأيناه!

من صدام حسين؟ وما علاقته الفعلية بجميع الحروب التي

خاضها العرب ضد إسرائيل، ومن أجل فلسطين؟ من صدام حسين؟ وما علاقته بالدين ضمن إيديولوجية الحزب، وضمن سلوكيات الحاكم نفسه، وضمن تصرفاته؟ وهذا البكاء على صدام وعلى شعب العراق لماذا لم نسمع مثله أو شيئاً منه على الشيخ جابر أو على شعب الكويت؟

الحديث عن فلسطين وعن الإسلام أمر محبب إلى النفس، قريب من كل قلب، ولكن هل نقبله من أي أحد؟ وهل يكون وقعه في صدورنا قوياً من أي أحد أيضاً. لقد كان صدام حسين في مثل هذه الموضوعات هو فعلاً، أي أحد.

الغيرة على أي شعب عربي، والوقوف في وجه أي انتهاكات يتعرض لها؛ هو واجب تحتمه روابط العقيدة والدم والمصير، ولكن من شعب العراق؟ ومن شعب الكويت؟ نحن كنا مع الأصوات التي ترتفع من أجل العراقيين، بل لقد كنا في مقدمة الأصوات التي ارتفعت من أجلهم، منذ أن ناشدنا صدام حسين العمل على حقن دمائهم، ولكنا كنا نريد أن نسمع أصواتاً تعلو بالقدرنفسه من الحماس من أجل الكويتيين، ومن أجل السعوديين الذين كان يتهددهم الخطر، والذين كانت تحتشد القوات العراقية على حدود بلادهم.

إنه لو حدث ذلك، أي لو تعالت جميع الأصوات في وجه الاعتداء على دولة عربية، وفي وجه الانتهاكات التي تعرض لها شعب عربي؛ لكانت الأمة قد وجدت نفسها اليوم أمام وضع آخر مختلف، فلربما كانت فرص السلام والاطمئنان أرحب وأوسع.

نعني بالتحديد أن صدا حسين كان سيجد أن جميع الأبواب

مغلقة في وجهه، وأنه سيرى أن كل المنافذ موصدة أمامه، بالحق، بالإنصاف، بالعدل.

نعنـــي بالتحديـــد أيـــضاً أن جوقـــة المـــشجعين، وجمهـــور المتفـرجين؛ كـان مـن الممكـن أن يتخلـوا عـن مـوقفهم المتخـاذل، الانتهازي، المريب، لينصفوا شعباً عربياً هو شعب الكويت، ولينقذوا شعباً عربياً آخر، هو شعب العراق.

كيف يمكن أن يصدق أي عاقل أن الهدف هو فلسطين؟ وهل فلسطين تحتاج إلى أن ينتحر المأسوف عليه صدام حسين؟ وهل تحتاج إلى أن يقدم شعبه وبلاده زاداً للنار في حرب خاسرة بكل المقاييس؟ أليس من المفروض أن "يفوت" الرئيس الأرعن الفرصة على القوى الصليبية- كما يسميها- تلك التي جاءت- كما يرى- لتحطيم القوة العراقية، نقول: يفوت عليها الفرصة، فينسحب من الكويت، ويعيدها إلى أهلها، ويحفظ الشباب العراقي، كي ندخره لليوم المناسب، وفعلاً من أجل فلسطين.

ضمن أي حسابات قدم صدام حسين نفسه وجيشه، على طبق من ذهب، كي تجد "القوى المعادية" المناسبة السانحة لذبحه وتدمير جيشه؟ والمشجعون والمنافخون والانتهازيون، ما المكاسب التي كانوا ينتظرونها لصدام حسين؟ والجيش العراقي؟ ولشعب العراق؟ حينما ظلوا بكل الوسائل يدفعونه إلى ما وصل إليه.

ما الذي حدث أيها الأغبياء؟!

إن النظر إلى قوائم الخسائر أمر أضحى يثير الرعب في قلب كل مخلص لهذه الأمة، ولمستقبلها القريب والبعيد. وكل هذه الخسائر حدثت بفضل "غيرة" صدام حسين على الإسلام، وبفضل

تطلعه الشديد إلى "تحرير فلسطين"، وبفضل جوقة المشجعين والمتفرجين على المذبحة. لقد انقسمت الأمة كما لم يحدث لها من قبل، ولقد تعمقت جراحاتها، وزادت فرص انشقاقاتها وعداواتها، وشحناتها المريرة.

لقد أهدرت الكثير من الأرواح، وأهرقت الكثير من الأموال، وتحطمت الكثير من الآمال في غير ما قضية، وفي غير ما هدف نبيل ونظيف.

لقد ازددنا ضعفاً، وازددنا هواناً، وازددنا تشوهاً وخذلاناً.

أما فلسطين ما دام الحديث يحلو دائماً عن فلسطين، فيكفي أن نذكر بأن مما جنته إسرائيل نتيجة الحرب التي أرادها صدام ومشجعوه، لا تتعدى هذه النقاط، وهي بسيطة في مفهوم الأدعياء والكذابين.

تعاطف عالمي جديد – على المستوى السياسي، وعلى مستوى الرأي العام – نتيجة التهديد الخطير الذي تشكله، طراطيع سكود على أمن إسرائيل واستقرارها ومستقبلها في البقاء.

بالمقابل، تقويض كل ما بنته الدبلوماسية العربية في السنوات الأخيرة الماضية من أجل خلق أرضية ملائمة تساعد على فهم عمق المأساة الفلسطينية، وبالتالي تسهم في الدفع إلى التعاطف المنصف معها.

انهيال المساعدات العسكرية والمالية على "عدو العرب والفلسطينيين" نبوعاً من إحساس العالم بـ "المخاطر" الشنيعة التي تحيق بـ الأبرياء الإسرائيليين، وقوائم هذه المساعدات بدأت بـ "الباتريوت"، مروراً بمليارات الدولارات من أمريكا وألمانيا ودول

المجموعـة الأوروبيـة، وهـي لـن تنتهـي إلـى أن يـشاء اللـه، ويـشاء المتهالكون على هـذه المعونـات بـأن يتنبهـوا إلى مخـاطر مـا يفعلـون، وهـي بالفعـل المخـاطر الحقيقيـة، لأنهـا لـن تزيـد عـدونا إلا تفوقـاً جديداً، يضاف إلى قوته التي ظلت دائماً مرعبة للمنطقة كلها وبلا منازع، هذا على الرغم من كل ما يوهم به أدعياؤنا الدونكيشوتيون من أمثال صدام حسين، من أننا قوة لا تقهر.

ثم بعد هذا كله، أو قبل هذا كله، الخدمة النادرة التي تهيأت لإسرائيل، دون أي عنـاء يـذكر، وهـي تبديـد الحيـرة والتـردد حـول مسألة مقضة مقلقة، وهي بصيص قوة عربية متنامية بذلت من أجلها أمـوال كثيـرة، (لا سـيما مـن دول الخليـج)، وهـي قـوة العـراق. أجـل فإسرائيل لم تكن تعرف قبل هذه الحرب كيف يمكن أن تتخلص من هـذه القـوة المتناميـة؟ وضـمن مـشروعية مقبولـة فـي العـالم، إلـى أن تطوع صدام حسين بهذه القوة في فوهة الموت.

عجيب ما حدث في عالمنا العربي!

كل هذا لا يمكن أن يصدقه أي عقل!

ثـم توالـت الكـوارث علـى العـراق والعـراقيين، إذْ تربـصت أمريكـا بـصدام، بعـد التحريـر، وحـشدت حلفاءهـا الأوروبيـين، للوقـوف فـي وجهـه، وبحجـة التفتيش عـن أسـلحة الـدمار الشامل، وإيـواء القاعـدة ومـساعدتها، وبحجـة تدشـين عـصر ديمقراطـي للعـراقيين، عـادت أمريكا هـذه المـرة تطلـب رأس صـدام نفسه، فغزت العـراق، واحتلتـه، ونشرت فيه الفوضى، والفساد، والإرهاب، وجردتـه مـن كـل مقوماتـه الإنسانية والاقتصادية والثقافية، ثم غادرته بعد أن تركته نهباً للحرب الأهليـة، والتفجيـرات، والتـصفيات، والطائفيـة المقيتـة. لا، بـل إنهـا

سلبت العرب بلداً من أقوى وأهم بلدانهم، وأكثرها حساسية، وهي سلمته - عن علم أو غير علم- إلى نظام يظهر نفسه على أنه من أشر خصوم أمريكا ذاتها في المنطقة، وهو النظام الإيراني العنصري المتشدد.

انتهى العراق، وانتهت معه الكثير من آمال العراقيين، وآمال العرب، وتحول حارس البوابة الشمالية إلى الوحش المتربص الذي تسيره إيران وفق ما تشاء وما تريد!

مشروع مفزع ومحبط ومخيب للآمال بدأه ديكتاتور أرعن، لا يسمع إلاّ صوته، ولا يقدس سوى صورته، دخل في حروب خاسرة، من أجل تحقيق أمجاد زائفة، تقوم على الباطل، وتستند إلى الجهل والغرور والعنجهية!

صدام حسين كان عنواناً لمرحلة سوداء من تاريخ العرب، اشتدت فيها المحن، وتعاظمت فيها الخسائر، وبلغت فيها النكسات مبلغها: ليس على مستوى الحروب فقط، بل أيضاً على مستوى التنمية، ومعالجة مشاكل الشعوب مع الجوع والفقر والبطالة، وضعف معدلات النمو، وانحدار مستويات التعليم والصحة وغيرها، فكان لابد أن يحدث الانفجار، وقد حدث فعلاً، إذْ سقطت في عام واحد (2011) أربع ديكتاتوريات: (تونس، ومصر، وليبيا، واليمن)، والخامسة في طريقها إلى السقوط في سوريا. وعلى الرغم من الفوضى والخسائر التي تدفقت في الطريق إلى "الربيع العربي"، إلاّ أن هذه أحداث لم يكن هناك مفر للهروب منها، أو لتلافيها، فنموذج صدام حسين الديكتاتوري، الذي يتحكم في مقدرات الأوطان ومستقبلها، وفق ما يمليه عليه عقله المريض، لم يكن موجوداً في

العراق وحده، بل كان موجوداً في بلدان عربية أخرى، نهض شبابها، ضيقاً بما جرى ويجري، ليدشن لأمته طريقاً إلى الحرية والمشاركة السياسية، والعدل، وليقول لكل الديكتاتوريين الذين سقطوا، وللذين مازالوا ينتظرون: كفى!.. فقد أوصلتمونا إلى ما أوصلتمونا إليه، المستقبل الآن لنا!

عبدالعزيز التويجري:
عاشق البطل

كنت كلما جلست إلى الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري أدهشني بحدة ذكائه، وحنكته، وحكمته، ودماثة خلقة، وتواضعه الجم.

عرفته في مناسبات عديدة، أهمها وأبرزها مناسبات الترتيب والإعداد لمهرجان الجنادرية السنوي في بداياته، فقد حظيت بشرف اقتراح وإعداد مشروع "الندوة الثقافية الكبرى" للمهرجان، وقد عمل معي على إنضاجها الأخوان: أ.د. منصور الحازمي، ود.سعد الصويان، وكان د. عبدالرحمن السبيت وكيل الحرس الوطني آنذاك يدعمنا بآرائه وأفكاره وتسهيلاته، بحكم مسؤولياته، كما كان يمدنا بتوجيهات الشيخ عبدالعزيز، أو أنه يأخذنا مباشرة إليه، نحاوره ونناقشه ونستمع إليه. وكان من أهم ما جذبنا في تلك اللقاءات، هو تأكيده المستمر - رحمه الله- على أنه ينبغي أن نفهم أن الجنادرية مهرجان للسعوديين، وهي لقاء لجميع العرب بمختلف أطيافهم الثقافية والفكرية والسياسية، ويقول أحياناً ويردد دائماً بأن "منافذ المملكة مفتوحة لأي مثقف عربي، ممن تعتقدون أن مشاركتهم مهمة

للمهرجان وللفكر العربي، والإبداع العربي"، ثم يضيف: "إن هذه هي توجيهات عبدالله بن عبدالعزيز" صاحب المهرجان، ومؤسسه، ورئيس الحرس الوطني الذي يتكفل بتنظيم الفعاليات والدعوة إليها. وقد روى الأخ عثمان العمير أنه في أحد لقاءاته بالشيخ التويجري، مازحه قائلاً: يا أبا عبدالمحسن، لم يبق من المثقفين العرب مختلفي المشارب إلا الشاعر أدونيس، فهذا لم ندعوه للمشاركة في فعاليات الجنادرية؟" وكان ذلك في أوج مرحلة الهجوم الشرس الذي واجهته الحداثة بمختلف مشاربها، ولاسيما في السعودية، فما كان من الشيخ التويجري إلاَّ أن التفت نحو السبيت قائلاً: "وجهوا له الدعوة يا عبدالرحمن!".. لقد فعل ذلك أبو عبدالمحسن أمام دهشة الجميع، فلقد كان يريد للجنادرية ما كان يريده لها عبدالله بن عبدالعزيز، فضاءً رحباً للحوار وتلائما للأفكار، فضاء للحرية والإبداع واحترام الاختلاف والتنوع.

وهذا هو عبدالعزيز التويجري في انفتاحه، وسعة أفقه، ورفضه النفي والإقصاء.

*****

وكلما قرأت شيئاً مما كان يكتب أبو عبدالمحسن، أحسست بأنني أمام عقل كبير يكتظ بالأسئلة والرؤى، عقل يزلزله، باستمرار، قلق المعرفة.

ومن أهم مؤلفات الشيخ التويجري ما كتب عن الملك عبدالعزيز: "لسراة الليل هتف الصباح"، وهو سفر ضخم في حوالي تسع مئة صفحة، يحتشد بالأفكار، والتصورات، والتحليلات، والوثائق المثيرة التي نحس عندما نقرأها بأنها تكشف، وربما لأول مرة عن

أسرار كثيرة، عظيمة، في حياة المغفور له - بإذن الله- مؤسس هذه الدولة الفتية، عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل.

لقد حشد أبو عبدالمحسن كمًّا كثيراً من الوثائق ذات الدلالات التاريخية والإنسانية، ثم قدمها لجيلنا وللأجيال التي ستأتي، لتكون شاهدنا وشاهدهم على عصر امتحن في أهل هذه البلاد صبرهم، وصمودهم، وقوة إرادتهم، فقد قاسوا الجوع والفقر والخوف، وامتطوا صهوة المغامرة العظيمة مع عبدالعزيز، إلى أن أشادوا الوحدة، وبنوا الدولة، وكتبوا السطور الأولى الشامخة في تاريخنا الحديث.

عبدالعزيز وحده الذي استطاع أن يجمع شتات هذه القبائل المتناحرة، وهو وحده الذي استطاع أن يخلق من الجغرافيا المعقدة أجمل وأرحب ساحة حب للتاريخ. إن هذا في واقع الأمر، هو ما أراد أن يقوله الشيخ عبدالعزيز التويجري في تسع مئة صفحة مكتوبة كلها في الدم الغامر، وفي القلب، وفي الوجدان. والشيخ التويجري، كما يقول هيكل في مقدمة الكتاب: "لم يزعم لنفسه أنه يقدم بحثاً في التاريخ.. الكتاب في حقيقته قصيدة حب.. والمؤلف عاشق لبطله.." وأبو عبدالمحسن يؤكد هذا العشق، ويؤكد افتخاره وسعادته به، إذ يقول: "كم أنا سعيد بحبي لبطلي، وهو حب ليس ناتجاً عن فراغ أو توهم، وإنما عن حقائق قائمة يعيشها المواطن: وحدة، وأمنا، ورخاء، ومثلاً عليا وعقيدة".

"لسراة الليل هتف الصباح"، وقفات جليلة من التفكير والتأمل والتساؤلات العميقة حول بطل شغل الدنيا والتاريخ، وحول كيان عظيم أصبح اليوم، وسيستمر غداً، ملء السمع والبصر.

إن من المهم، ومن المفيد، أن يطلع جيل اليوم، وأجيال الغد على هذا السفر النابه، فهم سيجدون في ثناياه الذكرى العميقة، والعظة البليغة. وسيقرؤون بين سطوره نماذج عجيبة من التحديات الكبيرة التي واجهت الملك المؤسس، وواجهت جيل الآباء والأجداد، الذين أشادوا معه هذه الوحدة، وكرسوا أخلاقها، وبذلوا الغالي والنفيس لصيانة قيمها ومكتسباتها.

وسأورد هنا نموذجاً واحداً من تحديات أيام العسر التي واجهها الملك الشهم عبدالعزيز، وكأنها بمقاييس اليوم أمور لا يصدقها عقل، فبطل التوحيد في هذا الكيان الضخم، يكون في حاجة مبلغ زهيد من المال، ثم يزيد على ذلك ويكتب فيه "وصل استلام" من أجل الالتزام بالتسديد! يقول في سند اقتراض اضطر إليه: "من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى من يراه: السلام، وبعد: أخذنا من ناصر بن حمد بن غيث ألف وثلاث مئة وعشرة أريل سلفة، أيضاً أخذنا منه 108 ريالات وخمس ليرات".

لابد أن هذا المبلغ قد حلّ - فعلاً - مشكلة لعبدالعزيز الملك، والمحارب، والقائد في تلك الأيام، فهل يعلم المؤسس أن المملكة التي أشادها بالكفاح والبناء تبيع اليوم أكثر من عشرة آلاف برميل بترول في اليوم الواحد، وبسعر يتجاوز المئة دولار! فضلاً عن صادراتها الأخرى في الصناعات الأساسية، والبرتوكيماويات، وبعض المنتجات الزراعية وغيرها؟! وهل يعلم أن بلاده أصبحت - لقوة اقتصادها ووفرتها المالية- واحدة من الدول المهمة في "نادي العشرين"؟ وأنها تقرض وتقدم المساعدات للأشقاء والأصدقاء بمئات الملايين من الريالات دون تشوف أو منّة، وفي كثير من الأحيان "بدون سند قبض" أو "وصل استلام"!!

هذا هو عبدالعزيز التويجري عاشق البطل!.. وهو هكذا في مؤلفاته الأخرى: مفكراً، متأملاً، رصيناً، يصطاد طرائده من فضاء ثقافته الاجتماعية والفكرية والسياسية الغنية، وهو يصطاد تلك الطرائد بحذق بالغ، فلا يتكلف، ولا يتحذلق، ولا يتنطع، ولا يتقعّر، بل يسترسل في سجية سمحة، وتلقائية وعفوية، ولا تهمه عنعنات اللغة، أو غوايات الأسلوب، فنحن بالأحرى أمام أحد الحكماء، يتلو علينا تجاربه، ويقدم لنا خبراته، وفق منهج تحليلي استنباطي يتصف بالجدية والرصانة والتواضع، وأشدد هنا على "التواضع"؛ ما يدفعنا على احتـــرام أفكـــاره ورؤاه، حتى لو اختلفنـــا مع بعضهـــا، كما هو المألـــوف والمعتاد مع المفكرين والحكماء الكبار، كلهم وبلا استثناء.

*****

كنت دائم الإفادة من لقاءاتي بأبي عبدالمحسن، وهي لقاءات تتم أحياناً بلا ترتيب أو إعداد، أو بروتوكول من أي نوع، فلأول مرة يتهيأ لي أن ألتقي المفكر المعروف الأستاذ عبدالله القصيمي، كان ذلك في مجلس الشيخ عبدالعزيز في القاهرة قبل وفاة القصيمي بسنوات قليلة. كان مشهداً مثيراً بالنسبة إلّي، وهو مشهد معتاد لشخصية ثقافية متفتحة تؤمن بالحوار، ولا تنتمي أبداً إلى أي شعبة من شعب الإقصاء أو المصادرة أو احتكار الحقيقة، لقد تركَنَا الشيخ عبدالعزيز نحاور القصيمي في جناحه بفندق شيراتون القاهرة، دون أن يتدخل إلاّ في حالات فك الاشتباك من وقت لآخر، وكان يفعل ذلك برشاقة المثقف الحيّ، وعقل الحكيم الذي لا ينشد سوى الحقيقة، والوصول إلى مستوى راقٍ من التفاهم الذي لا يعني

بالضرورة التطابق في الرؤى والأفكار والتصورات.

*****

ومما أذكر من إنسانيات الشيخ عبدالعزيز، أنني حظيت في أحد الأيام بتناول طعام العشاء على مائدته الخاصة في منزله على شارع العليا العام بالرياض، (كنا ثلاثة: هو وصديق آخر لم أعد أذكره الآن، وأنا فقط)، فلم يكن هناك أحد غيرنا في غرفة الطعام، وكانت تُقدِّم الأطباق الشهية لنا خادمة فلبينية بدا لي أنها في الأربعين من عمرها (نسيت طبعاً اسمها)، فقدمها لنا الشيخ التويجري قائلاً: "هذه هي أمنا فلانة" ففهمت بأنها خادمته، ثم ذكر لنا طرفاً من قصتها الحالمة الجميلة: إنها تعمل خادمة منزلية عنده منذ سنوات، واحتاج أبو عبدالمحسن في يوم ما إلى إجراء بعض الترميمات في منزله، فاستعان بشركة سعودي أوجيه، فكان المشرف على الأعمال من قبل الشركة مهندس فرنسي الجنسية غير متزوج، وقد لاحظ الشيخ بعد مدة من الزمن، وأثناء تنفيذ الأعمال بعض التناغم في أحاسيس الفرنسي والفلبينية، ففرح بذلك، وجمعهما معاً، وعرض عليهما أن يتزوجا، وقد أتم لهما هذا الحلم بالفعل. التفت الشيخ إلى خادمته، ودعاها لتقف أمامنا، ويسألها عن أخبار الزوج وصحته وأعماله، فأخذت تجيب على أسئلته بكل أريحية، وهي لا ترى فيمن يكلمها أو يسألها "السيد"، بل الوالد العطوف، لقد خصص الشيخ للزوجين السعيدين ملحقاً مستقلاً في بيته لينعما بحياتهما وبأطفالهما المقبلين!

عبدالعزيز التويجري شخصية مختلفة، ولكي تحبها أكثر وأكثر، فلابد أن تتاح لك الفرص لمعرفتها، ليس في الكليات فحسب، بل أيضاً في التفاصيل!..

عبدالعزيز بن باز:

إلى الجنة.. يا أبا عبدالله

تربط بناتي علاقة ممتازة ببعض بنات المرحوم، سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، وهذه العلاقة المباركة تمتد أغصانها الوارفة لتشمل أهل بيتي وأهل بيته، ولهذا فإنني أعدُّ نفسي - كالمقربين من سماحته- على علم ببعض تفاصيل حياته الخاصة.

وهي في مجملها تفاصيل ينتظمها ما عرفه كل الناس عن الشيخ الجليل: التواضع، والزهد، والبساطة، والمودة المخلصة التي يمحضها كل من حوله بلا تردد.

لا شك أنني كنت دائم السؤال عن الشيخ، وعن طريقة حياته في بيته وداخل أسرته، فهو أحد الرموز الكبيرة في تاريخ الحضارة الإسلامية كلها، فإذا وفقك الله إلى نافذة تستطيع أن ترضي من خلالها شوقك إلى المعرفة، فإن من العقل ومن المنطق، أن تستغل تلك النافذة حتى آخر قطرة، للعظة، وللقدوة، وللتفكير والتأمل.

كان إكباري لهذا الرجل العلامة لا يزداد في كل يوم إلا توهجاً وسطوعاً. ولقد كنت أنقل إلى أصدقائي وأقاربي بعض دروس الشيخ ابن باز في تعامله مع أهله وأولاده. وكانت دروساً تحفل بالبساطة

والمودة، كما ذكرت أعلاه، فهو قريب من الجميع، على الرغم من انشغاله الطويل بقضايا المسلمين الذين يقبلون على مجلسه ومسجده بالعشرات، كل يوم وكل ساعة، في حشد دائم لا ينقطع قط. هذا فضلاً عما يتلقاه – رحمه الله – من رسائل ومكاتبات ومكالمات هاتفية طوال النهار وبعض ساعات الليل، وكل هؤلاء يهفون إليه: طلباً لعلمه، أو رغبة في نجواه، أو التماساً لمواساته، ولما يمكن أن يقدم لهم من مساعدة، فقد عُرف -رحمه الله- بسخائه وكرمه، فهو لا يتردد قط في كل أمر من أمور الخير والبر، بل لعله - وسع الله له فسيح جناته- كان ممن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ولقد قضى حياته الحافلة بأعمال الخير: مغيثاً للملهوف، منجداً للمظلوم، نصيراً للحق، حرباً ضروساً على الباطل، كما أنه أسهم دائماً في إقامة المشروعات الإسلامية، ومدارس تعليم القرآن الكريم واللغة العربية في داخل المملكة وخارجها. ولم يعرف عنه، على الرغم من قربه من ملوك البلاد وأمرائها ومسؤوليها وتجارها، أنه كان صاحب ثروة، أو قصور ومزارع وأملاك مختلفة، كغيره من بعض مشايخ آخرين من مجايليه أو ممن جاءوا بعده. فهؤلاء أشادوا القصور، وبنوا المزارع، وحشدوا العربات الفارهة، ووسعوا من ثرواتهم واستثماراتهم، ولو كان أبو عبدالله مقبلاً على الدنيا، أو كان من طلاب المال والثراء لما ضاهاه في ذلك أحد منهم أو من سواهم، فمن من الناس أو من ولاة الأمر يرد لأبي عبدالله طلباً أياً كان ذلك الطلب، أما ما كان يصله من مال من مصادر مختلفة، فكان ينفقه –رحمه الله- بلا تردد في أعمال الخير: صدقات، وهبات، ومساعدات.

والـذين اختلفـوا إلـى مجلـس الـشيخ أو زاروه، يجـدون أن المجلس الموقر بالعلم وبالتقوى، يحفل دائماً بالناس من كل مكان في بقاع الأرض، أصقاعها المختلفة. فهؤلاء يأتون من كل مكان؛ لأنهم يجدون في حضرة أبي عبدالله ما ينشدون من العلم والعقل، أو من الوقوف الصلب إلى جانب مطالبهم وحاجاتهم هنا، من أفريقيا، أو من آسيا، أو أوربا، أو أمريكا، فكل الأجناس وكل الأماكن يختصرها الشيخ عبدالعزيز بن باز -رحمه الله- في مجلسه.

لقد أفنى المرحوم حياته في خدمة الإسلام والمسلمين، وظل دائماً محط أنظار كل محب لهذا الدين، والجميع يحملون للشيخ في قلوبهم التقدير الجم والإكبار الذي يليق به وبعلمه.

عمل الشيخ ابن باز في القضاء حوالي أربعة عشر عاماً، فكان مبرزاً في مجاله: علماً، ونزاهة، وصدقاً.

وعمل في مجال التعليم الشرعي حوالي خمسة وعشرين عاماً، مدرساً في الفقه والتوحيد والحديث، ثم صار قيادياً في الإدارة الجامعية، أي نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية (الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله)، ثم رئيساً للجامعة نفسها لمدة خمسة أعوام.

ولعلم الشيخ عبدالعزيز بن باز وعقله وحكمته وفضله؛ فقد أصبح فيما بعد في المكان الذي يليق بأمثاله، فوضعت بيديه الفتوى، وتبوّأ أعلى الهرم في إدارات البحوث العلمية، بل هيئة كبار العلماء في البلاد. ولقد نال – رحمه الله – جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، اعترافاً بفضله، وتقديراً لنشاطاته العظيمة في مجال الدعوة والبحث والدراسات الإسلامية.

لقد كان مشهداً مهيباً وقت أداء صلاة الميت على المرحوم في بيت الله الحرام، كان كل شيء يعكس عمق الألم الذي كان يفترش وجوه الناس على مختلف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم وطبقاتهم، فهم حزينون؛ لأن عالمهم وشيخهم غادرهم، ولن يسمعوا له صوتاً بعد اليوم.

لقد أحب الناس عبدالعزيز ابن باز؛ لأنهم يعرفون صدقه، ونزاهته، وعفافه، وتقواه، وورعه، وصفاء نيته، وبعده عن الهوى والمغالاة والمحاباة، ولأنهم يعرفون -أيضاً- أنه كان يتحلى دائماً في مواقفه وتصرفاته وقراراته بالعقل، وترجيح مصلحة الأمة، وبث الفكر الذي يلم شملها، ويوحد كلمتها، والتصدي لكل ما من شأنه أن ينشر بذور الكراهية أو الحقد أو الفرقة. فلقد حارب الكثير من الفتن ووقف في وجهها، فهو الداعي دائماً إلى طاعة ولي الأمر، وهو ضد الإرهاب وترويع المؤمنين، وإخافة الآمنين والمستأمنين وبث دواعي الرعب بينهم، وانتهاك حرماتهم، وسلب حرياتهم. كل ذلك في الوقت الذي كنا نرى فيه مجتمعات إسلامية أخرى تـرزخ – مع الأسف الشديد – تحت طائلة الخلافات المرة العصيبة حتى ضاع فيها الحق، فانهدم في وجهها الأمن، وتزعزعت من تحتها الأرض، فقتل فيها الشيوخ والنساء والأطفال، واستبيحت فيه دماء الأبرياء وأموالهم وأعراضهم.

لقد أحبّنا الشيخ عبدالعزيز بن باز فأحببناه، ولا شك أننا بفقده فقدنا عالماً جليلاً جعل من علمه مشعلاً للخير، وطريقاً للبر، وجسراً إلى التلاحم والتعاون في الحق ومن أجله. غفر الله له، وأسكنه جنات الخلد مع النبيين والشهداء والصالحين.

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل:
ذاتَ وطنْ.. في ذلك البحر الرملي الهائج!

ذات وطن.. كان هناك رجل!

ذات رجل.. أقبل إلينا وطن!

الوطن "زمن".. وجغرافيا.. و..دم.

الرجل "مكان" ينتج الزمن.. الوطن "زمان" يجترح الطموح.. والدم.

ذات وطن.. تقدم الرجل!..

لقد كان، حقاً، مهيباً!.. وعبقرياً

ذات رجل تزاحم الوطن نحو أفقٍ بعيد..

لقد كان، فعلاً بهيجاً!

الوطن بهيج.. الأفق بهيج.. وعبدالعزيز الفذ لم تكن معجزته الكبرى، هي "الفتح".

المعجزة النادرة بالأحرى، كانت مزج الدم بالدم، كي يتشكل "الوطن" النابه بالتحدي والتوق!

ثم خرج للناس في أبهته الفائقة: عقاله المطرز بالذهب والعز، وعباءته الموشاة بالمجد والحب.

كانت القبائل المتفاقمة نهباً للشمس، والغبار، والعزلة، والتربص المرير، وكان عبدالعزيز، هو المنقذ الذي يعيش الحلم بمزج الدم، وخلط اللحم باللحم.

كانت هناك الفكرة المشعة لقيام "القبيلة" الأرحب التي علمنا "شيخنا" الملك أن نسميها "الشعب".

ذات وطن فتح الرجل/ الملك عينيه على مساحة شاسعةٍ، وناسٍ يغنون نشيداً واحداً، ويتسابقون إليه في خيط طويل ليست له نهاية!

"الشعب"، أو القبيلة الأرحب، امتزج فيها الدم الآن، واختلط فيها اللحم باللحم، وتوارت العزلة، وانقضى التربص المرير.

ذات رجل نهض الوطن، يقشع عن جسده الغض غشاء الشمس والغبار، ليلج قاموساً جديداً، كانت أضخم مفردة فيه هي: الدولة!

يومها تلفت العالم حوله مندهشاً!.. من الرجل؟.. من الملك؟

لقد كان مأخوذاً بالوطن، يرقب ميلاد "الشعب"، وقيام القبيلة الأرحب، وتوثب الدولة!

كان بالفعل مشهداً مبهراً!.. ليس لضخامة الإنجاز فقط، ولكن لتواضع الأدوات التي حركت دواليبه بتلك السرعة، وبذلك الإصرار، وبهذا الوثب الفريد!

يومها تلفت التاريخ حوله (هو الآخر)، ملاحظاً التشكل السريع

لشروط "القائد" الجديد، الخارج من غسق الأرض، وكان أبرز تلك الشروط ، هو شرط "الندرة".

فقليلـون هـم الـذين –كعبـدالعزيز- اخترقـوا حـصن التـاريخ بأدوات متواضعة!

وقليلون هم الذين –كعبدالعزيز- اختاروا للزمان لونه، وللمكان مخيلته، معتمدين فقط على "الموهبة"، وذكاء الصحراء النافذ!

أجل!.. عبدالعزيز كانت مسؤوليته ضخمة، وهي غير مسؤولية "الفتح"!

لقد كانت مسؤوليته جمع حبات المسبحة التي انفرطت منذ قرون!..

جمع الناس.ز ومزج الدم.. وخلط اللحم باللحم!

وأية مسؤولية؟!

المسبحة فيها حبات من مختلف المعادن والأحجام، ومن مختلف الأشكال والألوان!..

والاختلاف يصل أحياناً لدرجة التنافر المحيق، وكل سمكة كبيرة في هذا البحر الرملي الهائج، تفترس ما يقع تحت فكيها من حجر ومدر وبشر.

المسبحة كانت مثقلة بأوجاع قديمة، وأطماع تتجدد فجر كل يوم!

والأهواء كانت تنفذ إلى غاياتها بسلاح مضاء، يأكل جميع ما في طريقه، كان اسمه الجهل!

عبـدالعزيز الخـارج مـن لؤلـؤة الحلـم، نهـض فـي وقتـه وحـده، واخترق جدار التـاريخ بموهبتـه وحـدها، فأعـاد نظـم حبـات المسبحة بعـد أن هـذبها، وبعـد أن أزاح عنهـا الزوائـد والطفيليـات والنتـوءات، وبعد أن قشع عنها الغبار والدخان والسجم، ثـم جعلهـا خلقاً جديـداً مكيناً!

فكان الشعب، وكانت الدولة، وازدادت القبيلة الأرحب إمعاناً في مزج دمها بالدم، وفي خلط لحمها باللحم، والوطن شامخ في عباءته النقية كماء العين، منتصب في عقاله المطرز بالذهب وخيوط العز!

المشروع كان والله أبعد من "الفتح"!.. المـشروع الحق، هـو مـشروع القبائـل المتفاقمـة التـي تحولـت إلـى "قبيلـة" واحـدة أرحـب، ألقى فيها عبدالعزيز الملهم ببذرةٍ متمرّدة تفتقت عن رؤى "شعب".

والمـشروع المـذهل، هـو مـشروع النوايـا التـي كانـت تحكمهـا الطقـوس المـضطربة، فـي البحـر الرملـي الهـائج، فتحولـت بلحظـة تاريخية خارقة لم تطل، إلى "نية" واحدة لا غير، نية كانت أبهى من كل زهوات الأزمنة، وأنقى من كل ابتهالات الأمكنة.

ولقد سماها شيخنا عبدالعزيز: نجوى وطن!

ذات وطن كان هناك رجل.

من يستطيع أن يبني هذا البناء؟!

ذات رجل أقبل إلينا وطن!

من يستطيع أن يزرع في أعطاف الشمس بهجتها؟! وأن يكتب على وجه القمر تشوقه؟!

الرجل كان حقاً مهيباً.

والوطن ما زال فعلاً، يتزاحم نحو أفقه البعيد.

*****

عبدالعزيز، عمود من نور ينتصب مزهواً في قلب تاريخ العرب الحديث، لقد جاء -حينما جاء- ولم يكن في ذهنه أن يستعيد فقط مجد أجداده وملكهم، بل كان يعمر ذلك الذهن ما هو أكبر، وما هو أهم، ونعني بناء الدولة الحديثة القوية التي تحتضن "شعوب" الجزيرة وقبائلها التي تفرقت بها السبل، وفتك بها الجهل والخلاف، وتحكيم المفاهيم القبلية الضيقة في علاقاتها ومصالحها.

ولقد نجح عبدالعزيز في مهمته الكبرى، وطموحه الرائد فأعطى للعرب بذلكسنداً قوياً هو هذه الدولة التي ظلت وفيَّة لكل قضايا الأمة، مدافعة عن كل أهدافها، بل لعل خير العرب وخير الإسلام معقودان في ناصيتها، بما هي عليه من قوة واستقرار وثقة، وبما يميزها من نقاء السريرة والإخلاص والصدق.

إن علاقة الملك عبدالعزيز –رحمه الله- بتطلعات الشباب العربي في كل مكان علاقة موقف وهدف ونضال، فالمستنيرون من هؤلاء يرمون عن قوس واحدة، وهي خلق أنماط فاعلة لقوى عربية مؤثرة تستطيع أن تشكِّل ثقلاً مرجحاً في الصراعات والأطماع التي تحاصر هذه الأمة من كل الجوانب.

هذا فضلاً عن أن نمط "الوحدة" الذي أنجزه الملك عبدالعزيز كان يرتكز أساساً على مواريث صميمية تتعلق بشرعية الحضارة العربية، واستمرار "الوجود" للأمة الإسلامية الشاملة. فلقد خلت

جعبة الملك الموحِّد من كل الشعارات إلاّ شعاراً واحداً، هو الإسلام وترسـيخ عقيدتـه، ومبادئـه، وأخلاقياتـه، وتـشريعاته، وقوانينـه، وعبدالعزيز –يومها- كان أحرى الناس بهذا الفعل المجيد للارتباط العريق الذي رسخه البيت السعودي لنفسه بالدين؛ ولأن الإنجاز العظيم الذي كان بصدده هذا القائد الفذّ كان يشمل منابع الإسلام الأولى في مكة المكرمة والمدينة المنورة.

لقد قام الكيان الواحد من هذه المنطلقات، فشفى غليل شباب العرب في كثير من الأقطار، لاسيما تلك التي كانت ما تزال نهباً للتشتت والانقسام، وتلك التي كان المستعمر لا يفتأ يخنق فيها كل منافذ التنفس. ولقد كان خروج عبدالعزيز بمثل هذا المستوى من الطرح والفعل والإنجاز مؤشراً –يومها- على أن "العبقرية" العربية مازالت خصبة، وعبدالعزيز هو المثال. كما أن الجميع قد عدوا أن ذلك النموذج الذي طرحه للوحدة –وفي تلك المرحلة بالذات- يُعدُّ دليلاً على الأبعاد العميقة لقياديَّة الرجل، كما يعد أحد المقاييس الواضحة لآماد طموحه وسعة تصوّره.

وهنا نال عبدالعزيز ما يريد، وهنا أيضاً حظى باحترام الجميع وتعلقهم بنموذجه في القيادة، والتصور، والطموح، والإنجاز. وهنا كذلك كان قد تحول بالفعل إلى عمود من نور يرتكز في قلب التاريخ الحديث لهذه الأمة. وتجربة الملك عبدالعزيز إن كانت فريدة –واقعاً وتصوراً- في المرحلة العربية الحديثة، إلاّ أننا نعتقد أنها كانت أيضاً محفِّزاً للكثير من الفئات المناضلة الفاعلة في كثير من الأقطار العربية للمطالبة بطرد المستعمر وكفاحه، وتحقيق الاستقلال، والحفاظ على السيادات الوطنية. إنه قد حقق "الوحدة" لبلاده، لكنه –في ذات

الوقت- كان مُلْهماً - بطريق مباشر أو غير مباشر- للعديد من الثّورات وحركات الاستقلال التي توالت فيما بعد في أجزاء الوطن العربي الشاسعة، حتى وإن استمر بقاء القوى الاستعمارية في بعض تلك الأقطار إلى ما بعد مرحلة عبدالعزيز، إلاّ أن "وقدة" الشموخ في القوى النضالية، كانت أقدم بكثير من تفكير المستعمر في المغادرة والنكوص على أعقابه.

هذا هو ما يعنيه عبدالعزيز في ذاكرة الشعوب العربية. ولقد أخذت تتحدث عنه الأوساط السياسية والعلمية خارج الوطن العربي بكثير من الدهشة والإكبار، الدهشة لما حقق بوسائله البدائية البسيطة، والإكبار لطموح القائد الرائد فيه. ويكفي أن تذكر اسم "ابن سعود" في الأوساط السياسية والمثقفة في جميع أنحاء العالم؛ لتنهال خيالات المتحدثين عنه بما يشبه الوقوف أمام الظواهر الأسطورية والخارقة. والذين درسوا في الجامعات الغربية، أو احتكوا بتلك الأوساط هناك يدركون هذه الحقيقة حق الإدراك، حتى لكأنهم يلمسونها لمساً مادّاً في تعامل تلك الأوساط معهم، بعد أن يعرفوا علاقتهم بابن سعود، وبالدولة الكبيرة التي أنشأ وأسس.

والشباب السعودي نفسه يعرف تماماً، ما يتضمن "رمز" عبدالعزيز من مضامين وطنية وقومية وإسلامية ثرَّة، لاسيما وهو ينعم اليوم –في كنف هذا الوطن الكبير- بنموذج فريد للتلاحم، هو مصدر قوته، وأساس ثقله في الميزان الإقليمي والساحة الدولية. كما أن هذا الشباب يستطيع أن يتصور أوضاع بلاده لو لم يجمعها هذا الرجل العظيم تحت لواء واحد. لقد نظن أنها كانت ستبقى عبارة عن تجمعات قبلية وعشائرية منقسمة على نفسها، يأكل بعضها

بعـضاً، ويـشغلها عـن بنـاء الكيـان وتـشييده الكثيـر مـن العنعنـات الساذجة التي كثيراً ما تعشعش في مثل تلك التجمعات.

إن عبـدالعزيز بالنـسبة لهـؤلاء الـشباب لـيس بطـلاً سياسـياً وعسكرياً فقط، ولكنه أيضاً رمز إيحائي ينبثق من إشعاعه الكثير من معاني الاستقلال والاستقرار، والقوة والإصرار، كما ينهمر منه الكثير من الإضاءات الواعية المليئة بشموخ العزّة، وبالرغبة المكينة في الحفاظ على الإنجاز وصيانته. كما أن عبدالعزيز –بعد هذا- هو الإلهام القائم في كل إجراء حضاري يفكر فيه أهله ومواطنوه من الخليج إلى البحر الأحمر. فعبدالعزيز "التاريخ"، هو أيضاً "الرمز" الوطني الكبير الذي يقف عند كل فاصلة في ملحمة البناء العريضة الممتدة من الوريد إلى الوريد.

ما زال عبدالعزيز واقفاً في كل منعطف في مسيرتنا الباهرة، فهو الذي حقق "الوحدة"، و "رمزه" الكبير سيظل الهاجس الملح –في أذهان الجيل- على صونها حمايتها، والدفاع عنها، والنضال من أجلها.

*****

يـا وطـن دبـت الحيـاة فـي الأشـلاء، ففـرض عليهـا طمـوح عبدالعزيز وشائج مُبهرة، كان قد تقادم بها العهد حتى اضمحلت، ووهنت، فلم يبق فيها من ريح الله ريح!

لم يعد يلوح في السماء إلا راية واحدة، بعد أن كان الفضاء، كل الفضاء، يعج بالرايات وأنفاس الخصومة والبغض.

كان الجواد الذي أسرج لنا، هو جواد الوحدة والحرية، بعد أن حفيت أقدامنا من طول التسكّع في أزقة الجهل والنعرات والعفن السحيق!

سعد الدم في الجسد الضامر المثقل بشكوكه وأوهامه، فتفجرت فيه الأغصان والأوراق، وغنت لعيده العصافير والنوارس.

أفقنا من خدر الأحلام الضحلة، فكان علينا أن ننهض، وأن ننفض الغبار عن أهدابنا، فكانت المفاجأة أشد شراسة مما كنا نتصور، فخيول الحضارة كانت قد غادرتنا منذ زمن، بل لم يبق منها إلاّ الرماد وبعض الجروح!

تلفتنا حولنا، فوجدنا أنفسنا محاطين بالبوم، وحرافيش الليل، ونُضْب المقابر، فكان علينا أن نختار: إما الجنة، وإما النار، فاخترنا المستقبل يا وطن!..

اخترنا الحرية بدل السجن!

واخترنا النور بدل الظلام!

واخترنا الحق بدل الباطل.

وخرجنا من القمقم الكئيب إلى فضاء التاريخ البهيج!

بنينا هرماً شاهقاً من الطموح!.. وشيدنا قلعة باذخة من الآمال، والتففنا حول عبدالعزيز نأخذه إلى صدورنا وحتى جوانحنا؛ كي تولد أنت يا وطن.

في ذلك اليوم وُلدتَ يا وطن..

فكان لا ماء.. وكان لا شجر!

كان هناك فقط نهر طويل من الحب ومن الدموع!

في ذلك اليوم أشفقنا عليك يا وطن، فقد كنت عرضة لنزلات البرد في جسدك العاري، وقوامك النحيل، لكننا –مع عبدالعزيز- لم نبخل عليك بشيء، فقد أوقدنا حولك نار الحب لتدفأ، وقد أغدقنا عليك من ماء القلب لنطرد عنك بغتات المرض.

وماذا كنا نملك يومها غير الحب وغير ماء القلب يا وطن؟!

لقد جعلنا من كل ذلك معاشك، وجعلنا من كل ذلك كساءك.

لقد كنت بالفعل نحيلاً!.. وكنت بالفعل قليلاً..

لكنك كنت –ورب الكعبة- على الرغم من كل شيء جميلاً وعظيماً ومهولاً!

مشيت يا وطن ومشينا خلفك ومعك ومن حولك، نحبسك داخل العين، ونُحيك من دمك توهجنا وأحلامنا!

قرأناك سطراً سطراً

وكتبناك حرفاً حرفاً.

وعنيناك نشيداً عذباً في الطرقات، والساحات، والكتاتيب، والمدارس.

نعم، لقد أدخلناك معنا إلى المدارس، بعد أن أصبح لدينا مدارس.

أجلسناك معنا، إلى جانبنا، على مقاعد الدرس؛ كي تنهرنا عندما نتغافل عنك، وكي تضربنا على أصابعنا عندما تعود إلى اختراقنا بعض عقدنا القديمة!

كنت أنت معلمنا الحقيقي، في قسماتك الشديدة، وفي صوتك الشجي.

كنت تنتصب بيننا كشلال الضوء، وكنا ندور حولك، ونطوف بك، كأنك وعدنا اللازب مع المستقبل والتاريخ الجديد.

نعم، لقد أخذناك معنا إلى المزرعة والحقل، بعد أن أصبح لدينا حقول ومزارع،

غرسناك تحت الجلد، تحت الجفن، في عمق المحاجر!

ثم أسقيناك من أحلامنا حتى رويت،

فأسقيتنا من كبريائك حتى سكرنا يا وطن.

كنت أنت النبتة التي أشبعتنا.

وكنت أنت العشبة التي تصاعدت في الصدر.

خرجت علينا يا وطن من سنابل القمح، ومن عذوق النخل، ومن عناقيد العنب.

تدفقت نحونا يا وطن في جداول الماء.

وعناقتنا يا وطن في بيادر الحصاد.

نعم.. لقد اصطحبناك إلى المصنع ومراكز الإنتاج، بعد أن أصبح لدينا مصانع ومراكز إنتاج. رأيناك تلوب في تروس الآلات، وسمعناك تغني في هدير المكائن، أعجبتنا رياضتك الرشيقة بين التروس، وفتننا غناؤك الجميل العذب المنبعث من صخب الحديد، فوقفنا بين يديك، نهتف بحياتك، ونصفق لك..

فكنت كريماً يا وطن..

لم تتوقف لحظة عن الحب والضجيج.

كنت تبدأ وتعيد.

وكنا نستزيد.

نعم، لقد رافقتنا يا وطن في المحافل والمنتديات، بعد أن أصبحنا نذهب إلى المحافل، وبعد أن أمسينا نرتاد المنتديات.

كنت تقف بين عيوننا، بالضبط فوق مقدمة الأنف.

فكنت زهونا..

وكنت خيلاءنا..

كنت حاضراً في ضمائرنا وعقولنا، فكنت أنت قائدنا وملهمنا.

كنت تتفجر في عواطفنا وقلوبنا، فكنت شعرنا الجميل الذي نصدح به، وكنت كلماتنا المتوهجة الأنيقة التي تحتل بياض الأوراق، وتتدفق من بين شفاهنا وأصابعنا.

كنت أنت يا وطن فكرنا.

وكنت أنت يا وطن لغتنا.

لم نبرحك يا وطن، ولم تبرحنا، في كل ساحات التباهي، وكل حومات الافتخار، فكنا نردد، ونردد، ونردد: لقد أشدنا وطناً في كامل عافيته وجبروته، لحمته "الوحدة"، وسداه "الحرية".

وكنا نقول.. ونقول..ونقول: لقد عجنا الجغرافيا بدم الحب، فأقمنا كياناً ضخماً باهراً يملأ الفضاء، بل يسد الأفق.

وكنا نهتف، ونهتف، ونهتف: لقد أعدنا خلطة الطموح بالإرادة الفذة فاستولدنا التاريخ مجداً جديداً للدين وللأمة، فكانت النتيجة نموذجنا في "الدولة"، وهي الدولة التي انتحرت على أعتابها قيم التشرذم، وهي الدولة التي أهلكت التخلف، وبنت صورة زاهية للمستقبل!

من حق كل من جرى في عروقه دم عربي أن يزهو بما أنجز عبدالعزيز، وأن يعتد بما بنينا بعد عبدالعزيز.

وها نحن يا وطن نقف على تخوم غد أبهى وأجمل، يحفل بوعود خضراء لا تمل ولا تعرف التعب!

فبعد أن "وحّدنا"، وبعد أن فرغنا من أساسات البناء، ها نحن نشرع معاً في تعبيد ساحات "الحوار"، أي بناء عقل جديد. لك يا وطن، يحرس "الوحدة"، ويحمي "البناء".

لقد نجحنا في مرحلة "التوحيد"، ونجحنا في مرحلة إنجاز البناء، وسننجح - بإذن الله- في مرحلة الحوار وصيانة العقل الجديد.

فلتهنا بكل الذي تحقق يا وطن!

ولنهنأ نحن بك!

وابق في القلب!

*****

ضع إبهامك على شغاف القلب وغنّ!..

غنَّ طويلاً للوطن!

ابسط ذراعك في الفضاء الرحب..

أبسطه بعيداً، ثم اهتف من ذؤابة الحس:

حبيبي وطن!

اسند رأسك إلى الجدار، ثم أغلق عينيك قليلاً وأصعد!

أصعد ملياً في رؤيا الوطن!

ها هو يقف في كامل هيبته: ثوبه الأبيض، وعقاله الموشى بحبات العزّ!

يُعْبل على "ذكراه" الكبرى ببهاء نادر، وذاكرة تحتمي دائماً بحبٍ فسيح لا يحده حدّ، وليس له من منعٍ ولا ردّ!

بعد ساعات فقط ، سنعلّق في عنقه عهداً جديداً لمستقبل باهر أجدّ.

وفي تَوْقِنا المتوثب نعلن بجرأة: ليس لدينا شيء اسمه "الآن"، بل لدينا تحدٍّ ضخم لا ينفعك ولا ينثني، اسمه المستقبل، ولدينا، قبل ذلك وبعده، جذرٌ راسخ لا يهون اسمه الماضي، ذلك الماضي الذي نستمد منه هذا الوهج، حيث نخترق به التاريخ من الجنب إلى الجنب!

بعد ساعات سيعلن الوطن حفلته الخاصة، وسيدعو لهذه الحفلة بعض أصدقائه الخلَّص: الجذر/ التاريخ، والمستقبل/ الوهج، ونحن سنكون هناك للغناء، والنشيد، وهتاف الحب والقلب.

الصوت يأتي من بعيد، ثم من قريب، هذا هو الوطن، وها أنا سأضمه إلى صدري وهو في كامل هيبته: سيفه المصقول، عباءته البيضاء المطرَّزة بخيوط الذهب، اللمّاعة كالكبرياء، الفضفاضة كالمطر.

سأجعله بين عيني وعيني، وسأدعه يخترق جسدي كالبهجة!..

بعد قليل سيعيد الوطن قراءة ذاكرته، وسيلقي علينا درساً بليغاً في "كيمياء" القوة، وسيعطينا حصةً في "أدب" الحب، وسنمشي –كما كنا دائماً- إلى جانبه نتفيأ هذه العباءة الوافرة، ونستظل هذه الهيبة الكاملة، وتمسَّح بهذا السيف المصقول.

الذين لهم وطن كهذا لا يهمهم أحد: خلفهم صهيل خيول لا يحصرها عدّ ولا مدّ، وأمامهم وهج عجيب لغدٍ فارع الطول، بارع القدّ.

وهذا الغد نلمحه يقبل حثيثاً وهو محمّلٌ بوعود مزهرة، وتلك الوعود لا تنمو أبدا في أرض سبخة!.. فهي دائماً تنبجس، كعنق البحر، من الأرض التي لا تعرف التخاذل أو الجبن، أو الأخذ والردّ.

يوم كنّا صغاراً، كنا نظن أن الوطن كلمة عابرة في نشيدنا الصباحي بالمدرسة، وكنا نظنه مجرد خطوط عبثية غير متناسقة في كتاب الجغرافيا أو أطلس العالم، نعترف أيضاً بأننا كنا نحسبه جملة اعتراضية في خطب السياسيين، أو حشواً من زوائد الكلام في برامج المذيعين ونشرات الأخبار، وكتابات المعلقين والصحفيين.

نقولها صراحة بأننا كنا نتوقعه ترفاً في حوارات المثقفين، أو

ضرورة شعرية في قصائد الموهوبين، أو خطّاً زائداً على ريشة الرسامين والفنانين.

وفجأة وبعد أن بدأنا نفهم، والفهم مشقة، أدركنا أن الوطن هو هذه الهزّة المدهشة التي تجتاح القلب في كل لحظة من الجدار إلى الجدار، وأنه هذا الشموخ الذي ينفخ في الروح في كل حين من العضد إلى العضد.

وعرفنا –فوق ذلك- أن الوطن هو هذا الغرام المشتعل الذي لا يفني أبداً، وأنه هذا الهاجس الجميل الذي لا نملّ إلحاحه، وأنه هذا الحلم النابه الذي يروقنا أن نستلقى دائماً بين كفيه، وفوق، صدره وفي أحضانه.

يوم كنا صغاراً، كنا نحسب أن الوطن عنصر من خارجنا، فكبرنا وفهمنا أن الوطن هو هذا الحصان النافر الذي يتوثب دون توقف في عمقنا، وفي داخلنا!

يوم كنا نلعب، فنبني بيوتنا الطينية في لحظة، لنهدمها في لحظة، ثم لنعيد بناءها من جديد؛ كنا نحس أن الوطن كلمة معقدة تحتاج عقولنا الصغيرة إلى ألف قاموس وقاموس لفهمها، وإدراك أبعادها وحدودها، وفكّ طلاسمها ورموزها، فهي كلمة لا يجيد وضعها في جملة مفيدة سوى الكبار، أو أولئك الذين أوتوا من العلم كثيراً وكثيراً.

فكبرنا، وكبرت معنا ضمائرنا، واكتشفنا أن الوطن هو كل الحروف وكل الكلمات، وكل القصائد، وكل المعلقات.

وهــو - فــي النهايــة- أبــو القــواميس، وجــدّها، وصــانعها، ومبتكرها.

يـوم كنـا نتـدحرج فـوق الرمـل، فيكـسو ذلـك الرمـل جلودنـا ووجوهنـا، كانـت أمهاتنـا يـضربننا علـى أصـابعنا؛ لأننـا عبثنـا بألبـسة المدرسة، وهذا لا يجوز فـ"النظافة من الإيمان".

ولكـن بعـد أن صـرنا كبـاراً، كانـت الأمهـات أنفـسهن لا يـروقهن منظرنا إلاّ ونحن نغتسل بالرمل، فينتشر علـى أجسادنا، وتتثاقل به أجفاننا ورموشنا!..

يومها فقط تنبهنا إلى الفرق الشاسع بين الرمل والرمل.

يومها فقط تعلمنا متى يمكن للرمل أن يكون حجة للضرب على الأصابع، ومتى يمكن له أن يكون، هو نفسه، سبباً للانبهار والاختيال، وزهور الأمهات.

يـوم كنـا فـي الـصفوف الأولـى فـي المدرسـة، كـان المدرسـون يقولون لنا: اغسلوا أيديكم جيداً بعد التراب!.. احفظوا عيونكم عن التـراب!.. ارفعـوا ثيـابكم عـن التـراب، تنفّـسوا بعيـداً عـن الغبـار والتراب. وكنا –ببراءة- نصدقهم في كل ما يقولون، وأبعد من ذلك، كنا نجتهد في الأخذ بكل ما يأمرون.

لكـن هـؤلاء المدرسـين –بعـد أن كبرنـا- صـاروا يقولـون لنـا: عليكم بالتراب، دونكم التراب، تمرغوا فيه من الجلد إلى الجلد، أي أنهم أصبحوا يلقنوننا دروساً إضافية في فنّ عشق التراب، وفي طرق ووسائل الموت من أجل التراب!!..

ما فتئنا نحسهم يزرعون في روعنا، أن ذرّة من التراب أغلى من نهر من الدم، وأن قُبْلةً فوق خدّ التراب، هي أقدس جميع أنواع الحب، وأن حلماً قصيراً فوق وسادة التراب، هو حلم لا يضاهيه أي حلم، وأن رقصة تتثنى في حضرة التراب هي عيد لا يشبهه في الدنيا أي عيد.

يومها فقط أحسسنا جيداً الفرق الحاد بين التراب والتراب، وأضفنا إلى تجربتنا علماً جديداً، وخبرة بكراً جديدة أيضاً.

فقد أضحى يستقر في محزوننا الوجداني الفرق بين التراب الذي يقود إلى الطبيب، والتراب الذي يقود إلى المجد.

التراب الذي يقذي العين، والتراب الذي يملؤها كبرياء وغروراً.

التراب الذي يغشى الجسد، فيضطرنا للغسل، والتراب الذي يدخل عبر مسامّ الجلد، فيخترق اللحم والعظم ليزيدنا نضارة وقوة وحبوراً.

التراب الذي تجرّه العاصفة، فلا نخرج من المنازل؛ لأنه يتسرّب إلى الرئة فيوهنها، ويصعد إلى الأنوف فيزكمها، والتراب الذي تحتمي بين ذراته كهرباء الحب، وتتدفق من بين أصلابه مياه يقولون: غنها مياه الغندرة!!

لله كم كنا صغارً، وكم كان الوطن يمضي في عيِّه وكبريائه.

لكنه غنيٌّ كالمطر، ولكنها كبرياء هي الوهج والبهجة.

بعـد سـاعات سـيعلن الـوطن حفلتـه الخاصـة، وهـو فـي كامـل هيبته، وسأتقدم منه وأنا في كامل ارتباكي.

سـأقبله فـوق جبهتـه، وسـأضـع يـده فـوق كتفي، وأنـا فـي كامـل ارتباكي.

سأمـضي معـه مـسافة أو مـسافتين، وسأقـضي معـه حيـاة أو حياتين، وأنا في كامل ارتباكي.

كل ذلك لأنني أخشاه، وأخشى هـذه الوقفة الجليلة: جـذره فـي الأرض، وعنقه هناك، في البعيد، البعيد جداً، في السماء!

بعـد قليـل سـيعيد الـوطن قـراءة ذاكرتـه، وسـيرى أننـي كنـت صغيراً جداً، وأنه كان أكبر من كل شيء.

وحينذاك سأدعه، كاللذة المجنونة، يخترق جسدي، فـي عقاله الموشـى بحبـات العزّ، فـي عباءتـه المطـرزة بخيـوط الـذهب، اللمّاعـة كدماء القلب، الوهّاجة كماء العين!

ضع إبهامك على شغاف القلب وغنّ..

غنّ طويلاً للوطن فهذا يومه..

ابسط ذراعك في الفضاء الرحب.. ثم اهتف..

اهتف من ذؤابة الخيلاء:

حبيبي وطن.

اسند رأسك إلى الجدار وأحلم.

أحلم بيومك هذا.. في زمانك هذا.

هو يوم الوطن.

هو زمان الحب.

عبدالعزيز مشري:
مات واقفاً

قابلت عبدالعزيز مشري مرة واحدة فقط في حياتي وحياته. كان ذلك في المستشفى العسكري بالرياض، وقد حدث ذلك خلال إحدى جولاته المريرة الكثيرة مع المرض. كان محاطاً بأصدقائه: سعد الدوسري، وصالح الأشقر، وعبدالله الصيخان، وآخرين. وكلهم يومها كانوا حزينين متألمين. وكان عبدالعزيز مشري، هو الوحيد الذي كان مشرقاً مبتسماً لا يأبه للمرض الذي يعوث في جسده فساداً، والوحيد الذي كان لا يلقي بالاً للألم الذي كان يأخذ بمجامع وجدانه.

من سوء حظي أنني لم ألتق عبدالعزيز بعد تلك المرة، فلما علمت بوفاته شعرت بفداحة تقصيري الشديد حياله. فزيارة واحدة للمشري لم تكن أبداً كافية!.. ولعل الذي لم يجعلني أكرر زياراتي له، أن معرفتنا الشخصية في الأصل لم تكن لصيقة، وأن ملازمة الأمراض والآلام للمشري لم تكن عابرة أو متقطعة، بل هي - مع

الأسف – كانت دائمة ومستمرة، حتى أصبحت لكل متابعـي أخباره –مثلي– جزءاً منه، ومن حياته المترعة بالعذابات والنكسات. فليس هناك إذاً من طارئ يستوجب الاستنفار، أو من جديد يستوجب التأهب والمبادرة.

أنـا لا أريـد هنـا أن أبـرر تقـصيري مـع المرحـوم الأسـتاذ عبدالعزيز المشري، ولكني بالأحرى أريد أن أشرح حالة استثنائية لم يحدث لها مثيل، ألا وهي علاقة المشري مع الآلام. وأستطيع أن أقول بأنني منذ أن سمعت عن عبدالعزيز مشري، ومنذ أن بدأت أتابع أعماله وإبداعاته؛ كنت أسمع أنه مريض، وأنه لا يخرج من كارثة مرضية إلا ليدخل كارثة أخرى أشد، فلعلّي هكذا فتحت عيني على المشري والألم جزء منه. فكلما جاء ذكر للمشري، أو ذكر لبعض أعماله؛ كانت صورة المرض حاضرة، صورة العذابات. وإذا ما حضرت هذه الصورة، حضرت الصورة الأخرى التي رأيته عليها في زيـارتي اليتيمـة لـه بالمستـشفى العـسكري بالريـاض حاضـرة هـي الأخرى. الوجه الآخر للعملة، هي الشجاعة النادرة التي كان يتمتع بها المشري، الصمود والمقاومة؛ لدرجة أنني كنت أحسّ دائماً بأن عبدالعزيز مشري، هو الذي قهر الألم، وهو الذي تحدّاه وتفوق عليه، فلم يترك له الفرصة ليسكته، أو ليوقف النبض في قلبه ووجدانه وعقله!.. ولقد كان الإبداع هو أهم أدوات حربه ضد اليأس والسكون، كانت الكتابة هي سلاحه الفتّاك الذي قهر به سنوات طويلة من المرض، أو صديقه اللدود الذي لم يفارقه إلاّ وهو على

حافة القبر، أو في داخله!

لقد أخرج لنا المشري من بين ركامه، أو حطامه، أعمالاً إبداعية تلقفها النقاد والناس بكثير من الحب، فأثرت عقولهم ووجدانهم، وبقيت شاهداً نيّراً على قلب كبير خصب لم ينله الخور، وظلت دليلاً ساطعاً على عقل متوقد متدفق لم يصبه الوهن، على الرغم من فظاعة الأحوال والأطوار التي كانت تحيط بصاحب ذلك القلب، وصاحب ذلك العقل!

لا، بل أن طموح المشري قد تجاوز كل ظروفه السوداء، فكان - فيما أحسب- هو أول من جرب كتابة الرواية بين معاصريه أو مجايليه من مبدعينا، فأخرج لنا "وسمية" قبل غازي القصيبي، أو تركي الحمد، أو عبده خال، أو غيرهم. فهو هكذا أول من حطم الجدار الوهمي الذي كان يقف بين مبدعينا، وبين هذا الفن الراقي من فنون الكتابة، أي أنه هو الذي وضع البذرة الأولى في الحقل الجميل الذي أخذ ينمو من حولنا، وعلى أيدي مبدعين لفتوا إليهم الأنظار في داخل بلادنا وخارجها!

لعل المشري قد استراح مما كان يكابده، ونحن حزينون لفراقه، ولكنه مازال مقيماً بيننا، بل أنه سيرافق الأجيال التي ستأتي بعدنا؛ لأنه ترك وراءه أعمالاً إبداعية ستقاوم الموت وستتفوق عليه.

عبدالعزيز مشري لم يلتق الموت كما التقاه الآخرون، لقد مات

واقفاً. مـات وقلمـه مـشرع فـي يـده لمزيـد مـن النـزال، لمزيـد مـن الإبداع.

عبدالفتاح ناظر:

انطفأ فجأة

لم أقابل في حياتي قط المرحوم د. عبدالفتاح ناظر، ومع هذا، فقد حزنت لوفاته أشد الحزن. فوجدتني منقاداً للكتابة عنه: مؤبناً، وراثياً، ومكفكفاً بعض هذا المطر من الدموع التي سفحها عليه ومن أجله العديدون من أصدقائه ومحبيه.

لقد تملكني كل هذا القدر من الحزن بسبب ما رأيته على وجوه معارفه ومحبيه من علائم الفقد وسحب الفجيعة. فأدركت أن للفقيد حظوة ومنزلة عند كل الذين خالطوه، أو التقوه، أو تعاونوا معه، أو تعاون معهم، وهذا أمر لا يحصل إلا لمن تحلى بصفات، وتزين بمميزات، تجعله محط أنظار الناس، وقريباً من قلوبهم، ولعلي - مثل غيري من الذين يقرؤون ويتابعون- قد استعدت في ذهني بعض ما سمعت أو قرأت عن المرحوم من إنجازات، أو نشاطات، كانت تدل كلها على ذكاء في التصرف، وحيوية في الممارسة، ورغبة مخلصة في الإسهام، لاسيما في المجالات ذات العلاقة بالجمهور، حيث تكون الحركة واضحة لكل الناس، وحيث يكون العمل مكشوفاً

تحت كل الأنظار، فالصواب يكبر حجمه، والخطأ يتعاظم خطره. وقد اشـتهر الفقيـد بتعلقـه بالرياضـة وشـؤونها وشـجونها، وهـي مـن النـشاطات الجماهيريـة التـي يتابعهـا النـاس كلهـم، ويحاسـب عليهـا الناس كلهم، وقد كان فيها د. عبدالفتاح ناظر ملء السمع و البصر، سواء فيما يختص منها بناديه الذي أحبه وأخلص له"الاتحاد"، أم فيمـا أوكـل إليـه مـن مـسؤوليات أخـرى أعـم وأشـمل، كالاتحـاد السعودي لكرة القدم.

إن من يكون من ضمن اهتماماته الرياضة وشؤونها، يأخذ في تصورات الناس شكلاً ذهنياً مثالياً من حيث مستواه الصحي وسلامة بنيتـه. ولقـد كانـت الـصورة التـي يظهـر عليهـا عبـدالفتاح نـاظر فـي المناسبات العامة؛ هي صورة تبدو على شيء كثير من هذا، فهو مليء بالنشاط والحيوية والتدفق، فلما بلغ الناس نبأ وفاته بكوا فيه شبابه، وبكوا حيويته ونشاطه، وكان موته المفاجئ فجيعة، (مات في الـشارع وهـو يقـود سـيارته) ففجـأة انهـار الـشكل الـذهني المثـالي، وفجأة داهمت الناس المصيبة من حيث لم يتوقعوها أو ينتظروها، فكان للطريقة التي انتقل بها الفقيد إلى بارئه، من حيث سرعتها ومباغتتها، أبلغ الأثر في تعميق المأساة، وفي إلهاب كوامن الألم والحزن.

أجل، لقد حزت لوفاة عبدالفتاح ناظر الذي لا أعرفه؛ لأنه كان ملء السمع والبصر، ولأنه انطفأ فجأة، وبلا أية مقدمات، في مشهد مفجع، وهو في عز شبابه، وفي عز حيويته ونشاطه وعطائه، لله في ذلك حكمة لا شك، لكن نحن من البشر لا يمكننا إلا أن نحزن.

لقـد حزنـت أيـضاً لـسبب شخـصي آخـر، وهـو علاقتـي بأخيـه

وحبيبه معالي الأستاذ هشام ناظر، (صاحب الوزارتين: التخطيط والنفط)، لقد حزنت لحزن أبي لؤي، فهو صديقي وجاري في الرياض، وهو بعد ذلك كاتب زاوية أسبوعية في مجلة اليمامة التي كنت أرأس تحريرها في حينه، وبيني وبينه صلات كثيرة أخرى كانت المحبة سداها ولحمتها كما يقال. وأذكر أنه في الوقت الذي كان يكتب فيه هشام ناظر زاويته الأسبوعية في اليمامة، كان يكتب أيضاً في الصفحة السابقة له المرحوم د. غازي القصيبي، فكتب يوماً هشام ناظر عن قصة ضيافة زوج عمر بن الخطاب لأحد الوافدين عليهم، بحضور زوجها عمر، فقامت الدنيا يومها على الكاتب هشام ناظر ولم تقعد، واعتبر التيار المحافظ أن فيما كتب الوزير تحريضاً على "الاختلاط"، يوم كان الكلام حول الاختلاط من القواصم، ومن الجرائم الكبرى، ويبدو أن أبا لؤي تلقى "بعض العتّاب" من بعض الجهات، فقرر "أن يرتاح" قليلاً من الكتابة، فهاتفهُ غازي القصيبي بقوله له: يا هشام، الله يهديك يعني لم تجد مكاناً آخر تُقيم فيه هذه الحفلة المختلطة إلاّ بيت عمر بن الخطاب! تستاهل ما جاءك! ذلكم جزء من تاريخه "اليمامة"، يوم كان يكتبها النخبة ليقرأها الجميع.

عودة إلى عبدالفتاح ناظر، فقد كنت أحس دائماً في حديث هشام ناظر عنه، الكثير من الحميمية، والكثير من الإعجاب والحب والاعتداد، فهو يصغره سناً، وبالتالي فهشام ينظر إليه كأحد أبنائه، ويتوسم فيه أن يكون نموذجاً للنجاح وللطموح، وأحسبه كان كذلك. ولا شك في أن وقع الفاجعة على هشام كان كبيراً ومدمراً، وقد عبر عن شيء من هذا في الكلمة الرثائية المؤثرة التي نشرتها إحدى الصحف اليومية حينها، لقد بكى أمرَّ البكاء في تلك الكلمة، إذ كان

يختفي تحت كل حرف من حروفها قدر هائل من المرارة والألم، ولا أظن أن هشام ناظر أفاق بسهولة من هول المصيبة، وقد ذكر أنه بعد لحظات قليلة من زيارة عبدالفتاح له في منزله، يجيئه النبأ بقضاء الله وقدره، لقد رحل عبدالفتاح فعلاً، وهو لن يعود لزيارته مرة أخرى، أبداً.

هشام، وأطفال عبدالفتاح الخمسة، ووالدتهم، بكوا طويلاً فقيدهم وفقيد البلاد. فقد كانوا ينتظرون عودته إليهم، ولكنه هذه المرة لن يعود، ولن يلاطفهم، ولن يداعبهم، ولن يأخذهم إلى البحر، ولن يقضي بعض إجازته معهم، ولن يمنحهم مزيداً من الحب كما كان يفعل.

كثيرون آخرون بكوا طويلاً، عبدالفتاح؛ لأنه لم يودعهم قبل أن يرحل، وهم لم يلقوا عليه التحية قبل أن يختفي، وهناك أشياء كثيرة لم يقلها لهم بعد، وهم بدورهم لديهم أشياء أخرى لم يقولوها له حتى الآن.

هناك أوراق تقبع على مكتب عبدالفتاح لم يوقعها بعد، وهناك مواعيد لن تتم، وهناك مشروعات لم تنته، وهناك اجتماعات لن يحضرها.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

عبدالله السعد:

التشبث بالحلم

يومها كنا نتشبث بالعتبات الدنيا في سلم الكتابة، ونحن صغار، وطموحاتنا مثلنا كانت هي الأخرى صغيرة. كنا في المرحلة الثانوية من الدراسة، فكتبت محاولة متواضعة جداً سميتها في ذلك اليوم مقالة، ونشرتها في صحيفة "عكاظ".

كان عنوان المقالة: "العجوز التي عشقتها"، وقد كان عنواناً يطوي ببراءة، تحت جناحيه كل المضمون الموضوعي للمقالة المزعومة. فالكاتب الصغير يتكئ على رمزية استعارية، أو هي كنائية بدائية في بناء الصورة المجازية التي خلص إليها العنوان في شكله النهائي. فالعجور بكل بساطة، هي "الفضيلة" بعد أن هرمت وشاخت في الزمن الذي ينهشنا أو يقضمنا، قطعة قطعة، مفصلاً مفصلاً. وهنا تنتقل معالجة المقالة المذكورة بين رمزية لغوية بدائية، ورؤية رومانسية فيها الكثير من الحزن والتشبث بالحلم.

قال لي أحد "الأصدقاء": إن الشيخ عبدالله السعد يريد أن يلتقيك في جدة. وقد كنت أسمع عنه من "الشيبان" في مجالسهم،

فهـم يقولـون: إنـه "شـدادي" والـشدادين مـن الخـوامس أو الفـروع المهمة في قبيلة بني الحارث المعروفة، وكانوا يتحدثون عن عـصامية عبدالله السعد وطموحه بكثير من الزهو والطرب. يـذكرون علاقتـه القديمـة وهـو صـغير، بـابن سـليمان وزيـر الماليـة المـشهور، ثـم يتدرجون في سرد السلم الطويل لعصاميته، إلى أن يصبح رجل دولة ووزيراً للمواصلات.

لمَّا قابلته مع ذلك الصديق في جدة لأول مرة، كان متقاعداً طبعاً، لكنه كان يكتب مقالات متواصلة في جريدة "البلاد" في عهد صاحبه وحبيبه المرحوم عبدالمجيد شبكشي، وكان الشيخ السعد في تلك المقالات يميط اللثام بشجاعة وثقة عن قدرة خاصة وجيدة للكتابة الاجتماعية والسياسية. سألني عن الدراسة والأهل، وسألني أيضاً عن جديتي في الأخذ بموضوع الكتابة. أذكر أنه شجعني، وأذكر أنه دعاني إلى مزيد من التثقف، وإثراء الخبرة، كما حثني على التطوير المستمر في تقنيات الكتابة وأدواتها وآلياتها.

كان ذلك اللقاء، هو اللقاء الأول بالشيخ السعد، فأعجبني هدوؤه وعقله، وأسرني كرمه وعطفه، وتذكرت ما كان يردده "الشيبان" عنه في مجالسهم، فتواضعه الشديد هذا، وثقته في نفسه التي تتدفق الآن، هما عنوان عصاميته المشهودة، والتي كانت دائماً موضوعاً خصباً للحديث والمثال والعظة.

كان مستقبل علاقتي بالشيخ السعد بعد ذلك اللقاء، مستقبلاً مضطرباً غير مستقر، فهناك العامل الجغرافي، إذ لم أكن أسكن مدينة واحدة، ثم جاء فيما بعد موضوع الدراسة في الخارج، لمدة ثماني

سنوات، ليتحول ذلك العامل الجغرافي إلى عامل أساسي في تبرير تقصيري الشديد في حق الرجل.

صحيح أننا التقينا أكثر من مرة، وصحيح أن فضل الشيخ كبير جداً عليَّ، فهو دائم السؤال، وهو – يالخجلي – صاحب المبادرات في الاتصال، إما للتعليق على موضوع كتبته، أو لإبداء الرأي حول موضوع نشرته أنا لغيري في "اليمامة"، بعد أن أصبحت رئيساً لتحريرها فور تخرجي، ومباشرة بعد إنهاء دراستي العليا في باريس.

كنت أحس دائماً بأنني مدين لهذا الرجل بالكثير من المعروف، فهو يثقل كاهلي بعطفه وبسؤاله وبمتابعته، وأنا ما أفتأ أمني النفس باليوم الذي أتمكن فيه-إن شاء الله- من الوفاء له بمزيد من الحب الذي كنت أتمنى أن يوفقني الله إلى حسن التعبير عنه، وحسن إظهاره له.

ثم رحل الشيخ عبدالله السعد، وانتقل إلى بارئه الأعلى، ودينه يثقل ظهري وقلبي وضميري، فهو لم يمهلني - مع الأسف- حتى أستيقظ من ذلك اللهاث الذي كنت فيه، لكي ألتفت إلى قائمة الديون الكثيرة التي تنتظر السداد منذ أمد طويل.

رحل الشيخ عبدالله السعد، ونعاه الوطن كله، فهو أحد أبنائه البررة الذين خدموه، والذين مشوا تحت رايته المرفرفة، راية البناء والنماء، وراية الطموح والتطلع والعطاء!

رحم الله الشيخ السعد، وإنني لأعده بالبحث عن موضوع "العجوز التي عشقتها" لأقرأه من جديد، فكأن شيئاً لم يتغير بعد، وكأن "الفضيلة" مازالت تهرم وتشيخ، وكأن المعالجة الرومانسية هي

الأجدى، وهي الأمثل، فهي التي تلوذ بالحلم، ونحن أحوج ما نكون إلى التشبث بالحلم.

عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود:

هكذا قدم نفسه لشعبه وللعالم

قدم الملك عبدالله نفسه للسعوديين والعرب، منذ أن كان نائباً ثانياً، ثم، بعد ذلك، ولياً للعهد، على نحو جعل له "صورته" الخاصة في الضمير الوطني والقومي، أي عند السعوديين وعند غيرهم من العرب، ولاسيما على المستوى الثقافي والعلمي، وعلى مستوى الانفتاح على العصر، والاحترام لـ"المختلف" في الثقافة والحضارة.

عرف المثقفون الملك عبدالله، وخالطوه، وجالسوه، واحتكوا به، من قبل أن يصبح ملكاً بزمن طويل، فقد قدَّم نفسه للمثقفين والثقافة منذ أن تبنى في "الحرس الوطني" مشروع مهرجان الجنادرية، الذي ولد على يديه، ليكون ملتقى للتراث، وللثقافة، وللحوار، ولتطوير الأفكار بين مختلف الأطياف والتيارات والأنواع الثقافية، وقد صارت منصات الجنادرية مناسبة حيوية لالتقاء المثقفين من مختلف البيئات الثقافية العربية. فقد سمح بأن يأتوا إلى بلاده، بصرف النظر عن مشاربهم وانتماءاتهم الفكرية، فأصبحت الجنادرية من أهم المناسبات الثقافية الماثلة على خريطة المشهد الثقافي العربي والعالمي.

وقد شاء لي الله سبحانه أن أكون أحد الذين أسهموا، بجهد متواضع في وضع "التصور" أو الإطار الذي انطلقت به الفعاليات الثقافية وندواتها في الجنادرية، كما شاركت في تنظيم تلك الفعاليات والإشراف على بعضها وإدارتها.

عرف المثقفون، السعوديون وبعض العرب، الملك عبدالله منذ أن كان يأنس بهم في رحلاته البرية أثناء مناورات الحرس الوطني العسكرية، فهو يصطحبهم معه لعدة أيام في الصحراء، والبراري الفسيحة، ينادمونه، ويحاورهم ويحاورنه في مجلسه الخاصة، وعندما يخرج للعموم. وكان من أبرز المثقفين العرب الذين كانوا إلى جوار الملك عبدالله الفيلسوف العربي المعروف أحمد الشيباني –رحمه الله-، ومن أبرز المثقفين السعوديين المرحوم الشيخ عبدالعزيز بن عبدالمحسن التويجري.

عرف المثقفون الملك عبدالله عندما أنشأ لهم "مركز الحوار الوطني" كأول مبادرة سعودية تجمع المثقفين السعوديين، من كل الأطياف والتيارات والتوجهات والطوائف، تحت سقف واحد ومظلة واحدة. ولم يكن مركز حوار المثقفين هذا مناسبة إعلامية عابرة تطوي صفحاتها بانتهاء عمرها الافتراضي القصير، بل إنها أضحت عملاً مؤسسياً ومشروعاً وطنياً حيوياً يبحث المشكلات، ويناقش الاختلافات، ويمهد الطريق لمجتمع منفتح جديد، مؤمن بوحدته الوطنية، ومدرك لما يمثل من التنوع الإيجابي والتعدد المثمر. وقد أصبح "مركز الحوار الوطني" اليوم مؤسسة مهمة من مؤسسات المجتمع الذي اختار له عبدالله بن عبدالعزيز أن يكون مجتمعاً يقوم

على احترام مكوناته المختلفة، ويعمل على تحقيق المزيد من عوامل تفاهمها وتعاونها!

وانطلاقاً من كل ذلك، فقد أدرك المثقفون ومجتمعهم أنهم اليوم أمام مرحلة جديدة في تاريخهم، تتوخى أن توفر لهم الحرية في الاختلاف، والثراء في البدائل والتصورات، والاحترام لمواطنة المواطن؛ مما يعزز الولاء ويدعم فرص الانتماء.

فهذا هو عبدالله بن عبدالعزيز، أفقاً فكرياً، ورحابةً عقلية ووجدانية، وقد امتدت رؤيته الحضارية هذه ليعمل على إطلاق مبادرته العالمية في "حوار الحضارات" أو حوار اتباع الأديان على مستوى العالم كله، وهو بذلك قد أعطى صورة نموذجية للانفتاح الذي هو جزء أصيل في شخصيته، وفي تصوره للحضارة البشرية في تداخلها الإيجابي، من أجل استقرار العالم، ومن أجل مواصلته البناء والتعاون.. هكذا قدَّم عبدالله نفسه لأهله وللعالم.

أما الإعلاميون ورؤساء تحرير الصحف، (وكنت واحداً منهم)، فقد نعموا بمرافقة الملك عبدالله ومجالسته منذ أن كان ولياً للعهد، ولاسيما في زياراته وجولاته الرسمية خارج البلاد، فقد كان يصطحبهم معه في طائرته الخاصة، ويقضي الرحلة معهم مناقشاً، ومحاوراً، ومستمعاً.. فيهيأ لنا دائماً أن من أغراض السفر معه، ليس الجانب الإعلامي وتغطية اللقاءات والمباحثات فقط، ولكن أيضاً رغبته في التقاء القيادات الإعلامية في بلاده، للاستماع إليهم والحوار معهم.

كان يقول لنا دائماً، منذ أن كان ولياً للعهد، بأنه مع هامش

أكثر رحابة لحرية الإعلام والصحافة، وأن التقييد للإعلام ليس دائماً إيجابياً، فالمثقفون شركاء في بناء المستقبل، وفي منحهم المزيد من الحرية مما يمكنهم من المزيد من الإبداع. وكان لا يتردد في إبداء اعتراضه على بعض التصرفات تجاه الإعلاميين والكتاب، ويعبر بصراحة وصدق عن عدم رضاه عنها، وقد أكد حقيقة ما كان يقوله بعد أن تولى الحكم، فقد شهد الإعلام وشهدت الثقافة في عهده انفراجات على درجة كبيرة من الأهمية.

*****

ذهبنا للقائه، وهو وليٌّ للعهد، في معية الأمير سلطان بن سلمان، رئيس مجلس إدارة جمعية الأطفال المعاقين، (كنت عضواً في المجلس)، وبعد الحديث عن الجمعية وأهدافها وغاياتها، التفت نحوي يسألني عن رأيي في الإعلام، ففاجأني بالسؤال، فكانت إجابتي مقتضبة وغير شافية، ولا تخلو من المجاملة، لكنه أخذ زمام الحديث بنفسه، وأبدى العديد من الملاحظات يومها، وكان معالي د.حمود البدر (عضو المجلس أيضاً) يلتفت إليَّ كأنه يقول: عبدالله بن عبدالعزيز أكثر جرأة وصراحة منك!.. وقد كان على حق!..

وعندما أصدرنا صحيفة "الوطن"، ذهب مجلس إدارة الصحيفة للسلام عليه، (كنت رئيس المجلس)؛ فكان يقول مبتسماً: "يقولون: إن الصحيفة فيها "ملفات" تشبه ملفات جبال عسير"، لعله كان يلمح إلى الجرأة والطرح الجديد المختلف في الصحيفة. ذلك كان كل ما أبداه من ملاحظة على الإصدار الجديد، وهو يستقبل مجلس إدارة المؤسسة.

وبالمناسبة فإن الملك عبدالله هو الذي وضع "حجر الأساس" في مشروع الصحيفة، ومبانيها في مدينة أبها، وهو الذي اختار لها اسم "الوطن"، وهو قدم لدعمها أرضاً في قلب مدينة أبها، ربما استخدمتها المؤسسة لأحد استثماراتها.

عبدالله بن عبدالعزيز مهتم بموضوع الثقافة، وبموضوع الإعلام، ومن منظور مختلف عن المنظور الذي تعود عليه الجميع من مصادر السلطات، فهو دائماً داعم لفرص أكبر للتعبير عن الرأي والحوار. ولن تعدم أن تسمع منه تعليقاً على لقاء أو برنامج تليفزيوني مثلاً تكون قد شاركت فيه، فيناقشك في بعض ما قلت من أفكار وآراء. حدث ذلك لي شخصياً، ومن المؤكد أنه قد حدث لغيري.

ومما أذكر أن مجلس الشورى ذهب للسلام عليه (كنت عضواً في المجلس) ولم أكن أثناء اللقاء في الصف الأمامي، الأقرب إليه، فطلبني بالاسم، فقمت واقفاً أمام زملائي الأعضاء، فما كان منه إلاّ تحدث إلينا جميعاً معلقاً على أحد البرامج التليفزيونية التي شاركت فيها.

وأذكر كذلك أن الملك عبدالله، في إحدى المرات، استدعى سفير بلاده (حمد الطعيمي) يومها للتشاور (قطع العلاقات) مع دولة قطر، وذلك أثناء فترة التوتر الإعلامي الذي كانت تجسده وتعبر عنه قناة "الجزيرة" تجاه السعودية تحديداً، وقد فعل الملك عبدالله ذلك احتجاجاً على حلقة من برنامج "الاتجاه المعاكس" وكنت مشاركاً فيها، وكان الطرف الآخر في البرنامج (عبدالحكم دياب) قد

تعـرض بالإسـاءة المباشـرة إلـى المغفـور لـه الملـك عبـدالعزيز فيمـا يتصل بالقضية الفلسطينية، وهذه طبعاً لا يقبله السعوديون تحت أي مبرر كان!

برامج ولقاءات أخرى كنا نعرف الملك عبدالله يتابعها ويقرر مدى تأثيرها أو أهميتها؛ فهو دائماً الأقرب إلى الفعاليات الثقافية، وهو العارف للإعلاميين في بلاده وخارجها.

*****

أما بالنسبة إلى العالم فقد قدم الملك عبدالله بن عبدالعزيز نفسه، أول مرة، إليه، عندما شرع في ترتيب زياراته لقادة العالم في الجولة التي قام بها ما بين 1998/9/13م إلى 1998/10/27م، كلنا نذكرها، وقد شملت كل من: المملكة المتحدة، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، وجمهورية الصين الشعبية، واليابان، وجمهورية كوريا الجنوبية، وجمهورية باكستان.

وجاء توقيت الجولة في مرحلة من أشد المراحل حساسية بالنسبة إلى الأوضاع الإقليمية والدولية على حد سواء، فعملية السلام في الشرق الأوسط جامدة تماماً، أو هي بالأحرى على وشك الانهيار. والجبهة الإيرانية الأفغانية في طريقها إلى الاشتعال، وهناك مشكلة العراق، ومسألة الأمن في الخليج، وكان الحصار المفروض وقتها على ليبيا نتيجة قضية لوكوربي. وهناك أضاع المسلمين في البلقان، وأوضاع المسلمين في دول شرق آسيا، (الأزمات الاقتصادية، وأزمة ماليزيا السياسية). وهناك المشكلة الباكستانية الهندية، وغيرها من المشكلات والقضايا التي تنذر بأخطار كثيرة.

الزيـارات جـاءت أيـضاً فـي مفتـرق اقتـصادي ملفـت ومثيـر للاهتمام، انخفاض أسعار البترول، والاضطراب الشديد في أوضاع النمور الآسيوية، والأزمة الكبرى في الاقتصاد الروسي.

مخاطر وتوترات متعددة يتعرض لها الكوكب الذي نعيش فيه. والعالم العربي أو الإسلامي الذي يشغل مساحة فسيحة في جغرافية المعمورة، وبإمكاناته وبتطلعاته المتنوعة، لابد أن يكون له صوت في كل هذا الضجيج المحتدم.

وبقدر ما كان في هذا العالم من تحديات ونذر خطر، فقد كان فيه بالمقابل فرصاً واضحة لإشادة صيغ جديدة للمستقبل: سياسية، واقتـصادية وغيرهـا. فقـد شـرعت العولمـة مـن جهتهـا فـي الأخـذ بتلابيب الأرض نحن مصير تحيط به أكثر من علامة استفهام كبيرة.

قـدَّم الملـك عبدالله في تلـك الجولـة تـصورات المملكـة العربيـة الـسعودية حـول مـستقبل "التعـاون" مـع الأمـم الأخـرى، وهـذه التـصورات تكتـسب أهميـة خاصـة بحكـم موقـع بلادنـا الاسـتراتيجي والجغرافـي بـين الـشرق والغـرب، وبحكـم ثقلهـا الاقتـصادي، كونهـا تختـزن أكبـر احتيـاطي للـنفط فـي العـالم، كمـا أنهـا أكبـر مُـصدِّر لـه، وبحكم مكانتها التاريخية والروحية من محيطيها العربي، والإسلامي.

لقد وصفت بعض المصادر الغربية جولة "ولي العهد السعودي آنذاك" بأنها فرصة جيدة كي يعرف العالم من هو الملك القادم، في دولة على ذلك القدر من الأهمية والتأثير.

إن للغرب في بلاد عبدالله بن عبدالعزيز مصالح عديدة بينة، وهو يريد أن يطمئن دائماً بأنها لن تضار.

وإن لعبدالله بن عبدالعزيز، الملك السعودي، القائد العربي، عند الغرب مطالب واستحقاقات يريد، هو من جهته، أن يناقشها، وأن يعرف مدى شعور العالم بعدالتها.

*****

بالنسبة إلى الغرب أكدت مصادر غربية بأن الانطباع الذي تركه عبدالله بن عبدالعزيز لدى محاوريه يمكن إيجازه في جملتين: الأولى: أن القائد السعودي جدير بالثقة. والثانية: أنه رجل "يمكن التعاون معه"، ويعني هذا أن أحد الأغراض الرئيسة للجولة التعريفية قد تحقق فعلاً: فـ "التعارف" والثقة هما الأساس الذي سيقوم عليه التفاهم والتعاون. وقد قال وزير الخارجية المصري يومها: "بأن جولة عبدالله بن عبدالعزيز مهمة؛ لأن السعودية لاعب رئيس في المنطقة، وتعبير السعودية عن موقفها من عملية السلام ومن الظروف المحتدمة في المنطقة، إنما هو تعبير عن شعور عربي عام".

قدَّم القائد السعودي نفسه موفداً للعرب والمسلمين، فكانت جولته "التعارفية" محاولة جادة لتصحيح العلاقة المختلة بين العرب والمسلمين من جهة، والولايات المتحدة الأمريكية، خصوصاً، من الجهة الأخرى.

ولاسيما في ظل تصاعد موجات "الإرهاب" في أكثر من مكان فوق الأرض، من قِبل بعض الأفراد أو بعض الجماعات، سواءً في داخل العالم الإسلامي نفسه، أم في خارجه لدى أمم أخرى. وكان الموقف السعودي الذي بلوره عبدالله بن عبدالعزيز من الإرهاب،

هو أن الإرهاب لا دين له، ولا هوية. ومن الظلم أن يلصق بدين بعينه، أو بعرق بشري بذاته.

والسعودية تؤمن بأن الإرهاب ظاهرة بشرية مغرقة في القدم، فهو قائم وموجود في مختلف العصور، ولدى كل الأمم، وفي كل الثقافات البشرية على اختلافها؛ ولعل مما جعله أكثر وضوحاً في عصرنا هذا، الإعلام الذي أضحى أكثر حيوية، وأكثر انتشاراً وتأثيراً، فلم يعد يخفي شيئاً مما يتحرك فوق هذا الكوكب. وهذا الإعلام نفسه، هو الذي جعل عبدالله بن عبدالعزيز يشعر أنه يتخذ موقفاً منحازاً ضد "الإسلام" الذي تحمي السعودية مقدساته. وقد وصف هذا الإعلام بـ "القاصر"، فهو يخلط بين الممارسات الخاطئة لبعض الأفراد أو الجماعات من المسلمين والإسلام نفسه، فيعمد عن جهل إلى إلصاق تلك الممارسات بالدين نفسه، وليس ببشر معرضين للخطأ والشر والانحراف عن الطريق القويم. فالإسلام برئ ممن يفعل أو يرتكب بعض المنتسبين إليه من أخطاء.

ولقد ذهب الإعلام المعادي للعرب والمسلمين إلى أكثر من ذلك، فعمد إلى التنقيب في التراث الإسلامي عن نصوص انتقائية مجتزأة، أو مقطوعة عن سياقاتها الموضوعية والتاريخية الصحيحة؛ بهدف أن يجد فيها، وفي تأوّله لها، ما يخدم الفكرة التي ما ينفك يدعمها ويروج لها. وفحواها أن الإسلام في بناه الفكرية والعقائدية، دين يستسهل القتل ويبيحه، من أجل تحقيق أهدافه الخاصة، ومنها الهيمنة وقهر "المختلف" واستباحته.

لقد كان من أهداف جولة عبدالله بن عبدالعزيز التعريفية أن يدفع أمام زعماء الغرب ومفكريه، وعلى القوى المؤثرة في واقعة

الاقتصادي والاجتماعي وأمام ها؛ فكرة الإرهاب الملصقة بالإسلام؛ لأن ذلك يؤثر سلباً على واقع التفاهم، وواقع الالتقاء بين ثقافات العالم من أجل خير البشرية، ومن أجل دعم فرص السلام. كما أن ذلك يؤثر سلباً على مستقبل التعاون ورعاية المصالح بين الدول والشعوب.

وقد استمعنا أثناء الجولة إلى ردود فعل عاقلة استطاعت أن تتفهم الموقف السعودي، وتمكنت من أن تفصح عن آراء منصفة في حق الإسلام، وفي حق تعاليمه الصحيحة، ولاسيما فيما يتعلق بالعلاقات التي يفترضها هذا الدين للمسلمين مع بعضهم بعضا، أو للمسلمين مع غيرهم من شعوب الأرض الأخرى.

لقد أكد عبدالله بن عبدالعزيز حقيقة ما يعرفه المثقفون والمفكرون في الغرب من أن حضارة الإسلام "حضارة بناء". وحضارة البناء لا يمكن لها أن تكون حضارة هدم، أو حضارة إرهاب! وإذا وجد بين المسلمين من يقوم بهذه الأفعال أو يدعمها، فهو وحده يتحمل جريرة ما يفعل، أما الدين فهو واضح في نصوصه وفكره، يحترم حق الاختلاف في الدين والمعتقد، ويدعو إلى التعاون والسلم، وينكر الاعتداء والظلم، ويحفظ الحقوق، ويصون حياة الأفراد والجماعات.

لقد كان الهدف، هو إعطاء الإسلام مكانه العادل الذي يليق به في تاريخ البشرية وحضارتها المتعددة، ولعل من الصعب التفكير في تدشين علاقات أكثر صلابة مع دول العالم وشعوبه، ما لم تكن قائمة على الثقة، ووضوح الفكر، وصفاء النية. والإسلام تعرض لحملات

تشويه كثيرة، كانت ترتكز على فكرة أنه دين "عدوان"، وكيد، ومؤامرات، وإرهاب. ومن الصعب، بناء عليه، أن تتهيأ الفرص المطلوبة للتعاون مع دول وشعوب تعتنق هذا الدين، وتؤمن به، إلاّ إذا كانت مشوبة بالحذر الشديد، وبكل ما يلزم وما لا يلزم من التحوطات. لا، بل إن هناك من يتمنى أو يتوخى أن تكون العلاقة بهذا الدين وأهله أكثر سوداوية، فتنتقل إلى مستوى العداء الكامل والقطيعة معه، بل ومحاربته ومقاومته بكل الوسائل المتاحة.

ففي البيئة التي تتداول فكرة "نهاية التاريخ" (فوكوياما)، وفي البيئة نفسها التي تدشن مرحلة مهمة للتبشير بصراع الحضارات (صامويل هنيجتون)، ذهب عبدالله بن عبدالعزيز يدعو إلى حوار الأديان، أو فلنسمه "حوار الحضارات"؛ من أجل السلام، ومن أجل الرفاه الإنساني. فالسعودية والأفكار التي تنشرها لا تدعي احتكار خير هذا الكوكب، ولكنها لا ترى "نهاية للتاريخ"، كما أنها لا تبشر أبداً بصراع مرير، قد يكون مدمراً للحضارات.

دعا عبدالله بن عبدالعزيز إلى بداية جديدة للتاريخ، بداية تستند إلى التعارف والتفاهم والتعاون من أجل مستقبل أفضل لهذا الكوكب، ومن أجل رخاء أعم لسكانه، دعا كذلك إلى حوار الحضارات، وليس صراعها المتوهم أو المفترض من جانب بعض رموز الجيل الراهن في مثقفي الغرب.

لقد دافع عبدالله بن عبدالعزيز عن الإسلام، ولكنه بالمقابل لم يهاجم ديناً آخر. ودافع عن الحضارة العربية، في الوقت الذي لم ينتقص فيه من الحضارات الأخرى. وأوضح للعالم بأنه يؤمن بأن

لكـل أمـة تراثهـا الثقـافي والحـضاري الـذي لابـد أن تـستلهمه فـي تجاربها ومنجزاتها، وهو تراث يختلف، ويتعدد، ويتنوع، بالضرورة.

وضع عبدالله بـن عبـدالعزيز بـلاده فـي خنـدق واحـد مـع دول العالم الأخرى التي يجب أن تتكاتف لمحاصرة الإرهاب، ودعا الجميع إلى التخلص من المتناقضات التي تفضي دائماً إليه.

*****

كانـت أول بطاقـة تعريـف لعبداللـه بـن عبـدالعزيز يقـدمها للأمريكيين أثناء زيارته لهم، يوم كان ولياً للعهد؛ هي قوله لهم بأننا نقبل على الحوار، ونهيئ المناخ الملائم للتعاون، دون أن يمس ذلك قناعتنا الأساسية فيما يتعلق بمصالحنا الخاصة في دولتنا، أو فيما يتـصل بإقليمنـا فـي الخلـيج، أو فيمـا يخـص منطقتنـا العربيـة والإسلامية.

ووسـائل الإعـلام الأمريكيـة تعـد الـسعودية دولـة مـن أكثـر المتشددين في شروط السلام مع إسرائيل، على الرغم من علاقاتهم الخاصة بأمريكا التي تواصل السعي لفرض السلام على المنطقة بمواصفاتها هي، وبمواصفات إسرائيل الخاصة.

ولقـد تـضررت جـراء ذلـك مـصالح سـعودية كثيـرة فـي أمريكـا نفسها، ولم تنجح الحرب الصهيونية ضد السعودية في أمريكا في أن تغير من مواقفها أي شيء. ولم تؤثر صداقة السعوديين مع القيادات الأمريكية أي تأثير من شأنه أن يزحزح تلك المواقف.

إن مما تأخذه أمريكا ووسائل إعلامها على السعودية، هو عدم

تقديمها أي شيء باتجاه التطبيع مع إسرائيل. عبدالله بن عبدالعزيز، كما هو الثابت في السياسات السعودية، يرى أن الصداقة مع الولايات المتحدة يجب ألا توضع في خانة التعارض أو التناقض، مع ضرورة المواجهة مع إسرائيل، والتصدي لها، مادامت مستمرة في سياسات الظلم والتهديد والاستيطان وحرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة. بل إن السعودية ترى أن عمق العلاقات التي تربط أمريكا بها، ولاسيما في الجانب الاقتصادي؛ تحتم على الفعاليات السياسية في أمريكا أن تراجع جذرياً سياساتها في الشرق الأوسط.

*****

لقد انطلق عبدالله بن عبدالعزيز من بلاده، مؤكداً على أن المملكة العربية السعودية ستظل تضطلع بدورها الكامل في دعم السلام، ليس في إقليمها فقط ، وإنما في العالم كله.

وأكد على المبادئ التي تحكم الموقف السعودي من مشروع السلام في المنطقة، ومن تلك المبادئ أن تعود الحقوق المشروعة إلى أصحابها الشرعيين. وفي وقت لاحق توّجَ عبدالله بن عبدالعزيز موقفه وموقف بلاده من السلام في المنطقة بالمشروع الذي قدَّمه لإحدى القمم العربية، إذْ أقر المشروع من قِبل شركائه العرب كلهم، وأصبح أساساً للعملية السلمية على الأقل من جهة العرب. فالقادة السعوديون يدركون أن استقرار العالم وأمنه القومي مرتبط بما يجري من أحداث في منطقتهم الحيوية بتراثها، ومواردها، وموقعها الجيوسياسي.

والسعودية تعلم أن أي تطورات سلبية أو كارثية في هذه المنطقة، إنما يعني تهديداً واضحاً للسلام في العالم كله. إذاً فإيمانها بالسلام، إنما هو انعكاس لشعورها بمسؤولياتها تجاه العالم كله، ما دام أن الله ارتضى لها أن تحتضن مقدساته فوق ترابها. إن خير هذه المنطقة، هو خير للعالم بأسره.

أكد عبدالله بن عبدالعزيز في جولته العالمية تلك على أن العرب "يلحون على السلام؛ لأن شعوبهم مهيأة الآن لقبوله"، ووصف هذا الواقع الجديد بأنه فرصة مواتية لإسرائيل، ويصب في مصلحتها أكثر من غيرها. وإذا استمرت إسرائيل في تعنتها، فإن هذا سيقود الشعوب العربية حتماً إلى الوقوف في وجهها، بل رفض أي مشروع للسلام معها، فليس هناك من حاجة إلى التأكيد بأن كل ما تفعله إسرائيل دائماً، هو تعطيل لعملية السلام، وعرقلة لكل خطواتها.

وكان لسان حال عبدالله بن عبدالعزيز يقول: نحن نستطيع الدفاع عن وجودنا وعن حقوقنا بالمستوى نفسه الذي نسعى فيه إلى السلام. والسلام لا يكون جزئياً أو ناقصاً، بل سلام شامل وعادل.

*****

اهتم الملك عبدالله بالشأن العربي واطلق مبادراته للمصالحات العربية، حيث استضاف مؤتمر المصالحه العراقية في العام 2006م، وفي عام 2007 كانت مبادرته في الإصلاح بين الأخوة الفلسطيينين وتوقيع وثيقة مكة المكرمة بين فتح وحماس. في العام 2009م كانت مبادرة الملك عبدالله في القمة العربية التي عقدت بالكويت

للمصالحة بين الفرقاء العرب دون استثناء او تحفظ، وقد قامت المصالحة على المصارحة، وحسم الخلافات.

سُمِّي الملك عبدالله (الأمير يومها) بأمير الانفتاح السعودي – الخليجي على إيران، كان يقول: "لقد بدأنا مع إيران صفحة جديدة في العلاقات، تقوم على الحوار والمصارحة والتشاور، والتجربة تبشر بالخير، خاصة إذا استمرت إيران في انتهاج الاعتدال الذي بدأت في انتهاجه". وكان يشير إلى التغييرات في المواقف والتصرفات الإيرانية، بعد انتخاب الدكتور محمد خاتمي رئيساً للبلاد، وبعد تبنيه سياسات معتدلة تجاه الخليج والدول العربية. لقد كان يقود تحركات وجهود كبيرة، ومهمتها الأساسية تحسين العلاقات بين السعودية وإيران، فهما دولتان مسلمتان متجاورتان، يحتم عليهما هذا الوضع استغلال الفرص الإيجابية، وتجنب المخاطر التي قد تلحق الضرر بالطرفين معاً.

كان عبدالله بن عبدالعزيز أول من بدأ العمل على تطبيع العلاقات بين السعودية وإيران في لقائه مع الرئيس الإيراني هاشمي رفنسجاني في المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في الباكستان، وكان الأمريكيون يعبرون عن أملهم في تطبيع علاقاتهم مع إيران أيضاً، وأن يُبدأ حوار رسمي على مستويات عليا، لا عبر وفود ثقافية ورياضية. وكان عبدالله بن عبدالعزيز يؤكد للأمريكيين أهمية استخدام لغة أكثر تشجيعاً مع إيران.

كان يؤمن بأن ترتيب العلاقة مع إيران أمر مهم جداً لأمن الخليج واستقراره. وبقدر ما تكون إيران مهمة في هذه المعادلة، فإن السعودية هي الرقم الأساسي فيها. لقد أقلق السعودية كثيراً التوتر

المتصاعد بين إيران وحركة طالبان في أفغانستان، وهو التوتر الذي شب إثر مقتل تسعة دبلوماسيين إيرانيين في مزار شريف، وكان ينذر بعواقب وخيمة للطرفين، ومخاطر قد تطال المنطقة كلها. وقد حاولت السعودية التدخل في تهدئة الطرفين منذ بوادر الأزمة، فقد نشط عبدالله بن عبدالعزيز في محاولة منع الانفجار. والأمريكيون قالوا للسعوديين: إن حدوث حرب بين الطرفين من شأنه أن يهدد التيار الإصلاحي في إيران، وهو التيار الذي يقوده الرئيس الجديد محمد خاتمي. والفرنسيون علقوا أهمية خاصة على دور عبدالله بن عبدالعزيز في إطفاء الفتنة الأفغانية- الإيرانية.

ومع مرور الأيام، وبعد أن خلف خاتمي في الحكم تيار متشدد، طائفي، عنصري، تقوده شخصية موتورة، هي محمود أحمد نجاد، بمباركة من مرشد الثورة؛ أصبحت كل تصورات عبدالله بن عبدالعزيز لمستقبل العلاقة الخليجية الإيرانية في مهب العواصف العاتية، فقد زادت حدة التهديدات الإيرانية، وتوالت الحملات الإعلامية، وتضاعفت فرص التدخلات الإيرانية في الشؤون العربية عموماً، والشؤون الخليجية خصوصاً: خلايا تجسس، وتمويل وتدريب للمنشقين والمخربين، وتحريض على زعزعة الأمن، وإثارة النعرات الطائفية، والتشديد والضغط المستمر على عقد الشعور بالاضطهاد لدى بعض الأقليات، ومناورات عسكرية استفزازية لدول المنطقة، وتهديدات عسكرية مباشرة لحقول النفط الخليجية، بالإضافة إلى التهديد بالتدخل في عرقلة الملاحة في مضيق هرمز وسواه. ويصبح المشهد الخليجي الإيراني اليوم في أسوأ أحواله وظروفه، على الرغم من الانفتاح الإيجابي الذي قاده عبدالله بن

عبدالعزيز مع عقلاء طهران في وقت سابق، وقبل أن يتقلد مقاليد الحكم في بلاده، ومازال الملك عبدالله، بعد أن تولى إدارة شؤون بلاده، لم يستخدم جميع الأوراق المتاحة له في مواجهة إيران؛ لأنه ما يفتأ يعوّل على إشراقة أمل في العلاقة.

وفيما يتعلق بالخليج وأمنه، فقد كان إيمان عبدالله بن عبدالعزيز أن المملكة العربية السعودية كانت ضد التدخل العسكري الأجنبي في شؤونه، حتى عندما كان الهدف، هو الإطاحة بصدام حسين، الذي يفترض دخول القوات الأمريكية إلى بغداد، على الرغم مما كان يشكله صدام من تهديد صارخ لأمن الخليج. فقد كان عبدالله بن عبدالعزيز يدرك الأضرار الجسيمة التي سيسببها مثل هذا التدخل على الشعب العراقي، كما يدرك بأن الموجود الأجنبي في العراق سيفتح الباب على مصراعيه لوجود قوى أخرى ذات أطماع، مثل إيران، وسيتحول العراق إلى منطقة تجاذبات، وصراعات طائفية، وسياسة منهكة ومهلكة. وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد.

إن دول العالم المؤثرة، ومعها السعودية، كانت صادقة في إحساسها بالقلق الشديد إزاء ما يحدث للعراقيين أيام صدام حسين، لكنها – كلها – كانت تتفق على أن الوحيد القادر على درء الخطر عن العراق، هو صدام حسين نفسه.

لقد كان الزعماء والقيادات السياسية في العالم تعطي أهمية خاصة للأفكار السعودية تجاه الشأن العراقي وأمن الخليج، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: لأن السعودية هي الدولة الكبرى في الخليج، وهي مقر

مجلس التعاون لدول الخليج العربي. وهذا الإقليم بالذات هو المتضرر الأكبر من أنواع المخاطر التي يجسدها ويهدد بها صدام حسين.

ثانياً: أن السعودية بالذات تشترك في 84 كيلو متراً في الحدود مع العراق.

ثالثاً: أن السياسات السعودية في مواجهة مثل هذه التحديات عرفت دائماً بالتعقل، والحكمة، وضبط النفس، وتقدير العواقب، ومراعاة المصالح العليا للمنطقة.

رابعاً: أن السعودية تربطها صلات طيبة بالعرب الذين اشتركوا في التحالف الدولي لإخراج الجيش العراقي من الكويت، وتربطها الصلات نفسها بالعرب الآخرين الذين لا يكتمون امتعاضهم الشديد، بل إحباطهم الواضح، من ازدواجية المقاييس في تعامل الغرب – وأمريكا خصوصاً – مع أنواع المخاطر التي تهدد المنطقة.

دول العالم كلها يهمها أمن الخليج، وذلك لمصالح بينة تربطها بهذه المنطقة من جهة، ولما يمكن أن يسببه أي اضطراب في هذا الجزء من الكوكب من تهديد أو زعزعة للسلام العالمي كله من جهة أخرى.

*****

الأمير (الذي لم يصبح ملكاً بعد)، قدَّم نفسه للعالم على أنه رجل الإصلاح والتغيير والانفتاح، كما قدَّم بلاده على أنها ليست "مملكة منغلقة"، فهو الذي قال للعالم ولأمريكا، بأن السعودية تدرك تمام الإدراك أنها تعيش عصر التغيير العاصف والسريع في ميادين

الحيـاة، ولقـد وردت كلمـة التغييـر أكثـر مـن ثلاثـين مـرة فـي أقـوال وتعليقات الملك المقبل في عدة مناسبات رسمية في جولته الأمريكية خصوصاً، مؤكداً أن السعودية عازمة على اتخاذ التغيير حليفاً لصوغ وبنـاء مـستقبل أفـضل"، فهـل كـان ذلـك إرهاصـاً لاسـتقبال القـرن الجديد وما يحمله من تحديات؟!

لقد أنجز عبدالله بن عبدالعزيز بعد توليه الحكم ما كانت بلاده في أمسِّ الحاجة إليه، فهي تتوافر على المال، وتحقق لها إنجازات تنموية اقتصادية واجتماعية وثقافية كبيرة، لكنها كانت في حاجة بجانب ذلك، إلى انفتاح على أفق جديد للحريات العامة، ومؤسسات المجتمع المدني، وحقوق الإنسان، وتمكين المرأة، وتأكيد قيم الحوار وتقاليده في المجتمع. وقد أدت كل تلك الإصلاحات التي قادها عبدالله بن عبدالعزيز إلى الشروع الحق في تدشين مجتمع جديد، منفتح على التعدد، وقبول الاختلاف، وتحولت مكونات المجتمع السعودي بأطيافه المختلفة إلى نادٍ كبير للنقاش، والحوار، وتلاقح الأفكار، وتعارضها وتوافقها؛ مما أسهم فعلياً في استقبال مستجدات منصات التواصل الاجتماعية الجديدة، مثلاً، بقدر لا بأس به من الوعي بتحديات الراهن الماثل، والقادم القريب، أو هو السريع في مباغتاته.

وحرص الملك عبدالله على تعزيز مشاركة المرأة السعودية في التنمية والقيام بمسؤلياتها في التحديث والتطوير، فاصدر العديد من القرارات، لتحقيق الفرص الوظيفية، والتعليمية، والاقتصادية، للمرأة. وهو اكد فكرة تمكين المرأة ودفع بها الى مواقع متقدمة في مجال التنمية السياسية في البلاد، إذ أمر بأن تكون المرأة عضوة ،

كاملة العضوية، في مجلس الشورى (البرلمان)، كما امر بمشاركتها في الانتخابات البلدية ناخبة ومترشحة للانتخابات.

وقد دعَّم الملك عبدالله المسيرة الجديدة لمجتمعه الجديد بمقومات أخرى أساسية، فدشن عدداً آخر من المؤسسات الجامعية والعلمية، وشجع الابتعاث، وعمل على تطوير القضاء والتعليم، وخصص لهذا الغرض ميزانيات ضخمة، وهذا كله كان منسجماً وداعماً للانفتاح الإعلامي، مما هيأ ويهيئ لهذا المجتمع فضاءات للحراك الإيجابي في بناء "المستقبل"، والمشاركة في تشكيل ملامحه؛ فأضحى الملك عبدالله هكذا في نظر شعبه في الداخل، وفي نظر المراقبين في الخارج؛ هو "ملك الإصلاح" المدرك لشروط القوة والمنافسة، في عصر جديد يختلف في ظروفه ومعطياته ورؤاه عما سبقه من عصور. ولعل هذا المستوى في الثقة في نهج الملك عبدالله، هو الذي يُشكِّل اليوم الحصانة لبلاده، مما تعرضت له بلدان أخرى من قلاقل واضطرابات وثورات كان مما يجسدها - راهناً- ثورات ما يسمى بـ "الربيع العربي".

عبدالمجيد الزهراني:

عفوية لا تقبل الاحتمالات

شعر عبدالمجيد الزهراني يشبهه: بسيط، عفوي، مرّ، بل بالغ المرارة!

يذكرني هذا الشاب بالشاعر الفرنسي جاك بريفير، فهو مثله ما يفتأ يؤكد شغفه بمواصلة حفرياته في وجدان الناس البسطاء، ذوي الطموحات الصغيرة، وأصحاب المرارات الكبيرة. فالشعر هنا ينمو بين أدخنة الشوارع الخلفية، فوق الأرصفة المهشّمة، وداخل بيوت الصفيح، وعلى الطاولات الحديدية الصدئة المتآكلة، في المقاهي الجانبية المعتمة، المشرعة بامتياز للبرد والظمأ والذهول.

والشعر هنا أيضاً، هو ملح الأرغفة المتغضّنة بالإهمال، المدخرة لمزيد من الجوع، الخارجة بتثاقل من معاطف البؤس والتشرد، تلك المعاطف الترابية المتورمة بعلب السجائر المبتلة بالدموع وبالعرق، المنتفخة بعلب البيبسي شبه الفارغة.

والشعر هنا كذلك فم محاصر بالقروح، ويد موثقة بالخوف، ووجه غارق في لفح الريح، وعيون سادرة في الغموض وظلام الآتي!

يلتجئ عبدالمجيد، مثل جاك بريفير، إلى الكلمات المزجاة،

النصف جائعة، والنصف ظامئة، لتكون تلك الكلمات بمثابة التحدي الذي ينتصب في وجهه، ثم يشرع في التلظي بين يديه، ولا قدرة له على النجاة أو الخلاص. فالكلمات هي حياته وموته، وهي فرحه وضجره، وهي نعيمه وشقاؤه، وهي مرضه وشفاؤه، وهي بدايته ونهايته، وهي أوله، وهي في ذات الوقت آخره.

ليس على عبدالمجيد أن يشرّق أو يغرِّب من أجل اصطياد معانيه، فيمكنه أن يلقي القبض عليها في لفافة خبز الصباح، أو في قاع فنجان القهوة المضطرم بالأسرار وشهوات الغيب. يمكنه أن يعثر عليها بين بقايا أسنانه المثلمة، أو تحت أظافره العابقة بالنكد وكسل القنوط، نقول: يمكن أن يتواجه مع تلك المعاني فوق وسادته الحبلى بالأرق والغرق، المتخمة بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت منذ اليقظة الفاترة، وصولاً إلى الأحلام العاثرة. يمكنه أن يجد معانيه بين أثوابه المستباحة لدود الليل، وبإمكانه أن يلتقطها في حشرجة جيرانه وغمغماتهم المريبة، وهمهماتهم المرتابة. بإمكانه أن يضع يده عليها في النظرات المتفاقمة للعابرين، عن يمينه وعن شماله، بلا سحنات، وبلا ملامح، وبلا حكمة.

عبدالمجيد واحد من الشعراء الشباب القلائل الذين لم يستهلك شاعريتهم فيديو كليب الأمسيات، أو الصوالين المفعمة بالعطور واللغط والثرثرة، فقد طوى شعره داخل قبضته عن سابق إصرار، ومضى إلى حيث الناس القريبين من الأرض، الناس الباحثين بكثير من اليأس عن معنى للمستقبل، وكان أول ما استقبله في مشواره صديقه "المخلص": الرصيف، وهو صديق لا يعرف المجاملة ولا المواربة، كل شيء فيه مكشوف، وهو الراقب وهو المرقوب، يخلد إلى الراحة مثل الذئب، عين مغمضة كحزن قديم،

والأخرى مفتوحة كقاع بئر. صديق عبدالمجيد هذا "مثل الزمن، "ما هو نظيف"، كما يقول هو، ثم لا يكتفي بهذا الإجمال في وصف الرصيف، فيعمد إلى بعض التفصيل، حتى يختلط علينا الحال، فيتماهى الرصيف مع الزمن، ويتداخل المحسوس مع المجرد، فلم نعد نعلم هل عبدالمجيد يجلد بكلماته الرصيف، أم أنه بالأحرى يعنِّف الزمن؟ ففوق ذلك الرصيف الملعون:

تلقى الأَوادم خايفة..
وبالحيل وجعانة..
تلقى التعب،
تلقى الزهق،
تلقى المياه الطافحة..
تلقى الحقائق غامضة..
مرّة..
ومرّة واضحة!

وفوق ذلك الرصيف، كما يلاحظ عبدالمجيد:

"تلقى الجراح أكوام:
شايب معوّق،
منحني،
أم وثلاثة أيتام،
تلقى السؤال اللّي كبر،
واللي غدا مخفي..
في الشارع الخلفي"

هذه الأيدي المعروقة الطويلة المشرئبة إلى الأعلى، هي التي تحيط عنق الشاعر، وهي التي تجفف الماء فوق لسانه، فقدره أن ينادم شخوصه فوق القاع، وأحياناً تحت القاع، وهو يلعق مرارتهم وعذاباتهم بكل ما أوتي من قهر أو صبر. إنه ما ينفك يتسلل بشعره بين أعمدة الضوء الكالحة المهدمة، بعضها مطفأ، وبعضها الآخر مطفأ أيضاً، فيلتقي "ناس الدور الأرضي"، كما يسميهم، الذين يرددون دائماً وبمضض شديد:

يعني بالضبط إحنا ناس،
فينا همّ،
وفينا إحساس
"نحنا" ما نعرف وشهو الدولار،
ما نعرف يورو وفرنك،
إحنا نعرف باب الله،
لكن نجهل باب البنك!".

هذا هو العالم الضجر، عالم الفراغ الأبيض، والرغيف الأبيض، والحب الأبيض، عالم السؤال الواحد، والإجابات التي ليست إجابات. وعبدالمجيد يدرك حق الإدراك وعورة العالم الذي جعله موضوعاً لشعره.

"أحد يولد فقير وفيه أحد أغنى،
أحد مولاقي يتعشى،
وأحد يحصل على مليون من مغنى،
ويأخذنا الحكي الفاضي،
من النصّاب للقاضي،
من الفرّاش إلى السوّاق إلى المسؤول،

ومن أكبر موظف ينهب الدولة,

إلى أصغر موظف ملّ يفطر فول!".

شعر يصدر عن براغماتية مريرة. صراع في المعنى، وصراع في المكرِّ والمفرِّ، في الإقبال والإدبار، في الحياة الموكوسة بالأوجاع، وفي الموت الذي يتكرر في الدقيقة ألف مرة. والشاعر في براثن يأسه يقول لـ"نوره":

تعالي "نرقد،

وإن سألنا الوقت قلنا له: رقدنا زي كل الناس!".

لكن عبدالمجيد لا يستطيع أبداً أن يفرّ من قدره، وهو لا بد أن يصحو، وأن يفتح عينيه جيداً على خرائب يومياته ويوميات الناس الآخرين. وهو لا يرى الحل في الحياد، بل يراه في الانحياز، الانحياز لما هو ضد الخوف، وضد "الجبن"، كيلا نفقد في النهاية معنى الحياة، فيقول:

"ممكن تعيش "الجبن" في ساندويتش ملفوف،
وممكن تعيشه: خوف!"
ثم يقول:
"به "جبن" غصب عنك.
وبه "جبن" بالإمكان!..
به "جبن" شكل مربعات،
وأحيان "جبن" مثلثات،
وبه "جبن" ثالث يفقدك معنى الحياة!"
ثم يقول في مكان آخر:
"إحنا بس كثرة جدال،

لا طموح،
لا خيال،
إحنا بس روح وتعال،
وإن بغيتوها بصراحة:
إحنا ما نسوى ريال".

أدوات عبدالمجيد البسيطة متوائمة مع رؤيته للمستقبل، ومع تصوره للأشياء!.. وهذا يقتضي الانسجام في بناء المعنى، وما لعبة الكلمات، أو لعبة "الجناس" و"الطباق" في شعره، سوى طريقة واحدة من طرقه التي يتخذها لإفشاء ما يعبر وجدانه من مرارات، مرارات كل البؤساء ممن اختار أن يكون صوتاً لهم.

والبؤس ليس الخصيصة الوحيدة للرصيف الذي اختار أن يمشي فوقه عبدالمجيد، بل إن البؤس ذاته يقتضي أن يكون للعابرين أوجاع أخرى، أوجاع من خارج قوائم الجوع أو الأوبئة والأمراض. أوجاع من خارج أقواس الأرق. فالعابرون هنا يرون مثلاً في كرسي الحلاق أنه الكرسي الوحيد الذي:

"ما فيه منصب، أو ألقاب،
الريّس،
مثل البواب،
الكل يوطّون الروس،
تجمعهم في الآخر: موس"

ثم يصيح الشاعر:

"قلت في قمة إحباطي:
وحده هالكرسي في العالم: ديمقراطي"

والديمقراطية لم تكن أبداً نبتة شيطانية طفيلية تخرج من جوف الأرض وحدها، من دون ماء، ولا شمس أو هواء، بل هي في واقع الأمر مشروع شائك طويل وعريض يحتاج إلى تربة ثرية غنية من أهم ما تستوجبه مادة عجيبة غريبة، اسمها ببساطة متناهية "الحرية"، فيقول عبدالمجيد:

"وحدي ألغي فعل الأمر
وأعصي سيبويه،
وابتدي في درس عن فعل "التحرّر"
ثم يعود ليلتقط الصورة الآتية التي تلخص كل قضيته:
"يا ولد! صدق الطماطم غالية بالحيل،
والكيلو بسبعة ريال،
وسع خاطرك بالحيل يا رجّال!
هي وقفت على سعر الطماطم،
كل شيء ما عدا الإنسان يغلا،
وحده الإنسان يرخص.
مثلك أبخص".

هواجس كبيرة يعالجها عبدالمجيد أو هي تعالجه، بلا تنطع، وبلا تعالي، وبلا مساحيق، بعيداً عن اللغة المخادعة، أو المتماهية مع الهوامش الملتبسة ما بين الزيف والزيف، أو ما بين الزيف مزايدات النخب. فعبدالمجيد، يختار أدوات شعره بعفوية، وينشئ العلاقات بين تلك الأدوات بعفوية أيضاً، ليقول لنا في النهاية: إنه قادم نحونا من وسط الزحام، فم مكسور مثل بقية "الأفمام" التي تزاحمه في الشارع الخلفي، فوق الرصيف المهشم، ذي الأعمدة

الضوئية الكالحة، التي نصفها مطفأ، والنصف الآخر قرر منذ زمن أن يموت، فهو إنما عاش أصلاً لكي يموت.

كلما أعدت قراءة شيء من شعر عبدالمجيد، تذكرت جاك بريفير، الذي مات فوق الرصيف أو تحت الرصيف وسيجارته "الجولواز" مشتعلة، وبالمناسبة فهي إلى هذه اللحظة مشتعلة!.. واختلاف عبدالمجيد هو أنه ليس محسوباً على أيدلوجيا، إنه محسوب على المخلصين من أصدقائه، ومنهم بطبيعة الحال: الرصيف، والجبن، والشايب المعاق، وأم الأيتام الثلاثة، والفراش، والسواق، والطماطم، والحرية، والسؤال المرّ الذي يكبر كل يوم!

لقد تعودنا منذ فترة على الشعر الشعبي الغارق في الليل والعطر، أو المطرز بالذهب وحبات اللؤلؤ والألماس، فجاء عبدالمجيد لينتشلنا من وهم الكلام إلى جارح الكلام!

تذكرت الآن تجربة مبدع آخر، اسمه عبدالرحمن بن مساعد بن عبدالعزيز. فهو من جهته، أوقظ في الشعر الشعبي هاجسه "الشعبي"، فقال أشياء كثيرة، ملفتة، وجميلة، عن الصعاليك، والفقراء، والأرصفة المهشمة، وبيوت الصفيح!

هكذا فضلت أن أكتب عن شعر عبدالمجيد، بعيداً عن فذلكات النقد وعنعناته وأضغاثه!

وأظنني كتبت عنه بما يستحقه من تواضع وشفافية،

لقد كتبت بعفوية لا تقبل الاحتمالات!

عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود:

سمو حب الأمير

كان لقائي للمرة الأولى بالأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز في منزل الأخ الأستاذ عبدالإله المؤيد بالرياض. كان المرحوم يومها أميراً لمنطقة تبوك، وكان المؤيد مسؤولاً في رابطة العالم الإسلامي. وقد اقتصر حضور ذلك اللقاء على بعض المشايخ وطلبة العلم، وفي مقدمتهم الشيخ الدكتور عبدالله المطلق، يوم كان عضو هيئة تدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. كانوا يناقشون الأمير الشاب في الشؤون العامة، وبعض الشؤون السياسية، وكان – رحمه الله – ممن يحسنون الاستماع، كما كان يحسن دائماً الجواب. فهو يشجع محاوره على أن يقول رأيه بحرية وصدق، وفي الوقت ذاته يدلي بما لديه في تواضع وهدوء، وبكثير من المنطق والحكمة.

لقد أحببت عبدالمجيد بن عبدالعزيز منذ ذلك اللقاء، ولقد التقيته للمرة الثانية في المدينة المنورة، وهو أمير لها، وذلك أثناء الزيارة الكريمة للملك عبدالله (كان ولياً للعهد)، وما برحت أحرص على التواصل معه في مناسبات متعددة، أقربها إلى الذاكرة والقلب مجلسه "المختصر" أثناء تواجدي في جدة، وينعقد هذا المجلس

بعد العشاء الأسبوعي الذي يقيمه سموه للأهالي، ويقتصر المجلس على بعض المثقفين، وبعض وجهاء المنطقة، ويتم فيه حوار راقٍ، يتسم دائماً بالصراحة والصدق، ويكون أبو فيصل هو المستمع الجيد والمحاور الفذ، والجميع يعلم أن مثقفي جدة كانوا دائماً حفيين بذلك المجلس الذي يقولون فيه للأمير ما لا يقولونه في ما يكتبون وما ينشرون. وما يقولونه لا يقتصر فقط على شؤون منطقتهم وشجونها، بل يمتد إلى ما يهم البلاد كلها. فعبدالمجيد ليس أميراً لمنطقة فحسب، بل هو كذلك رجل ثقة لدى ولي الأمر. ومع الأسف فأنني لم أكن أحظى بحضور ذلك المجلس الرغيد إلا في القليل، فأنا من أهل الرياض، والمسافات تقصينا وتضنينا.

كل من أعرفهم ممن عملوا مع الأمير عبدالمجيد كانوا يصفونه دائماً - رحمه الله- بأنه الإداري الحاذق الحازم، وأن له أسلوبه المميز في الإدارة (الإدارة بالنتائج)، فهو عندما يمنح ثقته لأحد العاملين معه، لا يكتفي بمجرد إعطائه الصلاحية للتصرف والإدارة وفق تقديراته على الأرض؛ بل يقدم له كل ما يحتاج إليه من الدعم، معنوياً ومادياً، ثم يحاسبه بعد ذلك على النتائج. وقد كان -رحمه الله- خير من أشرف على تطلعات الملك فهد -رحمه الله- في التوسعة العظيمة المشهودة للحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة، ومَنْ غير عبدالمجيد شرفه الله بالإمارتين: إمارة المدينة المنورة، وإمارة مكة المكرمة، ولعل ما قدمه لهاتين المدينتين المقدستين من جهد وعرق يكون -إن شاء الله- في ميزان حسناته.

يطول الحديث عن إنجازات الأمير عبدالمجيد، وليس هنا مكان التعرض لها جميعاً، وسأكتفي فيما يلي من سطور بالإشارة إلى بعض ما يتعلق بالمستوى الإنساني عند الفقيد، فقد كنت أستمع من

الأخ الأستاذ صالح التركي، رئيس جمعية البر في جدة، ما كان يثلج الصدر من أعمال الخير التي لم يكن يتوانى سموه عن دعمها والنهوض بها، وقد سعدت شخصياً بالحضور معه بعض هذه المناسبات، وشاهدت بأم عيني كيف كان حفياً بالفقراء والأيتام والمحتاجين. وعلى المستوى الإنساني أيضاً، وبعد أن اقتربت منه أكثر، الجميع لهم أن يتصوروا ما يمكن أن تكون عليه علاقة الأب عبدالمجيد بأبنه "الوحيد" فيصل، ومهما ذهبوا بعيداً في ذلك التصور؛ إلا أنهم لن يبلغوا المدى البعيد جداً الذي كانت عليه علاقة عبدالمجيد بفيصل، وأنا أعرف معنى "الابن الوحيد"؛ لأن هذه التجربة هي تجربتي أنا الآخر، فقد كنت وحيداً لأمي وأبي - رحمهما الله. لقد جالست عبدالمجيد وفيصل في أكثر من مناسبة خاصة، في البيت، وفي السيارة، وفي غيرهما، وكان آخر لقاء لي بالاثنين مجتمعين في مطعم "ماريوس وجانيت" للأسماك في جادة جورج الخامس بباريس، تعلمت من ذلك اللقاء، ومن غيره من اللقاءات، سبقته أو جاءت بعده، كيف يكون الإنسان "أباً" و "أخاً" في آنٍ معاً، وعرفت كذلك مستوى القلب الرقيق الرغيد الذي يحتضنه بين جوانحه هذا الرجل الكبير. إن فيصل، الذي كان يبلغ ذلك اليوم السادسة والثلاثين من عمره، كان عند عبدالمجيد "رجلاً"، وكان في الوقت ذاته "ابناً" صغيراً ينظر إليه بعين المحتاج إلى كل ذلك الدفق الحميم من الحنان والحب، ذلك الدفق الذي تراه وتسمعه وتلمسه في كل تصرفات الأمير الأب ونظراته وكلماته ومتابعاته. وبالمناسبة فعبدالمجيد لا يمكن أن يغادر البلاد بدون فيصل، فهو الذي ينظم سفره، وهو رفيقه وأنيسه وجليسه في آنٍ معاً. أما الحديث عن علاقة عبدالمجيد بعبدالعزيز وتركي والعنود أبناء فيصل، فلقد رأيت في عبدالمجيد ما لم أره أبداً في غيره، في السفر وفي المقام. ففي السفر دائماً في أحضان

عبدالمجيد، وهم في المقام، لا يمكن أن يغيبوا ولو ليوم واحد عن أنظاره، وحكاية أن "الجد والد" التي نقولها في أمثالنا الشعبية، هي غير ذات معنى بدون عبدالمجيد وعبدالعزيز وتركي والعنود، إنه لا يرى في كل واحد منهم "فيصلاً" آخر فحسب، بل كان يمنحهم ما لا أعتقد أن أي "جد" منحه لأحفاده من الحب والرعاية والمتابعة اليومية المباشرة اللصيقة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، يروي الدكتور أنور عبدالمجيد الجبرتي، يوم كان مشرفاً عاماً على مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض، إنه ذات يوم تلقى اتصالاً من الأمير عبدالمجيد يعلمه بنيته إجراء عملية "اللوز" للأميرين: عبدالعزيز، وتركي، وهذه طبعاً ليست القصة؛ بل القصة أن عبدالمجيد وجَّه الدكتور الجبرتي بحجز غرفة لصيقة بغرفة الصغيرين لينام ويستيقظ إلى جوارهما مدة إقامتهما في المستشفى، وهذا هو الذي حدث بالفعل، فقد كان عبدالمجيد، هو القيم الأول عليهما، يقظانا وساهرًا. وإلى أن ودَّعا المستشفى، لم يترك هذه المهمة للأم وحدها، أو للأب وحده، أو لغيرهما ممن سيولون الصغيرين كل ما يحتاجانه من العناية؛ بل قرر أن يبقى - هو شخصيًّا- إلى جوارهما، قريباً جداً منهما، في حضنه مرة، وفي قلبه ووجدانه مرات ومرات.

قصص فيصل وأبنائه مع عبدالمجيد قصص كثيرة، وهي لاتنمُّ فقط عن القلب العامر المفعم بالحب؛ بل تؤكد دائماً وجود إنسان مملوء بالرحمة والرقة والحنان، هو: عبدالمجيد بن عبدالعزيز. وهذه العلاقة لعبدالمجيد بأولاده، هي العنوان الحقيقي لشخصية المرحوم ولذاته النبيلة. وكل من عرف عبدالمجيد، يحق له أن يتلقى العزاء فيه. إخوانه، وأهله جميعاً، وأصدقاؤه، ومواطنوه، كلهم سيشعرون ويتألمون لفقده. وماذا تقول عن فيصل وعبدالعزيز وتركي والعنود؟!..رحمك الله يا أبا فيصل.

عبدالهادي السعدي:
بهجة الأسئلة

لا أعرف من الذي "اخترع" هذا النوع من الحوارات التي اعتنقها مؤخراً زميلنا، الأخ عبدالهادي السعدي*. فلأول وهلة نظن أن الذي اخترع هذا الفن في "مبارزات" الكلام، هو صحفي كسول وملول، وهو نزق أيضاً. ففي هذا النوع من الحوارات يوجه المحرر النحرير "رصاصة" الحصيف إلى صدر الضيف المسكين ووجهه، في متوالية حثيثة لا تدع له فرصة للتنفس، وعلى الضيف الغافل، والمغفل أحياناً أن يُصوِّب رماحه إلى نفسه، وإلى الآخرين، وبسرعة ورشاقة، أي دونما "فلسفة"، أو تطويل و"تمطيط" في الكلام، فلا لزوم للتنقيب عن مبررات أو مسوغات لما سيقوله، أو ما سيعلنه صاحب السعادة على رؤوس الأشهاد، ولا حاجة كذلك إلى "براعات استهلال" أو "مقدمات" تمهد لنتائج. ولا ضرورة إلى الدهانات

* حوارات نشرها لمدة طويلة في صحيفة "الوطن" تحت عنوان "آلو".

والأصباغ، أو ما يسمى ماكياج الكلام، الذي يساعد على تسهيل "البلع"، وييسر مهمة الهضم، ويخفي تجاعيد الأفكار ونتوءات المشاعر!

وبعد العديد من القياسات والتجارب، اكتشفنا أن من اخترع هذا اللون المستفزّ من الحوارات لم يكن أبداً صحفياً كسولاً أو ملولاً ،كما كنا نظن أو نتوهم. فنحن - لوجه الحق- نبرئه من هاتين التهمتين. أما كونه "نزقاً"، فهذا ما لم نتمكن من دفعه عنه، فهو نزق فعلاً، ومزاجه غالباً ما يكون "معكنن"، ولا وقت لديه لحيل زملائه الصحفيين الآخرين مع ضيوفهم، إذ هم يستدرجون الضيوف، ابتداءً إلى ساحة القتال، أقصد الحوار، وذلك من خلال أسئلة ناعمة معطرة "مبخرة"، ثم يبدأ الترقب والتربص، إلى أن يحين وقت الانقضاض بمطر الأسئلة ذات المخالب الحادة، والأنياب المسمومة. أما المحرر "النزق" المستفزّ فهو - على خلاف ذلك- يباغت ضيفه بالهجوم بعد السلام والمصافحة مباشرة، بل إنه قد لا يسلّم، أو يمد يده للمصافحة أبداً. فهو "يعكمك" بالسؤال الحاد الأول، ليتبعه فوراً بالذي يليه، ثم الذي يليه، فلا تدري بأي سماء حلقت، ولا بأي أرض وقعت. وهذا النوع من المحررين دائماً ما يسمي "المقدمات" التي يلجأ إليها الضيف في إجاباته زوائد "وهرج" وطفيليات، بل هي من حوشي الكلام، الذي لا "ثمرة" فيه. ويرى أن المبررات أو المسوغات ما هي إلاّ عنعنات مخادعة، لا ينبغي أن تستغرق ما يهرق لها من الأحبار، ويعتقد أخيراً، أن البلاغة

التقليدية، أو "التقعر"، أو ماكياجات الكلام كلها في الغالب أو دائماً، إنما توضع للمخاتلة، أو للتخفي، أو للتضليل، أو لـ"دمدمة" الأفكار، وللتعتيم على المواقف التي ينبغي أن تكون دائماً ناصعة كجبهة قمر. إن هذه الماكياجات كذلك قد تشغل الناس عن "الجوهر"، وهي قد تغري المحرر نفسه بالرأفة بالضيف، وهذا ما لا ينبغي أن يوضع في الحسبان!

لهذه الأمور جميعاً، اخترع أحد ما، في يوم ما، كلاشينكوف الأسئلة، وأبلغ ضيوفه منذ أن أشهر "رشاشه" في وجوههم، ومنذ السؤال الأول؛ بأهمية السرعة، فإذا توالت الطلقات، فما عليك إلاّ أن تعجِّل بالإجابة، فقد تلحق "الشهادة" ،وقد لا تلحقها. دع الحروف تتساقط من بين ثناياك الفانية بتلقائية، تهطل، وتنداح، وتنساب بعفوية. دعها تعلن عن نفسها دون تدخل منك، لتخرج بيضاء، طرية، بلا رتوش، متبرجة، عارية كما خلقها ربنا، لا كما تريد أن تخلقها أنت.

زميلنا عبدالهادي السعدي زاد على جده الأول، الذي اخترع هذا الفن، فجعل حواراته تتم عن طريق التليفون، ثم تمادى وبدأ "الباب" الذي تنشر في الصحيفة بكلمة "آلو" بلغة نابية، بينَّه العجمة والعياذ بالله. طبعاً هذا يكشف عن إيمان عميق بالتكنولوجيا والعياذ بالله أيضاً، فالتكنولوجيا من صنع "الكفار"، وهي أبداً لم ولن تكون من صنعنا، وهذا ليس المهم الآن، بل المهم هو أن لجوء عبدالهادي إلى هذه الوسيلة المريبة المرتابة يكشف عن حساسية

مرهفة لدى زميلنا العزيز، فهو لا يقوى على مشاهدة ضحاياه تتمرغ في دمائها أمام عينيه، فلجأ إلى فكرة الذبح "عن بعد". ألسنا في عصر المعلوماتية وفانتازيات التقنية؟ إذ هناك اليوم التعلم عن بعد، والتطبيب عن بعد، والتسوق عن بعد، وحتى الزواج عن بعد. وطبعاً وبالضرورة، الحب عن بعد كذلك، أي أننا في عصر يتداخل فيه عالم الافتراض مع عالم الواقع، ليشكل في النهاية عالم "ما فوق الواقع"، مع الاعتذار الشديد للمفكر الفرنسي النصف مجنون: ليوتار.

لم يكن من الخطط الاستراتيجية لعبدالهادي السعدي في الكر والفر في غاراته على ضيوفه، أن يستخدم الكلاشينكوف دائماً (الخطة A)، فقد يلجأ أحياناً إلى الخطة البديلة (B)، فتأتي الأسئلة بسيطة وناعمة، ثم تستهويه الحال، فيستمر على هذا المنوال إلى نهاية الحوار، فيغتبط الضيف المسكين الغافل أو المغفل بأن لا جروح أو دماء في المعركة ولله الحمد، لكنه يدرك فيما بعد أن مطر الأسئلة السريعة الذي لا يمهل ولا يهمل، قد كشف أمام الملأ عن عظام الضيف المتصفة - مع الأسف- بالهشاشة والرخاوة، بل أحياناً - لا مؤاخذه- "الرخامة". كلام بارد سامج، لا روح فيه ولا معنى، ولا أهمية له، وفي هذه الحالة يكون اكتفى عبدالهادي بذبح ضيفه ذبحة معنوية، ولا ضرورة إذاً للدماء والبارود والغبار والأتربة، كما هي الحال في الخطة (A) الأساسية!

أحياناً قد يمزج السعدي الخطتين A و B، وغالباً ما تكون النتيجة ماحقة. وطبعاً لو سألته عن أهدافه أو نواياه لقال فوراً: إنها البحث عن "الحقيقة". والملاحظ أن كل الصحفيين يقولون الكلام نفسه، ونحن عندما شاء الله لنا، وقدر علينا، أن نطلق الصحيفة التي نشر فيها السعدي هذه الحوارات، أي صحيفة "الوطن" السعودية، كان الشعار الرسمي الذي استخدمناه لإطلاق الصحيفة، يا للمصادفة "الحقيقة مهما كلف الأمر". وأظن أن عبدالهادي يتذكر، كغيره من أهل المهنة المحترمين؛ أن هذه "الحقيقة" الله قد كلفتنا وكلفت صحيفتنا الكثير والكثير جداً، وقد زادت قناعتنا من يومها بأن للحقيقة مذاقاً غالباً ما يكون في غاية المرارة والبؤس، ولعل من أهون أعراض ذلك المذاق الصداع المزمن، ومن أقوى تلك الأعراض وأصعبها التهاب الأذن الوسطى، وفقدان التوازن المزمن أيضاً.

هل السبب الذي جذب السعدي إلى صحيفة "الوطن"، هو شعارها القديم (الحقيقة مهما كلف الأمر)؟ ربما. فعبدالهادي نفسه في سالف العصر والأوان أغوته "اليمامة" القديمة، يوم كانت مدافعها وقاذفاتها لا يكاد يسلم منها أحد، بدعوى البحث عن "الحقيقة" أيضاً!! وكان عبدالهادي يومها في "الخندق" برتبة جندي، ثم برتبة عريف، إلى أن وصل إلى رتبة "مقدم!".. ساهم في المعارك، سواء في الميدان، أم في القتال "عن بعد"، كما هي المصطلحات الجديدة لزمان المعرفة الجديدة الذي نحن فيه الآن.

والمحاربون "في الميدان"، هم الذين يتعرضون للنيران أكثر من غيرهم، وقد لا يسلم المقاتلون "عن بعد" أيضاً، أما سعادة "الفريق"، ومن تحته من الألوية والعمداء العسكريين، فهم يكتفون بالتخطيط، وقراءة الخرائط، وتوزيع المهمات القتالية، وإصدار الأوامر القاطعة، قابعين خلف مكاتبهم الوثيرة، أعني "القيادة العامة"، أو مراكز التوجيه والتحكم، أو غرف العمليات. أنا شخصياً يومها برتبة فريق أول، وكنت أتمتع ولله الحمد والمنّة بأكثر المكاتب "وثارة"، مكتفياً بالاستحواذ على 99.9% فقط من الأمجاد والانتصارات التي يحققها زملائي من أصحاب الرتب الأدنى في الكتيبة أو الفوج. لم أكن أشعر طبعاً بأي حرج في ذلك؛ لأن هذه هي سنة الله في خلقه العرب. فإنني إذا لم أكن مع زملائي في مواجهة النيران في "الميدان"، فأنا أقضي النهار، وأسهر الليل في التفكير والتخطيط والتفكير، وهؤلاء كلهم لا يقدحون إلاّ من زنادي، كما أن أفكاري النيرة، هي الوهج الذي يقتدون به، وآرائي الحكيمة المبهرة، هي التي تقودهم إلى منصات النصر والسؤدد. نعم، فأنا أتصرف مثلي مثل غيري من المتربعين على المكاتب الوثيرة، وليس من حق أحد أن يقول لي "بم!".

عبدالهادي السعدي كان من الجنود المخلصين، فما عليك إلاّ أن "تدفعه" بكلتا يديك إلى ساحة المعركة ليكون حالاً بالاً إلى صف زملائه، يضرب، ويصعد، ويهبط، وهو لا يسلم من بعض الطعنات الخفيفة، وقد تتلقاه بعض شظايا القنابل اليدوية الطائشة، التي قد

تـأتي أحيانـاً مـن نيـران صـديقة مـع الأسـف، ويـتم عـلاج عبـدالهادي الفـوري فـي الميـدان أحيانـاً، ليعـاد "دفعـه" إلـى سـاحة المعركـة مـن جديد!

أحسب أن عبـدالهادي قـد اختـار اليـوم "لعبـة" حـرب جديـدة، وهي "المبارزة" التي تتم في الغالب مع فارس واحد فقط، هـو ضيفه في الحوار. يكر ويفر، ويقبل ويدبر، ويصهلل، ولا يهمه شيء، ولكي أكـون صـادقاً أكثـر ممـا كنتـه فـي الـسطور الـسابقة، فهـو لا يهمـه الانتصار على "خصمه" الضيف، بل تهمه أكثر لعبة السيف والوردة، لعبـة الموجز،لعبـة المختـزل، لعبـة الأسـئلة التـي لا تـدعك تفكـر، أو تتصنع، أو تلملم أطراف لسانك، بل إنها لا تعطيك الفرصة لكي تلقي علـى جـسدك كـل أرديتـك المعتـادة، وكـل هـذا يـتم تحـت سـياط التليفون، وسيلة الاتصال التي ترفض الرحابة، وتخفي دائماً ملامح السعادة أو علاقات الألم على وجه المضيف، وتخصيصاً، على وجه الضيف كذلك، فلا أحد يرى أحداً. والكلام كله لا يخضع للمؤثرات الجانبية، أو التكشير، أو ما يسمى بانفراج الأسارير، فهو يحدث في العتمة، في ظلام دامس يخفي تماماً ملامح الضحية. إنه خالص لوجه الله.. ولوجه الكلام.. وكلام الكلام!

كان عبدالهادي يقوم في الواقع بحفلة صيد واسعة، ففي البـاب الـذي كـان يعـده لـصحيفة "الـوطن"، استـضاف فيـه لمـدة طويلـة مجموعة من الأسماء اللامعة في السياسية والثقافة والحياة العامة، واعترف أنني شخصياً كنت أحد ضحايا تلك الحفلة، وقد حدث لي

هذا، وأنا في كامل وعيي، ومتمتعاً بكامل أهليتي العقلية والشرعية، أو هكذا كنت أظن على الأقل! رضيت بما قسم الله لي، وليس من حقي، إذاً، الشماتة بغيري من الإخوة الكرام الذين اصطادهم عبدالهادي، فنحن "بيض" غير فاسد - إن شاء الله- وقد وقعنا لحسن حظنا أو لسوئه، في "سلة واحدة"، وأي سلّة!

عبدالوهاب العيسى:

صديقي.. كما أحببته! وكما أحبه غيري!

عندما هبطت يا أبا عبدالوهاب* من الطائرة التي أقلَّتك من البحرين تزلزلت الأرض من تحت أرجلنا! ومادت الجبال أمام أعيننا، واهتزت السماء من فوقنا. كان كل شيء من حولنا يتهاوى ويتحطم.

وعندما تهدّمت -أنت- بين أذرعنا تبكي وتنتحب في ساحة المطار؛ كنا كلنا نبتهل إلى الله العلي القدير أن يخفف من مصيبتك، وأن يسدل عليك من شآبيب رحمته. فمصيبتك ليست ككل المصائب، فنحن نعرف موقع عبدالوهاب من وجدانك. فقد كان ابنك، وأخاك، وصديقك، وكان مستشارك، حتى في مسائل الشعر. وكنت أقول لك: هذه القصيدة جميلة فلننشرها، فتقول لي: نأخذ رأي عبدالوهاب. وكنت أقول لك: هذا الديوان مكتمل فلنطبعه، فتقول لي: نأخذ رأي عبدالوهاب. كان عبدالوهاب حاضراً دائماً معنا في كل ما نتداوله

* الشاعر محمد الفهد العيسى، والد عبدالوهاب، كان سفير السعودية في البحرين.

معك من قصص وحكايات، كان لا يغادرك ولا يفارقك. في طفولته، وفي صباه، وفي شبابه، وفي رجولته. كان عبدالوهاب عندك ملحمة منذ أن صرخ صرخته الأولى على هذه الأرض، إلى أن أصبح رجلاً ملء السمع والبصر.

ولا أنسى عندما قلت لي ذات مساء وأنت تحدثني عن أول وظيفة لعبدالوهاب: "كنت سفيراً في قطر، وكان لي لقاء عمل مع الملك فهد في الرياض، يوم كان ولياً للعهد، كان الذي يقود سيارتي من الدوحة إلى الرياض، هو عبدالوهاب. كان عبدالوهاب هو الرفيق، وهو الصديق، وعندما انتهى لقائي بالملك فهد، دخل عبدالوهاب للسلام عليه، فسألني: من هذا يا محمد؟ فقلت: هذا عبدالوهاب، وردة العمر ومعقد الأمل يا طويل العمر. نظر إليه الملك فهد قليلاً، ثم سأل الشاب المتوقد بالذكاء والحيوية: أين تعمل يا عبدالوهاب؟ فأجاب: أحضِّر لدرجة الماجستير في جامعة نيس بفرنسا في الحقوق طال عمرك. ثم التفت إليَّ الملك وقال: أرسله بكرة إلى الديوان يا محمد، عندنا له وظيفة، ومسألة الماجستير مقدور عليها إن كانت ضرورية. وفي اليوم التالي، كان معالي الشيخ محمد النويصر يبحث عن عبدالوهاب ليعطيه الوظيفة، ومن يومها كان النويصر، هو الوالد الثاني لعبدالوهاب، علّمه، ودرّبه، وصقله، فكان عبدالوهاب موضع الثقة، لم يخن فراسة الملك، ولم يخيب طموحات الأب. تدرج من الوظيفة الصغيرة حتى بلغ الكبيرة*، وكان كلما يكبر عبدالوهاب، تكبر معه تجربته وخبرته سنيناً".

* تدرج عبدالوهاب في الوظائف العليا في الديوان الملكي، إلى أن أصبح نائباً لرئيس الديوان بمرتبة وزير.

قلت لي كل ذلك ذات مساء وأنت مستغرق في أحاديثك الطويلة عن عبدالوهاب. تلك الأحاديث التي كانت لا تزيدك إلا نشوة وزهواً. وكنا نحن من جهتنا لا نسأم تلك الأحاديث ولا نملها، أولاً: لأننا مثلك نحب عبدالوهاب، وثانياً: لأننا نحس بأنها متعتك التي لا تضاهيها أي متعة!

وكل ما كنت تقول عنه، كنا نجده بالفعل متوافراً فيه: الصدق، والنقاء، والإخلاص، والمثابرة في أداء الواجب، والمحبة لكل الناس. وعن هذه المحبة حدِّث ولا حرج يا أبا عبدالوهاب. فيد عبدالوهاب ظلت ممدودة بالخير لكل محتاج، وهو لا يحسد أحداً على منصب ناله، أو جاهٍ طاله، أو مال حصل عليه، بل هو فرح دائماً بكل خير يصل إلى الآخرين، وهو دائماً أول المسرعين بالمساعدة، وأول المهنئين بما يتحقق من أهداف.

يا أبا عبدالوهاب!

نحن فقدنا أخاً وصديقاً، وأنت فقدت وردة العمر، وحبة القلب، والرئة التي تتنفس بها أجمل النسائم، والعين التي تبصر بها أجمل ما في الأرض، والأذن التي تستمع بها إلى أحلى الأناشيد وأرقى الألحان، والفم الذي تنطلق منه أعذب القصائد وأبهى الكلمات!

نحن فقدنا عزيزاً وحبيباً، وأنت فقدت قلبك الذي كان يعطي لحياتك معنى، ولقولك معنى!.. ولتفكيرك معنى!

الله أكبر يا أبا عبدالوهاب!

عندما هبطت بك الطائرة التي أقلتك من البحرين، وعندما

تهدمت بين أذرعنا فوق ساحة المطار تبكي وتنتحب؛ كان كل شيء يدور من حولنا. الأرض تدور، والسماء تدور، ونحن ندور. لم نكن قادرين على الوقوف، ولا على الجلوس، ولا على النوم، ولا على الصحو. كل شيء مُرّ، قلوبنا مُرّة، حلوقنا مُرّة، عيوننا تقطر بالمرارة التي ليست بعدها ولا قبلها مرارة.

هذا أنت، وهذا نحن. كلنا -يا أبا عبدالوهاب- تحت خيمة حزن واحدة، تحت سماء من الدموع واحدة. لنا ولك الله، فهو وحده القادر على أن يلهمنا من الصبر ما نحن في أمس الحاجة إليه.

ارفع يديك إليه يا أبا عبدالوهاب.

هو معك إن شاء الله.

ونحن معك.

كلنا معك!

اعذرني فلم أعد قادراً على الكلام!.. ولا على التفكير.. ولا على الكتابة.

لا إله إلا الله!

*****

لما وقفت يا ياسر* على باب الطائرة القادمة من أمريكا، كنت -أنا- لا أكاد أتبين ملامحك، وكنت -أنت- تغرق إلى ما فوق هامتك في دموعك وفي حزنك!

* الابن البكر للمرحوم عبدالوهاب العيسى، كان يدرس سنته الأولى في أمريكا.

سبحان الله يا ياسر! تهيأ لي فجأة أن أباك عبدالوهاب كان يقف إلى جانبك. كانت ملامحه لحظتها أشد وضوحاً من ملامحك.

أجل. صدقني إنه كان معنا في المطار، يقف -بالضبط- إلى جانبك، يقول لك: هؤلاء هم أصدقاء أبيك، احضنهم يا ياسر وهم سيحضنونك، الق برأسك فوق صدورهم، فهم سيحبونك كما أحبوني. لم يكذب أبوك يا ياسر، فنحن والله سنحبك كما أحببناه، وسنكون معك كما كان هو دائماً معنا!

هل تدري لماذا رأيت المرحوم يقف إلى جانبك عند باب الطائرة؟ رأيته كذلك؛ لأنك أنت خليفته في أهله، ولأنك تشبهه في وسامته، وفي عمقه، وفي إقباله على الحب والحياة!

وتذكرت لحظتها يا ياسر أول لقاء لي بأبيك عبدالوهاب. كان ذلك في باريس في مكتب الملحق التعليمي في السفارة السعودية. لقد كان يشبهك اليوم، كان يدرس المرحلة الجامعية في مدينة نيس، وكنت أجيء أنا إلى فرنسا لدراستي العليا. كان وسيماً مثلما بدا يوم وفاته، وكان مشرقاً مثلما ظهر يوم غادر هذه الدنيا. منذ ذلك اليوم يا ياسر، وأنا احتفظ له في أحشائي بحب متدفق لم ينضب. أحببت فيه عقله، وهدوءه، وعفة لسانه، وصبره على الغيظ، وصفحه عن الإساءة، وحماسته للخير، وحبه لكل الناس.

لم أره بعده، بعد فرنسا، إلا يوم أن أكملت دراستي، فاستقبلني في بيتكم في جدة بكل ما عهدته فيه من الوفاء. كان يسألني عما سأفعل، وعما أخطط له لحياتي.

هل قلت: الوفاء؟! أجل قلت ذلك!

إن لأبيك عبدالوهاب مع هذا الخلق النبيل قصصاً لا تحصى يا ياسر، فلقد ظل يفاجئنا -إلى أن مات- بزميل دراسة له في الابتدائية، أو زميل في الثانوية، أو في الجامعة، من قطر، من المغرب، من سوريا، من أمكنة كثيرة في هذا العالم! يراسلهم، يهاتفهم، يدعوهم إلى منزله، يأخذهم معه إلى منازلنا. بعد كل حين وحين، نحن على موعد مع مفاجأة من مفاجآت عبدالوهاب، وكل تلك المفاجآت، هي زملاؤه أو أصدقاؤه أو أساتذته. لقد دفعنا إلى حبهم جميعاً، لما كان يغرقهم به هو من الحب!

كنا نحس دائماً يا ياسر أن هذا الوفاء وهذا الحب الذي يفيض به أبوك على أصدقائه وزملائه، هو قليل أمام ما يحتفظ به لك أنت، ولأسرته، وأهله، وذويه. كنت أنت وإخوتك وأمك، وكان أبوه وإخوته وأمه، هم جميعاً شغله الأول والأخير.

كان شديد القلق على صحة الوالد محمد والوالدة. كان شديد القلق على مستقبل إخوانه وأخواته كلهم.

كنت أنت وإخوتك وأمك البيت الأثير الذي يجد فيه روحه وحقيقة كينونته. نحن -أصدقاءه- نعرف عنه ذلك؛ لأننا نعرف كيف كان يفكر، ولأننا نحس بنبرة الصدق عندما كان يتحدث عنكم، أو عندما كان يعطينا بعض تصوراته لمستقبلكم.

كان يريد أن يبني لكم مستقبلاً من حرير!.. أو من زمرد.. أو من ياقوت!

كان يعيش لكم، ولنا، وللناس.

لكل هذا كان يهيأ لي، ونحن ننتظر وصولك في المطار، أن

أباك عبدالوهاب كان يقف إلى جانبك، عندما خرجت إلينا من باب الطائرة، وأنت تغرق إلى ذؤابتك في الحزن وفي الدموع!

كنت أراه يقف إلى جانبك؛ لأنني قبل وفاته بأربع ساعات فقط ، كنت إلى جانبه في مزرعته في الدرعية مع بعض أصدقائه. هل تريد أن أقول لك كيف كانت حالته في تلك الليلة الأخيرة، العشاء الأخير، اللقاء الأخير؟!.. كان كعادته يا ياسر يفيض بشراً وحباً وحيوية. كان يضحك ملء الأرض والسماء،وكان يفرح ويمزح ملء الأرض والسماء أيضاً. كل الحاضرين كانوا جاهزين للذهاب معه غداً صباحاً إلى الإسكندرية لقضاء إجازة قصيرة، وكنت أنا الوحيد الذي لا يريد الذهاب إلى هناك، ثم ودعناه عند منتصف الليل. وفي الصباح وجدت عند خادمتنا المنزلية أربع مكالمات من عبدالوهاب، وكلها تؤكد ضرورة أن أكلمه في التليفون عاجلاً، لم يكن يدور في ذهني أنه غادرنا إلى الدار الآخرة يا ياسر. كنت أحسبه سيلح عليّ من جديد بالذهاب معه إلى الإسكندرية، فلم أرد على رسائله، لم أكلمه في التليفون: أي (جمّدته) كما يحب أن يمازحنا عندما لا يرد أحياناً على بعض مكالماتنا أو رسائلنا له. وبعد دقائق كنت أتلقى صوت الأخ عبدالله اللحيدان في التليفون، يقول لي بأنه هو الذي ترك لي تلك الرسائل عند الخادمة باسم عبدالوهاب، فهو يريد مني أن أحضر إلى منزل عبدالوهاب فوراً، فقد ألغي موضوع السفر إلى الإسكندرية. لم يكن أبوك يا ياسر، هو الذي ترك تلك الرسائل كما زعمت الخادمة، بل إنهم أصدقاؤه وأصدقائي الذين تركوا تلك الرسائل باسمه؛ لأنهم يريدون أن أستعجل في الاتصال عندما أجد أن المتصل هو عبدالوهاب!.. أما المرحوم نفسه فقد مات، مات منذ الفجر، وأنا غارق في نومي إلى تلك اللحظة التي تلقيت فيها

الخبر!.. طبعاً لا أدري ماذا كنت سأفعل، لو لم أكن نائماً وكنت في قمة صحوي، لا شيء على أي حال، غير أنني سأبكر قليلاً بالبكاء!

لك أن تتصور يا ياسر كم كان حجم الكارثة التي كانت تصك أذني وقلبي وكياني وأنا أستمع إلى هذه الكلمات، التي انطلقت من فم الأخ اللحيدان، كما ينطلق الرصاص أو السم الزعاف!

قبل ساعات فقط كنا معاً!.. قبل ساعات فقط كان عبدالوهاب يحتفي بأصدقائه، ويمازحهم، ويداعبهم، ويعدهم ببضعة أيام من الفرح والحبور في بحر الإسكندرية!

لقد رحل عبدالوهاب، ولكن ليس إلى الإسكندرية، بل إلى مكان آخر. ترك أصدقاءه حيارى ومذهولين، وأيديهم على حقائبهم.

يا أمان الخائفين! سبحانك لا إله إلا أنت! شئت.. وما قدرت فعلت!

لهذا كان أبوك عبدالوهاب ما يزال حاضراً في وجداني وصدري وعيني، وكان يقف إلى جانبك على باب الطائرة التي أقلتك من أمريكا. كان يبكي، وأنت تبكي، ونحن كلنا وبكل جوارحنا نصيح ونبكي!

إلى متى يا ياسر سنظل نبكي!؟

*****

صباح يوم الأحد كان غير صباح أيها الأصدقاء![*]

* أصدقاء عبدالوهاب العيسى.

تذكرون؟! فقد كنا يومها مجندلين في زوايا منزل عبدالوهاب، غارقين في دموعنا وفي ذهولنا، ذلك الذهول الذي حبس أنفاسنا في الصدور، وأوقف دماءنا في العروق، وشلّ فينا كل شيء. كل شيء في الفضاء أمامنا كان مشلولاً، وغير قادر على الحركة!

لم يعد هناك إسكندرية. الإقلاع إليها كان من المفروض أن يتم الآن، ولكن عبدالوهاب ذهب إلى مكان آخر، اختاره له البارىء العظيم. وهو لن يستطيع أن يراكم، أو يرى الإسكندرية مرة أخرى كما وعدكم. ها هو يخل بوعده لكم لأول مرة، وها هو "ترتيبه" "يتلخبط" لأول مرة أيضاً.

الملك لله، الواحد الأحد!

لقد جمعكم عبدالوهاب من جدة، ومن المنطقة الشرقية، ومن الرياض: حمد الفارس، وزايد السكيبي، ود.فهد العبدالجبار، ومحمد السماعيل، ود.حمد العرينان، ود. سعدي الطاهر، جمعكم كما عودكم دائماً، ولكنه تركككم في بيته ورحل، حيل الله أقوى!

لقد تعودنا جميعاً أن نلتف حول عبدالوهاب، في الرياض، في جدة، في لندن، في مربيا، وفي أي مكان فوق هذا الكوكب. كان هو الذي يجمعنا، وكان الذي يفرقنا، ولولا ظروف عملنا، ولولا ظروف عمله، لما غادرنا، ولما غادرناه قط. نحن كنا نلاحقه أينما ذهب، وهو كان يلاحقنا أينما نذهب. كان دائماً موجوداً معنا، يتدخل - بحب- في كل شؤوننا، حتى ترميمات منازلنا، كان يتدخل فيها عبدالوهاب. يقترح عامل الدهان، ويقترح السباك، ويقترح عامل البلاط، ويقول رأيه في الديكور ونوع الفرش. كان يشرف بنفسه على مثل هذه التفاصيل، وكان يزور "الموقع" ونحن موجودون وغير

موجودين، وإذا لم يعجبه شيء غيّره دون أن يستأذننا. فهو كان يحس دائماً بأنه "صاحب محل"، وله كلمته في كل ما نفعل. وعن مثل هذه الأمور خصوصاً اسألوني أنا، واسألوا فهد العبدالجبار، واسألوا عبدالله اللحيدان. لقد "تابع" بنفسه عقود بعض الأعمال في منازلنا.

لم يكن يستأثر لنفسه بأي شيء عنكم، ابتداء من التمر والرز والفاكهة الجديدة، وانتهاء بالأدوية الاعتيادية اليومية التي تصله من أمريكا وفرنسا وغيرهما. هذا دواء جديد للزكام، وهذا دواء للسعال، وآخر لتخفيف الوزن، وآخر للمساعدة على الهضم. كان يوزعها علينا معه بالتساوي! ويعلمنا متى نأخذها، ومتى نمتنع عنها.

تذكرت بعض هذه الأمور الصغيرة / الكبيرة وأنا عائد من المطار مع صديقه عبدالرحمن بن سعد الراشد، رجل الأعمال المعروف، وقلت له: حتى الحطب الذي تتدفؤون به عندي في بيتي في الشتاء، كان يختاره ويرسله لي عبدالوهاب. التفت إليّ عبدالرحمن الراشد، وهو يضحك ويبكي في الوقت نفسه قائلاً: وأنا أيضاً يا فهد، فالحطب الذي تتدفؤون به في منزلي، هو من عبدالوهاب.

أجل!.. كنا نشاركه في كل شيء عنده، دون أن نسأله ذلك، ودون أن نبدي إليه حاجتنا إلى أي شيء من مثل هذا.

هل أزيد؟! لقد كان عندما يجيء إلى منزل أحد منّا للغداء أو للعشاء، يحضر إلينا ومعه طبق أو طبقان أو ثلاثة، أعدتهما أم ياسر، أو طباخته المغربية لنشاركه فيها.

لا بد -أيها الأصدقاء- أن نعترف بأن أحداً منّا لم يكن يفعل مثله، ليس لأن ما كان يفعله كان مكلفاً أو معجزاً لأي أحد منّا؛ لكن لأننا كلنا كنا أقل منه حساسية، وأقل منه شفافية. إنه يفكر في تفاصيل لا ترد على بال أي أحد منّا!.. إنها تفاصيل كانت تضحكنا أحياناً، لكنها كانت دائماً تمس منا شغاف القلوب؛ لهذا -أيها الأصدقاء- تذكرون، وتذكرون جيداً أننا عندما تجمعنا نبكي في منزل عبدالوهاب يوم وفاته، قلنا كلنا وبفم واحد: لقد مات "أبونا" عبدالوهاب!.. مع أنه الأصغر سناً من بعضنا، وربما من أكثرنا. إنه لم يكن صديقاً، بل كان أباً، ومن يا ترى يتصرف مثل هذه التصرفات -البسيطة في ظاهرها، العميقة في معناها- غير "الأب"؟!.. وما دمنا نتحدث عن الأبوة فأنتم تذكرون، وتذكرون جيداً أنه عندما ألمت ببعضنا - نحن أنفسنا- بعض الأمراض التي ليست سهلة، كان عبدالوهاب وراء العلاج في الداخل والخارج، وكان دائماً وراء سماعة التليفون بالليل وبالنهار. هذا فضلاً عن أنه كان يسدّ مسدّ صاحب البيت في أهله، وفي أولاده من بعده، وحتى في بعض الأعمال الخاصة التي كانت تحتاج إلى متابعة وإنجاز فترة غياب المريض. فعبدالوهاب كان يقوم بها بكل رضى وطمأنينة. لا أريد أن أكون متشائماً، ولا أريد إلاّ أن أحسن الظن بالناس وبالزمان، ولكن أين منا أصدقاء من هذا الطراز الفريد في الأرض؟!

إنني لا أبالغ أبداً فهذه الأمور تعرفونها جميعكم عن عبدالوهاب، ولا سيما منكم من ذكرت أسماءهم هنا. إنه ميت، وإنكم أحياء، فهل قلت هنا غير ما هو حق؟!

رحمك الله يا أبا ياسر!.. لم تكن أكبرنا سناً، ولكنك كنت

حتماً أكبرنا قلباً!.. ولا بد أن ننصفك فيما كنت تفعله، أو تقوم به من أجلنا نحن أصدقاءك!

شيء آخر!.. وهو أنه يحدث بين الأصدقاء أخطاء، أو سوء فهم، أو زلّة لسان!.. وقد نغضب من بعضنا بعضا، وقد نؤاخذ بعضنا بعضا، فأودّ أن أسألكم يا أصدقاء عبدالوهاب طيلة السنوات التي عرفتموه فيها، هل سمعتم منه ما أغضبكم أو كدّر خواطركم، جداً أو هزلاً، صدقاً أو مزاحاً؟! أنا أجيب عنكم هنا ليعرف الناس ذلك عن الفقيد: لا والله لم يحدث هذا قط، والله على ما أقول شهيد، وأنتم أيضاً على ذلك من الشهود العدول، إن شاء الله!

إن لعبدالوهاب تعبيراً معروفاً لدى أصدقائه، يقوله عندما يسمع اقتراحاً من أحدنا فلا يوافق عليه، وهذا التعبير هو "نشوف!". إن هذا هو أقصى ما كان يمكن أن يعلق به على ما يسمع مما لا يروق له، فهو يخشى أن تجرحنا كلمة "لا" أو "معصي".

وإن لعبدالوهاب تعبيراً آخر معروفاً عندما يسمع من أحدنا رأياً لا يستسيغه، وهذا التعبير هو "انكشح"، وهذا هو أقصى ما كنا نسمعه من عبدالوهاب للاعتراض على بعض ما نقول. رحمك الله يا أبا ياسر.

وأقول بلسان كل أصدقائك الذين عاشروك وعاشوا معك: إن فقدك علينا عظيم.. أي والله عظيم!

*****

يوم الوفاة.. قال لي يوسف الخليل، سكرتير عبدالوهاب في الديوان الملكي: إن جريدة الشرق الأوسط طلبت منه السيرة الذاتية

لعبدالوهاب لنشرها مع خبر النعي، فقلت له: لا بأس في ذلك، ابعثها إليهم، فردّ يوسف: أريد أن أطلعك عليها قبل أن أبعثها إليهم، ثم أعطاني ورقة صغيرة كان يمسكها بيده مكتوباً عليها ما يأتي:

تاريخ الميلاد ومكانه، والحالة الاجتماعية، والمؤهل، واسم الوظيفة، ومدة الخدمة في الدولة، واللغة الأجنبية التي يجيدها فقط. فقلت ليوسف الخليل: هذه سيرة ذاتية ناقصة، أكملوها يا أخي، واذكروا فيها المناصب الأخرى التي تقلدها، والخبرات، والدورات، والمؤتمرات... إلخ.

فأجابني يوسف بالآتي: لقد كتب عبدالوهاب هذه السيرة الذاتية بيده وقال لي: اعتمدوها هكذا لأي مناسبة كانت، بدون زيادة أو نقصان.

أجل! هذا هو عبدالوهاب الذي أحدثكم عنه اليوم يا من لاتعرفونه!.. وما هذا إلا نموذج واحد فقط من نماذج تواضعه وعزوفه عن الطبول والمزامير. فغيره ممن يتاح له أن يتقلد بعض ما تقلده من مناصب، كان سيملأ الصفحات لتدوين سيرته الذاتية!!

عبدالوهاب من جهة أخرى يعرف جميع رؤساء تحرير الصحف السعودية، وتربطه ببعضهم صداقات جيدة، هل قرأتم ولو لمرة واحدة خبراً أو مقالة لعبدالوهاب أو عنه. سافر، قدَّم، عطس، سعل، رزق بمولود، أقام حفل عشاء، أو حتى حفل زواج ابنته "سارة" مثلاً؟.. أو زواج أخواته وإخوانه، هل قرأتم عنها أي شيء؟! لم نقرأ اسم عبدالوهاب إلا في الأخبار الرسمية التي تُنشر عن زيارات خادم الحرمين الشريفين، أو تنقلاته، أو بعض استقبالاته عندما يكون رئيس الديوان غير موجود، أو في مكان آخر لظروف عمله.

كل أصدقاء عبدالوهاب من رؤساء التحرير لديهم الاستعداد لأن يفسحوا لنشاطاته الاجتماعية بعض المساحة في صحفهم، وأولهم كاتب هذه السطور، الذي عمل رئيساً للتحرير في مجلة اليمامة لأكثر من اثني عشر عاماً. هل رأيتم قط صورة أو خبراً لعبدالوهاب في مجلة اليمامة طيلة تلك المدة؟! على الرغم من محبتي له واعتدادي وسعادتي بما يفعل!

كل نشاطات عبدالوهاب وعلاقاته الاجتماعية كانت تتم في صمت، وهو بالتالي لا يتحدث، حتى مع أصدقائه المقربين عما يفعل، وإذا سئل مباشرة، فكثيراً ما يسوِّف، أو يتجاهل السؤال، أو يعتذر عن الجواب! أما إذا كانت المسألة تتعلق بصميم عمله الرسمي، فإن من الممكن أن ينطق أبو الهول ولا ينطق عبدالوهاب، نسأله عن خلفيات بعض الأخبار، بعض القرارات، نقول له بعض الأصداء أو الإشاعات مما نسمع في المجالس والصالونات الاجتماعية، ولكن عبدالوهاب يرمينا شمالاً، ويرمينا يميناً، فلم نكن نخرج منه بأي شيء. وبعض الناس ممن يعرفون علاقتنا بعبدالوهاب، يعتقدون أننا قريبون من مطبخ الأخبار، وهم لا يدرون أننا أبعد ما نكون عن ذلك المطبخ.

عبدالوهاب بطبعه أقرب ما يكون إلى عالم الصامتين، فهو قليل الكلام، وقد يدخل إلى المجلس ويخرج مه مكتفياً بهز رأسه، أو بابتسامة لا تفهم منها أي شيء غير أنها دليل على الإنصات وحسن الاستماع.

وإذا وُجِّه إلى عبدالوهاب سؤال مباشر في غير ما يتعلق بعمله في الديوان، فلا يقول رأياً إلا إذا كان واثقاً تماماً من صوابه، أما

إذا كان العكس، فلا يجد أي حرج في الجواب على السؤال بلا أدري، أو أنه ليس عنده رأي محدد في الموضوع محل النقاش.

إن صمت عبدالوهاب الذي كان أكثره طبعاً فيه، يقتضي أن يكون صاحب هذه الصفة حيّياً بالضرورة، خجولاً بالضرورة!.. نعم!.. لقد كان عبدالوهاب صاحب حياء، فهو لا يقاطع أحداً، ولا يشاغب أحداً، ولا يرفع صوته في وجه أحد، مهما كانت طبيعة الحوار أو موضوعه، وحتى عندما يسمع ما قد يزعجه أو يستفزه، يكتفي -رحمه الله- بالابتسام، أو بتغيير مجرى الحديث، وكأن شيئاً لم يكن. وكثيرون ممن سيقرؤون كلامي هذا ممن عرفوه أو جالسوه أو اجتمعوا به، لن ينكروا أبداً شيئاً من هذا. لا، بل إن عبدالوهاب يتحاشى أن يقول رأياً مناقضاً أو معاكساً إذا ما شعر بأن الموضوع غير مهم، وأن ما سيقوله قد يزعج أو يعكر صفو من يتكلم أو يتناقش معه، وقد يكتفي بالقول: "يريد الله خيرا"، وهذا التعبير هو أحد تعبيرات عبدالوهاب التي نعرفها عنه، وإذا سمعناه منه، نعرف أنه لا يريد أن يقول رأيه، أو لا يريد أن يخوض في الموضوع بالكلية.

وما دمنا نتحدث عن حياء عبدالوهاب، الذي هو على هذه الدرجة من الحساسية، فلا داعي لأن أؤكد لكم بأننا لم نسمعه قط يلوم (حتى لا أقول يوبخ) أحداً أمامنا على فعل خاطئ اقترفه، سواء من أبنائه، أم إخوانه، أو العاملين لديه، ولا نظنه يقسو على أي أحد من هؤلاء وهو منفرد به. ويقول لي أحياناً بأنه طلب حضور فلان، وهو غاضب عليه، وقال له كيت وكيت، فأبتسم أنا في وجهه، فيسألني لماذا تبتسم؟! فأقول له: لأنني أحس أن ما تحدثني به يا

أبا ياسر غير صحيح، فأنا أعرفك وأعرف أنك غير قادر على القسوة، فيضحك هو ويقول: فعلاً ما ذكرته لك غير صحيح، ولكني في قرارة نفسي كنت أودّ أن أقول له ذلك!!

وهنا أذكر هذه الحادثة الطريفة، كانت تجمعنا -عبدالوهاب وأنا- متعلقات عمل بشخص ما، وقد عطل علينا بعض الأوراق التي طلبناها منه، فقال لي: اتصل به، ففعلت، ويبدو أنني قسوت على الشخص، وقلت له فيما قلت: إنني زعلان جداً وعبدالوهاب كذلك، فاتصل المعني بعبدالوهاب وقال له: أرجو ألا تعطيني "دُشاً" كما فعل فهد، فرد عليه عبدالوهاب ضاحكاً: أنا لا أعرف أعطي "دشات"، ولهذا طلبت من فهد أن يتصل بك!!

لهذا كله كنا نفهم -نحن أصدقاءه- لماذا كان يبقى بعض السائقين أو الخدامين عند عبدالوهاب لحوالي ثلاثين سنة متوالية، وإذا غادروه، غادروه باكين، وبعضهم لم يغادره حتى الآن!

هذا هو الجانب الرقيق الهادئ العاقل لعبدالوهاب، الذي أردت اليوم أن أتحدث عنه لمن لا يعرفونه.

أما الذين يعرفونه، فهم على علم به، اسألوهم!

رحمك الله يا أبا ياسر، فقد تعلمنا منك ما نجد أنفسنا في كثير من الأحيان عاجزين عن تطبيقه!

*****

لقد استعجلت في رحيلك عنّا يا أبا ياسر!

وقد بقيت في يدي معاملتان لبعض المحتاجين، لم تنجزهما بعد! *

كنت أنوي أن أسلمهما لك بعد عودتك من الإسكندرية.

لقد غادرتنا بلمحة عين، نحن الذين كنّا نستعد لاقتحامك من جديد بعد الإجازة، فأنت عودتنا أن نفعل معك ذلك دائماً، فلا نجد إلا البشاشة في وجهك، وإلا البشر في عينيك.

المعاملتان ما تزالان هامدتين فوق مكتبي**. واحدة تتعلق بأسرة شاعر سعودي معروف، والأخرى تتصل بأحد المعاقين المحتاجين، فأما أسرة الشاعر فإن كاهلها المنهك أضحى ينوء بتسديد بقية أقساط مسكنهم لدى البنك العقاري، وقد رحل عنهم أبوهم -رحمه الله- وتركهم زغب الحواصل لا ماء، ولا شجر. ترك لهم فقره، وشعره فقط. وأما المعاق، فيريد السيارة والكرسي الخاصين بالمعاقين؛ لأنه يقوم بقضاء حوائج أسرته بعد أن فقد أباه وأخاه، وهما كانا يقومان بهذه المهمات قبل وفاتهما.

كنا نريد منك يا أبا ياسر أن تنجز هاتين المعاملتين، كما أنجزت الكثير غيرهما طيلة عملك، وطيلة عمرك، ولكنك استعجلت الرحيل. ذهبت إلى مكان بعيد لن تعود منه إلينا أبداً!!

تعلم أنني لم أكتب عن أي شيء مما كنت تفعله أثناء حياتك؛ لأنني كنت أعرف أن هذا يزعجك ويؤذي أحاسيسك. فقد كنت تريد أن يتم كل شيء في صمت، ليكتمل أجرك عند الله، ولتبلغ من

* كان عبدالوهاب نائب رئيس الديوان الملكي، وأحد البوابات المهمة إلى ولي الأمر (الملك).

** كنت عضواً بمجلس الشورى السعودي.

المثوبة أقصاها عند البارئ العظيم، هذا فضلاً عن أنك كنت زاهداً كل الزهد في الطبل والمزمار، وفي المباخر والأنوار الكاشفة. أما وقد رحلت عنا ولن تعود، فاسمح لي أن أنوِّه ببعض ما كنت تفعل من أعمال الخير، لعل ذلك يكون قدوة لمن سواك من القادرين، سواء بأموالهم أو بنفوذهم!

الناس يعلمون -يا أبا ياسر- أنك كنت طريقاً ميسوراً إلى وليّ الأمر، توصل إليه أصواتهم، وتسمعه همومهم، وتبلغه حاجاتهم. وهو كان سريع الاستجابة لاستغاثة الملهوفين، ولأنات المرضى والمصابين، ولصرخة المحتاجين والمعوزين. ولهذا فالقريبون منك يشهدون لك -إن شاء الله- بأمرين، الأول: أن كثيرين من هؤلاء الناس كانوا يقصدونك مباشرة، والثاني: أن بعضهم كانوا يصلون إليك عن طريق أصدقائك -وأنا واحد منهم- فما كنت تتوانى في خدمتهم، وفي الأخذ بأيديهم، وفي إيصال مشكلاتهم إلى من يجدون عنده دائماً الرأفة، والرحمة، والعطف، والرعاية. حتى كنا نظن أحياناً أن مثل هذه الأعمال الخيرة، كانت تأخذ الجزء الأكبر من عملك ووقتك، وحتى كنا نحسب دائماً -نحن أصدقاءك- بأننا نثقل عليك بما نقدمه لك من مشكلات الناس وحاجاتهم، ولم نكن نرى منك في أي يوم من الأيام أنك كنت تمتعض أو تتذمر، أو حتى تمتنع عن الاهتمام بما نقدمه لك في هذا الطريق، طريق الخير.

أما أنا شخصياً، فقد كنت أحس أنك تحسن إليَّ مرتين: مرة عندما تتيح لي الفرصة بأن أشترك معك في عمل الخير، عندما أوصل إليك حاجات الناس، ومرة أخرى عندما تجعل هؤلاء الناس يزيدون في إحسان ظنهم في علاقتي بك، وهم كلهم إنما يأتون إليَّ

طمعاً في حسن تلك العلاقة وصلابتها، وأنت كنت تعلم يا أبا ياسر، أنهم كانوا يأتون إليَّ، وبعضهم لا أعرفهم، ولم أقابلهم قط في حياتي. لا، بل إن بعضهم يبعثون طلباتهم بالبريد، أو عن طريق وسطاء، فتنقضي حاجاتهم بمشيئة الله، وتدخل السعادة والطمأنينة إلى قلوبهم. وإذا قابلونا اليوم أو غداً في قارعة الطريق، فإننا لن نعرفهم، ولن ندري من هم، لا أنا، وبطبيعة الحال ولا أنت كذلك!

بعضهم أرامل، وبعضهم أيتام، وبعضهم معاقون، وبعضهم معوزون، وبعضهم مرضى، وكل منهم له حاجته. إن سكرتيري في مجلس الشورى، الأخ عبدالعزيز القريشي بُهت وبكى بكاء مرّاً عندما علم بوفاتك؛ لأنه شاهد على ما كنت أرسله إليك عن طريقه، وهذا غير ما كنت أحمله إليك بيدي. لا، بل إن الأخ القريشي قال لي: إنه هو شخصياً -من طرفه- كان يرفع إليك بعض حاجات الناس، دون أن تأتي بالضرورة عن طريقي!

أجل. هو وأنا كنا قد جهزنا لك مجدداً بعض الطلبات وبعض المعاملات لتنجزها للناس، لكنك فاجأتنا برحيلك السريع والمباغت يا أبا ياسر. وها هي -أي تلك المعاملات- تقبع على مكاتبنا، وكأنني أسمع أصوات أصحابها تنطلق من بين سطورها لاهجة بالدعاء لك بالمغفرة وحسن المآل.

إنني أعلم -يا أبا ياسر- أنه لن يرضيك أن أقول كل هذا عنك، دون أن أذكر بالفضل والدك الثاني الذي علمك وأرشدك وصقلك وأخذ بيدك، معالي الشيخ محمد بن عبدالله النويصر. فأنا أعلم حق العلم، أنه كان دائماً عوناً لك على فعل الخير، وعلى إيصال أصوات الناس وحاجاتهم وطلباتهم إلى وليّ الأمر، وكان يشجعك على هذه الأمور، ويدفعك إليها، ويظهر ذلك جلياً من خلال القبول الحسن

عنده - رحمه الله- لكل ما تعرضه عليه، هذا فضلاً عن أنك كنت توجهني بعرض بعض الأمور عليه مباشرة، فما كنت أجد عند أبي عبدالرحمن إلا أكثر مما كنت أجده عندك من الاستجابة والاهتمام. إن أصدقاءك الذين أحبوك ما من أحد منهم إلا وكان يفعل مثلما كنت أنا أفعل معك، فكلهم كانوا رسل خير للناس.

والآن يا أبا ياسر!.. رحلت أنت.. وبقينا نحن.. وأبواب الخير ستظل -إن شاء الله- مفتوحة، فنحن مجتمع بنيت علاقاته على الخير، وعلى البر والتقوى.

أنت تعلم -يا أبا ياسر- أنني لم أكتب عنك حرفاً واحداً أثناء حياتك، وهذا هو شفيعي عند الله والناس بأن ما أكتبه اليوم -بعد رحيلك- إنما هو خالص لوجهه تعالى. فلا تشوبه أي شائبة من شوائب الدنيا، أو أي غرض من أغراض النفس، لا أتزلف به إليك، ولا أتقرب به منك، فأنت اليوم في ذمة الله، في عالم غير عالمنا، عالم أنت أحوج ما تكون فيه إلى الرحمة والسكينة. فليسبغ عليك الإله العظيم من رحمته، وليكسوك من سكينته بأكثر مما أنت أهل له، فهو الكريم، وهو السميع المجيب. قال الله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون".

رضينا بما قدر الله يا أبا ياسر، "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً" الآية.

رحلت عنا رحيلاً مباغتاً، مفاجئاً، وهذا تدبير فالق الحب والنوى، الذي يقول في محكم كتابه: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير".

عزيز ضياء:

"اللورد" الذي أحببناه!

كان يزهو على جيله بأنه الوحيد الذي يقرأ طاغور ويفهمه ويترجمه، وكان يتقدمهم جميعهم بأنه - من بينهم- أول من قرأ تشارلز ديكينيز وإرنست همنجواي قبل أن ينقلا إلى العربية.

كان أنيقاً جداً في فكره، وأنيقاً جداً في مواقفه، وأنيقا جداً في غليونه، ذلك الغليون الذي كان يضفي على "الأستاذ" سمتاً خاصاً به، ولم يجد المقربون منه، من الأصدقاء والأولياء والمريدين، غير أن يطلقوا عليه صفة "اللورد"، فهو في شممه وأبّهته عندما يأخذ بزمام الكلام، وعندما يسحب نفساً من غليونه الشهير، تتجسد فيه شياكة اللوردات وصرامتهم. وبالمناسبة، فقد صادفنا في يوم ما أحد المبتدئين في تدخين الغليون، فسأل هذا المبتدئ د. عبدالله مناع، (وهو من مدخني الغليون) عن كيفية أن يصبح في عداد أهل "البايب" الأنيقين، فأجابه المناع قائلاً: "تأخذ في البداية كورساً بسيطاً عندي، لكن الإجازة النهائية لا يمنحها لكم إلا الأستاذ عزيز ضياء". وبالمناسبة أيضاً، فالأستاذ عزيز ضياء كان يدعو عبدالله

مناع دائماً بـ"وجه البقشة"، ففي الحجاز كانت تدور بعض النساء (يسمونهم الدلالات) أو **البائعات** في الحواري وعلى البيوت؛ بهدف بيع أغراض ومقتنيات وأقمشة، يقدمنها للزبونات من النساء في "البقشة"، وهي حافظة بدائية من القماش، وعند ترتيب الأغراض في "البقشة"، يضعن على وجهها، أو في أعلاها، الأجمل والأفضل، وهذا هو ما يسمى بـ "وجه البقشة". ورأي الأستاذ عزيز هذا يعني أن المناع "واجهة" جيله، وهو أميزهم، أناقة في الفكر والكتابة.

وأحسب أن هذا الحنوّ من "الأستاذ" على المناع، يحتاج الآن إلى استجابة، وأقل ما يمكن أن تتجسد فيه تلك الاستجابة؛ هو أن يكون المناع في مقدمة من سيتولون تراث الفقيد: بالبحث، والمراجعة، والتحقيق، والتوثيق والدراسة، وهو حتماً، سيضع يديه على ثروة كبيرة هي عصارة عقل نيّر، وخلاصة وجدان نقي، وهي التعبير الأفصح والأبهى عن مواقف مشهودة للمرحوم، مواقف من التقدم، والعلم، والحرية، ومن المرأة. فلقد ظل عزيز ضياء، وإلى أن مات، يبهر من يختلف إلى مجلسه بآرائه وبتطلعاته التي غلبت حتى المتأخرين من جيل المثقفين الذين جاؤوا بعد جيله، وإلى يومنا هذا، فهو المتفوق دائماً على عمره، وعلى أعمار الأجيال التي جاءت بعده، وهو المتجاوز، أبداً لجميع العنعنات التي لا تستند إلى منطق صحيح أو فكر واضح مستقيم.

كان جيلي لا يتوقف عن تدشين حملات "مقاومة" مستمرة لسطوة "الشيوخ" ولتسلطهم، ولكنه كان يقبل بأن يكون في مقدمة صفوفه "شيخ" استثنائي، هو عزيز ضياء، فقد كان الأقرب إلى عقل الشباب وروحه، وكان الأكثر تفهماً لطموحاته وتطلعاته، وكان الأكثر

استيعاباً لمشاريعه في الإبداع و"المغامرة" والتحديث، لا بل إن عزيز ضياء لا يضع نفسه من الأساس بين جيل الشيوخ أو الرعيل الأول، فقد مات وهو ما برح "في العشرين" من عمره، أو هكذا يرى نفسه.

لقد ترك لنا عزيز ضياء تراثاً مبعثراً، يحتاج إلى مراجعة وتحقيق، لكن أجمل ما ترك هذا الأديب العظيم، هو سيرته الذاتية التي سماها: "حياتي مع الجوع والحب والحرب". إن ما أفشاه عزيز ضياء في هذا العمل المبهر، في لغته الجميلة وأسلوبه الأخاذ؛ يكشف لنا جوانب ثرية وملامح غاية في الخصوبة، ونحن لم نكن قد عرفناها من قبل في شخصية الأديب والمفكر عزيز ضياء. إن هذا العمل بالتحديد يرتقي إلى مستوى أفضل وأجمل ما وصلت إليه فنون السير الذاتية، انتقاءً وسرداً.

*****

كشف الأستاذ عزيز ضياء في هذا الكتاب عن إمكانات هائلة جداً لكتابة الرواية، ونحن أضعنا كاتباً روائياً ممتازاً، بالنظر إلى سن الأستاذ، أطال الله في عمره، ولكن بالنظر إلى السنوات الطويلة التي مرت من جهاد الأستاذ عزيز في الكتابة دون أن يعطي منها للفن الروائي ما يستحقه من تلك الإمكانات، إذْ أننا في أمس الحاجة إلى كاتب روائي من حجم أبي الضياء، لاسيما وأننا في هذا المجال لم نستطع أن نقدم، حتى الآن، للثقافة العربية ما قدمه غيرنا من الشعوب الشقيقة الأخرى.

نحن نعرف أن ما كتبه الأستاذ هو "سيرة ذاتية" ولكن من هو الذي يستطيع أن يقيم حدوداً صارمة بين الرواية، والمذكرات، والسيرة الذاتية؟ إن هذه الفنون تتداخل أحياناً إلى درجة التماهي والتمازج، والاختلاط الشديد المربك، وهذا هو بالضبط ما أثبته الأستاذ عزيز نفسه في قصة حياته. ولاشك أن قصة حياة الأستاذ هي، في واقع الأمر، قصة شيقة ومثيرة، وهي إضافة مهمة التي تراثنا الثقافي المعاصر.

وأنا أبيح لنفسي أن أتحدث عن إمكانات روائية معتبرة عند الأستاذ عزيز لأنني أحس في كل صفحة وفي كل فصل أن هناك كاتباً روائياً عملاقاً مختفياً بين السطور وفي ثنايا الكلمات، وهو يتمرد أحياناً على أدوات الإخفاء التي تكتنفه ليخرج في هيئة مكتملة صريحة خالية من الغموض أو الخجل أو التردد. وهذا هو الموقف الذي أشرت إليه قبل قليل، وهو موقف تماهي الرواية مع السيرة الذاتية، ولا بأس من إضافة "المذكرات" إليهما في عصر تداخل الأجناس وتمازجها واختلاطها. فالمذكرات والسيرة الذاتية هما سرد حكائي لأحداث جرت في حياة المؤلف. ولكن في الوقت الذي تهتم فيه السيرة الذاتية بتفاصيل الأحداث وتطوراتها فيما يتعلق بحياة المؤلف مما هو "يومي" أو "معاش" إنساني، فإن المذكرات تعطي التفاتة أوسع إلى العصر وشئونه الكبرى التاريخية والاجتماعية والثقافية. وأحسب أن الأستاذ عزيز في قصته "مع الجوع والحب والحرب" قد قدم كل هذه الأشياء مجتمعة، وهو قد قدمها في نفس روائي ملفت، فيه الحكاية السردية، وفيه الحدث، وفيه التحليل النفسي، وفيه تصوير المجتمع والعالم الخارجي، وفيه الحوار الثري

بالذكاء والإيحاء، وفيه تداخل المجاز مع الحقيقة، أو الخيال مع الواقع.

لقد دون عزيز ضياء في قصة حياته "مع الجوع والحب والحرب" أشياء هي الأقرب إلى "الاعترافات" الشديدة الصراحة، وهذا مما يدخل في صلب السيرة الذاتية، كما في "الأيام" عند طه حسين حديثاً، أو في "طوق الحمامة" عند ابن حزم الأندلسي قديماً، ولكن الأستاذ عزيز احتمى بالشكل الروائي، ليفيد من حريته، وطلاقته، ورحابته فيجرؤ على أن يدلي بما لم يكن في استطاعته أن يدلي به لو أنه كتب اعترافاً مباشراً.

*****

الجيل الذي تتلمذ على عزيز ضياء، وأنا منهم، عرف فيه الناقد، والصحفي، والكاتب السياسي، ولم يكن يعرف فيه هذا التدفق السردي المثير المشوق الذي جاء به كتابه عن حياة الجوع والحب والحرب. لقد كان شيئاً بين الرواية والسيرة الذاتية لدرجة أن قال أكثرنا: لو أن المنية أمهلت "الأستاذ"، لكان أخرج للناس أعمالاً روائية غاية في البناء والإبداع. أجل. لقد كشف هذا العمل - متأخراً- عن موهبة كامنة في عزيز ضياء كانت - في نظري- لو خرجت للناس في وضوح أكثر لتفوقت على مواهبه الجمة الأخرى.

هذا الكتاب، أو هذه السيرة، هي تاريخ ما لم يؤرخ له، أو هي تاريخ ما أهمله التاريخ، فالتاريخ لا يهتم إلا بالأحداث الكبرى، وعزيز ضياء أولى اهتماماً خاصاً إلى الأمور التي نحسب صغيرة، وما نسميه أحياناً بالتفاصيل. إن هذه التفاصيل هي الصميمية

والحميمية في البنية الإنثروبولوجية للحياة وللمجتمع. فعزيز ضياء نقل إلينا "ثقافات" وتفاصيل مجتمعات ما، كان الكثيرون منا ليعرفوها أو ليصلوا وحدهم إلى موحياتها وتجلياتها.

شرَّق "الأستاذ" وغرَّب في سيرته العطرة، وقدَّم حياته، ومحيطها، وعوالمها، وشخصياتها، وفضاءاتها، بكل شفافية وصدق، قدَّم كل ذلك كما يحسه وكما يفهمه، وكما عاشه أو رآه، من دون أي فحش في المبالغات أو المحسنات، ومن دون أي افتئات أو تزييف، أو قفز على الواقع والحقائق، كما كانت تظهر له في تلك الأيام. لم ينتق في سرده شيئاً لا يستحقه، ولم يخف أشياء كان ينبغي أن يظهرها، تداعت الأحداث والأفكار في سلاسة مبهرة، وفي صدمات مثيرة، ومن أجل ذلك كانت حياته مع الخدع والحب والحرب عملاً كبيراً ومؤثراً.

رحم الله الأستاذ عزيز ضياء، فهو يحتاج منا إلى أكثر بكثير مما قلنا، ومما سنقول.

فرانسواز ساغان:

عيون من الحرير

قل لي: أين الشمواه؟!.. أنت.. أيها الرجل القوي.. الرجل الحديدي.. هل فشلت في قطع أنفاسه برصاصة؟!

هذا الذي يسأل.. هو "الذئب" الختول.. فقد كان يوالي -بصوت مرتفع- هذه الكلمات الجافة على "جيروم"، الذي أخذ يستلقي بوهن إلى جانب المدفأة التي كان يعب فيها اللهب والشرر كأمواج الدم. فقد استلقى هنا جيروم بعد مطاردة قاسية للشمواه دامت طول النهار.

هذا "الذئب" الوقح لم يكن يعلم أن "جيروم" قد رام مرتين هذا اليوم قتله، هو نفسه وليس الشمواه! كان يريد أن يقتله بعد أن تبين أنه سيختله، سيسلبه هدوء قلبه، سينتشل منه "مونيكا" زوجته وعشيقته الشرعية!

اكتفى "جيروم" بأن قال:

- لم أجرؤ على قتل الشمواه!

رفعت رأسها "مونيكا" لحظة، ونظرت إلى زوجها المنهك، ثم مررت أصابعهـا على وجهـــه كأنها كانت تُخِّمن تماماً ما كان يدور في رأسه، ثم قالت:

- ولكن حتى لو قتلته!!

وقبل أن تكمل كانا يغيبان -كلاهما- عن الدنيا، ويغرقان في قبلة كانت أطول من مسافة الخوف التي عصفت بقلب الشمواه طوال اليوم، فرح الآخرون من الغرفة، لقد أخذ "جيروم" مونيكا إلى صدره، والنار في المدفأة تأخذ أحجاماً وأبعاداً غريبة وشاذة من اللهب.

هكذا -تقريباً- كانت فرانسواز ساغان تنهي إحدى قصصها القصيرة في مجموعتها: "Des yeux de soie" أو "عيون من الحرير". والعنوان الذي وضعته ساغان على المجموعة، هو نفسه عنوان القصة التي ذكرنا خاتمتها أعلاه، رومانسية خائرة أفناها "اليأس" الذي كان يعصف بقلب "جيروم"، بعد أن اكتشف أن صديقه "الذئب" كان سيتمكن من كل شيء في نفس "مونيكا". وقد تصاعد هذا "اليأس" في نفسه أكثر فأكثر على أثر إخفاقه في قتل هذا الغادر في حلبة الصيد، وهو يطارد الشمواه.

اليأس الذي جعل "جيروم" ينساق خلف الشمواه بعد فشله في سحق "صديقه"، فظل يطارد صيده الذكي المليء بكبرياء الطبيعة حتى أنهكه، وحتى تأكد من أن "اليأس" قد أخذ ينتشر في كل أحشائه هو الآخر، حينها تركه، وتنكَّب عن قتله، فقد أصبح جيروم نفسه يعرف اليأس، ويعرف ما قيمة الانعتاق منه.

ربما أن فرانسواز ساغان كانت مكرهة على اختيار هذه النهاية، تحطيماً لحبائل النهايات "المنتظرة" التي قد تفسد على الفنان "أصالته"، فلو أن ساغان مكّنت بطلها "جيروم" من قتل صديقه "الذئب"، لوقعت في شراك النهايات "المنتظرة"، ولكنها فضّلت، درءاً لذلك، أن تعمد إلى تمييع "تصور" القارئ، وبالتالي مفاجأته.

الهروب من النهايات "المنتظرة" كان يظهر جلياً في كل قصص المجموعة تقريباً، ويعني هذا أن فرانسواز ساغان كانت تدرك أو لا تدرك، أنها تخطط لإفساد "تصور" قارئها. وهذا المشروع "الساغاني" من حيث المبدأ، يعد فضيلة، ما دام التوفيق يحالف الكاتبة غالباً في إعطاء القارئ التعويض عن "إفساد" تصوره بالمفاجأة الخفيفة الحلوة، التي تبتعد في أكثر الأحيان عن "التشكيل" الكلاسيكي المغالي لنهاية "الحدث"، وهو التكشيل، والذي يحول المفاجأة غالباً إلى "سقطة" عنيفة قد تجرح على أثرها ركبتا القارئ، وساقاه، وربما جبهته أيضاً.

فالنهايةأو المفاجأة "الساغانية"، هي عموماً هزة خفيفة، أو ارتعاشة دقيقة. هي قفزة رصيف،حتى لو اشتملت على موت، أو قتل، أو انتحار. ففرانسواز ساغان كاتبة تتمتع برشاقة فنية تستغلها بمهارة في "تكييف" حدثها.

حتى في "مشروع" تشكيل الحدث نفسه، فإن رشاقة ساغان تغنيها عن اللجوء إلى اختلاق مشاهد معقدة، أو مواقف مفتعلة. ففي رواياتها الطويلة تكفيها بضع حركات، بضع لحظات، بضع ابتسامات؛ لتقدم للناس سرداً يدهشهم في أكثر الأحيان، ولهذا فهم يقولون عنها: إنها صاحبة فن: "Le Presque rien" "اللاشيء" أو

الـ"قليل جداً". وهي فعلاً تجد مقياسها المثالي الذي يميزها عن الآخرين في فنها الذي ينبثق من هذا المنطلق، ولهذا أيضاً فهم يقولون عن رواياتها: إنها عبارة عن "سوناتة" أو مقطوعة موسيقية قصيرة تعزف على آلة منفردة كالبيانو أو الكمان، وربما أن فرانسواز ساغان لهذا السبب، لم تكن تجد الضرورة لكتابة القصة القصيرة قبل مجموعتها هذه.

الناس ليسوا في حاجة لقراءة ما يكتبه النقاد عن فرانسواز ساغان لمعرفتها، فهي خير من تقدم نفسها للناس. تقدم نفسها بطبيعة الحال من خلال شخصيتها في قصصها ورواياتها، وهذا ما يقول به بعض النقاد . ومن هذا المنطلق فأنت كلما قرأت شيئاً لفرانسواز ساغان، وجدت نفسك تعمد -عفوياً- إلى "توزيعها" هي نفسها، وتقسيمها هي ذاتها، بصراحة وبسخاء بين كل شخصياتها، حتى في هذه المجموعة القصصية "عيون حريرية"، كنت أشير بأصبعي إلى هذه الباريسية في عيون أبطالها وقلوبهم وأجسادهم في كل قصص المجموعة أو أكثرها.

صحيح أن الروائي أو القاص عموماً يتواجد - سلباً أو إيجاباً، مباشرة أو دون مباشرة- خلف كل شخصياته، بصفته المبدع، أو المنشئ لهذه الشخصيات، ثم فيما بعد، من حيث كونه المسير لتلك الشخصيات، يعيرها أو يقرضها شيئاً من إحساسه ومن فكره، مهما تضاءلت هذه "الإعارة"، ومهما قل هذا الإقراض، ومهما اتفقت أو تناقضت مع الواقع اليومي العادي. فساغان لم تنفرد، من حيث المبدأ بحضورها في عقول شخصياتها وقلوبهم، ولكن الذي يميزها عن غيرها، هو أنها دائماً موجودة بوضوح وجلاء ومباشرة

فـي أهـاب بطلهـا أو بطلتهـا، وحتـى فـي جوهمـا العـام طبعـاً. فالكوكتيلات هي كوكتيلاتها، وعالم الحب الذي يخل توازنه السن، أو الثروة، أو أي شيء آخر؛ هو عالمها. واليأس (وهنا نصل إلى النقطة الأكثر حساسية)، أقول: اليأس الذي يخيم على "كل" قصصها الأخيرة بالذات؛ هو يأسها.

ففرانسواز ساغان، فتاة الثامنة عشرة أيام الفورة الأدبية عام 1954،أيام القنبلة الأولى: "صباح الخير أيها الحزن" أو: "Bonjour, Tristesse"، كانت "حزينة" فقط، والحزن لا يتضمن اليأس في كل حين. فالحزن وحده لا يقوى على إخماد جذوة الأمل، بل ربما كان هذا الحزن أحياناً، هو عنصر الوقود في أذكاء الأمل. فرانسواز ساغان عندما أصدرت "صباح الخير أيها الحزين" لم تكن "يائسة"، وإنما كانت حزينة، وحزنها كان حزناً واعياً، وليس هذا فقط ، فلقد تتابع هذا "الحزن" الموجع فيما بعد في الرواية الثانية الصادرة عام 1957، والتي حملت عنوان: "ابتسامة معينة" أو: "Un certain sourire". يومها كانوا يقولون عن كتابات فرانسواز ساغان: إنها غير ناضجة، ولكن الذي كان يشدهم إلى ما تكتب، هو بالذات الحزن الواعي بنتائجه، الحزن المثقل برسائله وموحياته.

فرانسواز ساغان في "عيون من الحرير" يائسة، وستظل تتحلى بروح الكاتبة الناقمه الراثية لهؤلاء الطائشين، وهؤلاء العدائيين نحو كل شيء، الذين يواجهون الموت والانسحاق في كل حين، ولكن هذا لا يمنعهم من التظاهر بأنهم غير يائسين، وبأنهم لا يرون أبداً "الزمن" الذي يلهث خلفهم، وفي يديه كل سياط جهنم،

ولا يمنعهم كذلك من التظاهر بعدم ملاحظة إغراء تجربة أخرى قد تعطي للحياة معنى.

اليأس الفظ يظهر على كل ملامح الشخصيات التي شكلت ماء قـصص المجموعـة وروحهـا. خـذوا مـثلاً "الكونتيـسة" الألمانيـة المأخوذة بنفسها، اللامبالية، يأتيها نبأ مقتل زوجها الأول فلا تهتم، ثم ينتحر عشيقها في بيتها فتقول ببرود: إنها كانت تفضل لو أنه انتحر في غير بيتها، ثم بينما كان طبيبها يعلن لها إصابتها بمرض مستعص سيفتك بحياتها، قامت تعدل من وضع إحدى اللوحات على الحائط في عيادة الطبيب، وتقول له: إن منظر تلك اللوحة "المائلة" كان يؤذي ناظريها، ثم تنتحر أخيراً؛ لأنها لا تستطيع مصارعة شبح المـوت، فهـي تخـاف، تيـأس، ولكـن قبـل أن تـودع رأسـها رصاصـة واحـدة، تتبين أن أحد أظافرها الطويلة كان قد تعرض لشيء من الخدش، فتتجه لـ"سمكرة" هذا الأظفر المتضرر، ثم تقفل عينيها بعد ذلك إلى الأبد.

وخـذوا مـثلاً آخـر، بطلـة إحـدى قـصص المجموعـة، المـرأة المتقدمـة فـي الـسن، تطلـب إلـى عـشيقها الـشاب "نيكـولا" الـذي يـصغرها بـسنوات عديـدة، أن يأخـذها إلـى صـدره، وهـي تقـول فـي نفسها: "كم يكرهني الآن وأنا أطلب منه ذلك"، وعندما أخذها إليه، استمرت تقول في داخلها "وسني هل تنساه،إنك ما زلت شاباً يا نيكولا، وأنت في حاجة لأن تحترق في نار حقيقية"، على الرغم من أن نيكولا كان لا يتورع عن إبداء حبه الحقيقي لهذه المرأة، على الرغم من فارق السن، فإنها كانت تعتقد دائماً أنه "يغش" ويخادع، فهـي عجـوز، ولا تـستطيع أن تتجاهـل ذلـك، كمـا أنهـا لا يمكـن أن

تتصور أن شاباً في مثل سنه يمكن أن يحبها. لقد كانت "تيأس" من أن تصبح معشوقة من جديد، فهربت منه، وعند المرآة أخذت تبكي وحيدة، وهي تنظر إلى شيخوختها.

"عقدة السن" يمكن أن نستجلي فيها فرانسواز ساغان نفسها، إذا علمنا أنها قد طلقت مرتين، وأنها كانت تعيـــش، وهي تكتب هذه المجموعة، وحيدة يهددها شبـــح الشيخوخـــة والذبـــول. ولعلنا نتذكر بالمناسبة، تعاطفها مع الممثلة الفرنسية "بريجيت باردو" حول الشيخوخة فيما كتبته هي عنها.

حتى "الزمن" في قصص المجموعة كان يكبله اليأس، فقصة هذه المرأة المسنة نفسها، كانت تدور في "الخريف". واختيار فصل الخريف، ربما لم تتعمده ساغان، وإنما جاء بـ"التداعي". فخريف العمر تداعى مع خريف الزمن، المهم أن هذا الاختيار لم يأتِ أبداً بالصدفة المحضة؛ لأن بطلة القصة نفسها كانت تعلن عن ذلك بصراحة لنيكولا، إذ تقول:

- ليس هناك إلاّ الخريف: معطفك، وهذه الأشجار الشاحبة.. وخريف عمري أنا!

والربيع - كمثال آخر - كان زمن قصة أخرى في المجموعة نفسها: "الرجل المريض"، ولكنه كان ممزوجاً بالاحتضار، والخوف من الموت، والأسف من الفشل في خلق حياة زوجية سعيدة، و"اليأس" من إمكانية إصلاح ما قد أفسد الدهر.

يقول مرة بطل القصة بكل يأس:

- السعادة التي تقوم على المشاركة، أو السعادة التي لا بد أن

يشترك في بنائها اثنان؛ ليست أمراً سهلاً. أو أنه بالأحرى كان يعتقد أنها "لم تعد" بالأمر السهل.

والربيع –كمثال ثالث- هو زمن قصة "موت متغطرس"، ولكنه يختلط بضياع البطلة وتشردها لأكثر من سنتين، بعد أن فشلت في أن "تسعد" أي إنسان، حتى زوجها "برونو" الذي أحبته من كل قلبها. وفي ذلك الصباح "الربيعي"، ذهبت إلى حيث خيولها مع صبي صغير، كان يقوم على حراسة سيارتها أمام النادي الليلي الذي كانت تقضي فيه كل لياليها التعيسة البائسة. كان هذا الصبي، هو الذي دفعها إلى الذهاب إلى خيولها، هناك خارج باريس؛ لأنه: أي الصبي، كان يريد أن يشاهد الخيول البكر، فهو لم يرها قط في حياته. وبمحاولة منهكة لـ"إسعاد" هذا الصغير -على الأقل بتحقيق أمنيته الطفولية هذه- انقادت إلى هناك حيث الخيول، وهناك كان الحارس "جيمي"، والذي لم ير السيدة المحترمة منذ عامين، أي منذ أن كانت تأتي كل صباح لممارسة رياضتها المفضلة "ركوب الخيل". طلب إليها جيمي أن تصعد حصاناً بكراً أصيلاً، ترددت طويلاً قبل أن تمتطي هذا الحصان النافر، الذي لم يلبث أن أودع حافره جبهتها الغضة لتموت بعد أن ركض بها خمسين متراً لا أكثر.

هذا "المزج" بين الربيع وبين الاحتضار والموت واليأس، هو الآخر لم يأتِ بالصدفة، بل هو هنا أقرب إلى "العمد" منه إلى التداعي. وما من شك أن ساغان كانت تهدف إلى بناء فضاء قصصي متناقض، أو ممزوج ربما كان من شأنه أن يزيد في إذكاء حدة الانفعال عند القارئ. وأكثر من ذلك ربما "أثار" في هذا القارئ، أو حرض لديه أعراضاً شعورية، تماماً كما لو نستخدم في وقت واحد

داخل غرفة واحدة مقفلة مكيفاً للهواء البارد ومدفأة كهربائية حارة، وهذا هو أحد مستويات الاستحلاب الشعوري، والذي يظل جيداً ما نجح الكاتب أو الكاتبة في عدم إتاحة الفرصة للقارئ لملاحظة ملامح "التكلف" فيه.

ولا يمكن أن نقول مثل ذلك عن التناقض أو عملية المزج التي تبدو في "ديكور" قصص المجموعة -أن حق لنا أن نسميه كذلك- هذا المزج بين الجو اليائس للأبطال، وبين فساتين "ديور"، ومعاطف "كريد"، والعربات الفخمة، وشاليه النمسا. وعموماً الثراء والترف الذي ينعم به في كل معانيه أبطال قصص المجموعة. إن هذا المزج لا يتنافى مع جو الأبطال الداخلي، فالثروة وكل الأشياء الفارهة؛ لا تمنع أن يكون الأبطال يائسين تعساء، بل إن الثروة تعجز عن استئصال اليأس أو الوقاية منه. وعالم المجموعة القصصية، بخيره وشره، هو عالم فرانسواز ساغان في مراحل العمر الأخيرة، عالم مزيف، يثير الدهشة، عالم بدون نساء حقيقيات، "فهن دائماً وحيدات، دائماً منطويات في كون مغلق". عالم بدون رجال حقيقيين، "فهم دائماً وسيمون، دائماً أغنياء، ولكنهم أيضاً دائماً متقلبون، دائماً وصوليون". والملاحظ أن ساغان تريد أن تبين إفلاس ويأس ذوي الثروة - عالمها اليوم- على الرغم من ثروتهم؛ لأن: "الفلوس لا تبني السعادة"، كما يعبر عن ذلك مثل فرنسي شائع.

هذه هي ساغان من خلال مجموعتها "عيون من حرير". هذه هي فرانسواز ساغان في عمرها آنذاك، وكما قدمت نفسها للناس.

لم تحمل مجموعتها القصصية هذه أبعاداً فكرية غائرة، أو

خلفيات سياسية بعيدة. إنها ليست أكثر من "مأساة امرأة" يقتلها اليأس والوحدة، وتقتلها مأساة وسط اجتماعي مزيف، ليس له أي مضمون ريادي.

هناك نقاد فرنسيون يعترفون بأن "حضور" فرانسواز ساغان الواضح المباشر في شخصياتها يسبب لهم دائماً حرجاً كثيراً، وهذا ليس "مأخذاً" عليها، وإنما مجرد "معاينة" تقريرية لحقيقة ملحوظة.

الوسط الأدبي الفرنسي يستقبل منجزات فرانسواز ساغان الأدبية باهتمام، حتى أن الناشر كان يلصق على غلاف الكتاب حزاماً مستقلاً أحمر، اكتفى بأن كتب عليه بالخط العريض: "ساغان". فهو يعرف "قيمة" هذا الاسم عند الناس، وفي السوق. وهذا الحزام لا يعمل عادة إلا للكتب الاستثنائية، أو التي حصلت على جوائز أدبية أو فنية معتبرة.

أكثر النقاد باركوا عمل ساغان الجديد، ولكن بعضهم كانوا يقولون: إننا لا نجد في هذه المجموعة روح الحياة ومعناها التي كانت تنفجر في مسرحيات: "قصر في السويد"، و"الحصان المغمى عليه"، و"فستان فلانتين الخبازي" وغيرها.

وبعضهم أيضاً ما يزال ينكر على فرانسواز ساغان حتى اعتبارها قاصة، فيقولون، مع الاعتراف بقدرتها الحوارية النادرة: هي كاتبة مسرحية ممتازة، ولكنها روائية أو قاصة "تافهة" تثير الشفقة!!

فهد بن عبدالعزيز آل سعود:

محور البناء.. والإعلام

عندما هاتفني الملك فهد بن عبدالعزيز للمرة الأولى كان حدثاً مفاجئاً كبيراً لي. قال لي مأمور السنترال: "معك القصر.. لحظة شوي!"، ثم غاب عني وأنا افترض أو أتوقع، أن من يطلبني من "القصر"، هو أحد الأصدقاء من حاشية الملك، أو مستشاريه، الذين تربطني ببعضهم علاقة معرفة، لكن مأمور السنترال عاد يقول، وهو يسمعني كلامه: "حاضر مولاي!"، ثم تنحنح الملك فهد نحنحته المعروفة، وأنا لم أدرك بعد أنه بالفعل هو. لم أكن قد أعتدت بعد من الملك فهد على هذا، فمن يهاتف رؤساء التحرير، (وكنت واحداً منهم)، هو عادة وزير الإعلام، أو أحد مساعديه، أما أن يكون المهاتف هو الملك شخصياً، فلاشك أن الوضع هنا مختلف! تحدث إليَّ فهد بن عبدالعزيز عن أشياء نشرت في العدد الأخير من مجلة "اليمامة". ناقش، وعاتب، ووجه، ثم غادر التليفون. وللحق فإنني أحسست في لحظة ما بأن استفزاز الملك بما نشرنا أثمر عن شيء لم نكن نتوقعه، وهو أنه هاتفنا بنفسه، وتحدث معنا مباشرة، وعاتبنا، ووجهنا، وهذا يغرينا بأن نكرر التجربة، علنا نحظى بمكالمة

"ملكية" أخرى، وربما "مكالمات!"، وكل ذلك مع أننا نُقدِّر أن مكالمات الملوك ليست دائماً مريحة، فهي تنتهي بالضرورة بنتائج إيجابية بالنسبة إلينا! إنها ترفعنا نعم!.. ولكنها - لسوء حظ- قد تهوي بنا إلى أعماق سحيقة!

عرفت بعد حين أن الملك فهد كان يهاتف رؤساء تحرير آخرين غيري، ويبدي لهم ملاحظاته، ويعاتب، ويوجه، دون وسيط من أحد!.. وهو يعرفهم كلهم، مثلما يعرفني!

وتكررت مكالمات الملك فهد.

وفي إحدى المرات كانت مكالمته لي حول موضوع رياضي يتعلق بإحدى دورات الخليج، كيلا يظن من يقرأنا هنا، أن الملك لم يكن يتكلم أو يهتم إلاّ بشؤون السياسة والاقتصاد مثلا!

ومرة كانت ملاحظته حول مقالة عن التنمية جاء فيها ذكر "البدو" في سياق لم يعجب الملك، فهاتفني معالي د. عبدالعزيز خوجة، يوم كان وكيلاً لوزارة الإعلام بتوجيه من الملك، لكن الملك فهدا لم يكتف بذلك، فهاتفني بنفسه، وتحدث عن "البدو" كأحد المكونات المهمة والمعتبرة في المجتمع السعودي، فهم شركاء في برامج التنمية ونتائجها، موجهاً بإعادة التفكير، وإعادة النظر في السياق الذي ورد فيه ذكر "البدو".

ومرة، وكنا على مائدة معالي الشيخ جميل الحجيلان في باريس (كان سفيراً هناك)، وبحضور الأمير سلمان بن عبدالعزيز، وبعض رؤساء التحرير (لم أصبح أنا رئيس تحرير بعد، كنت كاتباً فقط)، التفت إليَّ فهد بن عبدالعزيز ممازحاً: "أنت ما تخاف من فلان عندما تكتب عنه ما كتبت"؟! قلت له: "لا أخاف من أحد ما

دمت أنت يا أبو فيصل موجود" فأكد لي ولزملائي الحاضرين بأنه – رحمه الله- متابع لكل ما يُنشر، وما يقال في وسائل الإعلام، بما في ذلك مقالات الرأي للكتاب الصغار من أمثالي.

ومرة اشتكانا إليه الرئيس حافظ الأسد، (وقد أصبحت رئيس تحرير)؛ لأننا لم ننشر مقابلة له خص بها اليمامة، وكان من موانع النشر أن الأسد قد تعرَّض لقيادات عربية بنقد لاذع لا يسمح بالنشر في صحيفة سعودية؛ فطلب الملك فهد المقابلة ليجيزها بنفسه، وبعد أن عرف ما احتوته بارك ما فعلناه، ولا ندري ماذا قال لحافظ الأسد!

بهذا عرفنا الملك فهد - نحن المشتغلين بالثقافة والإعلام. وكان الملك فهد يعقد اجتماعات رسمية في الديوان، أو في قصره، يلتقي فيها الإعلاميين ويتحدث إليهم مباشرة، فلا يكتفي باجتماعات الوزير أو المسؤولين الآخرين، فهو يريد أن يحاور هؤلاء مباشرة. ومما كان يقوله في تلك الاجتماعات: إن العالم لا يقرأ بعينيه فقط، ولكن بأذنيه أيضاً، ملمحاً إلى أهمية الإعلام، ومُقدِّراً تأثيره.

والملك فهد هو الشخصية الحقيقية التي كانت وراء قيام مشروع مجموعة الـ MBC الإعلامية، وكان وراء غيرها من المشروعات الإعلامية السعودية الأخرى في الخارج.

فالإعلام كان أحد الملامح المهمة في شخصية الملك فهد، أو هكذا كنا نراه نحن المعنيين بأمر هذه الصناعة الشديدة الحساسية.

أما عموم الناس، ونحن معهم أيضاً، فقد كان أبرز ما يلفتهم في شخصية الملك فهد، هي النزعة إلى "البناء".

فقد ذكر لي الرئيس رفيق الحريري، في لقائي الأول به قبل سنوات في بيروت، بأنه تحدث لفيلم تلفزيوني بكل ما يعرفه عن الملك فهد، وذلك بمناسبة الذكرى العشرين لتوليه مقاليد الحكم في البلاد. فأجبت الرئيس الحريري على الفور، بأنك دولة الرئيس من خيرة من يمكنهم التحدث عن الملك فهد، وكنت هنا لا أعني بذلك مجرد أن الحريري يعد من أبرز الشخصيات التي اقتربت من الملك فهد فحسب، بل أعني أيضاً أن هناك "رابطة" خاصة بين شخصية الملك فهد، وماضي الحريري في السعودية، هذه الرابطة هي رابطة "البناء". فالحريري قبل اشتغاله بالسياسة، كان "مقاول" بناء، في حين أن الملك فهد من جهته كان مفتوناً بطبعه بموضوع البناء، وأنا أعني هنا، وفي هذا المستوى من الكتابة، البناء بمفهومه الحسي تحديداً، ففي عهد الملك فهد شهد الحرمان الشريفان توسعات كبيرة، وفي عصره أقيمت أفخم المطارات، وأضخم الجامعات، وأكثر الطرق البرية طولاً ووعورة، وأكثر الموانئ البحرية رحابة، وأكثر شبكات الاتصال سعة، وأكثر الدواوين الملكية جمالاً وبهاءً، إلى آخر القائمة الطويلة الحافلة بما شهدته بلادنا (في المدن والقرى)، من بناءات لم يكن العنصر الحاسم فيها، هو المال فقط، بل أهم من ذلك هو نزعة الملك فهد نفسه إلى هذا النوع من النشاط؛ وهو "البناء"، ولهذا قلت لدولة الرئيس الحريري. إنه من خير من يمكن أن يتحدث عن الملك فهد؛ لأنني أحسبه بحسه كمقاول سابق، سيقول لنا أشياء كثيرة، انطلاقاً من هذا المفتاح من مفاتيح شخصية الملك فهد، أعني مفتاح "البناء". وقد سمعنا أن الملك فهد لم يكن يكتفي بإصدار القرار لإنفاذ مشروع من المشروعات، بل كان يلتقي المقاولين، ويجتمع بالمهندسين، وكان يطلع على الخرائط والمخططات، وبرامج

التنفيذ، وكان يتدخل فيها جميعها، ثم تستمر متابعته إلى أن يصبح المشروع واقعاً ماثلاً، وشاهداً حياً يراه وينعم به الجميع.

وعـودة إلـى موضـوع الإعـلام، فقـد كـان يطـرب الملـك فهـد الحـديث عـن الإنجـاز والبنـاء، وكلنـا نتـذكر أحاديثـه الطويلـة فـي الاحتفـالات والمناسـبات، فـي الجامعـات وفـي غيرهـا، وهـو يـسترسل ويسهب في الكلام عن مشروعات البناء، بل قد يعمد أحياناً إلى بعض التكرار، وكأنه يريد أن يجرد وينشط لحظات المنجز في ذاكرة الجماهير!.. كان لا يمل الحديث عن البناء.

إن مفتاح البناء -في نظري- هو أهم ما يمكن أن ينطلق منه أي دارس أو محلل يريد أن يغور في أعماق شخصية الملك فهد، ففضلاً عن البناء بمفهومه الحسي المادي، وفق ما ذكرناه أعلاه، فإن البناء الشامل -حسياً ومعنوياً- هو جذر أصيل في البنية العقلية والنفسية للملك فهد، وخير شاهد على ذلك الخطط التنموية التي أنجزت في عهده، وقد شمل رخاؤها كل مجالات التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والتعليمية في البلاد، ويصعب علينا هنا أن نُعدِّد كل ما شاد هذا الملك العظيم من مشروعات جبارة خلال الخطط التنموية السابقة، ولكننا نكتفي بالتأكيد على القول: إنه لم يكن للملك فهد من همّ غير همّ "البناء". فهو سياسياً بنى الأسس الدستورية التي أراد أن تسير عليها بلاده، مثل: النظام الأساسي للحكم، ونظام مجلس الوزراء، ونظام مجلس الشورى، ونظام مجالس المناطق. وهو اقتصادياً، بنى القواعد والمناهج والنظم والهيئات التي من شأنها تحقيق مزيد من الرخاء للبلاد والعباد، مثل: المجلس الأعلى للبترول، والمجلس الأعلى للاقتصاد، والهيئة

العامة للاستثمار، والهيئة العليا للسياحة، واللجنة المكلفة بملف منظمة التجارة العالمية، ونظام الاستثمار الأجنبي، ونظام السجل التجاري الجديد. وهو اجتماعياً، كان دائماً وراء التنمية الاجتماعية في البلاد، فهو –على سبيل المثال- صاحب فكرة الصناديق السعودية المعروفة، وهو واضع استراتيجياتها: صندوق الاستثمارات العامة، وصندوق التنمية الصناعية، وصندوق القروض العقارية، وصندوق القروض الزراعية، وفي عهده صدر نظام التأمينات الاجتماعية الجديد، وأنشئ صندوق التدريب. كما صدر في عهده عدد من الأنظمة القضائية والإدارية، منها: نظام المرافعات، ونظام المحاماة، ونظام الإجراءات الجزائية، كما أنشئت في عهده هيئة الادعاء العام.

أما ثقافياً وتعليمياً، فقد بنى الملك فهد القواعد والأنظمة التي ضمنت للبلاد المضي قدماً في طريق النمو وسبل الارتقاء، ففي عهده تطور كادر المدرسين في التعليم العام، وكادر المدرسين في التعليم الجامعي، وفي عهده صدر نظام التعليم العالي الجديد، ونظام المطبوعات والنشر الجديد، ونظام المؤسسات الصحفية الجديد، وصدر كذلك قرار تنظيم التعليم العالي الأهلي.

وقصة الملك فهد مع التعليم قصة طويلة، امتدت منذ أن تولى -حفظه الله- إدارة الجهاز بكامله، كأول وزير للمعارف في المملكة، وقد شهد هذا الجانب قفزات هائلة شهد بها القريب والبعيد، ولم يقتصر بناء الملك فهد في هذا الجانب على إشادة المؤسسات التعليمية الكبرى في داخل البلاد، بل واكب ذلك تنظيم دقيق للبعثات إلى الخارج في أرقى الجامعات فوق الكوكب الأرضي؛ مما هيأ للبلاد

كوادر إدارية واقتصادية على درجة عالية من التأهيل والكفاءة، ولم تتوقف قط عجلة البناء في هذا المجال، فقد ظل الملك فهد يفخر في كل مناسبة بأن بلاده في خططها التنموية المتعددة، تفتتح مدرسة في كل ثلاثة أيام، فضلاً عن الجامعات، والمعاهد، والكليات التقنية، والكليات المتخصصة التي لم يتوقف نموها في كل الظروف. ولتدعيم البناء في المجال الإداري والثقافي العام، فالملك فهد كان يتولى بنفسه رئاسة مجلس الأمن الوطني، ومجلس الخدمة المدنية (للتنمية الإدارية)، ويرعى ويتابع اهتمام المجلس الأعلى لسياسة التعليم، ومجلس القوى العاملة، واللجنة العليا للإصلاح الإداري، وفي عهده أنشئت جائزة الدولة التقديرية للآداب، التي أعيد النظر في نظامها. كما أولى الملك فهد القطاعات العسكرية والأمنية كل عنايته، فجهزها بالرجال والعتاد لحفظ أمنها في الداخل، ولحمايتها من الخارج، وهو معني بهذا منذ أن كان وزيراً للداخلية.

لقد اكتفيت هنا بذكر ما يخدم الفكرة المركزية لهذه المقالة، وهو جانب "البناء" في شخصية الملك فهد، وعدا البناء المادي الحسي الذي نلمسه ونراه ونشهد به في كل موطئ قدم في بلادنا المتباعدة الأطراف؛ فقد عمل الملك فهد على إرساء البنية التنظيمية الصلبة والقوية التي تسير عليها بلاده؛ مما يضمن لها خطواتها الثابتة في الارتقاء.

إن "البناء" المتكامل في الأنظمة والقواعد والخطط والبرامج لا يقل في الأهمية عن البناء الحسي أو المادي؛ بل إنه هو الذي يضبط السياسات التنموية وينظمها، ويرشدها، ويكفل لها التوازن والثبات.

أما بنية الملك فهد العقلية والنفسية ذاتها، فقد استمدت قوتها مـن تجربتـه الطويلـة الـسياسية والإداريـة؛ إذ أسـهم فـي المراحـل المختلفة لتنميـة بـلاده منـذ أن كـان يافعـاً، فقـد ظـل طـوال حياتـه عنصراً أساسياً في إدارة البلاد: وزيراً للمعارف، ووزيراً للداخلية، ووليا للعهد، ونائبا لرئيس مجلس الوزراء، ثم ملكاً. وهو هكذا ينعم بتجربة ثرية في الإدارة التنموية.

أما الحديث عن الجانب السياسي لدى الملك فهد، فهو حديث يطـول أيضاً، إذ إن مواقـف بـلاده مـن قـضايا أمتـه مواقـف مـشهودة، فقد أخذت السعودية على نفسها العهد بـأن تكون دائماً في مقدمة المـدافعين عـن حقـوق العـرب والمـسلمين وقـضاياهم، فـي فلـسطين، وفي كل مكان من الأرض. والمملكة هي التي سـاعدت المـسلمين في أفغانـستان، وفـي البوسـنة والهرسـك، وهـي التـي أنـشأت المـساجد والمراكز الإسلامية في بقـاع الأرض المختلفة، شـاهداً علـى رسـالتها في نشر الدعوة والتعريف بالإسلام.

ثـم أخيـراً فـي الجانـب الـسياس.. أيـضاً، فـإن الملـك فهـد كـان صاحب القرارات الكبرى في حرب الخليج، وفي تنمية علاقات بلاده بـدول العـالم، وفـي إنهـاء مـشكلات الحـدود مـع جيرانـه فـي اليمن، والكويت، وقطر وإيران، وعمان وغيرها.

رحم الله الملك فهد.

فهد بن سلمان بن عبدالعزيز:

هكذا – يا سيدي – عرفت فهداً *

سيدي الأمير سلمان:

أسبغ الله عليك من رحمته وعطفه ما يخفف عنك وقع المصاب الجلل، فلقد كانت فاجعتك- فاجعتنا كبيرة بكل المقاييس. فهي اختارت الولد البكر، وهي نزلت كالصاعقة على حين غرّة، إذْ لم تمهل الفقيد كي يكمل شبابه، وكي ينهي ما بدأه من طموحات، وكي يرى سلطان وسارة وأحمد وريما[1] في كامل بنائهما تحت يديه، وملء ناظريه.

سنبكي جميعاً فهداً لهذه الأسباب، وسنبكيه يا سيدي لأسباب أخرى كثيرة، عرفه بها القاصي والداني من أهله وأصدقائه ومواطنيه: التواضع، والخلق النبيل، واحترام الناس، والأريحية المتناهية، والكرم الذي لم يكن يعرف له حدوداً.

صحيح أن خصال الأمير فهد كان يمتحها من معدنه النبيل،

---

* المرحوم الأمير فهد بن سلمان بن عبدالعزيز.

(1) أولاد الفقيد.

لكن الذي صقلها وثقفها وأرواها من مائه ومن قلبه – يا سيدي – هو سلمان بن عبدالعزيز نفسه، وهو الذي حرص على أن يكون أولاده دائماً على مستوى تطلعاته: تفكيراً، ومنهجاً وسلوكاً.

وقد روي - يا سيدي- أن الأمير فهداً عندما عاد من المنطقة الشرقية - بعد أن أنهى مهمته نائباً لأميرها-* عاد وهو يحمل معه التزامات مالية كبيرة، عبارة عن ديون لم يستطع أن يفي بها في حينه، وعندما قابلك، قال لك: أنت يا سلمان من حملني هذه الديون. إنه اسمك الذي أحمله مع اسمي، فلا يمكنني أن أردّ محتاجاً، أو أن أصدّ مَنْ يطلب المساعدة، فلا تنس يا سلمان أن اسمي "فهد بن سلمان". أجل. لقد كان دائماً وفياً لمعدنه الأصيل، ووفياً لفطرته النبيلة.

أما أنا - يا سيدي- فقد عرفت فهداً عن طريقك أنت، فما كان لي قطّ أن أتصوّر فهداً (البكر) على غير خلق أبيه.

وعرفته أيضاً عن طريق إخوته: سلطان، وأحمد، وعبدالعزيز، وفيصل، وما كان لي مطلقاً إلا أن أجعله دائماً في ذؤابة هذه الخيمة الوارفة الندية.

وقد شرفتني دائماً برعايتك، فكنت أحس بأنني من أقرب المقربين إليك وإلى أبنائك. لقد أحببتك وأحببتهم، وصادقتك وصادقتهم، وعملت معك ومعهم، وتعلمت منك ومنهم.

عرفت الفقيد أيضاً عن طريق زملائه في الدراسة في الرياض وأمريكا، وكلهم – يا سيدي – كانوا يُقدِّرون في فهد مواهبه، وطيبة قلبه، ومودته التي لم يكن يبخل بشيء منها عنهم، وظلوا

* عمل الأمير فهد بن سلمان نائباً لأمير المنطقة الشرقية.

يحتفظون له بكثير من المحبة والإكبار. وآخر مرة التقيت فيها فهداً كانت في منزل الصديق د. خليل بن عبدالفتاح كردي. وأثناء تحضيره درجة الدكتوراه في أمريكا، كان زميلاً للمرحوم فهد بن سلمان، الذي كان آنذاك في المرحلة الجامعية. لقد كان فهد ليلتها محاطاً بزملائه، وهو يملأ الفضاء حولهم بالحب، وبالابتسامات السخية، وبالذكريات العابقة بالجمال والعطر. ليلتها -يا سيدي- زاد إحساسي بأن فهداً يتمكن في قلوب كل الذين عرفوه أو اقتربوا منه، من كنوز ثرّة من الودّ الذي ليس قبله أو بعده من ودّ.

عرفت فهدا كذلك من خلال أصدقائنا في المنطقة الشرقية. لقد كانوا يجدون فيه - يا سيدي- الأخ والصديق والملاذ بعد الله عز وجل. ولقد كان مع أخيه وابن عمه محمد بن فهد يكملان أعذب معزوفة نغنيها جميعاً في اتجاه العلاقة المثلى بين المواطن والمسؤول. وما كان ذلك إلا منسجماً مع أخلاق فهد ونواياه الطيبة في فعل الخير الذي عرفه به الجميع، والذي ما كان له لينقطع، حتى بعد أن ترك فهد المنطقة الشرقية وجاء إلى الرياض. فلقد شرع في أعمال خير كثيرة، لم يمهله القدر كي يحقق طموحه في إكمالها والوفاء بها.

عرفت فهد، -يا سيدي- عن طريق ابنتي "هنوف"، فهي زميلة ابنته الأميرة "سارة".

حدثتني هنوف عن أشياء كثيرة في فهد "الأب"، وكانت تذكرني دائماً بخصال فيه لم تكن موجودة في أبيها (أنا)، فهو دائم السؤال عن أولاده، دائم القلق تجاه كل ما يتعلق بهم. يشاركهم في كل شيء: في جدهم ولعبهم، في أتراحهم وأفراحهم، يمنحهم الكثير من الحنان، والكثير من دفق المودة. وعندما علمت ابنتي علياء

(كان عمرها 10سنوات) بأن فهداً قد أشاد لصغيرته ريما (كان عمرها 8 سنوات) كوخاً صغيراً في منزلهم، وأنه تولى عملية بناء الكوخ ودهانه بنفسه، وبمساعدة سلطان وسارة وأحمد (أخوي ريما)، عيرتني علياء هي الأخرى بفهد، وذكرتني بما ليس فيّ من خصاله، وهو إعطاء أولاده حقهم اللازم من وقته ومن عواطفه!

سيدي، لم تكن معرفتي بفهد تتوقف قط عن النمو، فرصيدها الزاخر كان يرتفع كل يوم منذ أن عرفته مباشرة عندما اخترتني – أنت – رئيساً لتحرير مجلة اليمامة، فيومها أحس فهد (وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره) بأنني حديث التخرج من الجامعة في الخارج، وأنني حديث عهد بالمسؤولية، فكان يسألني ويناقشني ويتفقدني، وظل على حاله ذاك كلما قابلني أو قابلته، وكلما هاتفني أو هاتفته. إنه لم يقطع عني أفكاره وآراءه قط، وعندما التقيته آخر مرة في منزل خليل كردي، كان -يا سيدي- يكرر عليّ أسئلته نفسها أيام مجلة "اليمامة"، ولكن هذه المرة كانت الأسئلة عن منتج آخر، هو: صحيفة "الوطن".

لقد أشاد بما يستحق الإشادة، وأبدى ملاحظاته على ما كان يستحق الملاحظة. لقد كان فهد - لمن يعرفونه- الناصح الأمين، وأجزم بأنني لست الوحيد الذي لم يكن يعدّ فهداً مجرد صديق، بل كان يعده، فوق ذلك، أخاً.

أجل يا سيدي، لقد فقدنا أخانا فهد،

غسلناه بدفق دموعنا، وكفّناه بصادق حبنا، ونسأل الله أن يُعوِّضه في شبابه بالجنة، وأن يجمعنا به في عليين مع الشهداء والصديقين والصالحين، برحمته إنه سميع مجيب.

اصبر يا سيدي، فصبرك جميل، إن شاء الله.

فيصل بن فهد بن عبدالعزيز:
هيبة الحضور.. هيبة الحوار

صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله واسكنه فسيح جناته- كنت ألتقيه كما يلتقيه الآخرون من مثقفي بلادنا ومثقفي العالم العربي. وكان دائماً يملأ مكانه، في هيبة الحضور، في هيبة الحوار، لكنني سأذكر هنا – تحديداً- ثلاث مناسبات أدنتني كثيراً من المرحوم، وجعلتني أعرف عنه ما يعرفه كل المقربين منه.

المناسبة الأولى: هي الأسبوع الثقافي الخليجي، الذي أقيم في باريس عام 1402هـ، فقد شرفني سموه بأن جعلني عضواً في الوفد الرسمي الذي ترأسه لهذه المناسبة. وعدا المشاركة في فعاليات الأسبوع، فقد عقد سموه والوفد المرافق له بعض اللقاءات مع المسؤولين عن الشباب والثقافة في فرنسا، وأستطيع أن أقول بأن الذي لا يرى فيصل بن فهد في مثل هذه اللقاءات، من الصعب أن يقول: إنه يعرفه أو يدرك جميع مواهبه، لقد أثار سموه اهتمام كل

من جلس إليه من الفرنسيين، بل لقد ألقى في روع الجميع بأن بلادنا ليست نفطاً فقط، ولكنها فوق ذلك بيئة ثقافة عريقة، وأرض حضارة راسخة. أما أهلها، فهم على عكس ما يتردد عنهم في الميديا الغربية من صفات السفه؛ فهم أصحاب رسالة، ولهم دور لا يُستهان به في تشكيل التصور الصحيح لمستقبل الشرق الإسلامي كله. لقد كان فيصل بن فهد ملء البصر، وملء العقل، وملء الفؤاد. وقد قال للفرنسيين في أحاديثه معهم، وفي تصرفاته في بلادهم، ما لم يقله كثيرون غيره. وقد امتلأت غبطة وسعادة؛ لأنني أدركت أنني لم أكن أعرف فيصل بن فهد بالمقدار الذي عرفته عليه في هذه المناسبة. فقد كان حقاً يملأ المكان هيبة في الحضور، وهيبة في الحوار.

وقد تكررت فرصتي هذه للمرة الثانية في مؤتمر وزراء الثقافة للدول الإسلامية، الذي عُقد في عام 1998م بمدينة الرباط في المغرب، إذ شرفني سموه مرة أخرى بأن أكون عضواً في الوفد الرسمي الذي ترأسه لهذه المناسبة. لقد كان سموه -رحمه الله- كعادته نجم تلك التظاهرة الكبيرة بلا منازع، داخل قاعة المؤتمر وخارجها. الكل ينتظر ما يقوله فيصل بن فهد، والكل يصغي إليه، والكل يعيره جميع حواسه وأحاسيسه، ليس فقط لأنه يمثل المملكة العربية السعودية بما لها من ثقل تاريخي وسياسي واستراتيجي، ولكن أيضاً لأن الرجل نفسه ظل دائماً بالغ الهيبة، هيبة الحضور، وهيبة الحوار. ففيصل بن فهد عندما يريد أن يحقق شيئاً ما، ينفك يكافح ويناضل إلى أن يصل إليه، وسلاحه دائماً هو سلامة المنطق،

وقوة الحجة. فإلى جانب حدة ذكائه، وبالغ حنكته، فإنه يتمكن من ثقافة ذات طراز رفيع، ولاسيما في التاريخ والسياسة. وأتذكر في المناسبة نفسها، أن أقام الصديق الدكتور عبدالعزيز خوجه،(سفير خادم الحرمين الشريفين في المغرب آنذاك)، حفل عشاء خاصًا في بيته؛ احتفاءً بسمو الأمير فيصل بن فهد، فحضر العشاء ثلة من كبار مثقفي المغرب، وعلى رأسهم المؤرخ المغربي المعروف الدكتور محمد بن شريفة، والأستاذ محمد برادة، وغيرهما. لقد أخذ فيصل بن فهد أكثر وقت اللقاء، وهو يتنقل من تاريخ الجزيرة العربية، إلى تاريخ الأندلس، إلى تاريخ المغرب نفسه؛ مما أثار دهشة الحضور من المثقفين المغاربة، فهو العارف للأحداث، المدرك لتفاصيلها، القادر على تحليلها واستكناه نتائجها، وقد قالها صراحة أحد الحضور موجهاً كلامه إلى السفير السعودي بعد نهاية اللقاء: "إن أميركم هذا أمير مشرف يا سعادة السفير".

لم أر إلا القليلين جداً ممن هم في مواهب فيصل بن فهد وقدرته على أن يكون هو سيد المكان، وسيد الحوار.

أما المناسبة الثالثة التي أدنتني من سموه، فهي عندما شرفني -رحمه الله- باختياري رئيساً للوفد السعودي الذي أحيا أسبوعاً ثقافياً سعودياً في الجزائر، وكان الأسبوع يومها حديث وسائل الإعلام المحلية والعربية. كان عدد أعضاء الوفد حوالي مئة وخمسين شخصاً، من محاضرين، وشعراء، وعلماء، وموسيقيين، وفنانين تشكيليين. كان فيصل بن فهد يعرف شخصياً معظمهم، بل إنه هو الذي اختارهم ليقوموا بتقديم بلادهم إلى الشمال الأفريقي

التقديم الصحيح، فنحن نعاني - حتى في البلدان العربية- من الأحكام السبقية غير المنصفة. وبعد أن أوضح لي سموه أهداف الأسبوع الثقافي، وما يجب أن نصل إليه من نتائج، كلفني بأن أتحدث عن كل هذا لأعضاء الوفد في الطائرة الخاصة التي أقلتنا إلى الجزائر، ووجهني بأن أنقل إليهم رسالة شخصية منه فحواها: "أن المهمة التي نحن ذاهبون من أجلها تتطلب أن نكون أمينين في نقل الصورة الصحيحة للثقافة في بلادنا، وهي صورة تليق بنا، وتتلاءم مع تاريخنا، ومع رسالتنا في هذا الكون الفسيح".

لم يكتف سموه بهذا، بل كان يومياً –طيلة أيام المناسبة السبعة- على الطرف الآخر من الهاتف، يسأل ويناقش ويستمع إلى أدق التفاصيل عن مجريات النشاطات المختلفة، التي شملت أكثر من عشر مدن جزائرية. كان وهو في الرياض، يعيد تقويم النتائج ليفاجئنا بتوجيهات جديدة، ينتظمها -كلها- قلقه الدائم الذي ينتهي دائماً إلى ضرورة أن تظهر بلادنا بمظهرها الصحيح المنصف، وكان شديد الاغتباط بالمنجز الثقافي السعودي في الأدب، وفي الشعر، وفي التشكيل، وفي الفلكلور بمختلف صنوفه وأشكاله. كان هو الذي صنع أحداث الأسبوع الثقافي في الجزائر، كما هي عادته دائماً في صنع الأحداث الثقافية المماثلة في أي مكان يكون لبلاده فيها مشاركة أو حضور.

إن من طبيعة النشاطات الرياضية، أن تكون –في أي مكان- هي الأكثر جماهيرية، وبالتالي الأكثر تردداً في وسائل الإعلام، وليس

صحيحاً أنها كانت تتفوق في الاهتمام عند فيصل بن فهد على الهم الثقافي، فقد كان يُعطي هذا الجانب ما يستحقه من الوقت والجهد والمال في داخل المملكة وخارجها. والجميع يعرف مدى الدعم المستمر الذي يقدمه سموه للمؤسسات الثقافية، ولا سيما ما يقع منها تحت مسؤوليته، مثل الأندية الأدبية وجمعيات الثقافة والفنون. والجميع يعرف المستوى المُشرِّف للمشاركات السعودية في المنتديات والمحافل الثقافية في الخارج.

كان آخر لقاءاتي بفيصل بن فهد في إحدى المرات التي أُدخل فيها المرحوم الملك فهد بن عبدالعزيز إلى المستشفى التخصصي بالرياض، قابلت سموه وهو ينزل من سيارته عند باب المستشفى، فكان مما أفضى به إلي - رحمه الله- أن مما يشغل باله، هو تمثيل المملكة في الاتحادات العربية للكتّاب والأدباء، وهو يفكر في بعض الصيغ التي يعتقد أنها مناسبة لذلك، فهو يدرك أننا أصبحنا اليوم - أكثر من أي يوم مضى- في حاجة إلى حضور أقوى وأشد رسوخاً في المحافل الفكرية والثقافية في محيطنا العربي، بل محيطنا الإسلامي كله، ثم قال لي: سنرتب لقاء عندي في منزلي فيما بعد لنتحدث في هذا بعمق أكثر.

لقد ترك فيصل بن فهد هذه الدنيا، ونحن جميعاً نعرف بأن كثيراً من طموحاته وتطلعاته لم تتحقق.

كان الفارس الذي لا يتعب.

فقد مات وهو ما زال فوق حصانه، لم يترجل، ولم يدع سيفه من يده، ولم يسند رمحه إلى الجدار، مات في الميدان.

لا ينسى حذاءه إذا رحل

كان في عينيه نداء قاهر! نداء يسيل على رموشه كالحلم الأخضر!..كانت الكلمات ترقص فوق لسانه أجمل عروض البالية!..

كان كالأسطورة، أو كالخرافة، والنساء تعجبهن الأساطير، وتخلب أذهانهن الخرافات!..

كان كاللغز وكالأحجية، والنساء يعجبهن "حل" الألغاز و"فك" الأحاجي!

كان لا ينسى حذاءه إذا رحل!

كان يعرف كيف يخاطبهن، ولهذا كنّ يستمعنّ إليه بإنصات، وبدوره تحول في أفواههن إلى قصيدة عذبة لا يُمل ترديدها، وإلى مدى من العشق لا ينتهي. كان ينظر في كل الاتجاهات دفعة واحدة، ككل أصحاب المغامرات والليل والخطر!

كان ينتقل ذكره من فم إلى فم في شتى أنحاء الدنيا، كما تنتقل الفراشة من شجرة إلى أخرى في المزرعة التي لا تعرف الوهن ولا القحط!

كان اسمه يسري بين السنين، كما تسري الساقية الصافية في هدوء تحت الأوراق الجافة!.. كان في مهجة أوروبا كوابل الصيف على الأرض المزروعة! كان في "البندقية بإيطاليا" إحدى الرسائل الغرامية المهملة، والتي تتجدد فيها عبارات الويل كل عام!.. كانت حرارة المزاج الإيطالي تتفتق فيه، كما تتفتق الحياة في الغصن الغض، أو كما تتفتق النجوى في قلوب المسافرين. وكان يسرق من ليالي باريس، وفيينا، وجنيف، وامستردام ،ومدريد أجمل لحظاتها. لقد كان فيها كالسعادةّ كان فيها كالعطر! كان فيها كالطيف الهادئ الذي يتمنى كل الناس أن يمر يخيالهم!

اسمه باختصار " كازانوفا"، رمز النجابة، والهوى، والخطر!.. شغل أوروبا والعالم كله منذ قرنين ونصف!

يتحمل عندهم كل قصة حب مجهولة النسب، كما كان قيس بن الملوح في الشرق العربي يتحمل - من جهته- كل رواية غرام نسجها الخيال، وأحكم خطواتها وعقدها ومفاجآتها التصور الصحراوي المديد!

يعطونه هنا من صفات الترف والمتعة ما كان يزين محيا المخزومي، الذي كانوا يسمونه في شعاب مكة: عمر بن أبي ربيعة، وكان يدعوه ابن العباس -رضي الله عنه- والمقربون منه بـ"أبي الخطاب".

الناس يعرفون عن " كزانوفا" أنه "الولد الشقي" الذي يبيع كل شيء من أجل أن يدعم خطوته عند النساء، ولكنهم قليلون أولئك الذين يعرفون أن " كزانوفا " أديب لامع، كان يجيد اللاتينية، والأغريقية، والعبرية، والفرنسية. وكان يحمل شهادتي دكتوراه في

الحقوق، وكان عالماً بـ"الكوزموغرافيا" أو علم الكون، وكان عازف كمان من طراز ممتاز!

هذا المستوى الثقافي والفني الذي كان "يستولي" عليه كزانوفا، قليلون هم الذين كانوا يعرفونه؛ نظراً لطغيان شهرة المغامرة والعشق فيه، على شهرة الفن والأدب، إلى درجة أن مؤرخي الأدب الأوروبي يبخلون عليه بمكان معتبر بين أدباء ومفكري القرن الثامن عشر، (ولد في العام 1725م)، وهو الذي يكتب له الأمير "لينـي" عن أحد أجزاء مذكراته هذه العبارة: "أضحكني ثلثه، وأثارني ثلثه، وجعلني أفكر ثلثه الأخير. إنك تتفوق به على مونتين".

وهناك من ينكر على مؤرخي الأدب هذا الجحود المجحف في حق كزانوفا، ومن بين هؤلاء الروائي "دومينيك فرنانداي"، الذي يقول: "الشهرة العالمية لكزانوفا لم تهيئ له مكانة بين كبار الكتّاب في القرن الثامن عشر، فنحن لا نكاد نجد له ذكراً، لا في الكتب المدرسية، ولا في تواريخ الأدب. كزانوفا قرئ كثيراً، ولكنه بقي في قائمة القراءات المسلية غير الجادة".

طغت شهرته كرجل حب ومغامرة على شهرته كرجل أدب.

لقد كان كزانوفا، وبالذات في مراحل حياته الأخيرة يكتب بدون انقطاع؛ لأنه كان يجد في الكتابة سلوى لهمومه وفقره. وكان يجد الوقت الكافي لكتابة أفكاره وتجاربه، إذ كان يومها يعمل مكتبياً في قصر الكونت "وادلستن". وفي هذه الفترة بالذات أصدر أكثر من مؤلف تحت توقيع "مواطن في جمهورية الأدب"، ثم كتب مذكراته، وقد بلغ مخطوطها أكثر من أربعة آلاف صفحة.

كل أعمال كزانوفا تلقفتها أيدي السنين، وأما ما بقي منها اليوم، فهو مقروء في شتى أنحاء الدنيا، ولكن بعض النقاد والمؤرخين يصرون على تجاهله، أو وضعه في قائمة كتاب التسلية، مع أن هناك آخرين يفضلون بعض أعماله، حتى على "دائرة المعارف الفلسفية" لفولتير.

كزانوفا بوصفه ظاهرة أدبية، لا يقف عند كونه كاتباً ذا تجارب شيقة، وله عدد من المؤلفات، ولا عند كونه كاتباً مقروءاً في كل مكان؛ بل يتعدى ذلك إلى كونــه هو - في حد ذاته- موضوعاً مثيراً للكتابة، وللإيحاء، وللاستعارة، وخصوصاً الجانب الأسطوري في شخصيته. فكزانوفا اليوم بالذات بطل ملحمي، وبطل أسطوري يأخذه الشعراء والكتاب رمزاً لكل مواقف الغرام في كتاباتهم، بل إن من هؤلاء من يجعل منه بطلاً لرواياته أو مسرحياته. وكل هذه الأشياء كثفت فيه جانبه الأسطوري، أو أنها بالأحرى جعلته "ملهماً للكوميديا والشعر"، حتى أننا نكاد نقول بأننا لا نعلم تماماً أكانت شهرته سبباً في تكثفه الأسطوري، أو أن هذا التكثف الأسطوري، هو الذي كان سبباً في شهرته. حاله لم يكن بعيداً عن "دون كيشوت"، أو غيره من الشخصيات التي اتخذت بشذوذها، أو قولوا بخروجها عن اليومي المعتاد والمألوف، هالة أسطورية. فعندما نتكلم عن "دون كيشوت" أو عن كزانوفا، نحن في الواقع نضطر إلى استعارة خيال غير طبعي في تصور أو تمثل إحدى هاتين الشخصيتين أو كلتيهما.

وكما أن أسطورية "سزيف" تنبثق من صبره وجهاده وإصراره وعذابه، فإن أسطورية كزانوفا تتحدد في شيء واحد، هو قصص الغرام اللامتناهية، وكل ما يتبع ذلك من ظروف، ومفاجآت، وإدهاش، وإثارة، وأسباب، ونتائج، وبكل ما يتمتع به كازانوافا من صفات

كالمغامرة، والمال (في بداية حياته)، والجاه، والذكاء، والشجاعة، والفصاحة،واللباقة.

أمه الممثلة المسرحية الإيطالية (الشهيرة في مدينة البندقية)، كانت لا تراه إلاّ في أوقات قليلة متقطعة، وبعد أن أصبح صبياً تلقفته المدرسة الداخلية، وجَدَّته الأمية التي لا تعرف القراءة والكتابة. وفي الثامنة من عمره فقد أباه، وفي العشرين من عمره أراد أن يكون عازف كمان في أشهر مسارح إيطاليا، ولكنه ترك هذا بعد أن تبناه السيناتور "براغادين"، وأخذ يغدق عليه الأموال، وكان شريكه في ثروته.

سجنوه في إيطاليا أكثر من مرة، وهرب من السجن أكثر من مرة، سجنوه أيضاً في أسبانيا.

دار في مدن أوروبا، يوماً فقيراً، ويوماً غنياً. يوماً محملاً بالديون، ويوماً يقذف الذهب إلى الشارع من نوافذ غرفته. طردوه مرتين من باريس، "المدينة الساحرة"، كما يسميها هو. تنكر في أكثر من مكان بأسماء مختلفة كثيرة غير اسمه. ذهب إلى فلورانسا، ولكن البوليس قال بأنه غير مرغوب في بقائه، فقد كان طيشاً مكتملاً لا تحتمله المدينة.

كان يوماً سيداً ذا خدم وحشم، ويوماً صعلوكاً لا فوقه ولا تحته. كان يوماً "شوفالييه"، ويوماً مكتبياً بسيطاً في أحد القصور الأوروبية.

كازانوفا أيضاً كان مشهوداً له بالفصاحة واللباقة والذكاء، إلى جانب أنه كان شديد الثقة بنفسه والاعتداد بها، يقول هو: "أنا حصان أصيل وشيق، وطائش أيضاً". ويقول كذلك: "أشعر بأنني خلقت لكل شيء، قادر على عمل كل شيء. وعن حظوته عند

النساء، يقول: "ليس مردها الجمال، أو الوسامة، ولكنه شيء آخر أثمن من ذلك لا أدري ما هو؟".

كل هذه الأشياء كانت تشكل الظروف الإيجابية التي تشكلت وتكونت فيها أسطورة كزانوفا، وهي أسطورة كانت تملأ خيال كل شباب أوروبا، بل خيال كل شباب العالم، حتى أن كزانوفا الحب والعشق أذهب من عقول الناس ريح كزانوفا الحقوق، وعلم الكون، واللغات، والأدب.

أكثر من رواية كتبها الروائيون بوحي من حياته، وسيرته، وأيامه الحافلة بكل شيء، ومن ذلك رواية "فرناندای" التي دعاها بـ"بوربورينو".

أكثر من مخرج ومن منتج سينمائي قدَّم لعشاق السينما أفلاماً كانت شخصية كزانوفا فيها هي "البطل الملحمي"، ومن ذلك فيلم "التجارب الأولى لكازانوفا"، وكانوا قد استخرجو الفيلم من الأجزاء الأولى من مذكراته. هذا الفيلم يحمل اسم أحد كبار المخرجين الإيطاليين، وهو "لويجي كومينسيني".

كل تفاصيل حياة كزانوفا المدهشة خلقت منه هذه الشخصية الأسطورية، التي تولدت عنها أعمال أدبية رائعة وشيقة، تحتل مكاناً بارزاً في المكتبة الأدبية.

كازانوفا لم يكن أديباً فقط ، بل لقد كان فوق ذلك إيحاءاً فنيا وأدبياً، كان رمزاً، واستعارة معبرة تستهوي الشعراء والفنانين. وهو ما يزال مادة أدبية تتجدد كل يوم؛ لأنه ما يزال يحتفظ في ثقافة أوروبا الاجتماعية برمز العشق الذي لا يعرف الهزيمة!

لوركا:

"ليس لنا إلا أن نتبعه"

إذا كان لابد من الكلام عن فضاءات للشعر فإنه من الظلم اختزالها في "اللغة" في أبعادها الإيحائية أو الإلهامية، فيتوجب أن يضاف إلى ذلك "جسد" القصيدة فوق الورق، أو زخمها وهي تتحول إلى "أصوات" ونغمات ووقفات وإستئنافات. فكل ذلك يدخل في عالم القصيدة أو هو محسوب ضمن شروطها كي تستنفد كل إمكاناتها، وكي تفضي بكل أسرارها. ومن الذي يستطيع أن يخرج تلك الأمور من عوالم الشعر أو من شروطه إذا كان الشعر نفسه هو فضاء غير محدود، فقد يكون عصفوراً، أو فراشة ملونة، أو امرأة قاهرة، أو نهراً مستطيلاً لا يتوقف عن الامتداد، أو صوتاً مخضلاً ثرياً مفعماً بالمعاني.

الشعر هو كل شيء "فوق العادة" وهو كل شيء مدهش، وهو كل شيء يجعلنا نفكر ونتساءل ونحلم، وماذا في ذلك عندما ندخل ضمن عالمه شكله وقوامه وهيئته ممدداً على الورق.

إن صوت فيروز مثلاً هو الذي جعل لكلمات "كيفك أنت" معنى

غير معناها، ودهشة غير دهشتها، بل إن تلك الكلمات بدون فيروز هي نصف شعر، أو ربع شعر، وربما أن هناك من الناس من سيخرجها من الشعر كله، فوجود ذلك الصوت هو نصف القصيدة، أو ثلاثة أرباعها، والقصيدة عمل غير مكتمل بدونه. لأن الشعر هنا هو فيروز والكلمات، معاً وسوياً، ولا فكاك لواحد عن الآخر، لأننا استقبلناهما لأول مرة مجتمعين متحدين متلائمين متلاحمين، مصيراً وقدراً وموتاً أو حياةً.

الشاعر الأسباني لوركا، كان يفضل أن ينشد أشعاره بنفسه، لأنه يعتقد، كما يذكر في مقالته عن الروح المبدعة "أن الشعر بحاجة إلى ناقل، إلى كائن حي"، ومثله كان يفعل توماس الذي كان مغرماً، بمقتضى عدنان بغجاتي، بتوصيف أقصى معنى يمكن أن تقدمه الكلمة من خلال جرسها.

لوركا في إلقائه لشعره كان يمتحن قدرة ذلك الشعر، كما يقول بغجاتي، على التأثير أكثر من مطبوعاته. ومعاصروه كانوا يعرفون عنه هذه الحقيقة، فهو مفتون بمشاهدة ما تفعله كلماته في الناس، هو كان يدرك إمكانات هذا التأثير الحسي على الجمهور لأن لوركا لم يكن شاعراً فقط، بل كان ممثلاً أيضاً، في البعد الإيجابي للتمثيل، وكان عازفاً على البيانو كذلك، وهذه أمور من شأنها أن تسهم في خلق حواس مرهفة، أو هي تزيد في درجة حساسيتها وهذا بالتالي ينعكس على قدرات الشاعر في قياس مواطن التأثير في الإلقاء، بل لعل هذا هو الذي أعطى لوركا الثقة أو الإصرار على إلقاء شعره على الناس، وعدم الاكتفاء بكونه مكتوباً على ورق.

إن لوركا، هكذا، يريد أن يكمل عوالم شعره، ومن تلك العوالم صوته، أو نغماته ووقفاته وإستئنافاته. يريد أن تستنفد قصيدته كل إمكاناتها، وأن تفضي للجمهور بكل أسرارها.

يقول عنه الشاعر رفائيل البترالبرتي "كان لوركا يتدفق بشحنة من الرقة الكهربائية والفتنة، ويلف مستمعيه بجو أخاذاً من السحر فيأسرهم، حين يتحدث، أو ينشد الشعر، أو يرتجل مشهداً مسرحياً، أو يغني أو يعزف على البيانو، فحيثما حل لوركا وجد بيانو".

ويقول فيه الشاعر بدرو ساليناس: "لقد كان هو العيد والبهجة، يشع علينا، وليس لنا إلا أن نتبعه".

وليس على شعراء القصيدة الحديثة من حرج في أن يروا في شكل القصيدة موزعة على الورق طريقة من طرق "إلقائها" وهي طريقة صامتة ولكنها طريقة على كل حال.

لعل هذا أمر يخرجهم من مأزق الفهم المباشر الذي يطلبه الناس بل ربما كان الإلقاء أحياناً عائقاً في وجه الفهم المتأني والمتأمل الذي يأخذ على عاتقه محاولة اكتشاف العلاقات الجديدة التي أنشأها الشارع بين الكلمات، والعلاقات بين الكلمات هي لازمة بارزة من لوازم الشعر الحديث.

لوركا لم يكن كذلك، "فقد فطر على الرغبة في أن يفهمه كل الناس، ويحبه كل الناس من خلال شعره، وهذا هو ما حققه بلا ريب، فحتى الذين ليس لهم ميول أدبية يفهمونه، وإن لم يفهموه تمام الفهم فهم على الأقل يحسون ما يقول الشاعر".

هما أداءان من أداءات الشعر: الأداء الصامت وهو يختص بقصيدة يكتمل عالمها بالكتابة، وبطريقة الكتابة، موزعة على الورق، والأداء الحسي أو غير الصامت وهو للشعر الذي لا يكتمل عالمه إلا في فم كفم لوركا، أو حنجرة كحنجرة فيروز.

مؤيد الجنابي:
ماكينة الموت.. الهائلة

مشكلة مؤيد الجنابي أنه عربي، وأنه عالم، والجمع بين هاتين الصفتين جريمة اتفق العرب المعاصرون على أن يكون حدّها القتل.

ولأن مؤيد الجنابي عربي وعالم، فقد قتل في عمان قبل أيام. فالعرب اعتادوا على قتل أبنائهم من العلماء، أو على الأقل تهجيرهم وتطفيشهم من بلادهم.

إن المرموقين هم غالباً أولئك الذين في المقابر، تحت التراب، أو في السجون، أو في المهجر في بلاد الله الواسعة، نحن أمة تأكل أولادها، ولا تخشى أبدا شيئاً.

مؤيد الجنابي واحد من قائمة طويلة من العلماء الذين سقطوا جميعهم برصاصنا نحن، وهو أيضاً واحد من مئات الآلاف الذين لفهم الظلام إلى الأبد، وذلك إن لم يكن عن طريق الموت النهائي، فعن طريق الموت المؤجل، أو الموت مع وقف التنفيذ، بالسجن، أو بالطرد إلى خارج الوطن.

مؤيـد الجنـابي إذاً لـيس العـالم العربـي الوحيـد الـذي قتلنـاه برصاصـنا، فهنـاك غيـره كثيـرون، ولاشـك أن نظـام صـدام حـسين، والأنظمـة الثوريـة الـشبيهة، ظلـت تقـدم لنـا دائمـاً كـل التـسهيلات الممكنة لاستدعاء صورة المستقبل واستحضارها في الأذهـان، وهـي صورة كما تلاحظون جدً مشرقة ومشرّفة، والعياذ بالله.

إن النموذج الذي نقدمه للعالم عن أنفسنا، وعن حضارتنا، هـو نمـوذج فـي غايـة البـشاعة والحيـف، ففـضلاً عـن أنـه لا وزن إطلاقـاً لآدميـة الآدمـي، عنـدنا فـإن مـن الـسمات الراسـخة التـي ألـصقناها بمزاجنـا الحـضاري، سـمات العنـف، والإرهـاب، والاقتتـال علـى قـصعة الطموح السياسي.

والحـق إن صـدام حـسين، أو النظـام فـي العـراق، لـيس الوحيـد علـى خريطـة الرعـب الـسياسية فـي الإسـهام فـي تكـريس هـذه القـيم التاريخية. فهناك من الزعماء والأنظمة من لا يقـل بـشاعة عـن صـدام حسين ونظامه.

والحـق أيـضاً أن المـزاج الحـضاري المتميـز بـسمات العنـف والإرهـاب، قـد امتـد لهيبـه إلـى مختلـف القـوى الاجتماعيـة خـارج السلطة السياسية المتعددة، فكل يـوم يـسقط عـشرات الـضحايا بفعـل الضغط المستمر على ذلك المزاج، حتى انتهى الأمر إلى الإقـرار التـام بـأن يكـون القتـل فقـرة مقبولـة فـي منظومـة الـشروط التـي تحكـم "الحوار" وتكيفه.

لقد أصبحنا دون أي مفاجأة أمام ماكينة هائلة للموت، تحصدنا كـل يـوم، فمـاذا فعلـت الحـرب اللبنانيـة باللبنـانيين؟ ومـاذا يحـدث بالـضبط فـي الـصومال؟ وكيـف حـال الإخـوة فـي أفغانـستان؟ ومـن

يستطيع أن يتنبأ بما سيكون عليه حال اليمن؟ وكما تلاحظون فنحن لا نتوقف هنا عند مظاهر الإعدامات، أو التصفيات الفردية، في الحركات والمنظمات التي أخذت على نفسها تطبيق العقوبات النهائية على خصومها ومناوئيها. لقد المحنا فقط إلى الطحن اليومي في أشكاله الجماعية، فإذا أضيف إلى كل ذلك ما يقوم به الأعداء أنفسهم، من ذبح مستمر للمسلمين في يوغسلافيا مثلاً، فلكم أن تتصوروا كم من قبر هائل يفتح فمه في كل لحظة، ليتلقف القتلى من أبناء هذه الأمة، بعضهم برصاص الأعداء، وبعضهم الآخر برصاصنا نحن.

هل هذه المذابح المشينة تدخل فيما يمكن أن نسميه بـ "لعنة" الموت التي تطارد أمتنا في تاريخها المعاصر.

صحيح أننا لسنا مسؤولين عن بعض ما يحدث، لكننا، بالحتم، مسؤولون عن كثير مما يحدث، فالجهل موجود، والتخلف حقيقة لاجدال حولها، ومرة أخرى يخرج الغرب في صورة الوصي الحقيقي على "فترينة" الحضارة البشرية الجديدة، فيتدخل بالسلاح لحمايتها من عبث الجهلة والمتخلفين، فيبعث الجيوش إلى الصومال لينهر أهلها على الاقتتال، وليكرههم على أن يدعو للحياة فرصتها، فيسمحوا لأنفسهم وللأطفال بالأكل والنوم والابتسامة. نعم، الأكل، يا أخي، بلاش هذا كله على الأقل.

إن الشيء الوحيد الذي يربط بين قتل مؤيد الجنابي في عمان، واضطرار العالم للتدخل من أجل إكراه الصوماليين على الحياة، هو التخلف، أو هو الجهل، وما العسكريتارية، أو ما يسمى بحركات التحرير والإنقاذ، إلا أغطية لذلك التخلف، وذلك الجهل،

وهمـا يتـدثران بهـا كلمـا اقتحمـا حياتنـا ليجعلاهـا زاداً للمـوت، أو ليدفعاها إلى مقدمة دواعي الخجل المقيت المميت.

لكننـا كمـا نقـول دائمـاً: نحـن أمـة فقـدت تمامـاً قـدرتها علـى أن تخجل، حينما تتكاثر حولها دواعي الخجل، والله المستعان.

مارسيل بانيول:
الذي قرأ الناس وقرأوه

هو أحد أعضاء الأكاديمية الفرنسية! وهو كاتب روائي من طراز جيد! وهو كاتب مسرحي من الدرجة الأولى. يعدونه أبرز كتّاب الـ"نيو - كلاسيك"، وهو مؤلف، ومخرج سينمائي، يعدونه المؤسس الأول لـ"نيو - واقعية" في السينما.

مارسيل بانيول كان "يستشير" البيئة، والناس، والواقع، والمناخ الذي يحيطه. كانت مفكرته اليومية تمتلئ بصور كثيرة لما يراه شغلاً للناس، وهما للناس، وسلوة للناس. كان مؤرخاً ولكن ليس كالآخرين، يهمه أن يروي لجمهوره - بطريقة ما- أخلاقهم، ونفسيتهم، وطريقة، معاشهم، وضحكهم، وفرحهم. كان يحبهم، ولهذا كان يصر على أن يعطيهم من قلبه الانعكاس الصادق لحياتهم، وكان يعطيهم الطريقة الأمثل لفهم مشكلاتهم ومشكلات زمانهم. كان يقدم لهم أيضاً صورة للماضي الذي اندثر أو سيندثر، ولهذا فهو يقول: "أريد أن أقدم لكم شهادة متواضعة على عصر قد اختفى اليوم".

عندما كتب مسرحيته المشهورة "ماريوس"، كان يقدم للناس

أخلص وأصدق صورة لأهل "الميدي" في فرنسا، (وسط فرنسا وجنوبها). ولقد كانت مدينة "مرسيليا" تنحشر بلا هوادة في رأس "ماريوس" بطل المسرحية، الذي كان يفهم من مارسيل بانيول نفسه، الذي هو أحد أطفال هذه المدينة المخلصين، فقد ولد بالقرب منها، ثم أمضى في شوارعها الضيقة فصلاً مزدحماً بالنشاط من طفولته، ثم صباه وشبابه.

في "ماريوس" كان بانيول يؤرخ لأخلاق أهل مرسيليا، وطباعهم، وعاداتهم، ولهجتهم التي تتميز عن كل لهجات المناطق الفرنسية الأخرى باللين والرقة والريفية العذبة.

أخذ بانيول على نفسه أن يقدم للناس وللتاريخ نفسية هذا الميناء القديم ولهجته وأعرافه. هذا الميناء الذي ينحشر بأهله، وبالتجارة، وبالأجانب من كل مكان، ولا سيما العرب من شمال إفريقيا، ولهذا فعندما تودون أن تعرفوا منطقة الـ" الميدي" الفرنسية: روحها، لهجتها، أخلاقها؛ أنصحكم بمتابعة أعمال بانيول.

كلما وقعت يدي على أحد أعماله الأدبية، تذكرت فوراً الأستاذ الشاعر أحمد قنديل، وتذكرت أيضاً "مركازه" و "قناديله". وكلما رأيت إحدى روايات مارسيل بانيول أو مسرحياته، تذكرت كذلك الأستاذ أحمد السباعي و "خالتي كدرجان". السباعي والقنديل لهما روح بانيول وواقعيته، ولهما أيضاً استعداده في نقل الصورة، والإخلاص في صياغتها، وتطويعها، والاحتفال بها بطريقة حيوية ساخرة تعمل على تقريبها من مشارب الناس، كل الناس، ولكن الفرق بين كاتبهم وكاتبينا، هو أن هذين كانا -رحمهما الله- كسوبين، أما بانيول فقد خصص كل حياته (79 سنة) لـ"شرح" حياة أهل

مرسيليا. السباعي والقنديل لتقصيرهما مبرر وجيه جداً، فلا سينما ولا مسرح. (على الرغم من أن تجربة أحمد السباعي التي وئدت في أول عهدها)، كما أن النوع الأدبي الذي اسمه "رواية"، لم يكن بذي رواج في مجتمع يختزل مهمات السرد في هدف التسلية، وربما مضيعة الوقت، هذا فضلاً عن أن الكاتب أو المبدع ينشغل عندنا بالجري وراء "لقمة العيش"، وهو في مجتمع غير قارئ، لا يستطيع أن يعيش مما يدره عليه فنه وإبداعه، أما بانيول فقد كان يطلب وده ملايين الناس في داخل فرنسا وخارجها، كلهم يلتهمون أعماله الأدبية والفنية بشغف، وكلهم يدرون عليه من عطفهم و "نقودهم" ما يتخذه هو وسيلة للعيش، ودليلاً على حبهم، وعلى رغبتهم في أن يستمر!

كل ذلك كان يُحيي في داخله الضرورة الملحة في أن يسخر حياته وموهبته لهم؛ وفاء لحبهم، واحتفالاً بهذا الحب. لقد صدقوا معه، فأخلص لهم ولفنه. كان يشعر بهم "جيشاً" حافلاً يتهادى وراءه، يشد من أزره، ويدفعه من نصر إلى نصر. لقد كانوا يذكون في داخله الرغبة في تحقيق فتوحات جديدة يسعد فيها هو بمجد "الفتح"، وينعمون فيها هم بلذة الجدة والانتصار. أما السباعي والقنديل وأكثر كتابنا، فقد ظلوا هم القادة، وهم الجنود. ظلوا هم السلاح، وهم زاد النصر وزاد الهزيمة. ينتصرون فلا أحد يصفق لانتصارهم، وينهزمون فلا أحد يبكي لهزيمتهم. ظلوا يحتسون مرارة الوحدة والانعزال في مجتمع غير قارئ، ظلوا كتاباً بلا جمهور.

القنديل في "مركازه"، وفي "قناديله"، يؤرخ لأخلاق مجتمع ولنفسيته. ويتحدث عن طريقة أو طرق للعيش في جيل زال أو يكاد أن يزول.

والسباعي في "خالتي كدرجان"، وغيرها من قصصه الأخرى، يحصي أخلاق وتجليات جيل انقرض، أو كان في طريقه إلى الانقراض. يرصد عادات وأعراف لأجداد قد ولوا وذهبوا. يقص حكاية أيام بقيت لنا كالحلم، يصور روح سنين الروشان، والحناء، والطرحة، والكتّاب، والفلكة. وكل ذلك لو وجد الاهتمام والعناية والمواصلة لشكّل مادة أدبية وفنية ومسرحية وتاريخية لها شأنها عند الذين يُقدِّرون ضرورة معرفة أخلاق الأجيال وثقافاتهم في تفسير التاريخ والحضارة، وطريقة فهم الحياة.

بانيول قرأه الناس، وأحبوه ومشوا وراءه؛ لأنه كان مخلصاً في تصوير مجتمعهم، ولهجة جيلهم، والأجيال التي سبقته ساروا وراءه، حتى وجد أنه لم يعد هناك ضرورة للاستمرار في عمله كأستاذ مساعد في الأدب الإنجليزي، فاستقال وتفرغ لهم، ولموهبته وإبداعه، فكان يكتب يومياً بمعدل ست ساعات بدون انقطاع، ولهذا لن تذهلوا عندما يقال لكم: إنه كتب أجمل وأعظم مسرحياته: "توباز"، و "ماريوس" في مدة ثلاثة شهور فقط. وهاتان المسرحيتان تمثلان منطلقاً مهماً ومكتملاً في حياته الأدبية، ومع ذلك فقد كتبهما في هذه المدة التي تبدو قصيرة جداً، إذا ما قيست بضخامة المسرحيتين كعملين أدبيين من طراز متقدم. وقد قدمت هاتان المسرحيتان على أشهر المسارح الفرنسية وأكبر ها، ثم أُخرج منها فيلمان سينمائيان كانا يعرضان في كل عواصم الدنيا. لقد توصل بانيول إلى تنفيذ هذين العملين الأدبيين الباهرين في مدة قصيرة، ليس لأنه كان موهوباً فقط، ولكن فوق ذلك كله لانعدام كل ما يمكن أن يشغله عن تطويع موهبته، وترويضها، والاهتمام بها، ليحولها إلى"طاقة". كان يجب ألا يتوقف عن الإنتاج، فقد كان

لبـانيول فـي حياتـه اهتمامـان فقـط: الأول جمهـوره، والثـاني موهبتـه، ولهذا كان له إنتاج بارع ومدهش.

لم يستقبل الناس مارسيل بـانيول بأذرعـة مفتوحـة منـذ أن ولـج بـاب الأدب والمـسرح. فقـد مـرّ بالمراحـل نفسها التـي يمـر بهـا كـل كاتـب موهـوب فـي أول طريقـه الـشاق: التـساؤل، ثـم التـساؤل، ثـم التساؤل، ثم دخوله إلى نادي الموهوبين أو المبدعين.

أنشأ - وعمره ستة عشر عاماً- مجلة أدبية في مرسيليا، مدينة صباه، أسماها: "فورتونيو". كان يتعاون معه في كتابتها وإصدارها أقـرب أصـدقائه إليـه: "غاسـتون مـوران"، وأيـضاً الـشاعر الفرنـسي "مارسيل غرا"، ولكن الناس لم يحفلوا بها، فاندثرت وماتت!

لـم يجـرؤ علـى كتابـة أول مـسرحياته منفـرداً، فاشـترك معـه فـي كتابتها: "بول نيفو"، وهي الأخرى لقيت ما لقيته المجلـة مـن حتف. النقـاد اسـتقبلوها بالترحيـب، ولكـن الجمهـور رفـضها وأعـرض عنهـا. ففـي المـسرح الاحتفـال بـ"الجمهـور" يـأتي قبـل الاحتفـال بمـا يقولـه "النقاد". الكاتب المسرحي في حاجة إلى "جمهور" قبل أن يكون في حاجة إلى نقاد.

لم تكن الخطوات الأولى في حياة بانيول لتشجعه على أن يـدع "روب" الجامعة، ليصبح كاتباً فحسب، ولكنه بعد أن كتب من مونت كـارلو مـسرحيته "جـاز"، وبعـد أن مُثِّلـت هـذه المـسرحة فـي بـاريس على "مسرح الفنون"، ثـم أعيـد تقـديمها مئة مـرة، عـرف بـانيول أنـه قـد أصـبح لـه "جمهـور"، فخلـع الـروب، واسـتمر يمطـر العاصـمة الفرنـسية بأعمالـه الأدبيـة، وهـي وجهـة العـالم كلـه فـي الفـن والأدب والمسرح.

كانت مسرحياته تعرض في باريس دون أن يشارك هو في بروفاتها، أو حتى في مشاهدتها مع الجمهور؛ لأنه كان بعيداً عنها، كان في "مرسيليا".

كل المخرجين، كل مديري مسارح باريس، كل المنتجين السينمائيين، كل دور النشر؛ كانت تبحث عن هذا الكاتب الريفي لتفتح أمامه الأبواب الواسعة للخروج إلى الناس.

بعد "جاز" كتب "توباز"، فأخرجوا منها فيلمين سينمائيين، الأول مثله "لوي كوفيه"، والثاني لعب فيه دور البطولة الممثل الفرنسي الشهير "فرناندل".

بعد "توباز" كتب مسرحية "ماريوس"، وهذه المسرحية أخرج منها هي الأخرى الكسندر كوردا فيلماً سينمائياً.

انفرجت أبواب المجد أمام بانيول، حتى أن مسرحيته "سيزار" تحولت من غير حاجة إلى عرضها على المسرح، إلى فيلم سينمائي كان يعرض منه مائتا نسخة يومياً في شتى أنحاء العالم.

لم يكن المسرح هو الشاغل الأدبي الوحيد لبانيول، بل لقد كان أيضاً كاتباً روائياً، ومن أشهر رواياته: "ماء التلال" و "رسائل الطاحونة".

بعد أن أخذ يتناوله الجمهور كالوجبة اليومية، لم تعد الرواية والمسرح يشبعان فيه طموحه، فما لبث أن أضاف إليهما الإخراج السينمائي. والإخراج في ذاته فن تعبيري رائد، فالرواية والمسرح تعبير بالكلمة، أما الإخراج السينمائي فتعبير يجمع استخدام كل مكونات العمل وعناصره: الكلمة، الممثل، الصورة، الضوء، الصوت، والمكان، والزمان.

كان الشاعر الإسباني "اربال" يقدم شعره في شكل "الكتابة"، وكان أيضاً يُقدِّم ذلك الشعر سينمائياً مستنفداً جميع فرص التعبير الممكنة التي تقترحها صناعة السينما، فكل منظر في أفلامه كان يعده بيت شعر أو قصيدة، وكل فيلم كان يعده ديواناً مكتملاً.

إبداع بانيول في السينما وصل إلى درجة أن الفرنسيين عدُّوه منشئ حركة الـ"نيو - واقعية" في هذا الفن.

وإلى جانب أعماله التي كان يخرجها على الشاشة الكبيرة، كان يفعل مثل ذلك مع أعمال غيره من الكتّاب الفرنسيين الكبار، فقد أخرج لـ"إميل زولا" إحدى قصصه القصيرة، ودعاها "نانيس"، كما أخرج لـ"موباسان" وغيره من مشاهير الكتّاب الفرنسيين.

ما كان لبانيول أن يبقى في الريف، وأن يقرأ من بعيد تعليقات الصحف والمجلات الأدبية على أعماله التي كانت تملأ فضاء العاصمة الفرنسية، فحزم حقائبه ورحل إلى باريس لتستقبله المدينة الكبيرة بكل ما تصوره، وما لم يتصوره من إكبار وإعجاب، وقد بقي فيها ملء السمع والبصر.

انتخبوه رئيساً لمنظمة المؤلفين الدراميين، ثم انتخبوه في عام 1946 عضواً في الأكاديمية الفرنسية. قدمت له باريس كل شيء، حتى أصبحت طريق الشهرةبالنسبة للممثلين، ليس لها إلا أن تعبر من تحت أصابع مارسيل بانيول. كلهم يريدون أن يشتركوا في مسرحه، وكلهم يريدون أن تحفر أسماؤهم على أوراق الدعايات والإعلانات، على واجهات باريس العريضة بجانب اسمه. بريجيت باردو نفسها، لما توفي بانيول، كانت تقول: أسفي الكبير، هو أنه مات قبل أن يتم بيننا أي لقاء فني.

ولكـن بـرغم كـل مـا قدمتـه بـاريس لبـانيول، بقيـت مرسـيليا مغروسة في ذهنه وقلبه. كانت الذكرى، وكانت الحب الذي لا ينسى، يقول: "ما كنت أعلم أنني أحب مرسيليا، مدينـة البحـار والسماسرة، ذلك الميناء القديم الذي كان يبدو لي قذراً، ولكن الغربة هي التي تثير فينا حتماً الحنين والحب. أجل، فبعد أربع سنوات من حياتي الباريسية توصلت إلى هذا الاكتشاف!!".

عندما توفي دفنوه في ريفه، في قريته بالقرب من مرسيليا.

ماري إلينا.. وآخرون:

الثوب ليس ثوبكم

العمل الفني ينجح عندما يعيشه الناس، أي عندما لا يحسون بأي فجوة بينه وبين ما هو "ممكن" في المعاش اليومي، ولاسيما عندما يكون ذا علاقة بمشكلات الراهن وبهموم الماثل والسائد.

وأنا شخصياً فشلت في أن أحقق أي حد ولو أدنى، من الانسجام مع المسلسلات الأجنبية المدبلجة باللغة العربية الفصحى والتي دأبت على بثها بعض المحطات الفضائية.

العربية الفصحى لا تصلح - في نظري – لغة للمسلسلات العربية التي تحكي هموماً معاصرة فما بالك بالمسلسلات الأجنبية التي لا يربطها بالبيئة العربية، أو الثقافة العربية، أي رابط.

المجال الوحيد الذي أتصور أن اللغة العربية الفصحى صالحة له هو مجال المسلسلات التاريخية، لأن مخيلة المتابع أو المتلقي ستنقله تلقائياً إلى الزمن السحيق الذي جرت فيه أحداث الرواية،

فهي كفيلة بسد الفجوة بين زمنه هو وزمن الرواية الخاص، وهي المسؤولة عن ردم الهوة بين شخصيته والشخصيات التاريخية التي تتحرك أمامه من حيث المفاهيم والمواقف والتعامل مع الأشياء عموماً، إذ ينتقل بكليته إلى العصر السحيق أو البعيد فيصبح جزءاً منه، فلا يعود إلى عصره إلا بعد الفراغ من المتابعة، فيستعيد توازنه النفسي والفكري، ليحس بعدها أنه لم يزد على أن قام برحلة ممتعة إلى عالم غير عالمه، وأنه التقى خلال تلك الرحلة بشخوص تختلف في كل شيء عن الشخوص التي يقابلها في كل لحظة في حياته اليومية المعاشة أو المعتادة.

القصة أو الرواية هي أحداث وأدوات، ومن تلك الأدوات اللغة، ولابد أن تكون الأدوات منسجمة ومتوائمة مع الأحداث (وبالأخص زمن الأحداث) ومادام أن اللغة العربية الصحفى لم تعد لغة الحياة اليومية الآن فإن من الصعب أن نتعسفها وأن نجعلها لغة تعكس معاشنا اليومي أو تترجمه بحيث تطمح، في الوقت نفسه، أن تحقق انسجاماً معقولاً ومقبولاً بيننا وبين ما تحكيه من أحداث أو مشكلات وهموم. الموضوع التاريخي، إذن، هو الجدير بأن يقال في لغته، وهي لا بأس في أن تكون هنا اللغة الفصحى.

أما إذا كان الموضوع غير عربي من أساسه، فإن النتيجة أدعى إلى الضحك إذ ليس بمقدورنا أن نفصل لغتنا الفصحى عن أزمنتها، وليس باستطاعتنا أن نقطعها عن معمولاتها الثقافية الخاصة، وتداعياتها الفكرية والتخيلية التي ليس لها من مآل غير عصور لن

يكون عصرنا هذا منها. فلا يمكن أن نتصور، ولو للحظة واحدة، أن مـاري إلينـا، أو لـويس فيلبـي، أو كلوديـا، أو خـافيير أو غيـرهم، بأسـمائهم المـذكورة، وبـسحناتهم المنظـورة، عـرب أقحـاح يتحـدثون لغة فصيحة أنقى من الشهد.

إنني مـضطر، وهـم يتحـدثون تلـك اللغـة الفـصيحة النقيـة، أن انتقل إلى زمان غير زماني هذا، فيتضخم أمامي الشكل الكاريكاتوري المضحك: فلا الأسماء تتفق مع اللغة المتدفقة، ولا السحنات تساعد على تمثل بعض شخوص الماضي وأهله.

فمـاري إلينـا ليـست سـكينة بنـت الحـسين، وكلوديـا الـشقراء ليست قتيلة بنت الحارث، وميتشي ليست جعثن أخت الفرزدق - أما لـويس فيلبـي فهـو، بـدوره، لـيس أبـا عطـاء الـسندي، وخـافيير لـيس سحيم عبد بني الحسحاس، وماتيو أنونيوس لن يكون أبداً ثابت بن قطنة أو الحكم بن عبدل.

لهذا كله فشلت في تحقيق أي مستوى من الانسجام مع تلك المسلسلات، ولهذا كله أيضاً كانت تلك المسلسلات تحرضني على الضحك أكثر من أي شيء آخر.

اعتقد أنها لو دبجلت بأحدث العاميات العربية المعاصرة لكان ذلك أفضل لنا ولها.

أقول كل ما تقدم على الرغم من أنني قابلت كثيرين ممن تابعوا تلك المسلسلات ولم يشعروا بأي شيء مما شعرت، وهم سيختلفون معي في كل ما ذكرته أعلاه، ولله في خلق شؤون.

محمد ابن جبير:
يحترم "الاختلاف" ويدعم فرص "الحوار"

اثنا عشر عاماً انقضت، وأنا أعمل تحت رئاسة فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير - رحمه الله - وقد رافقته داخل مجلس الشورى، ورافقته في خارجه، في بلجيكا، وألمانيا، وفرنسا، والجزائر، والمغرب، وبهذا فقد تيسر لي أن أعرف الكثير عن أبي خالد، وعن شخصيته الاجتماعية، والإدارية، والسياسية.

فعموم الناس عرفوا عن فضيلته علمه الغزير، وتقواه، وصلاحه، وورعه، لكنهم لا يعلمون بالضرورة كل شيء مما تتميز به شخصيته الفذة، من أمور اقتصر العلم بمعظمها على من احتك به في العمل، أو السفر، أو اللقاءات الاجتماعية المتكررة. وقد منّ الله عليّ بأن أكون واحداً ممن نعموا بهذه الفرص كلها؛ مما يتيح لي أن أتحدث عنه ببعض ما أعرف.

على مستوى العلاقات الإنسانية لا يمكن أن يلقى أحد هذا الشيخ الجليل، إلا وهو هاش باش، منفرج الأسارير، مهما أثقلته مسؤوليات الوظيفة، أو هموم الحياة، وكل من يدخل إلى الشيخ ابن

جبير في مكتبه، أو يجلس إليه في منزله، يتملكه الإحساس الشديد بأنه هو "صاحب الشيخ"، وأن أحداً غيره لم يحظ بما حظي به من حفاوة الشيخ وعنايته، وحسن إصغائه. فهو يبادرك بالسؤال عن الصحة والأولاد، وعن عموم الأحوال، وقد يذكر لك بعضاً من أبناء العمومة، أو من أفراد القبيلة، ممن سبق أن التقاهم في حياته العملية الحافلة، في القضاء، أو فيما سواه من المسؤوليات الأخرى تقلدها، فيتحفك بقصة طريفة أو قصتين، إلى أن يشعر هو بأنه قد اطمأن بك المجلس، وهنا يدعك تأخذ أنت زمام الحديث فيما جئت إليه من أجله، فتقول ما تشاء، وهو مصغ إلى حديثك، مشعراً إياك عند كل نقطة، وكل فاصلة، بأن ما تقوله له، هو في غاية الأهمية، فتغادر مجلسه وأنت في غاية الاغتباط، حتى لو لم يوافقك على أي شيء مما قلت، وحتى لو لم يجبك إلى أي شيء مما طلبت.

يتكرر هذا الموقف في كل مرة تلتقي فيها الشيخ ابن جبير، في خارج مكتبه أو في منزله، في ممرات مجلس الشورى وطرقاته، أو في طائرة، أو في فندق، أو حول مائدة للعشاء في منزل لأحد الزملاء أو الأصدقاء.

وبالمناسبة فقد كان يقول لنا أبو خالد بأنه لم يكن يقبل الدعوات أيام كان يشتغل بالقضاء، لاعتقاده بأن ذلك أمر غير مناسب لمن يقضي بين الناس، أما الآن في عمله الجديد رئيساً للمجلس، فإن من الضروري أن يلتقي الناس، وأن يستقبلهم، ويزورهم، وأن يقبل دعواتهم، فهو يريد أن يستمع إليهم؛ لأن هذا الأمر هو من صميم مهماته الجديدة، ومن صميم سلوكيات المشتغلين بالنشاطات البرلمانية التي هدفها في المقام الأول، هو الناس.

كـل مجـالس الـشيخ ابـن جبيـر ورحلاتـه خفيفـة علـى الـنفس والقلب، فهي مزيج من الكلام المفيد الطيب، والكلام الذي لا يخلو من المرح والطرافة والدعابة. فأبو خالد لا تحضره موعظة مناسبة إلا قالهـا، وهـو يمتعـك بحديثـه عـن تجاربـه فـي القـضاء، ولاسـيما المفارقـات التـي صـادفته، والغرائـب والعجائـب التـي قابلتـه، ممـا لا يـصادفه أو يقابلـه إلاّ القـضاة، بحكـم مهمـاتهم الحـساسة فـي الفـصل بين النـاس في المنازعـات والحقـوق وخلافـه. وهنـا يتعـرض لجولاتـه الكثيـرة فـي أنحـاء المملكـة المختلفـة، ويـذكر القبائـل التـي زارهـا، وأسـماء الأشـخاص الـذين التقاهم، وبعـض المواقـف التـي حـدثت لـه معهـم، وهـو يـذكر كـل ذلـك بعفـة فـي اللـسان، ونقـاء فـي الوجـدان، ويـذكر قصـصه تلـك للعبـرة أو الحكمـة، وقـد يـذكرها أحيانـاً لمجـرد الطرافـة والإمتـاع. والـشيخ - رحمـه اللـه - لا يتـردد فـي روايـة "النكتة" العفيفة، ولا يتحرج أبداً من الاستماع إليها. ولقد صادف أن امتدت بعض رحلاتي معه لأكثر من أسبوع، فلم نكن نشعر، لا أنا ولا أحد من زملائي، بأي شيء من ضيق أو ضجر، بل كنا نحس بمتعة بالغة لوجودنا معه، وفي رفقته، وبالقرب منه، وأكثر من هذا، فقد كنا نشعر بأننا نتعلم منه أشياء كثيرة، ليس فقط في كلامه وأحاديثه، بل حتى في صمته، وتأمله، وتبتله إلى ربه.

وهنا أتذكر ما قاله لي في باريس السيد ميشيل جوبير وزير الخارجية الفرنسي الأسبق، وكنا نتناول طعام الغداء، هو ،والأستاذ ياسر هواري، وأنا، في أحد مطاعم العاصمة الفرنسية، وكان قد علم بتعيين أبي خالد رئيساً لمجلس الشورى. لقد قال لي ممازحاً: "هذا الـشيخ الجليـل، هـو ابـن عمـي لتوافقنـا فـي الاسـم العـائلي" يعنـي "جوبير"، ثم ضحك الوزير الفرنسي المتقاعد، وأضاف "لقد التقيته

في إحدى زياراتي الرسمية للرياض، وهو ذو شخصية قوية ومؤثرة، إنه من بين الشخصيات التي لن أنساها قط، وأنا أحتفظ بصورة لي معه، وغداً أبعث لك نسخة منها".

وفي اليوم التالي، تلقيت نسخة من الصورة التي جمعته بفضيلة الشيخ، وعند عودتي إلى الرياض، أطلعت أبا خالد على الصورة، وأنا أقول له: لقد عثرت يا شيخ على "هذلي من أبناء عمك في باريس، وأنا أقصد ميشيل جوبير، فهل امتدت هجرة هذيل إلى هناك؟ ردّ ضاحكاً - رحمه الله - هذيل موجودون في كل بقاع الأرض يا فهد، حتى في بلاد بني الحارث، "وش يدريك!".

البروفيسور سليم جاهل، الوزير السابق وأستاذ القانون الدولي في جامعة باريس الثانية، قال لي في منزلي في الرياض، بعد أن التقى الشيخ ابن جبير لأول مرة: بهرني يا فهد هذا الشيخ، أريد أن أقابله ألف مرة، قبل أن يموت أو أموت، ثم مات أبو خالد قبل أن يتحقق ولو جزء يسير من حلم البروفيسور سليم جاهل، الذي كاد أن يختنق بعبراته عندما أخبرته تليفونيا بالحدث الجلل. هذه الكاريزما العجيبة في شخصية ابن جبير، كانت تساعد في إنجاح مباحثاتنا في الخارج أثناء الزيارات الرسمية التي قمنا بها في معيته لدول أجنبية. كان بطبيعة الحال، وهو رئيس الوفد، هو الذي يتولى الحوار مع الأطراف المقابلة. وكان من الاستراتيجيات التي ينطلق منها في مباحثاته، احترام الطرف الآخر، واحترام آرائه ومواقفه، مهما كانت متناقضة أو متعارضة مع آرائنا ومواقفنا، فهو في الوقت الذي يطلب من الآخرين أن يتفهموا ظروفنا، وأن يعطونا الحق في "الاختلاف"، لا يستطيع إلا أن يمنحهم القدر نفسه من الفرصة في أن يحتفظوا بمواقعهم ومواقفهم كلما أرادوا ذلك. وكان دائماً،

بهدوئه وعقله وحنكته، القادر على امتصاص حماسة الأطراف التي لديها أحكام سبقية حولنا، وحول ديننا وبلادنا. ولا يهدأ له بال، حتى يعود الحوار لينتظم في سياقه الموضوعي العادل، فتكون النتائج - في الأقل- احترام كل طرف لوجهة نظر الطرف الآخر، في الوقت الذي تتحقق فيه حتماً مكاسب أخرى، من أهمها: اتصافنا في نظر الآخرين بالاعتدال والعقلانية، "والتسامح"، ونحن أحوج ما نكون لهذه الصفات، إذا ما أردنا أن نواصل الحوار مع الآخر، وإذا ما كان هدفنا هو أن يُستمع إلينا.

لم أسمع قط الشيخ محمد بن جبير في مباحثاته أو حواره مع الأجانب، ممن نلتقيهم، منتقصاً من ثقافتهم، أو مسفهاً لتجاربهم. إن تركيزه الأقوى كان دائماً على المشتركات. يتحدث عن قيم الإسلام وعن حضارة القرآن، وقد كانت رسالته - رحمه الله - التأكيد دائماً على قيم البناء، فالإسلام حضارة "تُشيِّد" وليست أبداً حضارة تقوم على"الهدم". وعندما التقاه رحمه الله أحد المواطنين العرب في بلجيكا وقال له: إن "الكفار" يضايقون المسلمين في بلجيكا، فما رأيك يا شيخ؟ التفت إليه فضيلته، وقال له بحزم: "إذا لم تكن لديكم القدرة على احترام قوانين ونظم البلاد الأجنبية التي تستضيفكم، فعليكم العودة إلى بلادكم، فليس من حقكم أن تضايقوا الناس في بلدانهم".

هذه الدبلوماسية الهادئة المتوازنة، هي التي أقامت جسوراً من الحوار بين مجلس الشورى السعودي والمجالس النيابية الأخرى في كثير من بلدان العالم. ولم نغادر بلداً أجنبياً قط إلا وشخصية الشيخ محمد بن جبير عالقة بذهن كل من التقاهم .

نحن نضيق في جلسات مجلس الشورى أحياناً بكثرة

المداخلات، وطولها، وتكرارها، وترديدها لأفكار واحدة، لا جديد فيها، فنقترح على الشيخ أن يوقف هذا السيل من الكلام المكرور الممل، فتكون حجته التي يفحمنا بها، لنتراجع عما قلناه: لا أستطيع أن "أصادر" رأي أحد، ولا يمكن أن "أنفي" عقل أحد، فالمجلس ساحة لـ"الحوار"، وكل عضو من الأعضاء له الحق في "أن يقول ما يشاء"، وهو الذي يقدر أهمية ما يقوله من عدمها. ثم نقول في أنفسنا: يا سبحان الله! ما أعجبك يا أبا خالد، فأنت نفسك الذي تردد على أسماعنا هذه الجمل الجميلة، ونحن نعتقد أنك قادم إلينا من مدرسة أو ثقافة ذات اتجاه واحد، ونحن نحسب أننا الأجدر بترديدها؛ لأننا نظن أننا تعلمناها وتشربناها في جامعات الغرب وبيئاته الثقافية، ومن المؤسف أننا نحن الذين نعمد إلى نسيانها أحياناً، كي نغتال "الحوار"، أو نذبحه وننثر أشلاءه.

ما أعجبك يا أبا خالد، وأنت خريج المدارس "التقليدية"، مثل دار التوحيد بالطائف، وكلية الشريعة بمكة المكرمة! هل يوجد مثلك كثيرون في أمتنا التي تواجه كل هذا الزخم المرعب من التحديات؟ هل يوجد بيننا مثلك كثيرون من المثقفين والمهتمين بالشأن الوطني والاجتماعي والسياسي يؤمنون بالتنوع والتعدد والحق في الاختلاف؟ تساؤلات مريرة، واليوم، على وجه الخصوص، هو يوم المحاولة الجادة للإجابة عليها. لهذا السبب كان الشيخ محمد بن جبير محط تقدير كل من عرفه، أو عمل معه، ولاسيما أعضاء مجلس الشورى الستين، ثم التسعين، ثم المئة وعشرين. لقد كان الشيخ ابن جبير أنجح من أدار الحوار بينهم، فهم لثقتهم فيه، واحترامهم له، يختلفون، ويختلفون، ويختلفون ولكنه يظل بجسمه الصغير، وعقله الكبير، فوق المنصة، حاضراً في وجدان كل عضو، يفرض مبدأ احترام "الاختلاف"، ويفرض شروط "الحوار" الأبيض

النظيف وآدابه، ولكي لا يحس أحد بأن الشيخ قد يريد توجيه الحوار إلى ما يراه هو، فهو لا يصوت إلا بعد أن يصوت المجلس كله، وهو لا يتحدث حول المسألة المطروحة للنقاش، ولا يبدي أي رأي فيها؛ كي لا يؤثر على مجريات التصويت، أو على نقائه، وحياديته. وإذا حدث هذا، فهو غالباً ما يكون في مسألة لها صلة بتجربته في القضاء، أو في الإدارة، أو في نواح إجرائية صرفة. أما إذا لم يكن الأمر كذلك، وأراد أن يتحدث، فيشرح مغالبا نفسه على ألا يظهر توجهه، وحتى لو ظهر توجهه، فهو يقبل نتيجة تصويت المجلس، حتى عندما تكون ضد ذلك التوجه. وقد حدث هذا فعلا غير مرة، وقد كانت روح ابن جبير روحاً ديمقراطية أو"رياضية"، إن صح التعبير.

لقد حاول أبو خالد أن يعلمنا "الصبر"، وربما أنه وُفِّق في تحقيق بعض ما أراد، لكنه من الصعب على أحدنا أن يزعم بأنه قد بلغ شأو ابن جبير في هذا المضمار. قد يقال في المجلس أحيانا، مني ومن غيري، كلام يفجر الدماء في العروق، ويمزق غشاء القلب والعقل، ومع هذا فإن أبا الهول "الصغير" القابع فوق المنصة التي أمامنا (ابن جبير) لا يسعل، ولا يتنحنح، ولا يحك جبهته، ولا يفرك شاربه أو لحيته، بل إنه ثابت في مكانه، مسترخ على كرسيه، وكأنه يستمع إلى أعذب الألحان.

حاول أبو خالد أن يعلمنا أيضا "حسن الإصغاء"، وربما أنه وُفِّق في ذلك مع بعضنا، لكن أحدا من هؤلاء لن يقول يوما: إنه اقترب ولو قليلا مما كان عليه هذا الرجل من حسن إصغاء، وكنت أقول دائما لأصدقائي: لعله الاشتغال بالقضاء، فهذا العمل هو الذي علَّم ابن جبير حسن الإصغاء. إن أعضاء المجلس أثناء الجلسات، يخرجون من القاعة، ويدخلون إليها، ويسرحون بأذهانهم، ويحلمون

بغير ما يدور في الجلسة، في الوقت الذي تلاحظ فيه هذا الشيخ يتابع بدقة عجيبة كل ما يقال، فيصحح، ويستدرك، ويلفت نظر العضو إذا دعت الحاجة، وتستمر هذه الحالة لحوالي خمس ساعات في كل جلسة، بلا كلل أو ملل، أو شرود، أو سرحان، أو إغفاءة سريعة كما قد يحدث في مجالس نيابية أخرى.

وعندما تنتهي الجلسة، بعد الثالثة عصراً، يعود إلى مكتبه، ويكون أبو أسامة إبراهيم السليمان مدير مكتبه له بالمرصاد، فيضع أمامه جبلا صغيرا من المعاملات، فلا يعود ابن جبير إلى بيته إلا قبيل صلاة المغرب. وللعلم فإنه - رحمه الله- لا ينام ليلا إلا بعد أن يصلي الفجر، وعليكم الحساب!

لقد أسهم الشيخ محمد بن جبير إسهاماً كبيرا في التنمية الإدارية والسياسية في البلاد، في ديوان المظالم، ووزارة العدل، ثم أخيراً مجلس الشورى. فقد أعطى لهذه التجربة الأخيرة من جهده، ومن عقله وروحه، الشيء الكثير. لقد عمل على تنمية التجربة، بما أصدر من اللوائح، وقواعد العمل، كما أنه عمل على تنمية التجربة بما غذاها به من الفكر والثقافة الشرعية المتوازنة .

ويكفي أبو خالد أنه عمل بكل ما أوتي من القوة على تأصيل سلوكيات برلمانية أو نيابية سهلت الكثير من مهمات المجلس، وساعدته على أداء واجباته. لهذا كان ابن جبير رجل دولة من طراز ممتاز، وانتقل اليوم إلى جوار ربه مع الصديقين والصالحين - إن شاء الله.

لقد خسرناه... ولقد كان المطلوب، هو تنمية مكاسبه التي رسخها قبل أن يرحل.

محمد الحمد الشبيلي:

دمنا المشتهى!

هل سمعتم بأحد يرثي أحداً لا يعرفه؟!

هذا ما سأفعل هذه المرة.

سأرثي رجلاً لا أعرفه! ولم أقابله في حياتي قط! ولم ينلني من مكارمه، أو نبله، أو أريحيته، أو سماحته أي شيء على الإطلاق، ومع ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك، فإنني سأرثيه!

سأضع على قبره دمعتين غزيرتين، وسأعلن الحزن، وسيغرق وجهي بين يدي، إلى أن يندمل الجرح ويلتئم.

سأسكب تينك الدمعتين لوجه الله!.. وسأعلن ذلك الحزن لوجه الله أيضاً.

فأنا ألتقي كل يوم "!!" الكثيرين.. الكثيرين جداً من أصدقاء المرحوم ومحبيه، فهم دائماً هنا!.. وهم دائماً هناك!.. إنهم في كل مكان، وفي كل زمان، فأنا أجدهم حيثما وجهت وجهي، فالمرحوم له فضله الجمّ، وله قلبه الكبير الذي اتسع – يا سبحان الله! – لكل هؤلاء الناس!

لقد شعرت بألم ساحق حين قالوا بأنه قد مات! مع أنني لا أعرفه، فأنا كنت الوحيد فيمن أقابل من الناس، الذي لم يقابله، ولم يصافحه، ولم يترك له - مع الأسف- الفرصة ليضيف حسنة أخرى إلى القائمة الطويلة التي تزدحم بحسناته. وأنا اعتقد أنه كان سيمسي سعيداً لو تهيأ له ذلك؛ لأنه ظل يصر على أن يبقى هو"المتفضل" أبداً.

إن ما كنت أسمعه عن هذا الرجل، لم يبدأ عندي في وقت قريب؛ كي أعتقد أن ما يقال عنه من محبيه، إنما يستحثه شعور العطف عليه، فهو -مثلاً- مريض يحتضر.

لم أسمع عن المرحوم وسيرته العطرة فقط يوم أمس، أو أمس الأول، لأقول: إن ما يتردد حوله من حكايات، وما يروى عنه من أقاصيص (تشبه الخيال!)، إنما تنهمر هكذا بفعل الموت، والناس قد اعتادوا أن يذكروا (غالباً!) محاسن موتاهم!.. وقد يبالغون فيها تحت تأثير انفعالات الحزن، وأمام موقف الشعور بالفقد، وكثير ما نسمع عن "الأموات" قصصاً لم يكن يذكرها أحد عنهم في حياتهم، فالبخيل يصبح بعد موته كريماً، والعاق يصير باراً بوالديه، والجلف الصلف يتحول إلى عطوف، رقيق المشاعر، متوهج الإحساس...

لقد سمعت الكثير عن هذا الإنسان الكبير منذ سنوات طويلة، ومن سوء حظي أنني لم أنزل قط بلداً هو فيه، ولم يتهيأ لي قط أن ألج داراً يسكنها، أو أغشى مجلساً هو يغشاه، أو أدلف إلى طريق كان يمشي فيها، فألقاه وجهاً لوجه، ينتصب هكذا أمامي بكامل هيبته، فأحكم له أو للناس. هؤلاء الناس الكثيرون الذين لا يملون ذكره، والذين تلهج ألسنتهم بمناقبه ومآثره التي لا تحصى!!

أنا حزين جداً لموته.. وحزين أكثر؛ لأنه قد ذهب، وأنني لن أقابله أبداً!

أبو سليمان، محمد الحمد الشبيلي، كتب عنه أصدقاؤه الشيء الكثير، كتبوا عما يتمتع به من صفات، وما ينعم به من مكارم، وما يرفل فيه من فضائل!.. ولن أردد هنا ما قالوه أو كتبوه، فتلك صحائف ذهبية سيحفظها تاريخه الرحب الممتد في قلوب محبيه.

أنا سأقف أمام نفسي مندهشاً وأسأل: وهل يبقى للإنسان في هذه الدنيا غير الذكر الحسن؟ كل شيء يذهب ويزول إلا الذكر الحسن، وكل شيء يتضاءل ويهون أمام الذكر الحسن، تلك عظة يقدمها أبو سليمان لأهل زماننا هذا من الأنانيين، والمتكبرين، والمتغطرسين، والغافلين، والمأخوذين بشؤون الحياة وبهارجها، ولتك عبرة يدفعها أبو سليمان نحو أولئك الذين تغرهم الدنيا، وبئس الغرور!

سأقف أمام "أبي سليمان"..ولا أبالي!.. سأتخيله حيّا! في كامل نشاطه ووهجه وكبريائه، وسأقول له، دفعة واحدة: لله در الأرض التي أنبتتك يا رجل!.. فيك تتمثل أخلاق الصحراء، وشموخ الجبل، وسخاء البحر، وأريحية الشمس التي من وظيفتها أن تبدد زوايا العتمة وتسحق الظلام.

إنني أثق في أن هذه الأرض التي أخرجت من طياتها "أبا سليمان" تضم بين جنباتها أكثر من "أبي سليمان" واحدا. فأخلاق الصحراء لا تتخاذل ولا تيأس، ولا تذبل أبداً. وسخاء البحر

لاينضب، أو يجفّ، أو يتراجع مطلقاً. أما أريحية الشمس، فلن تنفك تتدفق بلا توقف أو هوان، مهما كانت إغراءات الحياة الملتوية والعوجاء، ومهما تمادت – أي هذه الحياة – في زيفها، ومهما تداخلت أو تشابكت أو تقاطعت سياقاتها ووعودها اللاهثة.

وهنا أقف - مرة أخرى- أمام نفسي مندهشاً، وأسأل: ما علاقة جيلنا هذا بجيل "أبي سليمان"، وبالأجيال التي سبقته؟

إن ذلك الأمس الذي يملؤه الحب، ليس بعيداً كثيراً عن هذا اليوم الذي يملؤه الطموح. وقصة "أبي سليمان" قصة جيل كامل من أبناء هذه الصحراء النادرة الفذة. جيل لابد أن يمتد فينا، وفي الأجيال التي تلينا، من العرق إلى العرق!.. جيل لابد أن نوقظه في قلوب الأبناء، وأن نشعله في دمائهم، جيل لابد أن نجعله هاجساً للمستقبل في آفاقه الممتدة. ذلك المستقبل الذي نرجو ألا تكون تطلعاته عبئاً على الروحي، والصميمي، والأصيل، في تاريخه وحضارته، وفي تكوينه العقلي والنفسي!

قد لا نجد الوقت أحياناً للقراءة المتأنية في "خميرة" دمنا، هذا الدم المتوهج كالنار!.. وقد نتعجل في مراجعة أخلاقيات ترابنا، هذا التراب المنهال كأمواج النور. ولكننا حين نتريث، ثم نفكر بهدوء؛ سنجد أن رجلاً مثل "أبي سليمان"، هو عنوان واحد من بين العناوين البارزة المتعددة في جيله. فمثله كثيرون مشوا على هذا التراب نفسه، واستنشقوا هذا الهواء نفسه، وانعجنوا بتلك "الخميرة" ذاتها!

تاريخنا البعيد يقول ذلك، وتاريخنا القريب يؤكده، وحاضرنا يعيده ويكرره، مهما حاول الجيل الموجود اليوم أن ينغمس في ضجيج "العجلة" السريعة للحضارة الحديثة التي لن تتوقف عن الدوران، والتي لن تحاور حتى مجرد فكرة التخفيف من سرعتها!

أعتقد أنه لابد من الصمود، لابد من تعزيز الثقة في ميراثنا الجميل، مهما حاول إيقاع المدنية الجديدة أن يطرح أمامنا ما هو خلاف ذلك، فمخطئون أولئك الذين يظنون أن ذلك الإيقاع هو – بظروفه وشروطه الشرسة – لابد أن يكون نقيضاً للإنساني والأخلاقي والتواصل.

وإذا كانت المدنية الحديثة تطرح نفسها بهذا الشكل الكالح في مجتمعات أهملت الروحي والقيمي، وركزت على المادي والمنفعي، فإنها لابد أن تتراجع عندنا عن هذا القدر المزعج من الجرأة!.. فتقبل نحونا مخضلة بالروح، مجللة بالقيم والمثل التي آمنا وسنظل نؤمن بها.

لابد أن نعيد تركيب هذا المدنية الكاسحة التي تجيء على مزاجنا، ولابد أن نعيد صياغتها حتى تصبح على مقاسنا، فلا هي "أكبر" فتغرقنا، ولا هي "أصغر" فتقعد بنا، وسنجد – حتماً – إننا في يوم ما قد كسرنا "القاعدة"، حيث سنكتشف أن المدنية الجديدة ليست – دائماً – نقيضاً للقيم الأصيلة، وليست – دائماً – ضداً للأخلاق والمثل والمبادئ!

لقد تعودت هذه الصحراء منذ فجر تاريخها على أن ترخى جناحيها بحنان وزهو شديدين على تلك القيم والأخلاق والمثل والمبادئ، ثم تلقى بعينيها في البعيد ولا تبالي بأحد!

لقد تعودت أن تنام على الحب، وأن تصحو على التواد والتراحم؛ لهذا ظلت أرضه خصبة في إنتاج الرجال الأشداء الذين يتركون علاماتهم بارزة فوق الوجه الواضح من مرحلتهم. لهذا ولد على ترابه النادر الكثيرون من أمثال "أبي سليمان"، سعة في العين واليد والقلب.

إن أولئك الرجال ليسوا نباتات وحشية أو غريبة جاءت بالصدفة، فقفزت إلى السطح هكذا دون مقدمات، بل أنهم، على الأصح، نتاج مجتمع له عراقته، وله نقاؤه، وله ميراثه الأخلاقي الضخم، وله ملامحه الحضارية والثقافية الخاصة.

أقول: إن أولئك الرجال هم إفرازات تاريخ بعيد وقريب، تاريخ ممتد من الضوء إلى الضوء، تاريخ له شروطه، وله ظروفه، وله حمولاته التي تميزه عن كل ما سواه. وهنا أيضاً تصدق المقولة التي ترى أن "الأسد ما هو إلا مجموعة خراف مصهورة"، فأولئك الرجال - قياساً- ما هم إلا خلاصة واقعية للأجيال الرائدة التي حفظت الدين والأخلاق والقيم، وأقامت عليها، وغذتها، ورعتها، ولم تخنها أو تتخل عنها لحظة واحدة!

إنني أخاف تلك "الأدبيات" التي تترافق مع التحديات التي تطرحها المدنية المعاصرة في غير مجتمعاتنا، أخافها لأنها

– بالـضبط – تـضع "القـوة" والتقـدم نقيـضاً للتـشبث بالماضـي والقـديم، وتجعـل المثـل والقـيم ضـداً للواقعيـة وطبيعـة التـسابق والـصراع، وضـداً للانطـلاق، وسـرعة الإنجـاز، وضـرورة التجـاوز، وإيجاد البديل.

البـديل قـد يـصلح فـي السياسي مثلاً، لكنـه لا يـصلح أبـداً فـي الروحي والقيمي. فربما كان من السهل العثور على بـديل لعبـدالملك بن مـروان، مثلاً، أو المعتـصم أو محمـد علـي، ولكنـه مـن المـستحيل أن نعطي بديلاً للراسخ في روح الأمـة من عقيـدة ومثـل، أي الراسـخ في هويتها الخاصة التي تتفرد بها عن كل ما سواها.

وفـي المجتمعـات التـي أكلتهـا المدنيـة الحديثـة؛ لأنهـا أهملـت قيمها ومثلها وأخلاقها الخاصة، لو بحثت عن شبيه لـ "أبي سليمان" وجيله؛ لاكتشفت أن الفشل سيكون حليفك. ولـو رويت لأهلهـا بعض ما يفعله "أبو سـليمان" وجيلـه، لـضحكوا كثيـراً منـك، ولعـدوا أن مـا يفعله هؤلاء مـن مكـارم ونبـل، إنمـا يـدخل فـي بـاب الحماقـة والغبـاء، وتبديـد الوقـت والجهـد والثـروات. همـا ثقافتـان مختلفتـان، وهمـا حـضارتان متباعـدتان فـي الـشروط ، والظـروف، والمكونـات، والمرجعيات، والمواد الأولية.

نحن نريد أن يستمر في أجيالنا ذلك "النقاء" الـذي يتـشح بـه جيـل "أبـي سـليمان". بالـضبط لأن ثقافتنـا مختلفـة، وبالـضبط لأن حضارتنا أيضاً مختلفة، أما المنافسة في الوجه المادي من الحضارة، فقد تسنح لنا الفرصة مرة أخرى، من يـدري؟ لنكرر للتـاريخ وللعـالم

"الـدرس" الـذي سـبق أن ألقينـاه علـى المـلأ بـصوت مرتفع أيـام عـز الحضارة العربية الإسلامية، وهو أن المدنيـة ليست بالـضرورة نقيـضاً للقيم، وأن الحضارة من مقوماتها – عندنا – المثل والمبادئ.

يا أيها الكتاب والأدبـاء، كـرروا علـى أسـماعنا قـصة جيـل "أبـي سـليمان"، كـرروهـا قبـل أن نفتح أعيننـا فـي يـوم مـا، فنجـد أن أمـسنا المليء بالحب يختلف كثيراً في قلبه وضميره عن غدنا المتوهج بالطموح!!

أعطونـا دروسـاً ضـافية فـي الحـب.. لا شـيء غيـر الحـب.. فهـو الحاضن لكل القيم الجميلة.. السمحة!

محمد الحميدي:
هكذا عرفناه!

أبو خالد، محمد الحميدي. قابلته لأول مرة في باريس. كنت يومها طالباً في جامعة السوربون، ومديراً لمكتب صحيفة "الرياض" في العاصمة الفرنسية، وكان هو رجل أعمال، وعضو مجلس إدارة في مؤسسة اليمامة الصحفية. عرفت معه، وعن طريقه، في ذات اليوم، محمد الفريح وإبراهيم الطوق وعمران العمران.

محمد الحميدي، قابلته لآخر مرة في المستشفى التخصصي بالرياض، قبل وفاته بأيام، كنا جميعاً حوله، نروح ونجيء: أولاده، وأحفاده، وأصدقاؤه الكثيرون، وخصوصاً محمد الفريح، وإبراهيم الطوق، وعمران العمران، الفريق ذاته الذي التأم في باريس قبل سنوات.

عندما قابلته لأول مرة في باريس، هُيِّأ لي أنني أعرفه منذ سنين طويلة، وعندما تركته آخر مرة في المستشفى بالرياض، لم أكن أحس بأن هذا الرجل يمكن أن يغادرنا، أو يتركنا هكذا نهباً لأحزاننا.

الملك لله..! جاءني صوت د. خليل كردي، ثم خالد بن صالح الشثري من بعده، ثم عبدالرحمن بن محمد السدحان، وأنا في باريس هذه المرة أيضاً، يقولون جميعاً: عظم الله أجرك، لقد رحل أبو خالد..! لقد مات!! سبحانك اللهم.. لا راد لقضائك، إني آمنت بك. ولو كان إدراك الحياة يتم بالذكاء، والنشاط ، والإنتاج، ومقدار الفرح؛ لما غادر أبو خالد هذه الدنيا أبداً. ولو كان طول العمر يتحقق بما للمرء في قلوب عارفيه من الحب والاحترام، لظل أبو خالد من أطول خلق الله عمراً!

كثيرون يعرفون عن محمد الحميدي أنه رجل أعمال، وأنه من أبرز المسهمين في دعم الكفاءة الاقتصادية لعدد كبير من المؤسسات والمنشآت، وأنه من المؤسسين الأوائل للغرفة التجارية بالرياض، ولغيرها من المشروعات والفعاليات المثمرة، لكنني لا أظن إلا أنهم قليلون أولئك الذين يعرفون عن محمد الحميدي أنه من أبرز رجال الأعمال إيماناً بالمعرفة، وبالعلم، وبالمسؤولية المجتمعية للمثقف ولمنابر الرأي.

وبعد أن تشرفت برئاسة تحرير "اليمامة"، زاملته في مجلس الإدارة لحوالي عشر سنوات، ورافقته خارج المؤسسة لأكثر من ذلك، وفي كل يوم جديد أزداد به تعلقاً وإعجاباً. فمواقف الحميدي الصلبة الواثقة، وتصرفاته المفعمة بالخبرة والذكاء، لا تتم لتحسين الصورة، أو لتلميع الذات، أو لاكتساب مزيد من المؤيدين والمعجبين؛ بل هي تأتي تعبيراً صادقاً عما يؤمن به، وهو مستعد لحماية ما يؤمن به، مهما سبب له ذلك من متاعب، أو خسائر، أو حتى خلاف مع من يعز ويحترم.

لقد اختلف الحميدي معنا جميعاً، واتفق معنا جميعاً، ولكن هاجسه كان دائماً الاحترام لكل من يختلف معه أو يتفق. ولعل من أبرز اختلافاته ما بلغ أحياناً حد القطيعة معه من قِبل بعض المساهمين في مؤسسة اليمامة الصحفية، وما من سبب لذلك سوى أنهم كانوا يعارضون توجهاته المنحازة إلى رسالة المؤسسة الإسلامية والثقافية في المجتمع، فهو بالتالي وبالضرورة منحاز إلى التحرير والمحررين، ومنحاز إلى التطوير والأخذ بأسباب التجديد؛ لتحقيق مزيد من التأثير وبلوغ الأهداف الأساسية للصحافة في البلاد. كانوا - على عكس تصوره- يرون فيه "مخرباً!"، وكان يرى فيهم - من جهته هو- أنهم في غير موقعهم الصحيح. هو يرى أن مسؤولية المؤسسة الصحفية مسؤولية ثقافية واجتماعية قبل كل شيء، وهم يرون أنها "استثمار" وعوائد ربحية أولاً. بعض هؤلاء - دليلاً على عدم الإدراك لرسالة المؤسسة الصحفية- كان لا يعرف أين مقر المؤسسة من الأرض، يكتفي بانتظار شيك والأرباح في نهاية العام المالي، وهو في مكانه النائي عن الإعلام والثقافة، وبعضهم كان يكتفي بحضور الجمعية العمومية لمناقشة الميزانية، والاعتراض على أوجه الصرف، حتى لو كان ذلك من أجل التطوير وملاحقة الجديد اللازم للمنافسة إعلامياً وثقافياً. أما الحميدي، فكان دائماً جزءاً أساسياً من المشروع ذاته، في اللجان، ومجلس الإدارة، وفي علاقاته برؤساء التحرير والمحررين، حتى وهو أحياناً خارج الترويكة الإدارية، يسأل إذا لزم الأمر ويناقش ويتدخل.

الحميدي ظل دائماً موجوداً.. إلى آخر حركة تطويرية مرت بها مؤسسة اليمامة الصحفية، وعند إنشاء المبنى الضخم الذي ضم

في أحد أحياء الرياض الجديدة، الصحف الثلاث: الرياض، واليمامة، والريـاض ديلـي (قبـل إغلاقهـا)؛ فقـد شـكّل مجلـس الإدارة يومـذاك لجنـة مـن: المرحـوم الأسـتاذ فهـد العريفـي، مـدير عـام المؤسـسة، والأسـتاذ تركـي السـديري، رئيس تحريـر صـحيفة الريـاض، ومحمـد الحميدي، وكاتب هذه السطور، للإشراف على إنجاز المبنى الضخم، وتأثيثه بكل متطلبات العمل الصحفي، وللحق، فإن الحميـدي أنجز عنا -ثلاثتنا- المهمات الأصعب، فهو الأعلم بالمقاولين، والمصممين، والاستـشاريين، ومـواد البنـاء، والأبـواب، والأخـشاب، والحديـد، وحسن التنفيذ وجودته، وقد كان -رحمه الله- يبذل لتلك المهمات من الجهد والوقت ما لا يبذله لشركاته التي يملكها، أو يملك بعض حصصها، فأنا أعرف أنه في ذلك الوقت، كان قد تقاعد من أعماله ومـشروعاته الخاصـة، وقـد سـلم الأمـور لأولاده: خالـد، وسـمير، وهيثم، وكلما دخلت إلى مبنى المؤسسة، الذي يعد اليوم من مفاخر العاصمة، رأيت الحميدي في كل ركن من أركانه.

قدَّم الحميـدي للمؤسـسة تجربتـه وخبرتـه، وأعطاهـا مـن عمـره ووقتـه الـشيء الكثيـر، فقـد كـان ممـا يـسعد الحميـدي أن يتنـازل عـن بعض ما يملك في المؤسسة من "أسهم" وخصص ليدعم فعلياً فكرة دخـول المحـررين أعـضاء مـالكين فـي المؤسـسة، وبفـضله وفـضل المرحوم الـشيخ محمـد بـن صـالح بـن سـلطان، والرجـال المخلـصين الـذين كـانوا حولهمـا؛ كانـت مؤسـسة اليمامـة الـصحفية أول مؤسـسة صحفية في المملكة تضم محرريها ليكونوا أعضاء مالكين فيها.

وبعد أن عملت في "اليمامة" بعدة شهور، عرفت من الزملاء فـي المؤسـسة أن الحميـدي كـان واحـداً مـن أبـرز الـذين وقفـوا فـي

مواجهة مشروع غريب تبناه بعض أعضاء المؤسسة، وكان يدعو إلى إقفال مجلة اليمامة، بحجة أنها في ذلك الوقت لا تحقق أرباحاً. فهي بهذا - في نظرهم- تشكل عبئاً على المؤسسة!!.. وكأني بالحميدي يقول: كيف يجرؤ أحد على إلغاء جزء مهم من تاريخ المنطقة؟! بل تاريخ المملكة كلها، وإذ كانت صحيفة "الرياض" تحقق - ولله الحمد- أرباحاً مشرفة، فلا بأس أن يقتطع من تلك الأرباح للإبقاء على نقاء المسؤولية الاجتماعية والثقافية للمؤسسة، وليكن من نقاء هذه المسؤولية صيانة وحماية أول صحيفة عرفتها منطقة نجد كلها، فضلاً عما ظلت تؤديه "اليمامة" من رسالة اجتماعية وثقافية رائدة، منذ حمد الجاسر -رحمه الله - وإلى اليوم.

ولأن الناس قد اعتادوا على أن من يقترب من الإعلام من غير أهله، فإنه عموماً لا يفعل ذلك لوجه الله وحده، أو للمصلحة العامة فقط. فلا بد أن نقول لهم: إن الحميدي كان دائماً على خلاف ما اعتادوا عليه؛ لأننا نستطيع أن نلاحظ بكل بساطة أن صحف المؤسسة لم تكن في أي يوم مرتعاً للحميدي، أو لتصريحاته، أو لأخبار مؤسساته وشركاته، أو حتى لأخباره الشخصية وأخبار عائلته. ولا أذكر خلال عملي لسنوات طويلة بالمؤسسة، أو قبل ذلك، أو بعده، أنني قرأت شيئاً له أو عنه في صحف المؤسسة، ولا أذكر في أي مناسبة من مناسبات المؤسسة الكثيرة، أنه جاء يوماً في رأس القائمة، أو حتى في ذيلها، خطيباً أو متحدثاً، أو مستأثراً بالكاميرات والفلاشات والأضواء.

أبو خالد مؤمن بالعلم، ومحب للثقافة، ويتمتع بشعور عميق بالمسؤولية الوطنية، وبالمصلحة العامة. والمقربون منه يعرفون أنهم

يجدون عنده كل مرادهم من آخر منتجات الثقافة والعلم، وهو لا يقتنيها للتشوف أو "المنظرة" أو المباهاة، بل يفعل ذلك للتزود، وللقراءة، والتأمل، والمناقشة. وأجزم بأنه يقرأ من عيون الثقافة والفكر ما لا يفعله حتى الكثيرين من بين المثقفين أنفسهم. وكان بإمكان الحميدي أن يقيم "صالونه" الثقافي، وأن يجمع حوله المريدين، وأن تتصدر أخباره وصوره الصحف والمطبوعات المختلفة في المملكة، ولكن كل ذلك لم يكن يعنيه في شيء. هو رجل أعمال أولاً، ولا يهمه، كما قد يفعل غيره، أن يجمع كل الصفات، وكل المميزات حقاً وباطلاً.

هذا هو الحميدي الذي عرفناه، هذا هو الحميدي الذي لم يتطلع، أو لم يسع إلى أن يعرفه أكثر من أصدقائه ومحبيه وأهله.

محمد الفهد العيسى وإبراهيم العواجي:
الشاعر الجسر!.. والشاعر المستقر

الشعراء الحديثون يرون أن القصيدة عالم معقَّد من الرؤى والإيحاء!.. وهي بطبيعتها، كبنية لغوية، تقدم حمولات إبداعية لامتناهية، تقتضي عدداً من القراءات، أو عدداً من أوجه الفهم، أو عدداً من ذرائع التأويل والكشف عن مكنونات "النص" وتجلياته.

وهم يرون أن حتى توزيع كلمات القصيدة الحديثة على الورق، لا يأتي أبداً إجراء عفوياً أو تلقائياً، بحيث يمكن لأي أحد أن يتدخل في ذلك التوزيع، أو يعيد إنتاجه، أو تركيبه، أو بناءه. إنهم بالأحرى يؤمنون بأن القصيدة إلى جانب كونها بنية لغوية مكثفة، متدفقة، فهي أيضاً "جسد" له ملامح، وله سحنة، وله هيئة على الورق، أو على الألواح، أو على الجدران يُقابل بها الناس المتلقين. وما ذلك الجسد إلاّ طريقة توزيع كلمات القصيدة وفق خريطة يحدد مساحاتها، وفراغاتها، وخطوطها، الشاعر نفسه، فهو وحده الذي يملك الحق، كامل الحق، في ذلك، بالقدر نفسه من الأهلية والشرعية والسيادة التي أنشأ بها القصيدة نفسها أول مرة. وما دام الأمر كذلك بالنسبة إلى مسؤولية خلق "جسد" القصيدة، فلابد أن يكون

لذلك الجسد حمولاته الخاصة من الرؤى، والإيحاء، والمعنى، ومعنى المعنى!

وربما ذهبت القصيدة الحديثة إلى آماد قصية في اكتشاف مناطق أبعد، كان ينام فيها الشعر، أو يستريح شيء منه، وقد آن الأوان لإيقاظه واستفزازه.

محمد الفهد العيسى خرج إلى الناس في الستينيات، وهم مازالوا يغرقون إلى آذانهم في معمعة الشعر، وشعر الشعر. فهناك قضايا كثيرة لم تكن قد حُسمت بعد، ومنها على الأخص قضية القصيدة الحديثة في تجاربها الأولى، في العراق، ومصر، ولبنان بالذات. ولقد كان العيسى، هو الأكثر جسارة بين أقرانه من الشعراء السعوديين، من جيله، ومن الجيل الذي سبقه، إذ لم يتردد في نقل تجربته الشعرية إلى العوالم الحديثة الاكتشاف، المليئة بالغامض والمجهول، والمحفوفة بالأسلاك الشائكة والألغام. فالتجارب التي سبقته في المملكة على يد العواد بالذات، لم تكن قد أقصت تلك الأسلاك الشائكة كلها، ولم تكن قد أبطلت مفعول تلك الألغام بعد.

كتب محمد الفهد العيسى القصيدة الحديثة بثراء غزير وثقة. وكان يضع قدماً على أرض التقليديين، بينما يغرس القدم الأخرى بعناد في ساحة الحديثين المجددين. وأحسبه ظل كذلك إلى هذا اليوم، فهو لم يُغالِ في تجربته، ولم يفتئت، ولم يتعسف، وهذا من حسن حظنا وحظه، وحظ الشعر؛ لأن ما فعله، هو الذي ما فتيء يكسب مشروعه الشعري الوجاهة عند كل الناس. فقد ظل محتفظاً بتوازنه، وأهم من ذلك لم يغرق، كما حدث لغيره، في تجارب لم تخل من بعض المبالغات، أو بعض التزيد، الذي كان من نتائجه الوخيمة

مـصادرة المتلقـي أحيانـاً، أو نفـي الـشعر نفـسه أحيانـاً أخـرى. والمقصود بنفي الشعر إبعاده عن مناطق عبور الناس، وإقصاؤه عن جغرافية تفكيرهم بمختلف تضاريسها ومناخاتها المتنوعة.

ومن أبرز الشعراء السعوديين الذي اشتركوا - فيما بعد- مع محمد الفهد العيسى في الانطلاق من هذه الاستراتيجية الشعريـة – إن صـح التعبيـر- الـشاعر الـدكتور غـازي القـصيبي، والـشاعر الـدكتور إبـراهيم العـواجي، ومـن الجيـل الـذي جـاء بعـدهم: الـشاعر أحمـد الـصالح "مـسافر"، وحمـد العـسعوس، وصـالح الـصالح، وغيرهم.

وهكـذا فـإن تـاريخ الـشعر المعاصـر فـي المملكـة العربيـة السعودية؛ لابـد أن يحفظ لمحمـد الفهـد العيسى مكانـه المتقـدم في التجربـة الـسعودية الحديثـة فـي الـشعر. وأهـل الأدب والمعنيـون بالحركـة الـشعرية عنـدنا، مـازالوا يعدونـه فـي المحافـل والمنتـديات واللقاءات، الجسر المتين الذي عبرت من خلاله الحركة الشعرية في المملكة، من التقليد إلى التجديد. أو هو - في أداء آخر- الجسر الـذي وصـل بـين نهـرين مـا برحـا متـوازيين: نهـر القـديم، ونهـر الحديث، أو ما يسمى أحياناً بأدب الشيوخ وأدب الشباب، وإن كان لم يعد لهذه التسمية أي معنى في أيامنا هذه.

*****

محمـد الفهـد العيسى، على الرغم من كونـه واحـداً من الـذين اسـتدرجتهم حركـة التجديـد، أو هـو بـالأحرى واحـداً مـن الـذين أغرتهم، واستهوتهم التجربة الحديثة في بداياتها؛ فلم يتخلّ أبداً عن رومانسيته الجميلة، وهو الذي يدرك عمق الحساسية الشديدة بين

القـصيدة الحديثـة فـي شـروطها الـصارمة، والرومانـسية فـي رؤاهـا وأحلامهـا وأطيافهـا "الهـشة"!!"، كمـا يـرى ذلـك شـعراء الموجـة الجديدة، أو بتعبير آخر غلاة الحداثيين!!

من حسن حظ محمد الفهد العيسى وحظنا، وحظ الشعر، أن الرومانسية العذبة التي ليست مرفوضة في كل حين، مازالت باقية في كل ما ينظم هذا الشاعر من شعر، وربما إلى آخر رمق. وحنين الناس إلى الرومانسية، في ظل تدفق شعر الأحاجي والألغاز؛ لا يختلف كثيراً عن حنينهم إلى الكلثوميات، وموسيقى عبدالوهاب، وفريد، وعبدالحليم، في عهد أغاني "أمريكا شيكا بيكا"، وما شابهها من صراعات تجلب الحساسية و"الحكة" والسعال!

يقول محمد الفهد:

(يا أنا).. بالحب ألهني.

أملأ براح الحب كأسي واسقني

واعزف على أوتار قلبي باسمها

في موكب الذكرى (عتاباً) غنني

فلعلني أجد السلوى بذكرها

بعد النوى –يا صاحبي- أو علني!

يضرب الشاعر بطون رواحله قاطعاً المسافة الشاسعة من عصرنا هذا إلى عصر المجنون، وجميل بثينة، وكثير عزة، وعبدالله بن قيس الرقيات، فهذه هي عذابات شعراء عذره، وشعراء الحجاز، وهذه هي صباباتهم وأوجاعهم. لكن الشاعر من زاوية أخرى لم يغادر زمنه، ولم يبرح سماواته وأطيافه، منذ أن نادى بصوت جسور

مرتفع: (يا أنا)، فهذه اللغة من لغة الرومانسيين الجدد، وهي أداء موح جداً من أداءاتهم. وتتردد كلمات (العتابا، والنايات، والعزف، وأهيجن، والأوتار) في الكثير من أشعار محمد الفهد، وكثيراً ما يلجأ إليها الشاعر لتجير حدة الآمه وعذاباته. فلسان حاله دائماً يقول: "أضاعوني على الدرب.. في مهب الريح.. في أيام بؤس". ويحكي لنا بعض تجاربه على هذا النحو:

"ذات مرة"

حفرت عيني على الصخر..

(أحب)

وغزلت الحرف من أحداق عينيَّ قصيدة

رجعتها كل (نايات) الصبا

ونجوم الليل والراعي

وغيمات على الأفق شريدة

ثم ضاعت!"

وهو يخاطب حمامتين زاجلتين هكذا:

"رفرفا.. وعودا فإني بالمتاه المفاز واهن العظم .. ليس يرقى إلى دوائي الراقي".

"الشاطئ" دائماً "قدّام الشاعر"، ولكنه غالباً، وغالباً، وغالباً لا يصله. وكل قصائد محمد الفهد جميلة وغنية بالأطياف والأحلام والألوان، كلها مليئة بالرؤى والإيحاء، وكلها ذات لغة عذبة غنية.

وكما أننا في حاجة إلى شعر تخصب حوله القراءات، ويحملنا

إلى المجهول، ويقترح لنا صيغاً أخرى للحياة وللعلاقات بين الأشياء، فإننا في الوقت ذاته في حاجة إلى شعر يبتلّ بماء الرومانسية العذب، ويجعلنا "نحلم"، ونغني ونحب، وهذا هو ما يفعله محمد الفهد العيسى في شعره كله.

*****

لا شغل لشعراء الرومانسية غير الإلحاح الدائم المستمر على ضرورة أن يظل القلب فضاء رحباً مفعماً بالحب. ولم يجد هؤلاء قط من ينكر عليهم ذلك؛ لأنه لا أحد يستطيع أن "يقاوم" هذه الحياة بدون حب.

الحياة مفاجأة، وهي تداهمنا منذ أن نفتح عيوننا للهواء والشمس، عند الميلاد، وما بأيدينا إلاّ أن نستسلم، أما حين يكبر سؤالها في الذهن والوجدان، أو حين تستدرجنا إلى لعبتها الغامضة، البالغة التعقيد، فليس هناك من منقذ إلا الحب، فالحب هو الحل.

الرومانسيون هم الذين أوجدوا لنا –مشكورين- هذا الحل، ولا بأس أن يخلطوا لنا "عجينة" الحب الذي اخترعوه، مرة بالدموع، ومرة أخرى بالنار والموت. إنهم يرون أن لا حب إلا حب الصبابة، وإلاّ حب الحرمان، وإلاّ الحب الذي يشرب فيه العاشق مذلته حتى الثمالة!

والرومانسيون تحت وهج "العقل" والمنطق اليومي لتحديات الراهن والماثل؛ هم أنصاف مجانين، أو أنصاف "معقدين"، ينطوون على أنفسهم بعيداً عن الحياة الناشطة، يغلبون الإحساس الغامض على الإحساس المتداول، يلتجئون إلى الحلم، وينزعون إلى الرحيل،

عبر المكان، وعبر الزمان. لهم موقفهم من الحكمة، ولهم شذوذاتهم التي تبلغ أحياناً مستوى شذوذات "مدام بوفاري" لوجستاف فلوبير.

أحس أحياناً، وتحت سياط واقع الحياة المر، بأننا في حاجة إلى جنون الرومانسيين وإلى "عقدهم".

وأحس أيضاً بأن عذاباتهم، هي العذابات الصاهرة التي تفضي إلى النقاء، وأن حبهم، في النتيجة، هو الحب.

الحب لا يجب أن يكون حلواً كله، ولا يجب أن يكون شهياً بهياً كله.

الحب لا يجب أن يكون سهلاً كالماء!.. ولا يجب أن يكون طيعاً كالهواء!

الحب ملحمة طويلة ومعقدة تستغرق العمر كله، فيها الألم، وفيها الحلم، وفيها القلق المحتدم المشبوب الذي لا يفضله إلا الموت!

الحب هو حياة بين موتين: موت الحياة، وموت الموت.

لا شيء أروع من عمر مساحته

دفء العيون التي أودعتها أجلى

فهكذا يعلن أحد شعرائنا الرومانسيين (د. إبراهيم العواجي) عن حالته، وعن أجله، وعن موته!

وإبراهيم العواجي، هو أحد الرومانسيين الذين جاؤوا بعد محمد حسن العواد، وأحمد قنديل، وحسين عرب، ومحمد الفهد

العيسى، وغيرهم من الجيل الأول. وهو مثل أقرانه المتأخرين امتداد لهؤلاء، وامتداد للرومانسيين العرب الكبار من أمثال المازني، وعلي محمود طه وغيرهما. وكلهم أخذوا على عاتقهم أن ينشروا الحب مهما كانت لوعاته، أو لواعجه. يقول د. العواجي إذاً:

"وأنا وأنت شريحة ورثت حقوق الطبع في سفر الهوى منذ الرضاع.

وسنحمل المصباح للجيل الذي يوماً سيأتي.

وسنزرع الحب البريء برحم أزمان ستأتي.

حتى يصير الحب، كل الحب، في الدنيا مشاع".

والحق أن من عيوب حب د. إبراهيم، كما في ديوانه "مد والشاطئ أنت"، أنه من النوع المريح، السهل، الطيع، على الرغم مما يبدو في بعض القصائد من تودد ملحوظ إلى المحبوبة، وهو تودد قد يصل أحياناً إلى مستوى "الرشوة"، كما يظهر هنا:

ليس بدراً ما تنظرين إليه

إنه وجهك الجميل الصبوح

إلى أن يقول:

والمرايا أمام وجهك ظنت

أن بدراً من الأعالي يلـــوح

والحب المريح السهل ليس مشكلتنا نحن، بل هو مشكلة د. العواجي وحده. فالذي يهمنا في النهاية، هو هذا البوح الرقيق الجميل، الذي يمتح من عمق الشعر وعمق الفن، حتى وإن جاء في

شكل "رشوة" أنيقة تتكرر أكثر من مرة في بعض قصائد الديوان، ومن ذلك:

ليس أحلى من الكتابة فيك

غير تقبيل ناظري ناظريـــك

والمعاني بخاطري تتداعي

في قصيدي إذا ارتقين إليك

هذه مفاجأة جميلة (وقد سميتها رشوة من باب المداعبة)، يكتبها شاعر موهوب، ومطبوع، يجعل من المعنى المتداول معنى بكراً، كأنه يرى النور للمرة الأولى، وكأنه يُقال للمحبوبة للمرة الأولى أيضاً.

*****

إنه سؤال –لاشك- مربك، وهو يفر من بين الأصابع، كما يفر الماء أو الهواء. وقد قلت أعلاه: إننا في حاجة إلى شعر يقترح لنا صيغاً جديدة للحياة، وللعلاقات بين الأشياء، ومعها. كما أننا في حاجة إلى شعر يدعونا إلى الحب والحلم، ولكن يبدو أن هذه الأمنية لم تنج تماماً من أحبولة مثالية جعلتنا نعيد النظر من جديد في المواقف من سؤال الشعر، أو مأزقه، وهو مأزق لم يجد الشعر بعد من حيلة للخروج منه.

فالشعر على ما يبدو، وبكل أسف، غادر منذ زمن طويل الحياة العامة في عالمنا المعاصر، فهو هناك، بعيد، متسام عن إفهام الناس، وعن مداركهم المكبلة بارتفاع الأسعار، وشحّ الموارد،

والمجاعة، والأمراض، أو المنهكة بآلاعيب وسائل الاتصال الحديثة، وتبدلها، ومفاجآتها، وفواجعها التي لا تنضب أبداً.

وإذا كان الرومانسيون المتأخرون قد أبقوا على بعض الخيوط التي تربطهم بالناس، فما من شك في أن شعراء الحداثة العربية، قد نسفوا تماماً كل الجسور التي تجعلهم على مقربة من متناول الجمهور، فينشأ الحوار، ليأخذ الشاعر مكانه الصحيح في العقل والوجدان، وليضطلع برسالته الأهم، وهي اكتشاف المستقبل واستشرافه، ورسم بعض ملامحه، أو كل ملامحه.

ربما أن السبب يعود إلى لغة الرومانسيين نفسها، وربما أنه يعود إلى سبب آخر أهم، وهو عدم تمادي هؤلاء في اختراع علاقات معقدة بين الأشياء ومعها. ففي الرومانسيين بدائيات الراعي، وفيهم بساطة الفلاسفة اليوميين، وفيهم ميزة الاحتماء بالأحلام غير المركبة، الأحلام التلقائية التي تخترق صدور جميع أطفال العالم، ما بين سن السابعة وسن السبعين"!!".

شعراء الحداثة العربية يدركون تمام الإدراك أنهم قد أضحوا ينطلقون من لغة غير اللغة التي تستقر في وجدان الجمهور، وهذا هو أحد وجوه المأزق الكبير الذي يغرق فيه الشعر اليوم. وهؤلاء الشعراء لا ترهقهم هذه المسألة كثيراً؛ لأن ما نراه نحن مثلاً مأزقاً، لا يرونه هم أبداً كذلك. فنحن إذا انطلقنا في رؤية كهذه من سياق تاريخي معين عند العرب، فهم ينطلقون -من جهتهم- من تصور مختلف تماماً لموقع الشاعر المتجاذب، على طول المدى بين النخبوية والجماهيرية. فلم يعد من المهم بالنسبة إلى هؤلاء أن يتداولهم الناس، كما يتداولون التبغ أو المشروبات الغازية، وإنما

المهم هو موقعهم المبتغي في فضاء الإبداع، وموقعهم من آليات اختراع العلاقات الجديدة في داخل اللغة نفسها، أو في خارجها في هذا العالم البالغ التعقيد والغموض، الفاضح في تبذله وبؤسه وتعاسته.

والحق أن وضع الشعر كله وضع لم يعد اليوم مطمئناً أبداً، ليس عند العرب وحدهم، ولكن حتى عند غيرهم من الأمم التي عُرفت بالشعر: تعلقاً، وإنتاجاً. وبالصدفة فقد اطلعت مؤخراً على رأي لريجيس دوبريه في مسألة الشعر، أو مأزقه، يقول فيه: "الشعر غادر منذ زمن طويل مجال الحياة العامة. فِكْر الناس حالياً خال خلواً تاماً من الشعر الذي أمسى مسألة نخبوية تماماً، بل نخبوية بشكل متطرف، لا يهتم بها إلاّ القلّة القليلة من النخبة المثقفة. الأغاني القديمة أخذت بعض الشيء من شعبية الشعر، ومن مساحته العامة في فرنسا؛ لأنها اعتمدت على الشعر أيضاً ككلام لها، مثل أغاني جاك بريل، وأغاني ليوفيريه. وأظن أن الشعر أصبح ثقافياً جداً في فرنسا، وعميقاً جداً، ويخاطب النخبة الثقافية فقط . فلم يعد يمس الناس، بل أصبح شعراً عالياً جداً، وبشكل حلزوني إذا جاز لي التعبير، يتصاعد نحو قمة ثقافية نخبوية، ورمزية، من دون أن يكون داخله هرمونية غنائية أو موسيقية (...). لا توجد الآن شخصيات شعرية كبيرة، وشعراء كبار، أن آخر شاعر كبير في فرنسا كان أراغون، ووسائل الإعلام الحالية، هي النقيض الفعلي للشعر في مباشرتها وسطحيتها، بل هي التي ساعدت على تهميش الشعر (...). ولقد خلق لدى الناس عادة، وهي أنهم لا يسمعون الشعر، ولا يصغون إليه، وبذلك لم يعد مقدماً بشكل شفهي وعلني إلى الناس؛ بسبب من الانحطاط الذي شهدته الحياة".

إن هناك ما يشبه الإجماع على أن الشعر يعيش مأزقاً حالكاً من حيث علاقته بالحياة العامة، ليس عند العرب وحدهم، وإنما عند غيرهم كذلك. والسبب يعود إلى الشعراء أنفسهم حيناً، ويعود إلى ما تعرض له الشعر من "تهميش" أحياناً أخرى. وهذا الوضع إذا ما أخذ على وجهه الصحيح، أي من وجهة نظر الشعر نفسه، فهو ليس دائماً سلبياً، فقد يكون في تسامي الشعر بهذا الشكل الحلزوني هروب مقصود ومرتب من "الانحطاط الذي شهدته الحياة". نقول: قد يكون!.. والله أعلم.. ثم الشعراء أعلم.

محمد عبده يماني:

نسيت الافتتاحية.. باريِّس

نسي د. محمد عبده يماني أن يكتب قبل أن يرحل، افتتاحية العدد الأول من "الندوة" الجديدة*.

نسي أبو ياسر الموعد الذي سيقدم فيه للناس العدد الأول من الصحيفة، فقد رحل فجأة!

لم يسبق أن قال لنا بأنه كان يتجهز للرحيل.. فقد كان يناقش، ويفاصل، ويفاوض، ويعمل، ويتفاءل، ويحلم، وكأنه باقٍ بيننا إلى الأبد.

دار آخر لقاء لي به حول مناقشة عقد الشركة التي ستتولى طرح اكتتاب "الندوة" للمساهمين الجدد**، قال لي: الآن يمكن أن نعلن الـ Take off لصحيفة عصرية متوثبة لا تشبه أحداً، ثم يضيف: صحيفة تليق بمكة المكرمة، ثم وقِّع العقد يوم السبت ورحل يوم الاثنين!

---

* كان رئيساً لمجلس إدارة الصحيفة.

** هذا عندما كُلِّفتُ بـ "إعادة تأسيس صحيفة الندوة" الصادرة في مكة المكرمة.

منذ أن دعاني للقائه من أجل "الندوة"، وهو لا يفتأ يردد ما يليق بمكة، وما ينتظر الناس من الندوة الجديدة. مكة هي مركز الوحي، ومحور المقدس، وهي الصلة بين الأرض والسماء، وهي ثقافة وقيم وتجليات وأنوار لا تخبو. أما "الندوة" فهي أكثر من ستين عاماً من الرسوخ، ثم من التشبث بالبقاء. أجيال من مثقفي الحجاز خرجوا إلى الدنيا من رحم "الندوة". وإذا كتب تاريخ الثقافة السعودية، وتاريخ الإعلام السعودي، فلا يمكن القفز على موقع "الندوة" فيهما معاً. سيفرد للندوة في ذلك التاريخ مكان فسيح وواضح. أحمد السباعي، وآل جمال (صالح وأخوه أحمد)، وعبدالله عريف، والعواد، والساسي، وأحمد قنديل، ومحمد حسن فقي، وحامد مطاوع، وآخرون من المثقفين والمفكرين الذين أشعلوا مستقبل الأمة وملؤوه بالنور.

ثم يضيف يماني: إن ما يمكن أن تقوم به "الندوة" لمكة، هو "رسالة"، أما ما ستقدمه مكة للندوة، فهو الدعم الهائل الذي تقدمه دائماً هذه المدينة العظيمة لأي "منتج" يخرج منها. فأي حمولات وموارد ثقافية ستوفرها مكة لصحيفة الندوة؟!

ثم يرفع صوته: ألك إدراك بكل ذلك فهد؟ فأقول: وما المطلوب يا أبا ياسر؟ يجيب:

- أن نبني "منتجاً" جديداً يليق بالزمان وبالمكان، ومن ثم يضع يده على "مخازن" مكة، وهي وفيرة!

تذكرت حينها محمد عبده يماني يوم كان وزيراً للإعلام، عندما هاتفني (في أواخر عهده بالوزارة) ليبلغني باختياري رئيساً لتحرير مجلة اليمامة. لم يمض على عودتي إلى المملكة يومها سوى

ثلاثة شهور فقط، بعد أن أنهيت دراستي العليا خارج البلاد، كان الذي رشحني لهذه المهمة الأمير سلمان بن عبدالعزيز - أمدّ الله في عمره. وكان اليماني يتحدث عن "اليمامة" بمثل ما تحدث عن "الندوة":

المهمة التي أمامك يا فهد ليست مهمة سهلة، فـ "اليمامة" أول صحيفة تنشأ في وسط البلاد، وفي عاصمتها، وهي مثقلة بأسماء كبيرة من مثقفي المنطقة، ابتداء من مؤسسها العملاق حمد الجاسر، ومروراً بكل الكبار الذين عبروا إلى النور من خلالها، وخرجوا إلى الشمس من تحت عباءتها. اليمامة تاريخ طويل لتنمية ثقافية هائلة، واليمامة تنطلق إلى الناس بجناحين وارفين، هما: الرياض، وسلمان بن عبدالعزيز. اليمامة هي الإقليم والأمير، هي الصحراء والمستقبل، ولابد من "تجديد" غناء هذا الطائر الجميل، لابد من شحذه وصقله ليكون لائقاً ومتسامياً إلى حدود رؤية الأمير، وليكون منسجماً وملتحماً مع عبق المكان، وإيحاءاته، وطموحاته، وتطلعاته. ثم أضاف أبو ياسر رافعاً صوته ليحشد كل أحاسيسي لكلماته: هل تدرك ما أنت فيه يا فهد؟!

خفت يومها أن أخذل الأمير والوزير، كما هو تماماً خوفي اليوم ومحمد عبده يماني يحرضني على مغامرة جديدة في مكة، ولاسيما أن في المنتصف بين التجربتين. كانت تقف التجربة الشاهقة لصحيفة "الوطن". لقد كان من محركات تلك التجربة "إقليم" أيضاً هو عسير، و"أمير" كذلك هو خالد الفيصل. ومرة أخرى يكون للخوف سطوته الهائلة. فالفشل ممنوع في عسير خالد الفيصل، ولا سبيل طبعاً إلى خذلان الإقليم الذي أحبه وأحب أهله. قال لنا خالد

الفيصل منذ أول يوم تقابلنا فيه: أريد منتجاً لا يشبه إلاّ نفسه،أو "اقضبوا الباب".

قلت لمحمد عبده يماني: لعل من حسن حظ الندوة أن تجربة الوطن ما تزال طرية ويانعة!.. فسنتحاشى الأخطاء.. وقد كانت هناك أخطاء!.. أما التحدي - يا سيدي - فهو في أقصى مستوياته، فإن نقلنا تجربة "الوطن" حرْفياً، فكأننا لم نفعل شيئاً، وإن جاء المنجز بأقل من ذلك، فسيكون الحديث عن النجاح صعباً وشائكاً. فلابد للندوة إذاً من "صيغة" تقينا هذه المزالق الوعرة، أو تمكننا من المشي الحثيث فوق هذا اللوح من المسامير المدببة.

ضحك د. يماني، ثم قال: الآن يبدو أنك أدركت لماذا جئنا بك عدواً وضرباً لبطون الرواحل، من نجد إلى الحجاز.

كنا في عملنا مع المرحوم نتناقش ونتحاور، ونشد، ونرخي، ونرضى، ونغضب. وكنا ما نبرح ننتظر ذلك اليوم الذي يكتب فيه ابن مكة البار افتتاحية العدد الأول من الندوة الجديدة، لكنه فاجأنا - سامحه الله- ورحل قبل أن يفعل. ترك ظهورنا عارية للريح وللشمس وللصقيع! من سيلتقي عبدالله بن عبدالعزيز ليقول له بأن ما أراد للندوة - حفظه الله- قد حصل ولله الحمد. من سيقابل خالد الفيصل لاطلاعه على تطورات المشروع؟ ومن سيواصل الاتصالات بأمين العاصمة حول "تطبيق" الأرض الممنوحة للصحيفة في مكة؟ من سيختار لنا رئيس التحرير؟ ومن سيوقع عقود الشراكات مع الشركاء، ومذكرات التفاهم مع الداعمين والمؤمنين بأهدافنا؟! من الذي سيترأس الاجتماع الأول في مبنى الصحيفة الجديد على طريق مكة - جدة؟! ألم نتفق على أن المبنى الجديد

سيكون هناك على طريق مكة – جدة، وأنه سيضم المطبعة والمكاتب الجديدة للصحيفة؟!

لا.. لم نتوقع هذا منك يا أبا ياسر. الطريق التي مشيناها معاً، كان ينبغي أن نصل إلى نهايتها معاً أيضاً!!.. أستغفرك ربي، فهذه إرادتك وقضاؤك، ولا راد لهما، ونعم بالله!

أعود فأقول: يا أبا ياسر!.. الحصان الذي كنا نسرجه ونعدّه للعدو، كان ينبغي أن نطلقه سوياً، وأن نراقب توثبه سوياً أيضاً. إنه في حاجة إلى سماع هتافك وهو يركض، وهل هناك حصان يستطيع أن يعدو أو يشرئبّ دون هتاف فارسه، ودون استلهام رائحته وعطره وأنفاسه؟!

لا لم نتوقع هذا أبداً، فسفرك هذا كان مباغتة مذهلة. في غمضة عين، خفت ضوء السراج، جف تماماً زيته. وفي لمحة واحدة ختلتنا العتمة، ألقت ستائرها السوداء على كل مطالع النور، انقضّت علينا من كل اتجاه. أجل، لا أحد. ليس هناك أبداً من أحد، حتى الفضاء الذي كان يحيطنا خلا من الأوكسجين، واحتشد بالضيق والأتربة. حسبنا أننا نختنق، أغثنا يا مغيث، اللهم إن هذه إرادتك، وهذا قضاؤك، فلا راد لهما، ونعم بالله.

لا.. لم نتفق على هذا يا أبا ياسر!.. فأنت لم تخبرنا أبداً أي شيء عن سفرك المفاجئ هذا. تركتك في مكتبك يوم السبت، وغادرتَ فجر الاثنين!.. وَلْ .. بهذه السرعة يا رجل! طيب والافتتاحية. فين الافتتاحية؟ نريد على الأقل الافتتاحية؟!.. هل

أسأل ياسر أو عبدالله أو عبدالعزيز، أبناءك عنها؟ فقد تكون تركتها لنا فوق المكتب الأخضر، أو في درج السيارة؟ من يدري؟ سأسألهم "أنـا مـالي شـغل"، الافتتاحيـة يـا حبيبنـا لـن يكتبهـا إلا أنـت!.. تصرف!!

محمد عفيفي مطر وآخرون:

أيها المثقفون.. هل تريدون "الجنَّة"؟!

فكرة حية لها ظل ودفء، أن تقترب قليلاً- بل كثيراً إن أمكن- من المثقفين العرب المهاجرين، أو بتعبير أكثر صرامة، أولئك الذين فضلوا العيش خارج الوطن.

والزمان الآن، هو الصيف بكل موحياته العذبة، والمكان هذه المرة، هو "أصيلة" الخارقة الذكاء، فالبحر (غير الهادر) كان بالضبط –أمامنا، والعرب المقيمون (الهادرون دائماً)، كانوا جميعهم خلفنا.

الحلقة الأولى من هذا المؤتمر (الظل والدفء)، كانت في باريس، وهذا هو أدونيس، بكامل حجمه، يقف خلفه هناك وهنا، وهذا هو المفكر الكبير الدكتور محمد أركون، بكامل هيبته، يرأسه هناك وهنا أيضاً.

إن المشاركة في مثل هذا المؤتمر فرصة فكرية وثقافية شاردة، فاقبض عليها بكلتا يديك، فهؤلاء أكاديميون ومبدعون من طراز ممتاز، وإضافة إلى إمكاناتهم الثقافية المعتبرة، فهم يفيدون من تجربة خاصة جداً، وهي "الهجرة" بكل صفائها ونقائها ووضوحها،

وبكل معاناتها وضغوطها وشروطها المرتبكة، وأنت ستشعر بالحجم الحقيقي للمغامرة نفسها منذ أن تتساءل: لماذا الهجرة؟ ومهما تعددت الظروف، ومهما اختلفت المسوغات، إلا أنك ستوافق على أن هناك أزمة ما، أزمة في المثقف نفسه، أو هي أزمة في محيطه بكل تحدياته وتناقضاته. والهجرة في حد ذاتها ظاهرة تاريخية قديمة، وهي ليست موقوفة على العرب، لكن الذي يدعو إلى مزيد من القلق، هو السؤال الذي يلي ذلك السؤال السابق مباشرة: كيف ينظر هؤلاء إلينا من بعيد؟ نحن نقول بأنهم قد أفلتوا أو "هربوا" منا؛ لأننا لا نليق بهم، أو لأنهم لا يليقون بنا؛ لأننا ضقنا بهم، أو لأنهم ضاقوا بنا. وهذه الفرضيات وأمثالها واردة جداً، لاسيما في ذهنيات الذين (منهم) تصادفوا مع أوضاع شبه مستقرة في الغربة، ابتداء من الزواج والبيت والأطفال، وانتهاء بالوظيفة أو العمل، والعلاقات في أبعادها وأنواعها المختلفة. فمثل هؤلاء لا يفكرون في العودة، وهم –تحديداً- الذين تتميز نظرتهم نحونا بشيء من القسوة، وقدر كبير من الاستعلاء أو الازدراء، مع الاعتذار لكل الشوارب التي تتجشم قراءة هذا الكلام.

حليم بركات يقول: نحن ننظر إلى العالم العربي كبلد واحد (دون أن يقسم بشرفه طبعاً!)، والنظرة من الخارج أكثر شمولية، وربما أكثر وضوحاً، (فهي تأتي من بعيد.. أو من فوق، سيان!).

ومحمد عفيفي مطر يضحك في داخله هكذا: إن هؤلاء يا شيخ البدو (يقصدني!) بعيدون جداً عن التفاصيل الدقيقة في تناقضاتنا اليومية! فهم لم يعودوا يعرفوننا إلا من خلال تقارير صحفية تجارية ساذجة، وغير شجاعة. فلا شمولية، ولا وضوح، ولا يحزنون!

محمد أركون كان يضرب على الطاولة، وينادي ملحاً بضرورة

التركيز على التجارب "الخاصة" للمغتربين في الحياة والإبداع.

وحليم بركات أيضاً، وتيسير الكوى، وإبراهيم عويس، وعاطف قبرصي، ورشيد الراشد، وكلهم، لا ينفكون –بنظرتهم الشمولية الواضحة- يقرعون العالم العربي، ويؤنبونه، ويصفعونه شمالاً ويميناً، ويضربونه على رأسه، وفي بطنه، وتحت العين، وعلى اللحيين، ويقولون بأن للإبداع –يا سادة- شروطه: أولها التحرر من القمع، وهيمنة السلطة: (الأسرة، والمجتمع، والأنظمة) وآخرها تجاوز كل شيء، إلى الإنسان نفسه، وبغير تلك الشروط الكاملة، فإنه ليس هناك، (ولن يكون هناك) من إبداع في العالم العربي. والنتيجة إذاً، هي أن المبدع العربي في الخارج أكثر تهيؤاً من المبدع العربي في الداخل. واستمرت الأشكال القولية على هكذا سياق، إلى درجة أن كنا نظن أن هناك من هؤلاء، من سيقترح "توصية" تضم إلى البيان الختامي، وتدعو جميع المثقفين العرب المقيمين إلى مغادرة بلدانهم الصفراء، باتجاه أمريكا الجديدة، أو أوروبا القديمة؛ للتنعُّم بالحياة الكريمة التي يعيشها "الإنسان" هناك! وكل هذا كي نبدع فكرياً وعلمياً، ثم نعود بعد ذلك، فنصدر تلك الإبداعات إلى أرضنا الأم أو الجدة، فالحس الوطني –مهما كان ياحبيبي- لن يموت كله!

قد نكون –على هذا النحو- بالغنا قليلاً في قراءة أقوال المؤتمرين، فلربما كان المقصود هو –بكل ما بقي في هؤلاء من نخوة- استفزاز السلطات المحلية لرفع أيديها عن رقابنا، وحلوقنا، وأفواهنا، وبطوننا، فليس من ذاق طعم الحرية: حياة، وحركة، وتعبيراً، وموقفاً، كمن يكتفي بمجرد القراءة عنها، أو ترديد شعاراتها في بعض المناسبات، تحت طلب رجال المباحث أو أجهزة الاستخبارات.

إن هـؤلاء الـزملاء يريـدون أن ينـصفونا مـن أنفـسنا ومـن التـاريخ، كنـا سـنقبل مـنهم مثـل هـذا الكـلام وغيـره مـن البكائيـات الأخـرى، لكـن المـؤذي هـو أنهـم كـانوا يقولـون لنـا كـل ذلـك بأناقـة متناهية في الهيئة وفي التعبير، وبعضهم كان يدخن الغليون، وبعضهم كان يتعاطى السيجار، وفيهم من كان يسد أنفه بكلتا يديه، كي لا تنتقل إليه عدوى الأمراض المنتشرة في الصالة!

قـام أحـدهم ليزيـد الحـوار هـذه الإضـافة: إن "الحنـين" الـذي نعيشه في المهجر، هو الذي يجعل إبداعنا أكثر حرارة، وربما أكثر صدقا!

قلت –ويـدي علـى رأسـي- غيـر معقـول! كلنـا نريـد الحـرارة، ونريد الصدق، إن هؤلاء يـا ولـدي! يقولـون كلامـاً جميلاً يغري كـل المبـدعين والمفكـرين بمغـادرة أوطـانهم، ولكـن الـشعب هنـا سـيبقى بـدون مثقفين أو شـعراء أو كتبـة، وربمـا بـلا حـواة، أو دجـالين، أو منـافقين. إنهـا خـسارة ينعقـد لهـا الفـؤاد، ويـندى لهـا الجبـين وغيـر الجبين!

قـام آخـر يريـد أن يمـسح بعـض علامـات الاحتجـاج التـي تبـدو علـى بعـض الوجـوه، فيمـا يتعلـق بمبـدأ الهجـرة مـن أساسـه، فقـال: الهجـرة ليـست عربيـة فقـط، الهجـرة عالميـة، فالنـاس يهـاجرون –أيهـا السادة- إلى "مراكز العلوم".

محمد عفيفي مطر مشاكس عجيب، فهو ما ينفك يعرقل وقار المـؤتمر، إذ قـال لـي فـي همـس يـشبه الجهـر: "نعـم! نعـم!.. إنهـم يهـاجرون ولا يعـودون!". كانـت هـذه المـرة، هـي الأولـى التـي ألتقـي فيهـا هـــذا الشاعـــر المصري المتعب، فقلت له: إن الـذي يزعجني -مثلـك- أن هـؤلاء لـم يتجـاوبوا مـع غـرض المـؤتمر، ولا مـع نـداءات

رئيس المؤتمر، وذلك حين طلب سيادته التركيز على تجاربهم الخاصة في الهجرة، وعلى علاقاتها بالمبدع، وبسلوكه الفكري والمنهجي، كأنهم يتحاشون الحديث عن تلك التجارب، وكأنهم جاؤوا من هناك وفي الذهن هدف واحد وحيد؛ هو كشف جهلنا، وتخلفنا، ثم الشماتة بنا، لقد تجاوزوا النظام والأدب، ثم أنهم نسوا الـ "ديلاكاتس" التي رضعوها منذ وقت مبكر في المجتمعات المتحضرة!.. هل ترى –يا محمد- أن لهم الحق في أن يسخروا منا كل هذه السخرية، لقد جاؤوا وفي حقائبهم جميع الحلول لأوضاعنا المرتبكة، ابتداء من الحرية، والتخلص من الهيمنة والقمع، وانتهاء بتجاوز جميع مراحل التخلف والجهل. ماشي يا محمد، ولكننا نريدهم أن يحدثونا قليلاً عن تجاربهم في "الجنة"، أو في المجتمعات التي فضلوا العيش فيها، من حيث الحرية نفسها، والكرامة الإنسانية نفسها، والتمتع بجميع الحقوق المشار إليها أعلاه وأدناه، وفي كل الأمكنة. نريد أن يحدثونا كأجانب - على الرغم من حصولهم على بطاقات الجنسية- عن معاملة بوليس المرور لهم. عن مدى احتفال صاحب المطعم بهم! عن حياة أطفالهم في المدارس مع الأطفال الأصليين! نريد أن يحدثونا عن نوعية العلاقات التي تربطهم بجيرانهم في الحي، وبزملائهم في الوظيفة، وبأقرانهم في الـ "فتنس كلوب"، وبأصدقائهم في المقهى أو الملهى. نريد أن يحدثونا عن مدى احترامهم واحترام فكرهم لدى الآخر، عن ثقلهم في الميزان الثقافي هناك، وعن مدى تأثيرهم في محيطهم الاجتماعي، وعن قدرتهم على إقناع الرأي العام بطروحاتهم فيما يخص الأوضاع الداخلية في البلدان التي يعيشون فيها، أو فيما يتعلق بغير ذلك من الأوضاع الخارجية التي قد تطالنا هنا في الوطن العربي. نريدهم أن يتكلموا عن مدى نجاحهم في الاندماج المجتمعي والثقافي والنفسي بالآخر، على الرغم حرصهم الشديد عليه. نريدهم أن يقولوا لنا

شيئاً قليلاً أو كثيراً عن قناعة ذلك الآخر بانتخابهم في البرلمان، أو في المجالس البلدية، أو حتى في مجالس الآباء بالمدارس الابتدائية. نريدهم أن يقولوا لنا شيئاً عن التاكسي كيف يعامل أولادهم، وعن البقال ماذا يقول لبناتهم، وعن الجزار كيف ينظر إلى زوجاتهم. نريدهم أن يقولوا لنا شيئاً عن العمارات التي تؤويهم، وتلك التي تطردهم، وعن المنتديات التي تستقبلهم، والأخرى التي ترفضهم، ليس بمقتضى القانون، ولكن بمقتضى المزاج، وعكننة المزاج!

يا محمد، (والمقصود دائماً عفيفي مطر)!.. إن من حقي أن أتساءل ببراءة لا تخفاك: هل هو حقاً "الحنين" الذي يذكي الإبداع في مثل هذه الحالة؟ أم أنه "القهر" أو الاضطهاد، أو الظلم الذي يعصر القلوب، ويجلب الأرق، فيكون اللجوء إلى فضاء الكتابة؟ وهو فضاء رحب يستوعب كل تناقضات الأشياء والأحياء!

يا محمد، لقد بدأت أستحي من كل الكلام الذي قلته سابقاً، هل (يمكنني أن أستحي قليلاً؟!) فهؤلاء الرجال.. انظر إليهم!.. إنهم في منتهى الأناقة، في الهيئة وفي التعبير، ولكن ماذا أفعل –يا محمد!- لقد "أغاظوني" بالحديث الطويل عن الحرية، والكرامة، والكبرياء، والجبين الطالع، والجبين النازل، والتخلف، والتخلف المضاد، والحنين، والهروب.

ولكن -لوجه الحقيقة فقط- فإنني ما أنفك أشعر بأنهم قريبون جداً إلى قلبي! فأنا مازلت أشم فيهم شيئاً عربياً، على الرغم من كل شيء. هل شهدت هذه الفوضى الجميلة في الحوار؟ هل أنصت إلى الاتهامات المتبادلة، والهجوم، والهجوم المضاد؟ هل سمعت المفاخرات وشيئاً قليلاً من بقايا العنتريات.. إنهم "أبنائي" ورب الكعبة! على الرغم من كل شيء!!

محمد عمر توفيق:
نظيف اليد

محمد عمر توفيق، التقيته – شخصياً – لمرة واحدة لم تزد مدتها عن الثلاثين دقيقة تقريباً، لكنني التقيته من خلال أدبه وفكره أكثر من مرة، بل مرات لا أقوى على إحصائها.

ومحمد عمر توفيق، الذي قابلته حسياً في تلك المدة الزمنية الوجيزة، فحاورته وناقشته في جمل عجلى وكلمات سريعة، كان يحمل - في نظري- الملامح نفسها التي عرفت بها محمد عمر توفيق من خلال بعض ما كتب، وربما كل ما كتب، ابتداءً من بقايا "ذكرى" مروراً بـ"طه حسين والشيخان"، وانتهاءً بما سطر مؤخراً عن رحلاته في بعض المجالات الصعبة التداول.

محمد عمر توفيق، رجل ذو ملامح راسخة تتميز بالوضوح والصرامة، سواء عندما يتكلم أو عندما يكتب، وأعني بالوضوح:

القصد إلى المعنى دون مواربة أو تلكؤ، أما الصراحة فهي عنده تعني ببساطة الصدق والنزاهة، والبعد عن الغرض. فهو عندما يتكلم إنما يتكلم لوجه الحق، وهو عندما يكتب إنما يكتب لوجه الكتابة في تساميها، وفي ضميرها البهي النقي.

لم أجد أبداً فيما حدثني به محمد عمر توفيق في لقائنا القصير، ما يمكن أن يهزّ تصوري عن الرجل، أو عن ملامحه الراسخة التي علقت بالذهن، من خلال قراءاتي لمقالاته أو كتبه. وعندما مات، كان الحديث في كل مجلس غشيته، هو حديث عن خصال وشمائل في الرجل، لم تزدني إلا ثقة في صدق التصور الذي أكتنزه عنه، فازددت بذلك اطمئناناً إلى سلامة أدواتي في الاستنتاج والملاحظة، كما ازددت غبطة -من جهة أخرى- بما يحظى به الفقيد من حب سابغ، واحترام وافر لدى تلاميذه، وزملائه، وأصدقائه، ومحبيه.

كان ما سمعت عنه بعدما مات، يلتقي في بعض معانيه أو مدلولاته مع التصور الذي تكوَّن عندي عن ملامحه الحقيقية، من حيث وضوحها وصرامتها، ومن حيث انتمائها إلى الحق والنزاهة والصدق والبعد عن الغرض.

لقد قال من عايشه أو زامله أو تتلمذ على يديه، بأن المرحوم كان "نظيفاً" وشديد البياض إبان كل المناصب الكبيرة التي تقلدها، وخلال كل الفرص العديدة التي سنحت له، فلم تغره الدنيا، ولم تستدرجه الأهواء الرخيصة، ولم يثخن ضميره أي سهم دنيء، فيبيع أمانتـه، أو يـــدوس علـى شـــرف مـسؤوليتـــه، أو يخـــزن **قلبـه** ووعيـــه وذمته. لقـد كان في جملة مختصرة: "نزيهاً، عفيفاً، نظيف اليد".

لقد قال عنه عارفوه أشياء أخرى جميلة ومهم، لكنني تعلقت من بين كل الذي قالوه، بما أكدوه فيه من عفة ونظافة في اليد، أولاً: لأنني كنت هكذا أتصور محمد عمر توفيق ففرحت، هو هكذا يبدو في أدبه وفكره، وهو هكذا يظهر فيما يصدر عن عقله وضميره. وثانياً: لأن نظافة اليد، والتسامي فوق الأهواء، والتعالي فوق الرغبات؛ هي كلها من القيم أو الخصال النادرة، ليس في زماننا هذا فحسب، بل في أغلب الأزمنة، في أمتنا هذه، وفي غيرها من الأمم.

ولا شك أن هناك مجداً كبيراً فيما خلّفه محمد عمر توفيق من أدب، وفيما قام به من إنجاز مشهود في حقول المسؤوليات التي

تقلدها، ولكن مجد المجد، هو في مغادرته هذه الدنيا نزيهاً عفيفاً "نظيف اليد"، نعم "نظيف اليد".

منصور الكيخيا:

فكرة الموت.. أم فكرة الحياة؟

منصور الكيخيا (وزير خارجية ليبيا) اختفى من الوجود فجأة، وأنا لم أكن أبداً مع فكرة أنه كان ما يزال حياً، لسبب بسيط، وهو أننا في هذا الشرق البائس لم نتعود على الاعتقاد في صدق فرضيات من هذا النوع، فالذي يختفي على طريقة منصور الكيخيا، لا يعود إلينا أبداً، ولا يرى النور مطلقاً، فنحن نعرف طبائع من هو وراء اختفائه، ولو كنت في مكان السيدة بهاء العمري، زوجة الضحية، لسلمت أمري إلى الله، وأقنعت "رشيد" و"جيهان" بأن أباهما لم يعد له وجود أبداً فوق هذا الكوكب، وهما سيلتقيان -إن شاء الله- في الدار الآخرة.

ولا أدري شيئاً عن الأسس التي يستند إليها من هم مع فكرة أن منصور الكيخيا ما زال حياً. وبهاء العمري لا تريد أن تصدق ما نقلته إليها المخابرات الأمريكية، من أن زوجها الذي اختفى في عام 1993م، قد قتل فعلاً في عام 1994م. وهذه السيدة المسكينة تطالب بتقديم "أدلة دامغة" على ما قالته الاستخبارات الأمريكية من

أجل أن تساعدها تلك الأدلة على قبول فكرة الموت، أو بالأحرى فكرة القتل. إذا كانت بهاء العمري تقف هذا الموقف، فأنا شخصياً أجدني في الموقف المقابل المناقض، فأحتاج إلى أدلة أكثر من "دامغة" لأصدق بأن الكيخيا لم يقتل، ولم ينتقل إلى الدار الأخرى.

صحيح أن قبول فكرة الموت عند الزوجة الثكلى أمر في غاية الصعوبة، وهي ربما تفضل البقاء في المرحلة الرمادية، مرحلة اللاموت واللاحياة، فقد تحمل لها المفاجآت أخباراً سعيدة، أما الانتقال كلياً إلى فكرة الموت، فهذا يعني طي قيد الأمل، ويعني انطفاء بصيص النور الذي يجهض أحياناً وحشة الظلمة. هذا كله على الرغم من أن ملف القضية – قانوينا- سيبقى مفتوحاً كغيره من قضايا كثيرة أخرى، ظلت ملفاتها مفتوحة، واستمرت أسئلتها الكبرى بلا إجابات صحيحة أو واضحة.

إن الطريقة التي اختفى بها الكيخيا في 11 ديسمبر 1993م، وذلك من أمام فندق "سفير" بحي الدقي في القاهرة، لا تشجع أبداً على الاعتقاد بأن المختفي ما زال حياً. فحجم المختفي ليس من الحجم الذي إذا غاب يمكن أن يعود مجدداً إلى النور، كما أن حجم وعقل ووجدان الذي أخفاه، نعلم جميعاً ما يتمتع به من قسوة وجبروت، ونسألكم هل عدتم تسمعون شيئاً عن الإمام موسى الصدر؟! غير أنه "ذاب"، ولم يعد له وجود فوق الأرض، فهو - ربما- بل حتماً تحتها!

إن مـشروع الاختطـاف نفـسه لـم ينفـذ علـى هـذا المـستوى للضحية لمجرد المزاح، أو لمجرد التهديد أو التخويف، أو لغرض إيصال رسالة أو رسائل محددة. أي أن الاختطاف لشخص بحجم الكيخيا، هو مشروع نهائي ولا رجعة فيه.

هـذا فـي الأسـاس، فـإذا أضـفنا إلـى ذلـك أن الـضجة التـي ستصاحب ظهور الكيخيا من جديد، ستكون أعنف وأقوى من الضجة التي صاحبت اختفاءه، فإن من شأن ذلك أن يجعل الخاطف المتكبر المتجبر يتردد كثيراً، أو على الأصح يحجم أبداً عن السماح بظهور ضحيته من جديد. فشأن الكيخيا نفسه سيرتفع أكثر مما كان في الماضي، إضافة إلى ما سينعكس على الخاطف من أضرار بسبب انكشاف أمره، فأمره سينكشف حتى لو لم يتكلم الكيخيا نفسه؛ حفاظاً على حياته وحياة أهله مثلاً!

لكل هذه الأمور، يؤسفني جداً أنني لا أستطيع أن أقف في الجانب الذي تقف فيه بهاء العمري، فأنا أحتاج من جهتي إلى أدلة تفجر الصخر، لتؤكد لي بأن الكيخيا ما زال حياً، أو أنه على الأقل سيعود إلى زوجته، وإلى "رشيد وجيهان"، وإلى نشاطه السابق في منظمات "حقوق الإنسان". هل قلت: "حقوق الإنسان"؟! إنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد انتهى الأمر بالخاطف القاتل إلى القبض عليه في مجرى للصرف الصحي، يختبئ فيه كالجرذ أو كالصرصار، هرباً من رياح الصورة،فلم يكن الممكن إلاّ أن تهب تلك الرياح على البراري

والفيافي القاحلة المتعطشة لعطر الحرية، ولعطر الكرامة والعدالة الاجتماعية، بعد سنوات طوال من الظلم، والبطش، والاستبداد، والقهر، والجنون!

أظن أن بهاء العمري ورشيد وجيهان كانوا في مقدمة الصفوف التي احتفلت بسقوط الظالمين المجرمين، ولكن هل كان هؤلاء ينتظرون نهاياتهم على هذا التحد المجلجل؟! أقسم بالله أنهم لم يكونوا ينتظرون ذلك أو يفكرون فيه، لقد نسوا أنفسهم تماماً.

ناصر السلوم:

العاشق التعب!

منذ كان وكيلاً لوزارة المواصلات، ظل معالي الدكتور ناصر السلوم يؤكد إيمان الناس بأن الطرق الممهدة المعبدة الميسرة، هي عصب التنمية، وهي أبرز الاستحقاقات التي يقتضيها التطور الاقتصادي والاجتماعي، وذلك بوصفها عنصراً مهماً من عناصر البنية الأساسية. فأي تصور منهجي علمي لنهضة اقتصادية واجتماعية، لا بد له من أن يضع نصب عينه برنامجاً واضحاً لتعميم الشبكات المترابطة القوية من الطرق. ووزارة المواصلات في السعودية وجدت نفسها، وهي تُقْدم على إنجاز برنامجها الطموح في مواجهة تحديات عصيبة كبيرة، لعل أبرزها المساحة الواسعة المترامية للبلاد، وما يعتور تلك المساحة من تنوع تضاريسي معقد يزيد العبء في صعوبة مهمتها، ولكنها بإرادة قوية ومتفانية من الدولة، استطاعت أن تحقق المستحيل، وأن تجعل من اللاممكن

واقعاً ماثلاً ينعم بنتائجه الخيرة كل مواطني البلاد، لينعكس ذلك كله بالإيجاب الذي لا يخالجه الشك على اقتصاد البلاد، وحركة التنمية الاجتماعية والتعليمية والثقافية فيها.

ناصر السلوم - في كل ذلك- لم يكن غائباً، بل كان حاضراً بكل همته وتطلعاته. فهو يختزن في ذاكرته المتوقدة كامل خريطة بلاده، ويقرأ صباح كل يوم في تلك الخريطة، توهج التنمية التي تهدف إليها دولته الفتية، مدركاً بأنه يتحمل هو ووزارته قسماً ملحوظاً وحساساً من مسؤوليتها، أي التنمية. ولقد كان المسؤولون في الدولة يعرفون ذلك في ناصر السلوم، وكان أصدقاء د. ناصر القريبون منه، يشفقون عليه من الإسراف على نفسه فيما يكرسه لعمله من الوقت والجهد والقلق، والمتابعة اللصيقة لكل التفاصيل في التخطيط والتنفيذ والإنجاز. وظل ناصر السلوم زاهداً في الإعلام وبريقه الأخّاذ، وإلا فإن إشرافه المباشر الدقيق على مشروعات وزارته، وزياراته المفاجئة وغير المفاجئة المنتظمة لكل مواقع العمل في مختلف أرجاء البلاد؛ كانت –كلها- ستعطي ذلك الإعلام الفرصة ليجعل من ناصر السلوم نجماً لامعاً في الإنجاز، وفي المتابعة والملاحظة، وحتى في التدخلات العلمية في تصورات المهندسين، وفي تعاملات المقاولين، فهو نفسه مهندس مختص قبل أن يكون وكيلاً لوزارة المواصلات، ثم وزيراً لها فيما بعد.

يروي سمو الأمير مقرن بن عبدالعزيز، صديق ناصر السلوم، أنه طلب منه موعداً ليناقش معه بعض مشروعات حائل (يوم كان أميراً لها)، فتقرر أن يكون الموعد الساعة السابعة مساءً، فلما جاء سمو الأمير في الموعد المرسوم لم يجد ناصر السلوم، فقيل له: إنه كان في المدينة المنورة لمتابعة بعض المشروعات هناك، وأنه وصل إلى الرياض قبل ساعة من الآن، وهو حالياً يتفقد الخط الدائري بالرياض، وسيصل إلى المكتب بعد قليل لإنجاز بعض الأوراق وعقد بعض الاجتماعات.

يقول الأمير مقرن: عندما وصل ناصر السلوم إلى مكتبه بعد حلول الموعد بقليل، لم يكن أمامي إلا أن أصطحبه قسراً إلى منزله، فقد كان بادي الإرهاق والإعياء.

وقصة ناصر السلوم مع الأمير مقرن، هي واحدة من مئات القصص التي نسمعها ونعرفها عنه، فهو لا حياة حقيقية له خارج عمله، ولولا أصدقاؤه الذين يلحون عليه للمشاركة في بعض المناسبات الاجتماعية، لبقي ناصر غارقاً كل ساعات يومه ومعظم ليله بين معاملاته وعقوده وخرائطه.

وشخصياً لن أنسى رحلتي مع د. ناصر إلى "المريفق"، الوادي الذي أنتمي إليه في بلاد بني الحارث، فقد جاء ليشرف بنفسه على إنجاز الطريق الذي سيصل الوادي بالطريق العام

المؤدي إلى الطائف. كان د. ناصر سعيداً بأنه استطاع أن يرسي هذا المشروع على المقاولين العاملين مع الوزارة في المنطقة من غير أن يكون للمشروع ميزانية معتمدة من الدولة، وذلك حق لازب للوزارة وفق نظرية د. ناصر التي تقوم على فكرة التوفير من مشاريع كبيرة لعمل مشروعات أخرى صغيرة، عملها من فوق الطاولة، وليس من تحتها.

وبالمناسبة فمشهود لأبي محمد أنه لم يعرف، ولم يكن يريد أن يعرف "ما تحت الطاولة" طيلة سنين عمله. كان د. ناصر سعيداً أيضاً؛ لأنه استطاع أن يقنع الناس الذين يمرّ الطريق عبر أملاكهم - أو هكذا يظنون- بأن التضحية من أجل الصالح العام واجبة، وأن هذا مشروع فيه خير كثير لهم وللمواطنين من بني جلدتهم، وأنهم يجب ألا يكونوا معرقلين له. وفي ساعات استطاع أبو محمد أن ينهي مشكلات كانت بدونه ستستمر لسنوات طويلة، ومن ثم تحقق حلم أهل المريفق، وأصبح يربطهم بالطائف والمملكة طريق "مزفلت".

مما يعرفه أصدقاء ناصر السلوم عنه، أنه يقود - في معظم الأحيان- سيارته بنفسه أثناء تنقلاته على الطرق، وهو مفتون بالسرعة المتناهية في القيادة، فيتساءل أصدقاء ناصر دائماً: هل لهذا الغرام بالسرعة في قيادة السيارة أي علاقة بالزخم الهائل في

اندفاعه نحو الإنجاز، ونحو ما يريد أن يحققه من طموحات وزارته. لا بد أن يكون لمثل هذا الأمر دلالته، فقرائن الإقدام في إنجازات د. ناصر السلوم توحي بشيء من هذا، أو بكل هذا.

وفي رحلتنا إلى المريفق تأكدت بنفسي من ذلك، فقد كان د. ناصر هو الذي يقود السيارة BMW الفائقة القوة، وكان يقطع بنا البراري والفيافي، في ممرات وطرق طويلة غير معبدة أحياناً، كنا معه في بحر متلاطم من التحفز والخوف والهلع، وفق القفز والصعود والبهوط، إلى أن وصلنا إلى غايتنا، وهو بالفعل أنجز مهمته التي جاء من أجلها بالسرعة نفسها التي أخذ بها في قيادته لسيارته الشديدة السرعة.

لم يرافق ناصر السلوم يومها في جولته هذه مصورون ولا صحفيون، ولم تنشر له الصفحات الترحيبية، ولم توضع من أجله الزينات، ولم تقم على شرفه الحفلات، فقد عاد أدراجه إلى جدة (حوالي 200 كيلو متر)، بعد أن قضى في مهمته حوالي ثلاث ساعات لا أكثر.

ناصر السلوم مثال حي للمسؤول الذي يعشق عمله، ويكرس حياته كلها له، ثم لا يهمه بعد ذلك الطبل ولا الزمر، وإذا رأيتم ناصر يجامل بعض الصحفيين، فأنا أجزم أنه لا يعرفهم، ولكن درءاً للحرج يفعل ذلك، وقد اقترحت عليه يوماً ما أن يعمل على تطوير

العلاقات العامة في وزارته، ويشمل التطوير إعداد ملف صحفي يومي له عما يهمه مما يمكن أن يقرأه، أو يعلق عليه، وقد وافق على الفكرة، ولكنه خرج من الوزارة ولم ينفذها، فعرفت أنه كان يجاملني أنا الآخر.

نزار قباني:

"الجبل" الذي لن يصير "سهلا"

كان يرقد في أحد مستشفيات لندن "جبل" عربي شاهق، وهو الجبل الشديد الوعورة، الشديد الأناقة، المملوء بالطيور والورود، وزهر الياسمين الأبيض.

هذا الجبل اسمه: نزار قباني، وهو هناك (في مرضه الأخير) يشكو من قلبه المنهك، الذي أثخنه الحب، وهموم العرب.

ونزار قباني -أيها الناس- هو أشهر شعراء العرب المعاصرين، وهو من أكبر شعراء العربية قاطبة، في القديم والحديث، ولهذا فإن قلوباً كثيرة كانت تلهث ترقباً لأخباره، وإن عيوناً كثيرة أيضاً تسمرت نحو الأعلى تصلي من أجله، ومن أجل مستقبل الشعر، معه وبعده.

لم يكن لنزار، في هذا الكون أو هذه الحياة، سوى الشعر، فلا تجارة، ولا زراعة، ولا صناعة، ولا مناصب سياسية، (عدا السفارة التي تركها في عهد مبكر من حياته)، فلقد كانت مهمته الوحيدة، التي اختارها، والتي كرّس حياته من أجلها، هي تحريض الناس على الحب، وتحريضهم، أيضاً، على الاستقلال والكرامة والحرية.

تفرَّغ نزار لهذه المهمة، فتربع هانئاً مختالاً في وجدانات الناس، فسكن قلوبهم، وتسلل إلى أحلامهم، وتوسد رموشهم، وبنى لهم وعوداً كانت تذكي فيهم جذوة الحياة.

ليس لأشعاره جنس محدد من المستهلكين، وليس مستهلكي شعره عمر زمني أو عقلي محدد أيضاً، فالجميع يتناولون أشعار نزار صباح مساء، مع وجبات الأكل، وأثناء ركوب الطائرات والقطارات، وفي مواقف الأوتوبيس ومحطات المترو، وفي المقاهي الشعبية، وصالونات الشاي الأنيقة، وقبل النوم وبعد النوم، وقبل الحب، وأثناء الحب، وبعد الحب.

خلق الله نزاراً أمة شعرية وحده، اختلف الناس حوله، وسيظلون مختلفين.

له محبون بعدد شعر الرأس، وبعدد ما في هذا العالم من عشاق، وبعدد ما فيه، أيضاً، من طيور وعصافير تنتظر العشب والاغصان والضوء والمطر.

لنزار، أيضاً خصوم كثيرون، كثيرون جداً، بعضهم يختلفون معه في المنهج، وبعضهم يختلفون معه في اللغة، وبعضهم يختلفون معه في أنواع العشق الذي يُروِّج له، أو في عدد العشيقات اللاتي أحبهن، قد يختلفون معه في ألوان عيونهن، أو أطوال رموشهن، أو عمق أهدابهن، أو شفافية أناملهن.

بعضهم يختلفون معه في درجة مضاء السكين التي يشاء، أحياناً، أن يكتب بها بعض شعره، وبعضهم يختلفون معه على سلاطة السوط الذي يوجع به جلده وجلد غيره من أبناء أرومته.

بعضهم يختلفون معه على التقريع والتحقير الذي ينال به ممن يحبهم، أو ممن أوجعه قلبه من أجلهم.

لكن كل هؤلاء، من محبي نزار وخصومه، متفقون تماماً مع شاعرهم الكبير حول مسألة مهمة، وهي أن طوق النجاة هو طوق الحب، وحول مسألة أخرى كذلك، وهي أن أمتنا، هي بالفعل لا تستحق كل هذا الذل، وكل هذا الهوان، وكل هذه الحالة من الإغماء التي نحس بأنها ستطول، أو أننا بالأحرى لن نفيق منها أبداً!

كل محبي نزار، وكل خصومه، متفقون على ضرورة أن ينهض "الجبل" من جديد، وكلهم مجمعون على أهمية أن يرفع الشاعر هامته إلى الأعلى من جديد أيضاً.

*****

كتب نزار قباني مرة عن (القطيع) العربي الذي يتخذ من العاصمة البريطانية (لندن) ملاذاً يلفظ فيه كل ترسباته، وينيط على أرصفته اللثام عن كل رغباته. وأنا أعرف أن نزارا ممن يشتدون في قمع شطحات القوم وزلاتهم.

أجل.. نزار يحتد دائماً عندما يكون الحديث حول مآخذه على قومه، يسحب الشخص (الفضيحة) على وجهه في دهليز البيت.. ويمرّغ جسده فوق إزفلت الشارع.. ولن يهاب أحداً أن شاء أن يكنس بجمجمته سلالم الفنادق أو مداخل المطاعم والمقاهي في هذه المدينة المكتظة.

أهل نزار يضيقون بالكلام الحاد حتى وإن كان فيه الدواء أو الوقاية من الأذى. وأهل نزار تنفرج أساريرهم كلما سمعوا كلمة لينة، حتى لو قادتهم هذه الكلمة إلى الخطر أو إلى الجحيم.

ثارت الحمية في رؤوسهم عندما استباح شاعر "فاسق!" هجاءهم، واستطاب الضرب على أصابعهم.. فأتهموه بالغرور، ورموه بالحقد على الأمة، وأدانوه بالتنصل من التاريخ العربي، والتنكر للحضارة العربية.. وربما قالوا بأنه "عميل" يخدم مؤسسات استعمارية ما كان أهل نزار يرفضون حسن النية فيمن يقذفهم بالحجارة وبقطع الخشب عندما يسيئون التصرف.

ونزار نفسه مشكلته الأولى أنه عربي أكثر من العرب.. ومشكلته الثانية أنه أكثر شعراء زمانه صراحة و"جرأة".

لا أريد أن أقول أن على العرب أن يقبلوا بكل ما يقوله شاعرهم المفتون بحبهم.. ولكن أريد أن أؤكد بأن الإخلاص والغيرة كانا يتدفقان من كل حرف يكتبه نزار في (شتم) بني قومه.. قد يندفع إلى حد لا يرضيهم في القمع والقذع ولكنهم ينسون أن الإنسان الغيور، الذي يستبد به الغضب.. غضب الحب.. يكون بالضرورة حاد المزاج، وعندما يحتد مزاجه قد "يقل أدبه"، وهم ينسون، فوق ذلك، أن نزاراً "شاعر".. والشاعر قد يلهبه الحماس فيحطم في لحظة انفعال كل شيء.. ويحرق كل شيء.. وقد يزرع الموت في كل شيء.. حتى في صدره هو شخصياً.. ثم لا شيء يمنع من إدخال ما يكتبه نزار في باب "النقد الذاتي" فهو إنما

يسخط على نفسه عندما يسخط على العرب.. وهو إنما يصفع وجهه عندما يرفع يده على العرب.

إنني لا أحاول تبرير حدة "شتم" نزار لكم، فهو لا يهمه ذلك لأنه اعتاد أن يقول كلمته ويمشي.. وأنا أيضاً لا يهمني ذلك، لأن هذا الشاعر لم يكن صديقي، وأنا لا أعرفه، وهو لم يكن يعرفني. كل ما أحاول أن أفعل هنا هو التأكيد على الصدق الفني للشاعر فيما يقول.

وصدقه الفني يعني اعتقاده في وجاهة ما يصدر عنه بغض النظر عما يعتقده الآخرون، حتى وإن كان النقيض.. وهذا يشمل حتى شعره الغزلي.. فهو في هذا الميدان يبتذل، ويسف، ويباشر في تناوله أحياناً، وذلك إنما ينبع من اعتقاده الشخصي بأنه بهذه الوسيلة وحدها يستطيع أن يحل أعقد مشكلات "الشرق" وهي "الحب" وكل ما له علاقة بالحب.

نزار لا ينافق، ولا يحابي، ولا يتملق، ولهذا فصراحته ومباشرته تصدم الكثيرين.. ونزار يقسو، ويشتد، ويبالغ في نقمته، ولهذا فقد أخذ الكثيرون هذه المبالغة على أنها غرور حيناً.. وعلى أنها حقد وتنصل من الولاء للأمة وللتاريخ أحياناً أخرى.

نزار هو الذي كان أعنف شعرائكم "شتماً" لكم بعد حرب حزيران 1967م وهو إنما شتمكم يومها حنقاً على مآلكم السيء، وغيرة على كبريائكم المذبوحة، واستنكاراً لقعودكم وجهلكم.

لقد كان الشعر في نفسه يومها شبيهاً بأزمة عصبية تفجرت فكان لابد من أن تحطم كل ما يقع تحت يده من أواني المنزل وزجاجه مزهرياته. إنه غضب شاعر على أمته التي انخدعت وما كان يجب أن تخسر.. تماماً كما يغضب الطفل على أبيه الذي يعبث بكرامة أمه؛ فتراه يتعلق في قميصه يمزقه، ويغرس اظافره في وجه يعبث به.

*****

كنا نأخذ على نزار حمله لواء ثقافة "جلد الذات" وهي من أكثر الإشكالات الثقافية إثارة للاستفهام من حيث القيمة والجدوى والتأثير، وفوق هذا لعل بواعث تلك الثقافة هي الأكثر إرهاقاً للمحللين، ونورد هنا أهم الملاحظات التي نعتقد أنها جديرة بالتأمل والتفكير، وهي في الأصل تدور حول مدى ما تحظى به هذه الثقافة من قبول في مرحلة أحوج ما تكون فيها الأمة إلى استعادة ثقتها في مكوناتها الثقافية والتاريخية. والأكيد أن بعض الذين مارسوا هذا اللون من الثقافة كانوا يصدرون عن ألم جم حيال ما كانوا يلاحظون من تعثر المسيرة في أكثر من اتجاه، نقول ذلك حتى لا نسقط نحن أيضاً في خندق "الثقافة الاتهامية" بفعل الإنفعال الذي يسببه لنا شاعر مثل نزار قباني.

*****

وكان من مآخذنا على نزار أنه جعل من النفط موضوعاً لاينفك

يـردده فـي كـل المناسـبات. أمـا "العقـال والأبـاعر، والـصحراء، والأثـواب".. وغيرهـا مـن الأدوات العربيـة فهـي تـداعيات تلقائيـة لمظاهر التخلف في نظر نـزار. تلـك المظـاهر التـي يـضع فـي مقـدمتها "صيد النساء"، مع أن نزار يباهي في شعره بأنه المكتشف الأفضل لأجساد النساء.

أجل لنا نحن في الخليج "غصة"، كنا نرجو أن يزيلها نزار. تلـك الغـصة هـي موقفـه "النفـسي" المـتجهم منـا، ومـن منهجنـا فـي التفكير، ومن طريقتنا في العيش، ومن أسلوبنا في الحب.

كنـا نريـده -مـن جهتـه- أن يـضفي علـى أشـيائنا هـذه بعـض مـا تستحقه من احترام، لنسبغ عليه نحن -من جهتنا- مزيداً ومزيداً مما يستحق من حب.

كان اختيار النفط موضوعاً لتندر نزار يثير في نفوسنا العجب كـأن نـزاراً لا يعـرف أن هـذا الـنفط هـو الـذي مـا فتـئ يجعـل العـرب يخـاطبون العـالم بـصوت مرتفـع. والـنفط هـو البندقيـة التـي يتقلـدها جنـدي المواجهـة، والـنفط هـو الـذي أنـشأ الجامعـات، وشـيد البنـى الواثقة للتنمية والنهضة، ليس فقط في الدول المنتجة له، ولكن حتى في البلدان التي ليست على شيء منه.

وكنـا نتعجـب أن يعيرنـا نـزار بهـذا "النفـط" تمامـاً كمـا لـو أننـا نعيـر أمريكـا بـصناعاتها الثقيلـة، ونعيـر اليابـان بتفوقهـا فـي

الاليكترونيات. أو أكثر دقة كما لو نعير البرازيل بالبن، أو اسبانيا بمنتجاتها الزراعية المختلفة.

هذا الموقف القديم المعلن لي من نزار قباني، اختلف معي فيه كثيرون، واتفق معي أيضاً كثيرون، وموقفي ذاك كان من نزار نفسه، أكثر مما هو من شعره، وكان من القسوة إلى حد أن من عارضوني فيه اعتبروه "هجوماً" لا يليق مع شاعر في قامة نزار الشاهقة.

وبغض النظر الآن عما دار حول هذه المسألة في حينه، فأنا أتذكر أنني لم أنلْ يومها من شاعرية الشاعر، ولم أنكرها. ولو حدث شيء من هذا عندي أو عند غيري، من الذين كتبوا ويكتبون عن نزار؛ فذلك حدث ويحدث مع من هو أكبر من نزار، فالمتنبي الذي قال أعظم وأجمل وأعذب ما في العربية من شعر، وجد الناقدون في بعض شعره المعنى المكرر، والمعنى الضعيف، والمعنى السخيف. ووجدوا في الشاعر ذاته الوصولية والانتهازية والنرجسية، فهو يرى في نفسه ما لا يراه الناس زهواً واعتداداً بل وغروراً فائق البجاحة. وهو يمدح من لا يستحق، ويهجو من هو على خلاف ما يزعم.

أقول هذا بعد أن ناقشني بعض أصدقائي حول ما كتبت عن نزار، وهو على فراش المرض، شافاه الله. وقد رأوا أنني بالغت في الاحتفاء بالشاعر، فمجدته وهو لا يستحق التمجيد، وأثنيت عليه وهو لا يستحق كل ذلك الثناء. وكانت علتهم في الاحتجاج على ما قلت ورددت، أن في شعر نزار مجوناً كثيراً، وعرياً كثيراً، وهم

يثيرون بذلك مسألة في غاية الحساسية، وتمس الشعر أكثر من كونها ذات دلالة - خاصة على سلوك للشاعر ذاته. ولا أريد الخوض الآن في قضية علاقة المبدع، سلوكاً وتصرفاً، بإبداعه، وليس من شأن الناقد أو المتذوق للشعر أن يصدر بيانات إدانة، أو شهادات حسن سيرة وسلوك، لمن يتعرض لهم من الشعراء، وإنما التعويل في الأساس هو على "النصوص"، وعلى ما تضمر أو تشهر من قيم فنية. ومن هذا المنطلق، فإن أحداً لا يستطيع بأية حال أن يجحد شاعرية نزار، أو يخفي موهبته الكبيرة، أو يهوّن ويقلل من مكانته بين معاصريه، أو حتى بين أجيال الشعراء الذين سبقوهم. والأمم كلها متفقة على التعامل مع الشعر، ومع الشعراء، على هذا الأساس، بما في ذلك أمة العرب نفسها، ولا أظن أن في شعر نزار من المجون، والعري، والانحراف والإباحية بقدر ما في شعر أبي نواس مثلاً، ابتداءً من خمرياته، ومروراً بغزلياته في الغلمان، وانتهاء بالأوصاف الجنسية التي تضمنها شعره، وهي تحمرّ لها الوجوه، وترتعد من أجلها الفرائص، ومع هذا، فمؤرخو الأدب العربي ونقاده، منذ قرون مديدة، لم يحاولوا طمر تراث الشاعر أو تدميره، بل رأوا دائماً، أن شعر أبي نواس، في عمومه، هو من عيون أشعار العرب، لا، بل أنهم توّجوا الحسن بن هانئ ملكاً يتسنم سدة التجديد في عصر بني العباس بمجمله. وديوانه منشور وموجود في المكتبات العامة، والجامعات والمؤسسات الثقافية، وهو موضوع خصب لأعداد ليست هينة من الأبحاث والدراسات، وهو جزء مهم في صلب تراث

العرب الشعري. هذه هي النظرة الصحيحة والطبيعية للإبداع. أما الموقف الأخلاقي، مما نسمع ومما نقرأ من الأشعار، فهذا مهمة "تربوية" لا أظنها تدخل في مهمات النقاد أو متذوقي الشعر.

على هذا الأساس، كانت النظرة إلى نزار وإلى القيم الفنية في شعره. أما نزار السلوك، كما يوحي به ظاهر شعره، وأما القيمة الأخلاقية للشعر، عموماً، فتلك كلها أمور أخرى لا تنتظم في هذا السياق.

نوريجا*:

لا.. ليس ابن عمي!

نوريجا ليس ابن عمي.. فهو لا يعرف حتى اسم المريفق** حيث الجماعة والأهل بكل تطلعاتهم الصغيرة كحدقة عصفور.. وبكل همومهم المستديرة كعيني جمل!

نوريجا ليس صهري، فهو لم يفكر قط في الاقتران بإحدى أميرات الرمل.. أو إحدى عرائس الشمس.. وهذا من سوء حظه وحسن حظنا، فلو فكر لحظة في مثل هذا الأمر؛ لأطبقت جنبات الوادي الأشم، فتلك عرابية أعرابية لا يأخذها علج من علوج الفرنجة، بل يأخذها حرّ بنقاء عين الصقر!..

هكذا يفكّر يا نوريجا الأعمام في المريفق، أي في عالمهم الصغير المحدود.. ولا يهمنا الآن إن كان ذلك خطأ أو صواباً.. وهم لا يهمهم في كثير أو قليل ما حدث لك مؤخراً أيها الصهر المزعوم، وربما أنهم لم يعرفوا أصلاً أي شيء عما حدث!

---

* نورويجا، رئيس جمهورية بنما (1983-1990) الذي اختطفته أمريكا بتهمة تهريب المخدرات وغسيل الأموال (1990)، وحوكم في الولاسات المتحدة الأمريكية وسجن بها.

** وادي المريفق حيث يسكن العرابيون في بني الحارث.

نوربيجا ليس صاحبي، بل أنني لا أعرفه، وبالكاد أميزه في الصور التي تنشرها له الصحف والمجلات! وهو حين يرتدي بزة العسكر، يزداد الأمر عليَّ غموضاً؛ لأن العسكر في العالم يتشابهون في الشكل واللون والرائحة، كلهم متحفزون.. مقطِّبون.. مخيفون (أنا شخصياً أخاف العسكر، رغم أنه ليس عندي ما يمكن أن يطالبوني به).. كلهم مزهوون بالبذلة وسوط السلطة، مثلنا تماماً نحن المثقفين المنتفخين بالورم وبالكلام، فنختال بالطرطعة، وبما نسميه أحياناً ذكاء الفكر.

يحدث أن العسكر، (أو هذه هي الصورة عنهم في أذهان أجيال العالم!) يضربون في الفاضي والمليان.. ويحدث أننا (أقصد المثقفين في كل أرجاء الأرض!) نهيل أكواماً ضخمة من الألفاظ في الفاضي والمليان أيضاً.

يحدث أن العسكر يميلون نحو ما يراه الناس استبداداً، وما يرونه هم ضبطاً وربطاً.. ويحدث أننا ننهال بلا تردد باتجاه ما يراه غيرنا احتكاراً للرأي، وما نراه نحن مندرجاً تحت باب حقوق أهل "الحل والعقد!".

يحدث أن العسكر يختالون في الشوارع والطرقات، ويحدث أن تتطاول أعناقنا - نحن - على المنابر والمنصات!

إن بيننا وبينهم أوجه شبه كثيرة، وكل منا يرى أنها حقه في الحياة وفي السياق الاجتماعي، مهما كانت مرتكزاته الفكرية.. أو القانونية في ذلك.

العسكر يزحفون دائماً نحو فضاءاتنا.. وهم دائماً ينكرون علينا الكلام الكثير، ويقولون في نفوسهم: بئس القوم بضاعتهم الكلام، نحن نظن أن في أيدينا ثقاب الحياة، وهم يعتقدون أن تحت قبعاتهم الحياة كلها.

ولم يتقدم قط أحد من الناس، في طول الدنيا وعرضها ليسوِّي الأمر بيننا وبينهم، فيخلط خيلاءنا بخيلائهم في هذا الكون الفسيح، فقد تخرج من هذه "الخلطة" نجمة المستقبل الباهر! ومن الذي يستطيع أن يتنبأ بخلاصه المزيج العجيب بين جنرال، مثل نوروبيجا في بنما وكاتب مسرحي كبير، مثل فاتسلاف هافيل في تشيكوسلوفاكيا؟!

جربوا فمن يدري؟!

نسيت مسألتنا الأساسية.. أعني محاولة التنصُّل من أي شيء يربطني بنوروبيجا!

هذا الرجل لم أقابله ولا مرة!.. ولم أصافحه ولا مرّة.. ولم ألتقط معه صورة تذكارية ولا مرة.. ولم أره في منامي ولا مرة!.. ولم ألق عصاي في بلاده ولا مرة!

لم تشغلني أخباره في أي يوم.. ولم يهمني أي أمر من أموره في أية لحظة من اللحظات.

لا أعرف لون عينيه!.. ولا طول ساقيه.. ولا عرض منكبيه!.. ولا محيط خصره.. ولا استدارة جمجمته.. ولا عدد أسنانه الباقية، إن كان قد ذهب من مجموعها شيء لا سمح الله!

لا أعرف متى ينام.. ولا متى يصحو.. ولا متى يشرب قهوته.. ولا متى يضرب زوجته!

لا أدري شيئاً عن رياضته المفضلة.. ولا عن نوع أكله أو شربه.. ولا عن ذوقه في الألوان أو النساء!.. ولاعن رأيه في البحر.. والليل.. والموت.. والشعر..

لا يهمني نوربيجا أبداً.. ولم يكن ليهمني أي شيء مما يدور حوله.

وقد تظنون الآن أنني أحاول أن أدفع عن نفسي تهمة أي علاقة بهذا الضابط الذي لم يعد ضابطاً.. ولا جندياً حتى.. أو على الأخص لهذا الرئيس الذي لم يعد رئيساً.. بل لم يعد حتى مجرد مواطن كريم.. تظنون أنني أدفع عن نفسي هذه التهمة؛ خوفاً من أن يلحق بي شيء مما لحق به، أو يطالني سهم مما أصابه، فيأخذوني أنا الآخر إلى "هناك" مكتوف اليدين.. موثق الرجلين.. معصوب العينين.. ثم يفتحون لي محضرا في التحقيق!

متى كانت آخر مرة رأيت فيها نوربيجا اللعين وأين؟ ولماذا؟

وأهم ما في هذا السؤال اللئيم، هو هذه الـ"لماذا".

لأنها ستطال أسباب لقائي بنوربيجا.. فهي إما.. وإما.. وإما.. وإما المخدرات!

"إماءات" كثيرة صامتة لا أعرفها الآن، ولكنني حتماً سأعرفها فيما بعد.. أي أثناء التحقيق، وأنا لن أفصح عنها طبعاً، إن خرجت سالماً معافى؛ لأنها ستطال سمعة بعض رجال الدولة الشرفاء في أمريكا، ومن مصلحة الكون كله ألا تهتز ثقته في أولئك الرجال.. ولو

لم يبق من الحكاية كلها إلا موضوع المخدرات، فهي وحدها، ورب الكعبة! تهمة عظيمة سوف يذوي لها كل شيء في شجاعتي، إن كان سيظل في عظامي وفي دمي، تلك اللحظة، أي رمق من شجاعة!

مخدرات؟! حته واحدة!.. وَلْ!

رئيس دولة.. ذو الجاه وصاحب المهابة.. بين يديه مقدرات شعب، ومصير أمه، ثم ينكشف عنه الغطاء!.. فيجدونه يهرّب.. ويروج.. ويحقق الأرباح من المخدرات؟!

ولماذا المخدرات بالذات؟

إذا كان لا بد من الاتجار بشيء، فليكن أي شيء آخر –يا نوربيجا- عدا المخدرات!

إخس يا نوربيجا!

لا تغضب من توبيخي هذا..! فلا تنس أنك لم تعد "رئيساً"، وغير الرؤساء يا حبيبي نستطيع أن نأخذ راحتنا معهم للآخر، فنجرؤ ونقول لهم: "إخس"، وربما نتفوه بأكثر من "إخس". ثم إنني لاأدري حقيقة إن كنت بريئاً أو غير بريء!.. أنا أقول لك: "إخس" حسب وكالات الأنباءّ!.. ولا أظنني سأقف منك يوماً ما الموقف الحرج الذي سأعتذر فيه عن كلمتي هذه، فأنا أعرف أن هذه "الهيلمة" لن تنتهي إلى "فاشوش"، وإلا فأين ستخفي وجهها أمريكا العظيمة حين تنتهي قضيتك بالبراءة.. لا تكن مجنوناً يا نوربيجا!.. ووطِّن نفسك منذ الآن على أنك قد انتقلت من تاريخ الرؤساء إلى سجلات البؤساء. ومن قائمة العظماء إلى مزبلة العصابات والخارجين على القانون والأخلاق!.. أي نعم.. هكذا فجأة.. بعد أن

كان هؤلاء العسكر من حولك، يوم أمس، هم حرس الشرف الذين يعزفون لك السلام الجمهوري، ويغنون لك النشيد الوطني؛ تراهم الآن هم الذين يوثقون معصميك الجميلين بالسلاسل والحديد، دنيا عجيبة يا نوروييجا.

وبمناسبة الأخلاق!.. فيبدو أن الإنسان معرض للانحراف طيلة مراحل عمره.. لأنني عرفت أن الأمريكان حينما نصَّبوك رئيساً لجمهورية بنما، أو ساعدوك على ذلك، كانوا قد تأكدوا تماماً من "ملفك" الأبيض الناصع!.. ومن سيرتك العطرة ذات العبق النادر!.. فلم يروا فيك إلا الاستقامة وطيب الخلق، لكنك أنت الذي خذلتهم يا نوروييجا!.. "فشلتهم" أمام العالم!

حتّة وحدة مخدرات؟!.. إخس مرة أخرى..!.. يا نوروييجا. يا أخي فلتختر على الأقل طريقة غير هذه الطريقة الحقيرة للكسب!..

أجل، هناك طرق أخرى ملساء.. عفراء.. مصقول عوارضها.. تليق بمن هو في مقامك أو على مستواك، وهي حتماً لن تؤدي بك إلى السجن أو المحاكمة!.. فهناك غيرك من جرَّبها، وأخذ بأسبابها، فلم يزدد إلا حبوراً وسؤدداً وغنى وارتقاء في سلم المجد.

العمولات مثلاً يا نوروييجا.. هناك زعماء أفارقة ولاتينيون يأخذون العمولات، أنا لم أقل "رشوة" والعياذ بالله!.. أكرر مرة أخرى عمولات!..

المعونات مثلاً يانوريجا.. هناك زعماء يلهفون المعونات دون تردد.. ولن أقول: بلا خجل.. لأن الخجل لا يليق بالقادة والزعماء!.. الخجل للمساكين! والضعفاء!

انك لو أخذت العمولات.. أو لهفت المعونات لأسقط في يد أمريكا العظيمة!.. فهي إما ستغض الطرف عنك!.. أو أنها، تحقيقاً للعدالة، ستجد نفسها مكرهة على الدوران بعسكرها وطائراتها في أكثر من بلد، وعلى أكثر من زعيم غيرك، وهنا على الأقل لن تكون مكتوف اليدين وحدك ولا موثق الرجلين وحدك!.. ستمتلئ قائمة المحكمة الأمريكية بك وبغيرك!.. وستخرج شعوب كثيرة إلى الشوارع تهتف باسم أمريكا العظيمة!.

هناك أبواب أخرى مفتوحة للرزق يا نورييجا!

الحروب من الباطن مثلاً.. كأن "تتعاقد" مع دولة كبرى أو صغرى (الله أعلم) لإيذاء دولة أخرى.. أو لإثارة الفتن حولها.. أو لافتعال الخلاف معها.. أو لتشن عليها الحرب صراحة.. كثيرون فعلوا ذلك، فكانوا دائماً هم الأبطال!.. وهم أهل السلم والمحبة!

الإرهاب مثلاً.. اشتغل يا أخي بالارهاب.. وهذه، عموماً، شبكة ممتدة تربطها مصالح مشتركة.. وهي مكونة عموماً من رجال، هم دائماً عند كلمتهم.. وهم الوحيدون الذين إذا قالوا فعلوا.. والسموات لا تمطر عليهم –أيها الحبيب- إلا ذهباً وفضة!.. وكثيرون عملوا معهم، وحموهم، فظلوا رواد التحرر، وهم أعمدة أمن العالم!.

يا أخي دعك من هذا كله وهرِّب لك شوية فلاشا!.. عفواً.. لقد نسيت أنه لا يوجد عندكم فلاشا!..

أخ.. أموت وأعرف ما التهم الأخرى التي لن نتعرض بسببها إلى التحقيق معك!

أمـوت وأعـرف مـن هـم الرجـال الـذين سـتذكر أسـماءهم لـو ساءلوك في تلك التهم!

أظنهم سيكونون من الكبار على أية حال!.. وأنا لا أريد أن أندم على نفي صلتي بك، أو معرفتي بك؛ لأنني أعلم أنني حتى لو لم أفعل ذلك، فإنهم لن يأخذوني إليك!.. فهم دائماً لا يريدون إلاّ "البيه الكبير الذي هو أنت، يريدون رأس الأفعى.. أنت ولا سواك".

اعترف يا نوروييجا!

فأنت إن طال الزمان أو قصر.. ستعترف!

على الأقل، فهذا ما ستنقله لنا وكالات الأنباء..

وتموت أنت بدورك وتعرف لماذا - إذًا- نفيت صلتي بك أو معرفتي لك منذ بداية هذا الكلام! هذا حقك، وحق من شغلناهم بقراءة هذا الهذر! ستضحك ويضحكون حين تعرف السبب!.. إنه بسيط جداً!.. وتافه!..

إنني فقط أردت أن أؤكد نزاهة موقفي في معالجة قضيتك، التي هي قضية كل الرؤساء المستضعفين أمام جبروت الكبار، الذين يفعلون كل ما يحلو لهم في هذا الكون - بطوله وعرضه- دون وازع أو رادع!.. وهم ينتقون بعناية "المغضوب عليهم"؛ ليكشفوا الأغطية عن ملفاتهم.. أما الملفات الأخرى "لغير المغضوب عليهم"، فتبقى تحت الغطاء.. وقد تُكشف في وقت لاحق.. وقد لا تُكشف أبداً.. يعتمد! .. يعتمد على حجم الغضب عليهم ولواعجه ومسبباته! الله يستر!

أجل!.. في نفسي –يا أيها الناس- سؤال كبير هو: كيف يمكن أن يحدث هذا؟

لا.. ليس أن يشتغل رئيس دولة بالمخدرات، فهذا موضوع فرغنا منه منذ قليل، ولكن أن تغزو دولة دولة أخرى.. تخترق سيادتها.. تقتحم شوارعها بالعسكر والدبابات.. تغطي سماءها بالطائرات.. إنها تطارد أحد مواطني هذه الدولة.. عفواً رئيس هذه الدولة.. تخلع باب رئاسة الجمهورية.. تصعد الدرج.. تنثر ثريات القاعات بالرصاص.. تحطم زجاج النوافذ بالقنابل اليدوية وغير اليدوية.. تقتل الحرس أو تجردهم من أسلحتهم.. تقلب صينية القهوة التي كان سيحتسيها الرئيس.. تبعثر ملف الأوراق التي كان سيقرأها الرئيس.. تأخذ الرئيس.. تأخذه مكتوف اليدين.. وموثوق الرجلين.. ومعصوب العينين.. وإلى أين؟ إلى هناك.. إلى المحكمة.. وأين؟ في الدولة الغازية نفسها؟ وما التهمة؟ المخدرات!.. وأشياء أخرى مصموت عنها.. ولماذا مصموت عنها؟! لعدم إحراج بعض الرجالات الآخرين!.. أما الشعب فعليه أن يبقى بدون رئيس، أو أن يبحث عن رئيس آخر!.. فهذا شغله!

الدولة التي فعلت كل هذا من أجل مكافحة الخطر الذي يهدد العالم.. أي المخدرات.. لقد فعلت ذلك، من أجل العالم!.. فتصور لو بقي نوريجا في السلطة، وهو يشتغل بالمخدرات، أو يتعامل مع تجارها ومهربيها ومروجيها!.. تصور لو استمر نوريجا في هذا العمل الدنيء سنة أو سنتين!.. ماذا سيكون مصير أطفال المافيا الأبرياء في أمريكا نفسها؟ كيف ستكون أحوال المهربين المحليين في ظل هذا التدفق الذي أغرق السوق والبارات والحانات

والمواخير في طول أمريكا وعرضها؟ كيف سيستطيع أبرياء المافيا الوفاء بالتزاماتهم المتعددة في صناديق البر، والجمعيات الخيرية، ومنظمات حقوق الإنسان، والحيوان، والدفاع عن المرأة، وحقوق السود في جنوب أفريقيا، والبيض في موزمبيق؟! كيف سيستطيع هؤلاء البررة أن يموّلوا مؤتمراتهم لمواجهة الجفاف في دول القرن الأفريقي، وندواتهم لمحاربة المجاعة في بنقلاديش؟ وكيف سيستطيعون أن يحشدوا تظاهراتهم للوقوف في وجه الحروب المتوقعة بين العرب وأسبانيا، والتي ستشتعل لا محالة من أجل تغيير مكان الحوض الذي كانت ولادة بنت المستكفي تغسل وجهها فيه؟! أو بين فرنسا وألمانيا؛ لأن هؤلاء للأخيرين مازالوا يبدون تضايقهم من المكان الذي وضع فيه الجندي المجهول في أعلى الشانزليزي،ه ولا ندري ما سرّ هذا التضايق.

الأخ.. نوربيجا كان يظن أن المسألة مجرد سجائر وحشيش، وشوية حقن وبودرة للشم.. لا يا عزيزي، فعلى مثل هذه المسائل لا تُغزى الدول! ولا تنتهك السيادات.. ولا تبتذل الحريات.. إنما المسألة هي هذه الكوارث الأخرى والخسارات الكونية التي ألمحنا لها سابقاً، والتي ستنتج عن اشتغالك بالمخدرات، ومضايقة من هم قبلك في هذا الميدان، فغيرك يا نوربيجا كثيرون في هذا العالم يزرعون المخدرات، ويسقونها بالماء والدم، ويحصدونها ويعالجونها، ويصدرونها إلى أصقاع كثيرة في هذا العالم، ولم يحدث لهم أي أذى.. ولن يحدث لهم أي أذى!.. لأنهم لم يضايقوا أي أحد.. فرتّبوا أمورهم الترتيب الذي يليق!..

وغلطـــة الاتحـــاد الـــسوفياتي الـــذي اســـتنكر فعلـــة أمريكـــا واســـتهجنها وأدانهـــا، هـــي أنـــه غـــزا أفغانـــستان واقتحمهـــا، وانتهـــك سيادتها لأسباب أخرى غير المخدرات!.. الاتحاد السوفياتي دولة لا إنسانية، فهي تـدوس سيادة الـدول لأسـباب تافهـة جـداً، لـيس فيهـا المخدرات!..

ويبدو أن القاعدة الآن، هي أنه حين تتأكد الولايات المتحدة مـن أي دولـة فـي العـالم تـشتغل هـي أو بعـض أهلهـا بهـذا الأمـر الخطيـر.. نعنـي المخـدرات ومـضايقة النـاس فـي أرزاقهـم.. فالحـذار الحـذار؛ لأنهـا سـتغزوها.. وسـتبعث إليهـا جنـدها وطائراتهـا.. وهـي حتى الآن لم تتأكد سوى من بنما ورئيسها الخبيث نورييجا!..

أموت وأعرف كيف يمكن أن يحدث هذا؟

كيف يمكن أن يحدث أن أمريكا، بكل أجهزتها النافذة، لا تعرف من المشتغلين بالمخدرات سوى نورييجا؟ هل أن عالمنا الطيب بكل هـذا النقـاء، ونحـن لا نـدري؟ سـبحان اللـه!.. لا غرابـة فـي ذلـك.. فلربما أن هذه هي الحقيقة، وأننا نحن الذين نتوهّم.. إن أمريكا هـي وحدها المحيطة بكل شيء علماً!.. وفوق كل ذي علم عليم!..

والجيـد فـي هـذه القـضية كلهـا، هـو أن الـرئيس البنمـي الجديـد قد وصل إلى سدة الحكم، وهو يعرف أنه لن تسوّل له نفسه أبداً أن يفكر في أي أمر كان يفكر فيه سلفه نورييجا.. ونحن لا نقصد طبعاً أي شيء آخر والعياذ بالله غير المخدرات.. المخدرات الملعونة!

والجيـد فـي القـضية كلهـا أيـضاً، أن الـرئيس البنمـي الجديـد سيجد الفرصة القانونية الآن لتوظيف المال العام في استبدال ثريات

القاعات التي انتشرت.. وزجاج النوافذ الذي تحطم، وصينية القهوة التي انقلبت.. وملف الأوراق الذي تبعثر.. خلال اختطاف الرئيس السابق.. وسيصير القصر الجمهوري جديداً في جديد.. وما كان سيتحقق ذلك لولا الغزو المبارك الميمون!.. عاشت أمريكا!

نوريجا!

قبل أن ودعك وأتمنى لك محاكمة عادلة.. سأعترف لك بأمر مهم.. وهو أن اسمك جميل حقاً.. له إيقاع موسيقي خاص.. وهو لفرط حلاوته يصلح أن يكون أيضاً اسماً لامرأة جميلة سمراء.. فاتنة.. طويلة.. رشيقة.. مثيرة.. صدرها يتوثب.. وشفتاها تهطل بالحب والشراسة!

تصور للحظة فقط امرأة اسمها نوريجا.. حاول أن تناديها من بعيد وبصوت مرتفع: نوريجا!.. نوريجا!.. نوريجا!.. هل أحسست الآن بصدى هذا الاسم وموسيقاه؟!..

لو رزقت طفلة "أخرى" في حياتي، فلن اسميها، مع هذا كله، نوريجا..

أهل المريفق لن يوافقوا على ذلك.. وأنا أيضاً لن أوافق.

فهرست الأعلام

أ

إبراهام لنكلن 243، 246
إبراهيم السليمان 442
إبراهيم الطوق 451
إبـــراهيم العـــواجي 457، 459، 463، 464
إبراهيم عويس 477
ابـن إدريـس (عبدالله بـن إدريـس) 168
ابـن سـليمان (عبدالله بـن سـليمان) 312
ابن عباس (عبدالله بن عباس) 410
ابن فياض 168
أبو الطيب المتنبي 502
أبو سفيان (معاوية) 34
أبو عطاء السندي 433
أبو نواس (الحسن بن هاني) 503
أبوللينير 220، 222
أحمـــد الـــسباعي 115، 424، 425، 426، 470
أحمد الصالح 459
أحمد الضبيب 26، 27
أحمد خالد البدلي 23، 26
أحمـد بـن سـلمان 17، 19، 20، 21
أحمـد عبـدالمعطي حجـازي 29، 33، 35، 38
أحمـــد قنـــديل 168، 188، 189، 424، 425، 463، 470
أحمد محمد جمال 115
أحمد مصلح 187
إدريس الدريس 165
أدمون غالوا 131
أدونيس 475
أراغـــون (لـــويس) 64، 67، 68، 132، 245، 467
أربـال 39، 40، 41، 42، 220، 229
إرنست همنخواي 375
أغزافييه دو ساد 225
ألبير كامو 130، 132، 134

ألكسندر كوردا 428
إليزابيث 195، 196
إميـــل أجـــار 45، 46، 47، 48، 49، 50، 51
أنـدرياس بـادر بادرمـاينهوف 75، 77، 83، 84
أندريه بروتون 67، 132، 223، 245
أنطوان روكنتان 130
أنور عبدالمجيد الجبرتي 346
إيفون يابي 46
ايمانويل كانط 245

ب

بابلو بيكاسو 53، 54، 245
بابلو نيرودا 59، 61، 65
بازوليني 220
بالومـــا بيكاســـو 85، 86، 87، 88، 90، 91، 92
بدر الخريف 166
بـدر بـن عبدالمحـسن 93، 98، 100، 101، 102، 103، 104، 105، 106، 108، 186
بدورساليناس 417
برويل 223
بريجيت باردو 387، 429
بلزاك 220، 223
بهاء العمري 485، 486، 487
البواردي (سعد) 168
بول إيلوار 246
بول بافلوفيتش 47
بول بولمندو 121، 122
بومبيدو (جورج) 81، 82، 145، 146، 148
بيكاســـو (بـــابلو) 42، 53، 54، 55، 56، 64، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 222، 245

ت

تركي الدخيل 109، 110، 111، 112
تركي السديري 454
تشارلز ديكينيز 206، 375
توفيق نصرالله 165
تيسير الكوى 477

ث

ثابـت بـن سـلطان 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 134
ثابت بن قطنة 433
ثامر الميمان 187

ج

جابر (الشيخ) 267
جاسر الجاسر 165
جاك بريفير 264، 325، 342
جاك بريل 467
جبران خليل جبران 114، 118
جعثن 433
جعفر عباس 187
جمال عبدالناصر 115
جميل الحجيلان 392
الجهيمان (عبدالكريم) 168
جـورج بومبيـدو 81، 82، 145، 146، 148
جورج الخامس 64، 345
جورج مارشيه 82
جوزيه أنطونيو 199
جون بول سارتر 129
جون بولمندو 121، 122
جون دوبوفيه 139
جون غابان 121، 122، 128
جون هاستون 133
جيسكار ديستان 81، 82، 145، 146، 147، 149، 150

ح

الحـــازمي (منـــصور الحـــازمي) 26، 28، 273
حافظ الأسد 393
حامد مطاوع 470
حسان بن ثابت 30، 32، 33
الحسن الثاني 62
حسن حنفي 190
حسن الشاذلي 26
حسن عبدالحي قزاز 168
حسن بن عبدالله آل الشيخ 26
حسن قزاز 151، 169، 170
الحكم بن عبدل 433
حليم بركات 476، 477
حمـــد الجاســـر 151، 152، 154، 155، 156، 157، 159، 167، 169، 188، 455، 471
حمد الحجي 171، 176
حمد العرينان 363
حمد العسعوس 459
حمد الفارس 363
الحمدي (الرئيس) 75
حمزة شحاتة 168، 188
حمود البدر 318

خ

خالد بن صالح الشثري 452
خالـد الفيـصل 19، 179، 182، 183، 184، 185، 186

خزاندار 182
خلف الحربي 187، 190
خليل بن عبدالفتاح كردي 401، 402، 452
خوان رامون 72
خـــوان كـــارلوس 195، 196، 197، 199، 200

د

دادا 132
داود الشريان 165، 187
دايانـا 203، 204، 205، 206، 207، 208
دومينيك فرنانداي 411
دون كيشوت 263، 270
ديغول (شارل) 81، 134، 136، 145، 146، 148
ديكارت 245

ر

راضي 118
رشيد الراشد 477
رفائيل البترالبرتي 417
رفيـــق الحريـــري 209، 210، 211، 212، 214، 394
رناتوكورتشيو 77
روزا 50
رومان جاري 46
ريجيس دوبريه 467

ز

زايد السكيبي 363
زرادشت 245
زكي نجيب محمود 190

س

(المـــاركيز) ســـاد 215، 217، 218، 221، 222، 223، 224، 225، 226
ساعد بن سعد العرابي 277
سارتر (جون بول) 129
سالم ربيع علي 75
سانت ربوف 223
سبينوزا 245
سحيم عبد بني الحسحاس 433
سراج عمر 182
سزيف 412
سعد البواردي 168
سعد الحميدين 166
سعد الدوسري 166، 303
سعد الصويان 273
سعد العبدالله 261
سعد بن سليم (أبو بطين) 117
سعدي الطاهر 363

سعيد الشكيلي 116، 229
سعيد بن فالح 187
سكينة بنت الحسين 433
سلطان بن سلمان 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 254، 318
سلفادور دالي 54، 139، 241، 244، 246
سلمان بن عبدالعزيز 17، 231، 247، 248، 249، 252، 255، 392
سليم جاهل 438
سيمون دو بوفوار 129، 130

ش

شاتان بوغا 46
شارل (ديغول) 81، 134، 136، 145، 146، 148
الشامخ (محمد الشامخ) 26
الشعفي (محمد الشعفي) 26
شكسبير (وليم) 65

ص

صالح الأشقر 303
صالح الصالح 459
صالح العزاز 166
صامويل بيكيت 134
صامويل هنيجتون 325
صدام حسين 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 331، 332، 420

ض

الضبيب (أحمد الضبيب) 26، 27
ضياء الدين رجب 168

ط

طاغور 375
طه حسين 114، 118، 379، 481

ع

عاطف قبرصي 447
عبدالإله المؤيد 343
عبدالحليم رضوي 56
عبدالرحمن السبيت 273، 274
عبدالرحمن المنصور 166
عبدالرحمن بن سعد الراشد 364
عبدالرحمن بن محمد السدحان 452
عبدالرحمن بن مساعد بن عبدالعزيز 342
عبدالعزيز بن باز279، 281، 282

عبدالعزيز التويجري 273، 274، 275، 277، 278، 316
عبدالعزيز خوجة 392، 405
عبـدالعزيز الـسويد 165، 190، 191
عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل (الملـــــك) 183، 275، 276، 283
عبدالعزيز القريشي 373
عبدالعزيز المنصور 166
عبـــدالعزيز مـــشري 303، 304، 305
عبدالفتاح إسماعيل 77، 80
عبـــدالفتاح نـــاظر 307، 308، 309، 310
عبدالكريم الجيهمان 168
عبدالكريم الرازحي 187
عبدالكريم العودة 166
عبداللـه بـن إدريـس (ابـن إدريـس) 168
عبداللـــه الـــسعد 311، 312، 313
عبدالله الصيخان 165، 303
عبدالله القصيمي 277
عبداللـــه اللحيـــدان 361، 362، 364
عبدالله المطلق 343
عبدالله بن خميس 188
عبدالله بن رواحة 30، 32
عبداللـه بـن سـليمان (ابـن سـليمان) 312
عبدالله بن عباس (ابن عباس) 410
عبداللـه بـن عبـدالعزيز(الملـك) 274، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 372
عبدالله عريف 115
عبدالله بن قيس الرقيات 460
عبدالله مناع 375، 376
عبدالمجيد الزهراني 335
عبدالمجيد شبكشي 312
عبدالمجيـد بـن عبـدالعزيز 343، 346
عبدالمحسن هلال 190
عبدالملك بن مروان 449
عبـدالهادي الـسعدي 347، 349، 350، 351، 352، 353، 354
عبـدالوهاب العيـسى 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370
عبده خال 305
عثمان العمير 274

عدنان بغجاتي 416
عدي صدام حسين 258، 266
عزت إبراهيم 261
عزيـز ضـياء 375، 376، 377، 379، 380
علي الخرجي 189
علي العميم 165
علي بن سراج 116
علي محمود طه 464
عمر بن أبي ربيعة 410
عمر بن الخطاب 33، 309
عمر بن عبدالعزيز 258، 260
عمران العمران 451

غ

غـــازي القـــصيبي 305، 309، 459
غاستون موران 427
غـــالا 241، 242، 243، 244، 246
غاليمار 130
الغشمي (الرئيس) 75

ف

فاتسلاف هافيل 507
فانغوغ 54
فرانسوا ميتران 81
فرانـــسواز جيـــرو 86، 87، 88، 92، 147
فرانـــسواز ســـاغان 381، 382، 383، 384، 385، 387، 389، 390
فرانسواز لوفا 46
فرانكـــو (الجنـــرال) 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 246
الفرزدق 433
فرناندل بلندوهومن 122، 148
فرنـاي 122، 124، 125، 127، 128
الفريد دوموسيه 224
فريدريكا 195، 196
فلوبير 220، 463
فهـــد بـــن ســـلمان 339، 400، 401
فهد العبدالجبار 263، 264
فهد العبدالكريم 165
فهد بن عبدالعزيز (الملك) 236، 391، 392، 403، 407
فهد العريفي 454
فولتير 254، 412
الفونس الثالث عشر 195
فيروز 415، 416، 418

فيـصل بـن فهـد بـن عبـدالعزيز 403، 404، 405، 407
فيكتور (هوغو) 223
فيكتور جانز 54، 55

ق

قبيلة بني الحارث 312
قبيلة ثقيف 117
قسطنطين 195، 196
قيس بن الملوح 410
قيشني (كاتب) 225

ك

كازانوفـــــا 409، 410، 413، 414
كانط (ايمانويل) 245
كثير عزة 460
كعب بن مالك 30، 32
كلود بيكاسو 86، 87، 88
كلوديا 433
كنيدى (جون) 76

ل

لوجستاف فلوبير 463
لوركـــــا 66، 67، 415، 416، 417، 418
لويجي كومنيسيني 414
لـــويس أراغـــون 64، 67، 68، 132، 245، 467
لويس الخامس عشر 222
لويس فلبي 433
ليفى ستروس 133
ليني (الأمير) 411
ليوتار 350
ليوفيريه 467

م

مؤيد الجنابي 419، 420، 421
ماثيلدا 71
مارســـيل بـــانيول 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430
مارسيل غرا 427
مارك توين 65
ماري إلينا 431، 433
المازني 264
ماكس أرنست 246
المتنبي (أبو الطيب) 502
محمد بن إبراهيم بن جبير 281، 435، 439، 440
محمد أبو عمير 165
محمد أحمد باشميل 115
محمد أركون 475، 476
محمد آل الشيخ 255

محمد برادة 405
محمد البليهيد 251
محمد جبر الحربي 166
محمـــد الحمـــد الـــشبيلي 443، 445
محمـــد الحميـــدي 451، 452، 454
محمـد حـسن عـواد 115، 188، 463
محمد حسن فقي 470
محمد حسنين هيكل (هيكل) 275
محمد خاتمي 329، 330
محمد الخنيفر 189
محمد السماعيل 363
محمد الشامخ 26
محمد الشعفي 26
محمد الفقيه 120
محمد الماغوط 191
محمد بن سعود 343
محمد سيد أحمد 190
محمد بن شريفة 405
محمد بن صالح 454
محمد عبده 186
محمـد عبـده يمـاني 249، 469، 470، 471، 472
محمـد عفيفـي مطـر 475، 476، 478، 479، 480
محمد علوان 165، 187، 190، 192
محمد علي (حاكم مصر) 449
محمـد عمـر توفيـق 115، 481، 482، 483
محمد بن عيسى 92
محمد فريح 451
محمد بن فهد 401
محمـد فهـد العيـسى 457، 458، 459، 460، 461، 462
محمد معروف الشيباني 20
محمد بن نايف (الأمير) 255
محمد النويصر 356، 373
محمد اليامي 165
محمود أحمد نجاد 330
محمود إسماعيل الصيني 26
مدام بوفاري 463
المستكفي 514
مشعل السديري 187، 190
مـصطفى لطفـي المنفلـوطي 114، 118
مصطفى ناصر 211
معاوية (أبو سفيان) 34
منـصور الحـازمي (الحـازمي) 26، 28، 273
منصور الكيخيا 485
منغستو 80، 83

المنفلـوطي (مـصطفى لطفـي) 114، 118
موريـاك 134
موريس بلانشو 131، 134
موريس بون 46
موسى الصدر 486
مونتين 411
مونيكا 381، 382
ميتشي 433
ميخائيل نعيمة 114
ميشيل جوبير 437، 438
ميغويل أنجل ستورياس 64

ن

ناصر السلوم 489، 490، 491، 492، 493
ناصر بن حمد بن غيث 276
نــزار قبــاني 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504
نورويجـــــا 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516
نيتشه 245

هـ

هاشمي رفنسجاني 329
الهان ميمارونحلو 143
هتلر 246
هشام ناظر 309، 313
همبار الأول 76
هوغو (فيكتور) 223
هيكل (محمد حسنين هيكل) 275

و

وادلستن 411
واليريان يوروفكزبك 90
وليم شكسبير 65
وليم ماكنلاي 76

ي

ياسر هواري 437
يزيد بن معاوية 34، 46
يوسف الخليل 366، 367

فهرست الأماكن

أ

الاتحاد السوفيتي 78، 515
أثينا 90، 195
أثيوبيا 78، 83
أسبانيا 62، 66، 69، 70، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 224، 239، 240، 245، 246، 413، 514
الإسكندرية 361، 362، 363، 371
أصيلة 62، 475
أفغانستان 330، 398، 420، 515
ألمانيا 435، 514، 84، 229، 230، 269
أمريكا 59، 69، 76، 143، 169، 211، 212، 269، 270، 271، 281، 326، 327، 332، 358، 364، 400، 401، 460، 473، 501، 505، 508، 509، 510، 511، 514، 515، 516
امستردام 410
أندلس 66، 405
أنغولا 78
أوربا 78، 82، 84، 195، 248، 281
إيران (بلاد فارس) 23، 271، 320، 329، 330، 331، 398
إيطاليا 76، 78، 413

ب

باريس 29، 39، 40، 61، 62، 64، 65، 67، 121، 124، 125، 126، 139، 144، 145، 148، 203، 204، 205، 208، 246، 247، 248، 250، 251، 313، 345، 359، 384، 388، 392، 403، 410، 427، 428، 429، 430، 437، 438، 451، 452، 475
باكستان 320، 329

البحرين 355
البرتغال 252
بريطانيا العظمى 23، 54، 195، 203، 204، 207
بغداد 257، 258، 259، 260، 263، 331
بلجيكا 435، 439
البلقان 320
البندقية 410، 501
بنما 505، 507، 510، 515
البوسنة والهرسك 398
بوينس إيرس66
بيروت 110، 211، 394

ت

تبوك 165، 343
تشيكوسلوفاكيا507
تشيلي 61، 62، 64، 65، 69
تكريت 260
تكساس243

ج

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية343
جامعة السربون 145، 451
جامعة القاهرة 223
جامعة الملك سعود 23، 26، 249، 254
جامعة باريس الثانية 438
جامعة كولوبيا برنيستون 143
جامعة نيس 356
جدة 119، 234، 312، 343، 344، 345، 359، 363، 472، 473، 493
الجزائر 135، 136، 405، 406، 435
الجنادرية 182، 184، 273، 274، 315، 316
جنيف 410

ح

الحجاز 376، 360، 470، 472

د

الدمام 228
الدوحة 62، 356،

ر

الرباط 404
روما 90
الرياض 23، 27، 234، 247، 252، 253، 255، 342، 309، 303، 278، 346، 356، 363، 400، 406، 348، 451، 545،

471، 491

س

ساحل آزور139
ساندييغو 67
ستكهولم 61
السند 228
سوريا 54، 360
سينتياغو 65

ش

الشانزليزيه 140، 247، 248

ص

الصور (قرية) 116
الصين 320

ط

الطائف 113، 114، 115، 116، 117، 440، 492

ع

عدن 77، 78، 80
عسير 48، 253، 471
عمان 115، 398، 419، 421

ف

فرنسا 45، 46، 47، 81، 82، 86، 88، 130، 132، 134، 136، 137، 146، 150، 223، 239، 240، 320، 359، 364، 403، 424، 425، 435، 467، 514
الفلبين 152، 278
فلورانسا 418
فندق فلسطين 259
فيينا 410، 259

ق

القاهرة 23، 28، 56، 223، 251، 277
قطر 319، 356، 360، 398

ك

كاتالونيا 245
كاليفورنيا 86
كريستي بنيويورك 54
كوريا الجنوبية320
الكويت 261، 262، 263، 264، 267، 268، 328، 332، 398

ل

لبنان 209، 210، 211، 212، 213، 458
لندن169، 251، 495، 497
لوس أنجلوس 243
لوكوربي 320
ليبيا 271، 320

م

ماليزيا 320
مدريد 410، 66
المدينة المنورة 33، 234، 254، 288، 343، 344، 491
مرسيليا 424، 427، 428، 430
المريفق 116، 117، 227، 228، 230، 491، 492، 493، 505، 516
مزار شريف 330
المغرب 33، 62، 360، 404، 405، 435
مقهى المفتي 113، 114
مكة المكرمة 33، 234، 254، 288،
المكسيك 69، 243
المملكة المتحدة 320
المنطقة الشرقية 228، 400، 401
مونت كارلو 427
ميسان 228

ن

نفق ألما (بباريس) 208
النمسا 229، 230

هـ

هافر 130
الهند 228

و

ووترقيت 201

ي

اليابان 212، 320، 501
اليمن 77، 80، 81، 398، 421
اليونان 76، 195، 196